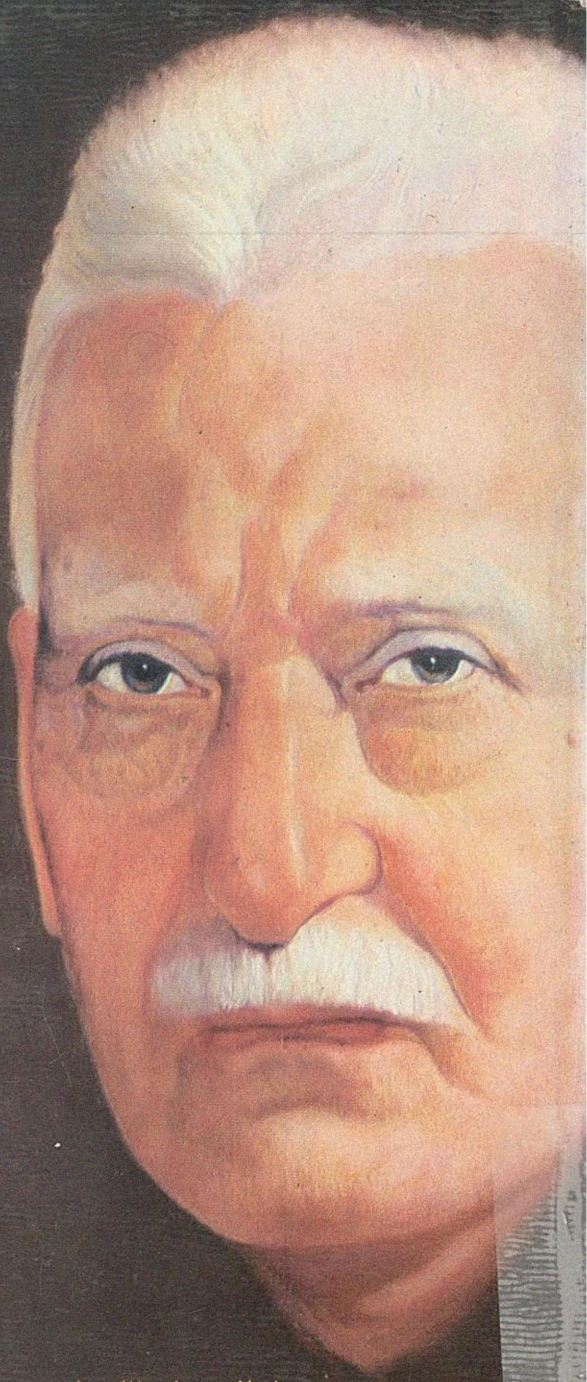
المجموعة الكاملة

لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد



المجلد الحادي عشر

العقائد والمذاهب

دار الكتاب اللبناني - بيروت

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الحادي عشر

العقائد والمذاهب

يحتوي على

أبو الأنبياء

حياة المسيح

عقائد المفكرين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقياً : كتالبان - بيروت
ص - ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٧٨

عباس محمود
العقاد

أبو الأنبياء

دار الكتاب اللبناني - بيروت

خليل الرحمن وخليل الإنسان

في العالم اليوم أكثر من ألف مليون انسان يدينون بالموسوية والمسيحية والاسلام ، وهي الأديان التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وهم الأنبياء الثلاثة الكبار الذين ينتمون جميعاً الى الخليل ابراهيم . . .

لا جرم يسمى خليل الرحمن . . .

ولا جرم تتجمع الجهود كلها للبحث عن تاريخه المجهول في أغوار الأرض ، فان علم الأحافير لم ينحصر في البحث عن تاريخ أحد قط كما انحصر في البحث عن تاريخ أبي الأنبياء ، وما تجردت البعوث الى العراق وفلسطين ومصر لسؤال الأرض عن مكنون من أسرارها كذلك السرّ المكنون ، الذي ينطوي على أعمق أسرار الروح والضمير . . .

قال منقِّب من أولئك المنقبين الذين عُرفوا باسم الحفريين : ان الناس قد بدأوا بالحفر في الآثار طلبا للذهب ولقايا الحلى والجوهر ، ثم عرف الناس شيئا أنفس من تلك المعادن يبحثون عنه ويتهافتون على استخراجه وتحصيله : وهو التاريخ المقدس ، أو تاريخ المعاني العليا التي ترتفع به الى السماء ، ولها مستودع في جوف الرغام .

وكل شيء يغليه الانسان يحفزه الى ذلك السر الذي تقسمته الأرض والسماء . . .

فالى جانب البحث عن أصول العقائد يبحث المنقبون في تاريخ الخليل عن فتوح لا نظير لها في تاريخ الانسان . . .

وقد أكثر المؤرخون من القول في أنباء الفتوح التي غيَّرت مجرى التاريخ أو غيرت علاقة الانسان كله بالعالم الذي يحيط به ويحتويه . . .

ولكن المؤرخين لا يستطيعون أن يذكروا فتحاً من تلك الفتوح أعظم عملا وأبقى أثراً في تاريخ الانسان من تلك الفتوح التي اقترنت بدعوة الخليل . .

ان دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد ، واقترنت بميزان العدل الالهي ، واقترنت باعلاء العبادة الى ما فوق الطبيعة والجثمان .

وهذه هي الفتوح التي لا نظير لها فيما تحدث عنه المؤرخون من فتوح الحياة الانسانية ، منذ أقدم عصورها الى العصر الحديث .

لا نظير لها فيما فتحه الانسان من هذا العالم حين سخر النار أو سخر الحيوان أو سخر الكهرباء ، أو سخر الذرة على جلالة فعلها وضآلة قدرها ، وهي أقوى المسخرات فيما عرفه الى اليوم .

هذه فتوح فيما يملكه الانسان . . .

أما تلك الفتوح ففيها ملاك الانسان كله ، فيما يعلمه وما لا يعلمه ، وفيما يبديه وفيما يخفيه .

تلك فتوح غيرت عالم الانسان الظاهر وعالمه الباطن ، وليس قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادات سبقتها ، وان كانت العبادة الفضلى غنما يغليه من يقتنيه ، ويفديه بكل ما يعيه وما لا يعيه .

كلا . . بل هي عبادة فضلى وفكر فاضل ونظر جديد الى الكون والى الانسان وبني نوعه في وحدته وفي اجتماعه .

هي فتوح تصحح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الانسان بنفسه وبدنياه . وتحسب من أجل ذلك في سجلات العلم ورياضات الخلق وقوانين الاجتماع .

ان حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بإرادة ، ويتسلّط عليها غيره بارادة تنقضها وتمضي بها الى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف

مؤمن بالوحدانية ، وان لم تبلغه دعوة الأنبياء . . .

أما ميزان العدل الالهي فهو الـذي اقـام المسـاواة بـين النـاس على دعامتهـا الراسخة . وكل ما عداها من دعامة فانما هي دعائم القوة ممن يقدر عليهـا ، سواء اقتدر عليها بسطوته الباطشة أو بتأليب الطوائف والجماعات .
وما كان للعدل بـين النـاس من سبيل وهـم يقيسـون بعضهـم الى بعض ، ويطلبون المساواة بين أقوى الأقوياء منهم وأضعف الضعفاء . . .

فاذا ارتفع الميزان الى اليد الالهية فهذا القوي مهما يبلغ من القـوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضـعف ، ندّان متسـاويان ، ومخلوقـان امـام خالـق واحد . مازاد من قوة احدهما فهو من عطاء ذلك الخالق ، وما نقص من قوة الاخر فهو من قضائه ومن دواعي رحمته وبلائـه ، واليه المرجـع في حسابـه أو جزائه ، فلا يدخله أحد في حساب غير ذلك الحساب ، ولا يعرضه أحد على ميزان غير ذلك الميزان .

وقد ارتفع الانسان كله حين رفع عبادته من الطبيعة الى ما فوق الطبيعـة ، وحين أصبحت حاجته الى المعبود شيئا أرفع من مطالـب الابـدان وضرورات الغرائز والطباع . .

كان أقل من الطبيعة فأصبح أعظم منها . . .

كان مسلوب الحيلة أمامها ، فأصبح له من فوقهـا مرجـع لا يعنيه غضبهـا ورضاها . . .

ولم يكن له الا أن يخضع لها أو يحتال عليها . . .

فأصبح له أن يواجهها ويقف أمامها ، بل على أكتافها . .

أصبح له كيانه الأدبي في وجهها . . .

وليس الفتح المبين في هذا أنه يسخِّرها ويستفيد منها ، بل الفتح المبين أنـه يدينها ويدين سلطانها ، وأنه يرى فيها ما يحسن ومالا يحسـن ، ومـا يرضـاه ضميره ومالا يرضاه .

وان الواقع الذي لا مرية فيه أن الانسان قد ملك الذرة الصغرى فملك من الطبيعة قوتها الكبرى ، وانه خليق بهذه القوة أن يضلّ ويطغى ، ولكن اليقين

الحق أنه لن يكبح ذلك الطغيان من نفسه بقوة الطبيعة صغراها وكبراها ، وانما يكبحه ـ اذا قدر له أن يكبحه ـ بسلطان من ذلك الفتح المبين ، ما بقي له ومازاد عليه بعد آلاف السنين .

هذه الفتوح قد عرفت جميعا قبل عصر الخليل ، ولكنها لم تقترن بدعوة قط في عالم النبوة قبل دعوته عليه السلام .

وهذا هو الفارق المهم في العواقب وفي مراحل التاريخ .

أو هو الفارق بين دعوة النبي وبين غيرها من الدعوات .

فالتوحيد لم يكن مجهولا قبل عصر ابراهيم ، وكذلك ميزان العدل الإلهي ، وكذلك عبادة « الحق » فوق الطبيعة وفوق مطالب الأبدان .

كان المصريون الأقدمون يؤمنون بالاله الواحد ، وكان من معتقداتهم أن للروح في العالم الاخر ميزانا يقدر لها الحسنات والسيئات ، وكانت كلمة الله هي القوة التي تفعل ما تريد .

ولكنها لم تكن دعوة نبوة ورسالة ، ولعلها جاءت في زمن لم تتهيأ فيه النفوس للعلم بالوحدانية ونبذ الشرك وتعدد الأرباب .

وكانت في جملتها دعوة كهان يسترون ما يعلمون ولا يبوحون للناس بأسرار الديانة الا بمقدار .

وكان ميزان السماء يزن لكل روح حسناتها وسيئاتها ، ويحسب الملوك من الأرباب الذين يتصرفون في الأرواح خلال الحياة وبعد الممات . . .

ولما جهر « اخناتون » بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله صدرت دعوته من قصر الدولة كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث أن بطلت في قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وقوانين يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ، لأنها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والعادة .

وكان أناس من الحكماء يعرفون الله كأنهم يعرفون حلا مقنعا لمسألة الوجود ، أو كأنهم يعرفونه خالقا للكون ، ولا يزيدون .

ومما لا ريب فيه أن عقيدة التوحيد قد سرت من مصر في صورة من الصور الى بلاد المشرق ، ومنها بلاد البحر الأبيض ووادي النهرين .

ومما لا ريب فيه أنها كانت سر الخاصة وذوي الرئاسة في المحاريب والقصور ، وان تعدد الأرباب قد سرى منها كذلك الى الشعوب سريان العرف والمحاكاة . . .

أما الاله الواحد الذي اقترن بدعوة ابراهيم فلم يكن حل مسألة ، ولم يكن سر أحبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد .

بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهي ، واليه المرجع والمآب .

كانت عبادته « مسألة حية » تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوي عنها زاوية في الكون ولا في ضمير الانسان .

كانت دعوته صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لغزا يخفى وتتحاجى به العقول .

كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهي صحبة الخلود الذي لا يعرف الفناء .

ولم تصبح كذلك قبل رسالة النبوة حين انبعث بها النبي أبو الأنبياء . . . .

حين بشر بها ابراهيم . . .

وما كان لنبوة واحدة أن تؤدي رسالة التوحيد وتفرغ منها في عمر رجل أو عمر جيل . . وانما هي نبوة بعدها نبوات . . . .

ولو كانت دون ذلك خطرا لكفى أن تقوم بها دعوة واحدة ، وأن تتكفل لها ببقائها ، ولكان بها الغنى عن التعقيب والتذكير . . . .

ولكنها على خطرها هذا لا تتم في رسالة واحدة ، ولا تستغني عن مرتقى بعد مرتقى ، ثم عن قرار بعد قرار .

وعاش الخليل ما عاش والتوحيد في قومه مشوب بالشرك والضلال . وفارق الدنيا والخلفاء من بعده يتقدمون وينكسون ، ويستقيمون وينحرفون ، ولم ينقض من بعده عهد الا وهو ينبيء الناس أنها نبوة تتلوها نبوات ، وأنها أمانة موروثة في أعقابه لا تنقطع في جيل ، ولا بد لها من ورثة أبرار . . . .

ومن شكّ في ذلك فانما هو شاكّ في بداهة العقل وضرورة الزمن وحكم التاريخ ، فوق الشكّ في الكتب والأنبياء . . .

وانما المستحيل في العقول ان تنفرد رسالة ابراهيم في أعقابه فلا تأتي بعدها رسالة في أولئك الأعقاب .

ولا دليل في العقول على نسب الأعقاب أقرب من هذا الدليل ، ولا دليل على المرسلين منهم أثبت منه عند النظر القويم .

فلو مضت رسالة ابراهيم بغير رسالة بعدها لكان هذا هو العجب المردود ، ولو قام بتلك الرسالات التالية فرع من غير أصله ، ونبت من غير معدنه لكان هذا أعجب وأولى بالرد والارتياب .

ولا يعقل العقل الا أنه نبي أبو أنبياء ، كما كان وكما ينبغي لا محالة أن يكون . . . وكم بين توحيد الأعقاب وبين التوحيد كما تلقاه عصر الخليل من بون بعيد . انه لأبعد من مسافة الزمن بينهما ، وليست مسافة الزمن بينهما بالشوط القريب . . . ولكن الذي يبدأ لا بد أن يبدأ ، ولا بد أن يبدأ من خطوته الأولى ولا يبدأ من منتهاه . . .

والى ذلك المبدأ يرجع اليوم ألف مليون من بني الانسان أو يزيدون ، لا أول لهم في قداسة الحياة غير ذلك الأول ، ولا رائد لهم في موازين العدل والصلاح قبل ذلك الرائد ، ومن خلف على أعقابه من الرواد .

ومن ذلك المبدأ شخص ذلك الركب الحاشد في طريقه الى الله ، وتقدم من اسم الله ذي العرش الى اسم الله الرحمن الرحيم .

انه لا جرم خليل الرحمن . . وانه لا جرم خليل الانسان . . .

وسيرته في الصفحات التالية هي سيرة الخليلين ، على هدى الأسلاف ، وعلى هدى الأعقاب . . .

وعلى هدى الأسلاف والأعقاب ينبغي أن تكتب كل دعوة عامة ، وأن توصف كل بعثة نبوية خوطب بها الناس على اختلاف المدارك والمعارف والطباع . . .

فنحن لا نتصور الدعوة في صورتها الحقيقية الشاملة الا اذا عرفنا صورتها في نفوس المخاطبين بها ، سواء منهم من فهم أو من لم يفهم ، ومن أحسن

الاعتقاد أو أساء .

وعلى قدر العلم بالضلالة نفهم عمل الهداية التي أزالتها أو عالجت أن تزيلها بما كان لها من الجهد والوسيلة

فلا غنى في دراسة تاريخ الخليل عن الاحاطة بما ورد عنه وقيل فيه من شتى المصادر فى مختلف البيئات والعصور .

و ينفعنا الخط ا كما ينفعنا صواب .

بل الخطأ هنا من الصواب أنفع ، لأن رسالة النبي قائمة على ازالة خطأ وتبيين الضلالة فيه ، فعلى قدر ما نعلمه من جوانب الخطأ وخباياه نعلم القوة التي تتصدى له وتصلح لعلاجه والغلبة عليه .

ولهذا نود أن نلم في كتابة هذه السيرة بكل طرف ، وأن نذهب فيها الى كل وجهة ، ولا نقتصر على المعتمد منها في مذهب واحد أو نحلة واحدة ، سواء عرضنا لها من ناحية الأديان أو من ناحية المباحث والاراء التي رددتها التواريخ وكشفت عنها البعوث الحفرية من القرن الثامن عشر الى الان .

ان منهج البحث تمليه علينا طبيعة البحث نفسه في الزمن الذي نكتبه فيه . ونحن ندرس سيرة الخليل كما وضحت لنا منذ فاتحة القرن العشرين .

ولقد أثار القرن العشرون في هذه السيرة مشكلات لم يعرفها الأقدمون وأتى فيها بمعلومات من بطون الحفائر وخفايا الآثار ، لم تكن في حساب احد ممن عرضوا لهذه السيرة ، قبل مائة سنة .

من هذه المشكلات التي أثارها القرن العشرون وجود ابراهيم في التاريخ هل هو شخصية تاريخية ، أو هو صورة من صور الخيال تجمعت حولها متفرقات العقائد من هنا وهناك ؟ . . .

ومن المشكلات التي أثارها هذا القرن علاقة ابراهيم بمكة وبيت الله الحرام : هل ذهب ابراهيم الى مكة . وهل كانت له علاقة ببيت الله الحرام فيها أو تلك علاقة لم تُفهمْ على سند صحيح من الواقع ، ولم تنجل الدراسات العصرية عما يؤيِّدها بالدليل المقبول . . .

ونحن نكتب هذه السيرة وأمامنا هذه المشكلات من مصادرها القوية ، وأمامنا

كذلك أسبابها وأسباب الاعراض عنها والرد عليها . . . .

ونجملها بداءة فنقول انها لا تقوم على سند من العلم سواء كان الباحث الحديث ينفي وجود ابراهيم جزما ويقينا أو يشك في وجوده ولا يقطع باليقين الى جانب النفي أو جانب الاثبات . . .

فالذين ينفي وجود ابراهيم جزما ويقينا لا يستند الى حجة واحدة من حجج العلم ولا يزيد على مجرد الانكار . والذي يشك يبني شكه على أسباب لا يعتبرها العلم ولا العقل من أسباب الشك في وجود شيء . . .

لأنه يستند في شكه الى كثرة الأعاجيب والخوارق والأساطير التي تخللت سيرة ابراهيم كما رواها الأقدمون .

ومثل هذا السبب لم يبطل وجود شيء قط وان كانت أعاجيبه وخوارقه وأساطيره مما ترفضه جميع العقول في العصر الحديث .

فهذه الشمس بضرب بها المثل في الظهور والثبوت ، وليس أكثر من الخرافات التي رويت عن مسرقها ومغربها وعن نشأتها وحركتها ، وعن الديانات التي تقدسها وتفرض عبادتها ، وليس أكثر في العصر الحاضر من الخلاف على عمرها وحقيقة تكوينها وأسباب حرارتها وطبيعة مادتها ، لأنها هي طبيعة المادة على العموم .

والهرم الأكبر لا يمتري في وجوده أحد ، ولم يُذكر عن ابراهيم بعض ما ذكر عنه من الأسرار .

ومن الزراية بالعلم أن يقوم الشك على غير أساس . . .

فليست الحقيقة خصما لنا في محكمة نقول له : تقدم أنت بجميع أسانيدك والا أنكرنا عليك دعواك . . .

وانما الحقيقة قضيتنا نحن وليست بدعوى خصم يلزمه الدليل ولا يلزمنا . . فما لم يكن للشك سبب فهو زراية بالعلم وزراية بالعقل وزراية بامانة التفكير . . .

ومن السخف أن نلزم الأقدمين بالبرهان على سيرة ابراهيم ولا نلزم به أنفسنا ، كأنهم أصحاب الشأن كله ونحن ثمة غرباء متفرجون .

فلا موجب للجزم بانكار وجود ابراهيم ولا للشك في وجوده ، اعتمادا على كشف جديد من كشوف العلم في القرن العشرين .

أما علاقته بمكة والبيت الحرام فالأمر فيها أعجب من أمر المختلفين على « شخصيته التاريخية » .

لأن الذين ينكرون تلك العلاقة لم يدعوا لها سندا من العلم ولا من الكشوف العصرية ، بل هم يعتمدون على بعض المصادر الدينية للجزم ببطلان المصادر الأخرى .

أو هم يعتمدون على المصادر الاسرائيلية للجزم ببطلان المصادر الاسلامية ولا شأن للعلم الحديث هنا . . بل هو تمييز رواية دينية على رواية دينية تخالفها ، ولا محل لاقحام العلم العصري بين الروايتين .

بل هناك محل للتحفظ الشديد في قبول الرواية الاسرائيلية ، لأنها امتزجت بسياسة الملك والتنازع عليه ، وكل دعوى المملكة الاسرائيلية في الزمن القديم قائمة على الأسلوب الذي كتبت به سيرة الخليل في أيامه الأخيرة على التخصيص .

هذه نظرتنا الى المشكلات التي طرأت على سيرة ابراهيم في القرن العشرين ، وهذه نظرتنا الى المعلومات التي أتى بها من كشوف وأحافيره وتعليقاته ، ومبلغ حقها في تمحيص السيرة انها تفسر بعض الغوامض ولكنها لا تنفي « الشخصية التاريخية » ولا توجب الشك فيها بحجة علمية ، وسنرى أن المقابلة بين المعلومات الحديثة وروايات الكتب الدينية وروايات الأقدمين تؤدي لنا عملا غير النفي والانكار والتردد بين الشك واليقين : تؤدي لنا عمل الغربال والمصفاة ، ولا تنفي غير الحثالات والقشور .

ولهذا سنرجع في سيرة الخليل الى جميع مراجعها .

سنرجع الى كتب الأديان التي لها علاقة بسيرة الخليل ، والى كتب التواريخ وروايات الأقدمين ، والى كتب الباحثين في الحفائر والآثار ، ولا سيما الكتب التي تعمد مؤلفوها أن يبحثوا في مواطن السيرة ومظانها من الألف الثالثة قبل الميلاد ، بين آثار العراق وفلسطين ومصر والجزيرة العربية وغيرها من مظان السيرة التي تتاخم تلك الأقطار .

والأديان التي نرجع الى كتبها ومصادرها هي الاسرائيلية والمسيحية والاسلام والصابئة ، وهذه الديانة الأخيرة أقل الديانات ذكرا للخليل في كتبها ، ولكنها احتفظت ببقايا كثيرة من عقائد البابليين وأخذت من الديانات الوثنية والكتابية في فارس والعراق وفلسطين وجزيرة العرب ، فهي مرجع لا يهُمل عند الكلام على دعوة تتصل بجميع هذه الديانات . . .

ومنهجنا في الأخذ من المراجع أن نقتبس ما جاء في كتب الدين ثم نردفه بتفسيره من كلام أهله وكلام الثقات عند اصحابها ، حتى نستخلص منها جميعا لباب السيرة فيها ، ونستوفي منها ما تعطيه في موضوعها .

وننتقل من كتب الأديان الى التواريخ التي تعتمد عليها وعلى المأثورات المروية ، ثم نشفع ذلك بمحصول التاريخ الحديث الذي استنبطه الحفريون وعلماء الآثار من البحث في المراجع الاثرية .

ولا ننوي أن نقحم على هذه المراجع تعليقا لا يستلزمه سياقها ، بل نمشي مع كل مرجع مقبول أو غير مقبول حتى يقيم لنا معلما هاديا من معالم الطريق ، وقد يجيء المعلم الهادي من طريق الرفض كما يجيء من طريق القبول ، فان الذي يقول لنا : لا تسيروا من هنا ، كالذي يقول لنا سيروا من هناك ، وكلها صالح للهداية واجتناب الضلال .

فاذا أوضحت هذه المعالم آخر الأمر لم تبق الا الخلاصة التي يصح التعويل عليها ، وعلى قدر طول الطريق يكون القصد في ختامه ، لأنه الختام الذي تعددت من أجله المعالم والأعلام .

ونحن على رجاء مع القارىء أن تأتي هذه الخلاصة مصفاة من الشوائب والدخائل ، وأن نستخرج منها صفة الخليل كما صحت في النظر بعد المقابلة بين مصادرها وأجزائها ، ونترك منها ما لا سبيل الى القول فيه على بينة وعلى ضوء هذه المعلومات مجتمعات .

ونحن مبتدئون بالباب الأول فيما يؤخذ من كتب العهد القديم ، ثم تابعوه بما يؤخذ من كتب الأديان على الترتيب . . .

البَابُ الأوّل

المراجع الاسرائيلية

أفاض سفر التكوين في سيرة ابراهيم عليه السلام ، وأثبت مولده في « أور » الكلدانيين ، ورفع نسبه الى سام بن نوح ، فهو ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح . .

وذكر أبناء تارح فقال انه ولد « ابرام وناحور وحاران ، وان حاران ولد لوطا ومات قبل أبيه في أرض ميلاده أور الكلدانيين » .

وان ابرام وناحور اتخذا لهما زوجتين ، اسمهما ساراي وملكة بنت حاران . . أما ساراي فهي بنت تارح من زوجة أخرى كما جاء في الاصحاح العشرين على لسان ابراهيم : « وبالحقيقة أيضا هي أختي ابنة أبي غير انها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة » . .

وجاء في الاصحاح الحادي عشر أن « تارح أخذ ابرام ابنه ولوطا ابن حاران ، وساراي ، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان ، فأتوا الى أرض حاران [١] وأقاموا هناك ، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ، ومات في حاران » .

وجاء بعد هذا في الاصحاح الثاني عشر أن الرب قال لابرام « اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك واعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك من يباركك ومن يلعنك ألعنه ، وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض .

« فذهب ابرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط .

« وكان ابرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حاران ، فأتوا الى أرض

---

(١) موقعها الان بين حابور ونهر الفرات في شمال العراق .

كتان ومعهم ذخائر وعبيد وماشية ، واختار ابرام سكنه من شكيم[1] الى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون .

« وظهر الرب لابرام وقال : لنسلك أعطي هذه الأرض ، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له ، ثم انتقل من هناك الى الجبل ونصب خيمته شرقاً من بيت ايل بين بيت ايل من الغرب ولماي من الشرق ، ثم والى رحلته الى الجنوب . .

« وحدثت مجاعة في الأرض ، فانحدر ابرام الى مصر ، وقال لساراي امرأته وهو على مقربة من مصر : اني علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فاذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك . قولي انك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك .

« فلما دخل ابرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جداً ، ومدحها رؤساء فرعون لديه ، فأخذت المرأة الى بيت فرعون فصنع الى ابرام خيراً بسببها وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد واماء واتن وجمال .

« فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة . . ودعا فرعون ابرام وقال له : ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت لي هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي . . خذها واذهب ، ووكل به أناساً شيعوه الى خارج الديار . .

« وعاد ابرام الى بيت ايل حيث كانت خيمته قبل انحداره الى مصر ، ولم تحتمل الأرض ابرام ولوطا ومن معهما من حاشية وماشية ، واشتجر رعاتهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون[2] .

فقال ابرام لابن اخيه : « لا تكن مخاصمة بيني وبينك ، وبين رعاتي ورعاتك . اننا اخوان . أليست الأرض أمامك ؟ فاذهب حيث شئت . ان ذهبت شمالاً ذهبت أنا الى اليمين وان ذهبت يمينا ذهبت أنا الى الشمال .

ونظر لوط فرأى امامه ارضاً مخصبة كأرض مصر ، فاختار دائرة الأردن وارتحل مشرقا ونقل خيامه الى سدوم ، وأهلها جد أشرار .

---

(١) في موقع نابلس الان على الارجح .
(٢) لعلهم قبيلة من الكنعانيين كانت تسكن العراء في قرى مسورة .

وبقي ابرام في كنعان فقال له الرب : « ارفع عينيك وانظر في الموضع الذي انت فيه من مشرقه الى مغربه ومن شمالـه الى جنوبـه ، فانني معطيك جميع الأرض التي تراها ولنسلك من بعدك ، واجعل لك نسلاً كتراب الارض لا يحصيه الا من استطاع أن يحصي ترابها ، فاضرب في الأرض طولا وعرضاً كما تشاء .

فنقل ابرام خيامه وأقام عند بلوطات ممرا التي هي جبرون[1] وبنى فيها مذبحاً للرب .

ونشب قتال بين أمراء البادية والحضر في تلك البقاع « فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبويم وملك بالع التي هي صوغر ، ونظموا حرباً معهم في عمق السديم[2] مع كدر لعومر ملك عيلام ، وتدعال ملك جوييم ، وأمرافل ملك شنعار ، وأريوك ملك الاسار ، أربعة ملوك من خمسة . .

« وعمق السديم كان في آبار حمر كثيرة . .

« فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك ، والباقون هربوا الى الجبل ، فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة ، وجميع أطعمتهم ومضوا .

« وأخذوا لوطا ابن أخي ابرام ومضوا ، اذ كان ساكنا في سدوم .

فأتى من نجا واخبر ابرام العبراني ، وكان ساكناً عند بلوطات ممرا الاموري ، أخي أشكول وأخي عانر ، وكانوا أصحاب عهد مع ابرام .

فلما سمع ابرام ان أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ، وعدتهم ثلثمائة وثمانية عشر ، وتبعهم دان ، ودهمهم ليلاً هو وعبده فكسرهم ، وتبعهم الى حوبة الى الشمال من دمشق واسترجع ما أخذوه ، واسترجع لوطا أخاه وسبى النساء والرجال . .

فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه ، وأخرج (ملكي صادق) ملك شاليم خبزاً وخمراً ، وكان كاهناً لله العلي ، فبارك ابرام وقال : مبارك ابرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك الى

---

(١) هي اليوم الخليل .
(٢) هي بحر الملح .

يديك . فأعطاه ابرام عشرا من كل شيء وقال ملك سدوم : اعطني النفوس . أما الأملاك فخذها لنفسك .

فقال ابرام لملك سدوم : رفعت يدي الى الرب الاله العلي ، مالك السماء والأرض ، لا آخذن خيطاً ولا شراك نعل ولا شيئاً مما هو لك ، فلا تقول انني أغنيت ابرام . ليس لي الا ما أكله الغلمان . وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معي : عانر وأشكول وممرا ، فلهم نصيبهم يأخذونه .

ثم خاطب الرب ابرام في الرؤيا قائلاً : لا تخف يا ابرام . أنا ترس لك ، وأجرك عظيم .

قال ابرام : أيها السيد الرب ، ماذا تعطيني وأنا ماض عقيما ، ومالك بيتي هو اليعزر الدمشقي[1] .

وقال ابرام أيضاً : « انك لم تعطني نسلا ، وها هوذا ابن بيتي وارث لي . .

« فكان كلام الرب له : لا يرثك هذا . بل الذي يخرج من أحشائك هو وارثك .

« ثم قاده الى خارج وقال : أنظر الى السماء وعد النجوم ان استطعت . . هكذا يكون نسلك .

فآمن بالرب ، فحسبه له حسنة ، وقال له : أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض ترثها .

« فقال : أيها السيد الرب ! بماذا أعلم أنني أرثها .

قال : خذ عجلة ثلاثية ، وعنزة ثلاثية ، وكبشا ثلاثيا ، ويمامة وحمامة » فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل كل شق مقابل صاحبه ، وأما الطير فلم يشقه . وجعل ابرام يزجر الجوارح التي تهبط عليها .

ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على ابرام سبات ونزلت عليه رعبة عظيمة ، فقال لابرام : اعلم يقينا ان نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم

---

(١) هو بمثابة امين الدار الموكل بشؤونه ويلاحظ ان جملة حروف الاسم ـ وهو يكتب بالعبرية بغير الف بعد العين ـ تساوي ٣١٨ عدد الغلمان ، ولهذا يقول بعض المفسرين ان الاسم كناية عن العدد .

يستعبدون فيها ويستذلون أربعمائة سنة ، ثم أدين الأمة التي تستعبدهم ، فيخرجون بأملاك جزيلة ، وتمضي أنت الى آبائك بسلام ، وتدفن بشيبة صالحة . ثم يرجع نسلك في الجيل الرابع الى هاهنا ، اذ لم يتم بعد ذنب الامور يين .

« ثم عابت الشمس ورانت العتمة على الأفق ، واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك الشطور .

« وفي ذلك اليوم قطع الرب[1] مع ابرام ميثاقه قائلا : لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات : القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والاموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين » .

***

ورجع الاصحاح السادس عشر الى ساراي فجاء فيه انها لما لم تلد دفعت جاريتها المصرية « هاجر » الى ابرام وقالت له : هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة . . فادخل الى جاريتي لعلي أرزق منها بنين . .

فلما رأت هاجر انها حبلت « صغرت مولاتها في عينيها ، فقالت ساراي لابراهيم : ظلمي عليك ! دفعت جاريتي الى حضنك فلما رأت انها حبلت صغرت في عينيها . يقضي الرب بيني وبينك .

« فقال ابرام لساراي : « هوذا جاريتك في يدك . افعلي بها ما يحسن في عينيك ، فأذلتها ساراي ، فهربت من وجهها .

فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية ، على العين التي في طريق شور [2] ، وقال : يا هاجر جارية ساراي ! من أين أتيت ؟ وإلى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي . فقال لها ملاك الرب : ارجعي الى مولاتك واخضعي تحت يديها . وقال لها ملاك الرب : تكثيراً أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلى وتلدين ابناً وتدعينه اسماعيل .

---

(١) من العادات المرعية في كثير من أمم الرعاة ان يمر المتعاهدون بين شقين من ذبيحة ، ويرد بعضهم قولهم « قطع عهدا » الى هذه العادة .

(٢) كانت في الجنوب الغربي من فلسطين بين مصر وكنعان

لأن الرب قد سمع لضراعتك . وانه يكون انساناً وحشياً[1] . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن . .

وكان ابرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل . .

ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة (الاصحاح السابع عشر) ظهر الرب لابرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامي وكن كاملا . فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جداً . فخرّ ابرام ساجداً ، وتكلم الله معه قائلاً : أما أنا فهو ذا عهدي معك ، وتكون أبا لجمهور من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد اليوم ابرام ، بل يكون اسمك ابراهيم . لأني اجعلك أبا لجمهور من الأمم ، وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمما ، ومنك ملوك يخرجون ، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً ، لأكون الها لك ولنسلك من بعدك ، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبديا وأكون الههم . وقال الله لابراهيم : وأما أنت فتحفظ عهدي . أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . . فيكون علامة عهد بيني وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أحيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك . . فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً . وأما الذكر الأغلف . . فتقطع تلك النفس من شعبها . انه نكث عهدي . .

وقال الله لابراهيم : ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي ، بل سمها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً . . فخرّ ابراهيم ساجداً وضحك ، وقال في قلبه : هل يولد لابن مائة سنة ! وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة ؟

وقال ابراهيم لله : ليت اسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه اسحاق ، وأقيم عهدي له عهداً أبديا لنسله من بعد . .

وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه : ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . اثني عشر رئيساً يلد . وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدي أقيمه لاسحاق الذي

---

(١) الكلمة العبرية تفيد معنى الشذة والخشونة « فرأ آدم » وقد تفيد في معناها كلمة متأبد العربية .

تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية» فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن ابراهيم .

« فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته ، وجميع المبتاعين بفضة وختنهم . . وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن ، واسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة .

« وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر ، واذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد الى الأرض ، وقال : يا سيد ! ان كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عهدك ، ليؤخذ قليل ماء . واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة ، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون . لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا : هكذا نفعل كما تكلمت . .

« فاسرع ابراهيم الى الخيمة ، الى سارة ، وقال : اسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا . اعجني واصنعي خبز ملة ، ثم ركض ابراهيم الى البقر وأخذ عجلا رخصا جيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم ، واذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا .

« وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هي في الخيمة . فقال : اني أرجع اليك نحو زمان الحياة ـ أي الربيع ـ ويكون لسارة امرأتك ابن . .

« وكانت سارة سامعة في باب الخيمة ، وهو وراءه . وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام . وقد انقطع ان يكون لسارة عادة كالنساء . فضحكت سارة في باطنها قائلة : ابعد فنائي يكون له متعة وسيدي قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت سارة ؟ انها قائلة بالحقيقة : أتراني ألد وأنا قد شخت ؟ فهل يستحيل على الرب بشيء ؟ في الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن ! .

« فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك ! لأنها خافت . فقال : لا بل ضحكت .

« ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم ، وكان ابراهيم ماشياً معهم ليشيعهم ، فقال الرب : هل أخفي عن ابراهيم ما أنا فاعله ، وابراهيم يكون

أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض ! اني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب وليعملوا براً وعدلا ويوفي الرب ابـراهيم ما وعد .

« وقال الرب ان صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيئتهم قد عظمت جداً . اني نازل أرى هل فعلوا حقاً حسب صراخها الآتي الي . والا فاعلم .

« وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم . .

« واما ابراهيم فكان لم يزل قائماً امام الرب . .

« فتقدم ابراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين . . ؟ حاشا لك أن تفعل هذا الأمر . . اديَّان كل الأرض لا يصنع عدلاً ؟

« فقال الرب : ان وجدت في المكان خمسين باراً فاني أصفح عن المكان كله من أجلهم .

« فأجاب ابراهيم وقال : اني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد ، ربما نقص الخمسون باراً خمسة . أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال : لا أهلك ان وجدت هناك خمسة وأربعين .

« فعاد يكلمه أيضاً وقال : عسى أن يوجد هناك اربعون فقال : لا افعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى ، فأتكلـم . عسى أن يوجـد هنـاك عشرون . فقال لا اهلك من اجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقـط . عسى أن يوجـد هنـاك عشرة . فقـال : لا أهلك من أجـل العشرة .

« وذهب الرب عندما فرغ من الـكلام مع ابـراهيم ، ورجـع ابـراهيم الى مكانه . .

فجاء الملاكان الى سدوم مساء ، وكان لوط جالساً في باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وخر ساجداً ، وقال : يا سيدي ميلا الى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما ، فقالا : لا . بل بالساحة نبيت » .

وتم الاصحاح التاسع عشر بقصة هلاك سدوم ، ثم عاد الاصحاح العشرون

الى قصة ابراهيم فجاء فيه أنه انتقل من هناك الى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار .

« وقال ابراهيم عن سارة امرأته هي اختي ، فأرسل (ابيمالك) ملك جرار وأخذ سارة . فجاء الله الى أبيمالك في الحلم وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فانها ذات بعل ، ولم يكن ابيمالك قد اقترب منها ، فقال : يا سيد ! أتقتل أمة بارة ؟ ألم يقل لي هو انها أختي ؟ ألم تقل هي نفسها انه هو اخي ؟ بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا . فقال له الله في الحلم : أنا ايضاً علمت انك بسلامة قلبك فعلت هذا ، وأنا ايضاً أمسكتك أن تخطىء الي . لذلك لم ادعك تمسها . فالآن رد امرأة الرجل فانه نبي ، وسيصلي لأجلك فتحيا ، وان كنت لا تردها فانك ومن لك ميتون .

« . . وأخذ ابيمالك غنماً وبقراً وعبيداً واماء وأعطاها لابراهيم ، ورد اليه سارة امرأته ، وقال ابيمالك : هوذا أرضي قدامك ، تسكن منها ما حسن في عينيك . وقال لسارة : اني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة . ها هو لك غطاء عيني .

« . . وصلى ابراهيم الى الله فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن . لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة ابراهيم » .

ثم جاء في الاصحاح الحادي والعشرين ان سارة ولدت اسحاق وختنه ابراهيم وهو ابن ثمانية أيام ، وكان ابراهيم قد أوفى على المائة ، وقالت سارة : قد جعل الله لي ضحكاً وجعل كل من يسمع بأمري يضحك .

« . . ورأت ابن هاجر المصرية يمزح . . فقالت لابراهيم : أطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحاق . فقبح الكلام جداً في عيني ابراهيم . .

« قال الله لابراهيم : لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل جاريتك ، واسمع كل ما تقوله سارة ، لانه باسحاق يدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك .

« فبكر ابراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء ، وأعطاهما لهاجر واضعاً اياهما على كتفها وصرفها .

« فمضت وتاهت في برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد

تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيداً على مرمى القوس . لأنها قالت لا انظر موت الولد . فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا هاجر ! لا تخافي . لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومي احملي الغلام وشدي يدك به . لأني سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية ، وكان ينمو رامي قوس ، وسكن في برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

« وحدث في ذلك الزمان ان أبيمالك وفيكول رئيس جيشه كلّما ابراهيم قائلين : « الله معك في كل ما أنت صانع . فالآن احلف لي بالله ها هنا انك لا تغدر بي ولا بنسلي وذريتي ، وكالمعروف الذي صنعت اليك تصنع الي والى الأرض التي تغربت فيها .

« فقال ابراهيم : أنا أحلف ، وعاتب أبيمالك في بئر الماء التي اغتصبها عبيده . فقال أبيمالك : لم أعلم من فعل هذا الأمر . أنت لم تخبرني وانا ما سمعت سوى اليوم .

« فأخذ ابراهيم غنماً وبقراً وأعطى أبيمالك ، فقطعا كلاهما ميثاقاً . .

وأقام ابراهيم سبع نعاج وحدها . فقال أبيمالك لابراهيم : ما هي هذه النعاج التي أقمتها وحدها ؟ فقال : انك تأخذ من يدي سبع نعاج لكي تكون شهادة بأني حفرت هذه البئر لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع . لأنهما هناك حلفا كلاهما .

« فقطعا ميثاقاً في بئر سبع ، ثم قام أبيمالك وفيكول رئيس جيشه ، ورجعا الى أرض الفلسطينيين ، وغرس ابراهيم أثلا في بئر سبع ، ودعا هناك اسم الرب الاله السرمدي . وتغرب ابراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة » .

* * *

وتأتي بعد ذلك قصة الفداء باسحاق . .

« وان الله قد امتحن ابراهيم . .

فقال له : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه ـ اسحاق ـ واذهب الى ارض المريا وأصعده هناك . . فبكر ابراهيم صباحاً وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه

معه ، واسحاق ابنه ، وشقق حطباً لمحرقة ، وقام وذهب الى الموضع الذي قال له الله .

« وفي اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال لغلاميه : اجلسا انتما ها هنا مع الحمار . وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما .

« فأخذ ابراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحاق ابنه ، وأخذ بيده النار والسكين ، فذهبا كلاهما معاً .

« وكلم اسحاق ابراهيم أباه وقال : يا أبي ! فقال : ها أنا ذا يا بني . فقال : هو ذا النار والحطب ، ولكن أين الخروف للمحرقة . فقال ابراهيم : الله يرى له خروف المحرقة يا بني . فذهبا كلاهما معاً .

« فلما أتيا الى الموضع الذي قال له الله ، بنى ابراهيم هناك المذبح ورتب الحطب ، وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ، ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء . وقال : ابراهيم ! ابراهيم ! فقال : ها أناذا . فقال : لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئا ، لأني الآن علمت انك خائف الله ، فلم تمسك ابنك وحيدك عني .

« ورفع ابراهيم عينيه ، ونظر ، واذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه ، فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه . فدعا ابراهيم اسم ذلك الموضع (يهوه يراه) حتى انه يقال اليوم في جبل الرب يرى . .

« ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء ، وقال : بذاتي اقسمت . اني من أجل انك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة واكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء ، وكالرمل الذي على شاطىء البحر ، ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض ، من أجل انك سمعت لقولي .

ثم رجع ابراهيم الى غلاميه فقاموا وذهبوا جميعا الى بئر سبع .

وحدث بعد هذه الأمور ان ابراهيم اخبر وقيل له : هو ذا ملكة قد ولدت هي ايضاً بنين لناحور أخيك : عوصا بكره ، وتوزا أخاه ، وقموئيل أبا أرام ، وكاسدو وحزوا وفلداش ويدلاف وبتوئيل ، وولد بتوئيل رفقته . . هؤلاء

الثمانية ولدتهم ملكة لناحور اخي ابراهيم . واما سريته ـ واسمها زومة فولدت هي أيضاً طابح وجاحم وتاحش ومعكة » .

وأنبأ الاصحاح الثالث والعشرون بموت سارة وهي في السابعة والعشرين بعد المائة . ماتت في قرية اربع التي هي حبرون في أرض كنعان . فأتى ابراهيم ليندب سارة ويبكي عليها ، وقام ابراهيم من أمام ميته وكلم بني حث قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم ، اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي . فأجاب بنو حث ابراهيم قائلين له : اسمعنا يا سيدي . انت رئيس من الله بيننا . في افضل قبورنا أدفن ميتك . لا يمنع احد منا قبره عنك . . فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض ، لبني حث ، وكلمهم قائلا : ان كان في نفوسكم ان ادفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر ان يعطيني مغارة المكفيلة التي له في طرف حقله ، وبثمن كامل يعطيني اياها . . وكان عفرون جالساً بين بني حث ، فأجابه على مسمع من قومه لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلا : لا يا سيدي . . اسمعني . . الحقل وهبتك اياه ، والمغارة التي فيه لك وهبتها . . فسجد ابراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون في مسامع شعب الأرض قائلاً : بل ان كنت انت اياه فليتك تسمعني . اعطيك ثمن الحقل فأدفن ميتي هناك . فأجاب عفرون ابراهيم قائلا له : يا سيدي ! اسمعني . أرض بأربعمائة شاقل فضة ، ما هي بيني وبينك ؟ فادفن ميتك فسمع ابراهيم لعفرون ووزن ابراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث : أربعمائة شاقل فضة جائزة عند التجار » .

***

وشاخ ابراهيم وتقدم في الأيام[1] ، وباركه الرب في كل شيء وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولي على كل ما كان له : ضع يدك تحت فخذي ، فاستحلفك بالرب اله السماء ، واله الأرض ، الا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل الى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحاق . فقال له العبد : ربما لا تشاء المرأة ان تتبعني الى هذه الأرض . هل أرجع بابنك الى الأرض التي خرجت منها ؟ فقال ابراهيم : احترز من أن ترجع بابني الى هناك : الرب اله السماء الذي اخذني من بيت أبي ، ومن أرض ميلادي ، والذي كلمني ، والذي أقسم لي قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض ،

(١) الاصحاح الرابع والعشرون

هو يرسل ملائكة امامك فتأخذ بيت أمها بحسب هذه الأمور .

« وكان لرفقة أخ اسمه لابان ، فخرج لابان الى الرجل خارجاً الى العين » .

***

ويلي هذا (في الاصحاح الرابع والعشرين) وصف العبد ما حدث له حتى التقى بالفتاة « فأجاب لابان وبتوئيل وقالا : من عند الرب خرج الأمر . لا نقدر أن نكلمك بشر او خير . هوذا رفقة قدامك . خذها واذهب ، فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب ، وكان عندما سمع عبد ابراهيم كلامهم انه سجد للرب الى الأرض ، وأخرج آنية فضة وآنية ذهب وثياباً وأعطاها لرفقة ، وأعطى تحفاً لأخيها ولأمها ، فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا ، ثم قاموا صباحاً فقال : اصرفوني الى سيدي ، فقال أخوها وأمها : لتمكث الفتاة عندنا أياماً أو عشرة ، وبعد ذلك تمضي » .

واستثيرت الفتاة فقبلت أن تذهب مع العبد ، فصرفوا رفقة أختهم ومرضعتها وعبد ابراهيم ورجاله ، وباركوا رفقة ، وقالوا لها : أنت اختنا . صيري ألوف ربوات ، وليرث نسلك باب مبغضيه .

« فقامت رفقة وفتياتها وركبن على الجمال وتبعن الرجل ، فأخذ العبد رفقة ومضى . .

« وكان اسحاق قد أتى من ورود بئر لحي رئي . اذ كان ساكناً في أرض الجنوب ، وخرج ليتأمل في الحقل عند اقبال المساء ، فرفع عينيه ونظر واذا جمال مقبلة ، ورفعت رفقة عينيها فرأت اسحاق فنزلت عن الجمل ، وقالت للعبد : من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا ؟ فقال العبد : هو سيدي ! فأخذت البرقع وتغطت ، ثم حدث العبد اسحاق بكل ما جرى ، فأدخلها اسحاق الى خباء سارة امه ، وأخذ رفقة فصارت له زوجة واحبها ، فتعزى اسحاق بعد موت أمه .

« وعاد ابراهيم ـ الاصحاح الخامس والعشرون ـ فأخذ زوجة اسمها قطورة ، فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا ، وولد يقشان شبا وددان ، وكان بنو ددان اشوريم ولطوشيم ولأميم ، وبنو مديان عيفة وعفر وحنوك وابيداع وألدعة : جميع هؤلاء بنو قطورة . .

« واعطى ابراهيم اسحاق كل ما كان له ، واما بنو السراري اللواتي كانت

لابراهيم فأعطاهم ابراهيم عطايا وصرفهم عن اسحاق ابنه شرقا ، الى ارض المشرق ، وهو بعد بقيد الحياة .

« وهذه ايام سني حياة ابراهيم التي عاشها : مائة وخمس وسبعون سنة ، واسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة صالحة ، شيخا شبعان أياما ، وانضم الى قومه ، وذدفنه اسحاق واسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صوحر الحثي الذي امام ممرا .

« . . وهذه مواليد اسماعيل بن ابراهيم الذين ولدت هاجر المصرية جارية سارة لابراهيم . . ! نبايوث بكر اسماعيل ، وقيدار ، وادبئيل ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة . . هؤلاء هم بنو اسماعيل وهذه اسماؤهم بديارهم وحصونهم : اثني عشر رئيسا حسب قبائلهم ، وهذه سنة حياة اسماعيل : مائة وسبع وثلاثون سنة . .

« واسلم روحه ومات وانضم الى قومه ، وسكنوا من حويلة الى شور التي امام مصر .

« . . . وهذه مواليد اسحاق بن ابراهيم . . ولد ابراهيم اسحاق ، وكان اسحاق ابن اربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجته رفقة بنت بتوئيل الارامي ، اخت لابان الارامي ، من فدان ارام .

« وصلى اسحاق الى الرب لاجل امرأته ، لانها كانت عاقرا ، فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته ، وتزاحم الولدان في بطنها ، فقالت : ان كان هكذا ففيم انا عائشة ؟ ومضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب : في بطنك امتان ، ومن احشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير .

فلما اكملت ايامها لتلد اذا في بطنها توأمان ، فخرج الأول احمر كله كفروة شعر ، فدعوا اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة يعقب عيسو ، فدعى اسمه يعقوب ، وكان اسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما .

« فكبر الغلامان ، وكان عيسو انساناً يعرف الصيد : انسان البرية ، ويعقوب انساناً كاملا يسكن الخيام .

« فأحب اسحاق عيسو لأن في فمه صيداً .

« وأما رفقة فكانت تحب يعقوب .

« وطبخ يعقوب طبيخاً فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا ، فقال عيسو

ليعقوب : اطعمني من هذا الأحمر ، لانـي قد اعييت . لذلك دعـي اسمـه أدوم .

« فقال يعقـوب بعنـي اليوم بكوريتـك . فقـال عيسـو : ها أنـا ماض الى الموت . . فما جدوى البكورية ؟ فقال يعقوب : احلف لي اليوم ، فحلف له . فباع بكوريته ليعقوب ، فأعطى يعقـوب عيسـو خبـزاً وطبيخ عدس ، فأكل وشرب وقام ومضى .

وتكرر في الاصحاح السادس والعشرين وصف الحادث الذي جرى لابراهيم مع ابيمالك ، فجاء فيه انه حدث « جوع غير الجوع الأول الـذي كان في أيام ابراهيم فذهب اسحاق الى ابيمالك ملك الفلسطينيين .

« وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هي اختي ، لانه خاف ان يقول امرأتي لعل اهل المكان يقتلونني من اجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث اذ طالت الأيام هناك ان ابيمالك ملك الفلسطينيين اشرف من الكوة ونظر ، واذا اسحاق يلاعب رفقة امرأته ، فدعا ابيمالك اسحاق وقال : انما هي امرأتك . فكيف قلت هي اختي : فقال له اسحاق لاني قلت لعلي اموت بسببها ، فقال أبيمالك : ما هذا الذي صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع احـد الشعـب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا ، فاوصى ابيمالك جميع الشعب قائلا : الذي يمس هذا الرجل وامرأته موتاً يموت » .

وفي الاصحاح التاسع والعشرين ان يعقوب تزوج راحيل بنت خاله لابان ، وكانت عاقراً كما جاء في الاصحاح الثلاثين ، فقالت : هو ذا جاريتي بلهه ، ادخل عليها فتلد على ركبتي وأرزق انا ايضاً منها بنين ، فأعطته بلهة جاريتها زوجة ، فدخل عليها يعقوب .

« وذكر الله راحيل وسمع لها الله وفتح رحمها ، فحبلت وولدت ابناً ، فقالت قد نزع الله عاري ودعت اسمه يوسف .

* * *

وفي الاصحاح الثاني والثلاثين يسمى يعقوب اسرائيل ، وذاك انه بعد ان عاد من رحلته الى العراق « بقي وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقـوب في مصارعتـه

معه ، وقال : اطلقني لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك ان لم تباركني فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ! فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل . لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : اخبرني باسمك : فقال : لماذا تسأل عن اسمي ، وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلا : لأني نظرت الله وجها لوجه .

* * *

وتذكر الاصحاحات التالية خبر المجاعة التي عمت الأرض ، وتروي هجرة يعقوب وأبنائه الى مصر ، حيث بيع يوسف وتولى عملاً من اعمال الدولة في الجيل التالي لجيل ابراهيم كما يؤخذ من هذا السياق ، وقد انقسمت ذريته الى أدوميين واسرائيليين .

* *

وفي العهد القديم عدا هذه السيرة المفصلة ، اشارات كثيرة الى ابراهيم عليه السلام ، منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ، ومنها ما يصفه ويصف بعض اخباره . .

فمن الاشارات التي لها شأن في سيرته ما جاء في كتاب يشوع أول الرسل بعد موسى عليه السلام ، ففي الاصحاح الرابع والعشرين من هذا الكتاب يقول صاحبه عن ديانة الآباء :

« وقال يشوع لجميع الشعب : هكذا قال الرب اله اسرائيل : « آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت ابراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به في كل أرض كنعان » . .

ووصف ابراهيم بخليل الله في كتاب الأيام الثاني ـ وهو على الأرجح من جمع النبي غزرا ـ حيث يقول في الاصحاح العشرين : « ألست أنت الهنا الذي طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك اسرائيل وأعطيتها لنسل ابراهيم خليلك الى الأبد »

ووصف بهذه الصفة في الاصحاح الحادي والاربعين من كتاب اشعيا حيث يقول : « واما انت يا اسرائيل عبدي ، يا يعقوب الذي اخترته ، نسل ابراهيم خليلي » . .

* * *

وتلك هي جملة العبارات التي تدخل في سيرة الخليل من كتب العهد القديم ، وأكثرها تفصيلا ما ورد في سفر التكوين من الكتب الخمسة التي يطلق عليها في الغالب اسم التوراة .

وقبل الانتقال الى ما ورد عن الخليل في المراجع الاسرائيلية الأخرى ، كالتلمود والمدراش وما اليهما ، نشفع ما تقدم بكلمة لازمة عن تعليقات الشراح على سفر التكوين والكتب الخمسة ، فان هذه التعليقات لا غنى عنها للباحث المستقصي عند مراجعة الاسانيد المتعددة ، ولها علاقة وثيقة بفهم السيرة كلها فيما تستمده من تلك الأسانيد .

تعقيب على مراجع العهد القديم

اتفق شراح العهد القديم على تعدد النسخ التي جمعت منها كتبه الخمسة ، بصفة خاصة .

وأهم هذه النسخ هي نسخة الوهيم ونسخة يهوا ونسخة الكهنة أو المسجلين ، ولا داعي في هذا الصدد لاضافة النسخة المسماة بنسخة التثنية ، لأنها تتناول الأسلوب اللغوي الذي لا يسهل التبسط في خصائصه عند الكتابة عنه بلغتنا العربية .

سميت نسخة « الوهيم » بهذا الاسم لأن « الوهيم » هي الكلمة التي تطلق فيها على الاله . .

وسميت النسخة الأخرى باسم « يهوا » لأنه اسم الاله فيها .

وتسمى النسخة الثالثة باسم الكهنة أو المسجلين ، لأنهم جمعوا كتب الشريعة وعنوا فيها عناية خاصة بالشعائر والمراسم وأخبار الهيكل والعبادة .

ومن هذه النسخ ما كتب على أيام المملكة الاسرائيلية ، ومنها ما كتب في المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، وأقدمها عهدا بينها وبين عصر الخليل ما يبلغ ألف سنة .

وقد اجتهد الكهنة في تكملة الأجزاء التي بين أيديهم ، فقابلوا بين الأخبار المتعددة وتمموا بعضها ببعض ، وبقيت آثار المراجع المتعددة في مواضع نشير الى بعضها بما فيه الكفاية للمقابلة بين أخبار السيرة في جملتها . . .

ففي الاصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم بئر سبع بما دار من الحديث بين الخليل وأبيمالك .

سأل أبيمالك : ما هي هذه السبع النعاج التي أقمتها وحدها ؟

قال الخليل : انك تأخذ من يدي سبع نعاج لكي تكون شهادة لي بحفر البئر . . لذلك دعي ذلك الموضع بئر سبع . .

وفي الاصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم المكان بما يلي :

« وحدث في ذلك اليوم أن عبيد اسحاق جاؤ واوأخبروه عن البئر التي حفروا وقالوا له : قد وجدنا ماء . فدعاها شبعة لذلك اسم المدينة بئر سبع الى اليوم » .

وفي الاصحاح الأول عن خلق الحيوان والانسان : « فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا ، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب عليها »

وفي الاصحاح الثاني : « وجبل الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية ، وغرس الاله جنة في عدن شرقا ، ووضع هناك آدم الذي جبله ، وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر جيدة للأكل ، وشجرة الحياة في وسط الجنة . . »

ونص الاصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين على تحريم الزواج بالأخت من الأب أو من الأم « المولودة في البيت أو المولودة خارجا . . »

وفي الاصحاح الثالث عشر من سفر صمويل الثاني تقول تامار لأخيها أمنون « والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك » . .

* * *

وقد أطال الشراح مقابلة المراجع ولا سيما المراجع التي تذكر الأماكن والاعلام والاعمار وما يعنينا في هذا السياق هو ملاحظتهم التي خرجوا بها من المقابلة والموازنة فيما يتعلق بسيرة الخليل .

فمنها ان اسم البلد الذي ولد فيه الخليل قد ورد في بعض النسخ ولم يكن موجودا في نسخ أخرى فأضيف اليها للمضاهاة بينها . .

ومن النسخ ما ورد فيه عهد الميراث لابراهيم ، ومنها ما لم يرد فيه هذا العهد

قبل مولد اسماعيل .

ويرى كثيرون من الشراح ان الاعلام قد تطلق على القبائل كما تطلق على رؤوسها وآبائها ، ومن هنا ينعت ابراهيم بالعبراني وينعت ابن أخيه بالآرامي ، أو يختلف الفرعان من أصل واحد ، فتعمل احدى القبائل في الصيد بالبادية ، وتعمل أختها في الزرع والمدن حول الحاضرة .

وقد بين الشراح على العموم ان الاعمار تناقصت في الكتب الأخيرة ، وان الوحي بالرؤيا في هذه الكتب أعم من الوحي بالمشاهدة والمخاطبة .

وسنعود الى استخلاص الفائدة من هذه المقابلات والتعليقات عند الكلام على تفصيلات السيرة ، بعد استيفاء مراجعها من الكتب الدينية والمصادر التاريخية وغيرها .

المشنا

أهم المراجع الاسرائيلية بعد التوراة هو كتب المشنا القديمة « فالمقرأ » هو ما يحفظ بالقراءة في الكتب ، وهو نصوص التوراة المعتمده .

و« المشنا » هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ، ومنه التلمود على نشأته الاولى . .

وأصل مادة الكلمة من شنا أي كرر ، وهي تقابل في العربية مادة ثنى بمعنى أعاد ثانية ، واستعيرت للاعادة التي يراد بها حفظ الكلام المعاد .

وترجع مأثورات « المشنا » الى أيام النفي في بابل ، حيث أقامت عشائر من اليهود منفية عن فلسطين .

وكان الغرض من « المشنا » تفسير التوراة والتعليق عليها ، وتشتمل هذه التفسيرات على عظات المعابد ، وتأويلات الفقهاء ، وشروح المفسرين ممن بلغوا مرتبة الرئاسة في التعليم .

وقد حصرت المشنا في القرن الثاني للميلاد ، ودونت بعد الاعتماد على الرواية أو التعليقات المتفرقة ، ومعظمها محفوظ بالعبرية العامية التي يفهمها المستمعون الى مواعظ البيع وأحاديث الفقهاء .

واشتملت عند جمعها على ستة أقسام ، واشتملت هذه الأقسام على ثلاثة

وستين فصلا ، واشتملت الفصول على نبذ تبلغ خمسمائة وثلاثا وعشرين ، أضيفت اليها نبذة بعد ذلك فبلغت خمسمائة وأربعا وعشرين .

أما الأقسام الستة فهي قسم الزرع وهو خاص بالمزروعات والمحصولات ومعاملاتها ، وقسم الموعد وهو خاص بأوقات المواسم والأعياد ، وقسم النساء وهو خاص بالزواج والطلاق وما يتصل بهما من الأحوال الشخصية ، وقسم العروض والتعويضات وهو خاص بسائر المعاملات والمحاكمات ، وقسم المقدسات وهو خاص بشعائر العبادة ، وقسم الطهارة وهو خاص بالغسل والتطهير من النجاسات التي حرم معها القيام بالفرائض الدينُية . .

وزيدت على المشنا في العصور الحديثة كتب من قبيلها تسمى با « لتصافوت » من مادة يصاف أي يضاف ، ومعناها الاضافات ، وأكثر هذه الاضافات من وضع الكهان الأوربيين الى القرن الثاني عشر للميلاد .

ولم تشتمل المشنا على جميع المأثورات ، بل بقيت خارجا منها احكام تنقل بالرواية ، وتعرف « بالبرايتا » أي البرانية .

وانتهى تمحيص المشنا القديمة الى اختيار طائفة من الاحكام المتفق عليها تسمى الجمارة أي التكملة .

ومن مرويات المشنا والجمارة تجتمع كتب التلمود ، وهي قسمان : تلمود بابل ، وتلمود فلسطين ، ولكن النلمود لا يحتوي كل ما في المشنا والجمارة . .

ويعرف بعض المأثورات الاسرائيلية باسم « المدارش » أو الدراسات ، وتلك تتضمن أقوال الفقهاء وحواشيهم على النصوص والمحفوظات ، وأشهرها مدراش رباه التي تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب التوراة الخمسة ، وقد تمت عند القرن السادس للميلاد ، وترجع في أسانيدها كما جاء فيها الى أيام ابراهيم ، ولكنها عند اليهود على درجات : فمنها ما يعول عليه ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية والأمثال الوعظية ، تساق للاعتبار ولا يقصد بها التاريخ أو الاعتقاد .

ويظن بعض شراح الألمان مثل جرنبوم Grunbaum ان من المدراش نبذا منقولة عن اللغة العربية ، ولكن المقابلة بين رواياتها والروايات الاسرائيلية الأخرى تدل على مشابهة قريبة ، وانها على كل حال من مصادر غير اسلامية . .

بل يظن جرنبوم ان بعض العبارات ترجمة حرفية من القرآن الكريم ، كما جاء في كتاب من المدراش ان الله قال : ليوهب البرد والعزاء لخادمي ابراهيم ، والكلمة فيها معنى العزاء والراحة والسلام .

وسنشير الى هذه الملاحظات في مواضعها ، ونكتفي فيما يلي بالمراجع الضرورية على سبيل التمثيل لكل أسلوب من أساليب الرواية والتدوين في المصادر الاسرائيلية ، ونبدأ بما له علاقة بسيرة الخليل من عهد الطوفان .

***

يطلق اسم خليل الله وحبيب الله في الكتب الاسرائيلية على أنبياء غير ابراهيم ، أشهرهم موسى ويعقوب وسليمان ، ويغلب على الكتب المتأخرة وصفه بالحبيب ، ويعتقدون انه هو المقصود بقول أرميا في الاصحاح الحادي عشر « حبيبي في بيتي » .

وفي كثير من كتب المدراش والتعليم يقال ان الدنيا خلقت من أجله ، وان أبناء نوح ضلوا عن سواء السبيل وعبدوا الأصنام وكان جد ابراهيم يدعى (رو) فسمى ابنه (سيروج) أي ذهبوا بعيدا ، وصدق في هذه التسمية ، لأن سيروج حين كبر وولد له ابن سماه ناحور وعلمه السحر والتنجيم وعبادة الأصنام ، وكان الشيطان (مسطيما) يرسل أعوانه لكيد البشر ويطلقهم على البذور وهي على وجه الأرض كأنهم الغربان لتلتقطها وتفسدها . لهذا سمى ناحور ابنه تيرح أو تارح . ويقول شراح كتاب « اليوبيل » أحد هذه الكتب التعليمية أن الاسم بهذا المعني غامض ، ولكنه قد يرجع الى كلمة آرامية بمعنى المحو والشحوب .

وتزوج تارح بمن ايمتالي بنت كرناب ، فرزقا ابراهيم . وكان مولده مرصودا في الكواكب فاطلع عليه النمروذ واستشار الملأ من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات واغداق العطايا والجوائز على أهليهن ، ليفرحوا بمولد البنات .

وأحس تارح ان امرأته حامل ، فلما أراد أن يتحقق ذلك صعد الجنين الى صدر أمه فخوى بطنها ولم يظهر فيه حمل ، وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت الى كهف ولدته فيه ، وتركته ثمة وهي تدعو له ، فبقي ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث في الكهف أقل من ذلك على

روايات أخرى ، وأرسل الله جبريل يرعاه فجعل الطفل يمتص اصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان .

وخرج من الكهف ليلا وهو في الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هي الأرباب . فلما أشرقت الشمس قال : كلا . . بل هذه هي الرب . فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا . . فلما أفل قال : ما هذه بأرباب . انما الرب المعبود هو الذي يديرها ويسيرها ويبديها ويخفيها .

وفي بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوما حيث تركته فوجدت في طريقها صبيا ناميا فسألها :

ـ ماذا جاء بك الى الصحراء ؟

فانبأته بقصتها ، وعرفها بنفسه فدهشت وعجبت لطفل يكبر ويتكلم ولم يمض على مولده شهر واحد . .

قال لها : انها قدرة الله الذي يرى ولا يرى . .

ويظن جامعو الأساطير اليهودية ان وصف الله بهذه الصفة منقول من أصل عربي اطلع عليه يهود الأندلس ، ثم اختلفت تفصيلاته عند نقلها الى العبرية . .

قالت أمه وقد ازداد عجبها : أاله غير النمروذ ؟

قال : نعم يا أماه . . رب السماوات والأرض ، ورب النمروذ بن كنعان . فاذهبي وبلغي النمروذ ما سمعت .

وأنبأت زوجها تارح وكان أميرا من أمراء الملك ، فذهب اليه يطلب لقاءه ، فأذن له باللقاء فسجد بين يدية ، ولم يكن من عادتهم اذا سجد أحدهم بين يدي الملك أن يرفع رأسه بغير أمره ، فلما أمره الملك أن ينهض ويتكلم روى له القصة ففزع وفزع أعوانه ووزراؤه ، ثم ملكوا جأشهم وقالوا له : علام هذا الفزع من صبي لا حول له ولا قوة ومن أمثاله في المملكة ألوف وألوف ؟

قال لهم النمروذ : وهل رأيتم صبيا في العشرين يتكلم وينطق بمثل هذا البيان ؟ . .

وخشي الشيطان أن يسبق الايمان الى قلب الملك فبرز لهم وأزال ما بهم من

الروع ، وحرض الملك على قتل الصبي ، فحشد له جندا من القادة والفرسان وخرجوا الى الكهف الذي قيل لهم ان الصبي مختبىء فيه ، فاذا بينه وبينهم سحب لا ينفذ النظر الى ما وراءها ، واذا بهم مجفلون لا يقدرون على الثبات .

فلما عادوا الى النمروذ وشرحوا له ما عاينوه قال لهم : لا مقام لنا بهذه الديار ! وخرج من بلده الى أرض بابل فلحق به ابراهيم على جناح جبريل ، ولقي هناك أبويه ، ثم بدأ بالدعوة الى الله .

الاله الأحد الذي لا اله غيره : رب السماوات ورب الأرباب ، ورب النمروذ . وأنذرهم أن يتركوا عبادة الصنم الذي صنعوه على مثال النمروذ . فان له فما ولكنه لا ينطق ، وعينا ولكنه لا يبصر ، وأذنا ولكنه لا يسمع ، وقدما ولكنه لا يسعى ولا ينفع نفسه ولا يغني عن غيره شيئا .

وأسرع أبوه الى الملك يبلغه ان ابنه ابراهيم طوى مسيرة أربعين يوما في أقل من يوم ، ثم لحق به ابراهيم الى قصر الملك فهز عرشه بيديه وصاح به : « أيها الشقي ! انك تنكر الحق ، وتنكر الله الحي الصمد . وتنكر عبده ابراهيم خادم بيته الأمين » .

ويخاف النمروذ فيأمر تارح أن يعود بابنه الى موطنه ، ثم تتكاثر الروايات في عشرات من المصادر من كتب المدراش والتفسيرات حول ما حدث بعد ذلك بين ابراهيم وقومه ، وبينه وبين الملأ والملك وكهنة الأرباب ، مما تغني هذه الأمثلة عن تفصيله واستقصائه ، وبعضه كما تقدم معول عليه عند اليهود ، وبعضه من قبيل ضرب الأمثال بالنوادر والأعاجيب . .

وليس من المطلوب أن نتتبع هذه القصص والنوادر لأنها تستوعب ألوف الصفحات ، ولكننا نأخذ منها ما ينتظم في أغراض هذا الكتاب ، ومنها ما يدل على تفكير واضعيه ، أو يفيد عند المقابلة بين المصادر المتعارضة ، أو يلاحظ فيه الوضع لطرافته الأدبية والفنية ، أو يتمم صورة أخرى ناقصة في خبر من الأخبار .

فمما ورد في « مدراش رباه » أن أباه حنق عليه حين كسر الأصنام فخاصمه الى النمروذ ، فسأله النمروذ : ان كنت لا تعبد الصور والمشبهات فلماذا لا تعبد النار ؟

قال ابراهيم : أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذي يطفئها .

قال النمروذ : فأعبد الماء اذن ؟
قال ابراهيم : بل أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذي يحمله .
قال النمروذ : اذن تعبد السحاب . .
قال ابراهيم : وأولى من السحاب بالعبادة ريح تبدده وتسير به من فضاء الى فضاء .
قال النمروذ : فمالك لا تعبد الريح ؟
قال ابراهيم : ان الانسان يحتويها بأنفاسه فهو اذن أحق منها بالعبادة .

ومغزى الحوار ان عقل الانسان قادر بالنظر في خلق الله أن يصل الى معرفة الخالق وينكر عبادة الأوثان .

فلما أعيا النمروذ أن يخضعه سجنه ومنع عنه الطعام والماء ، ومضى عليه عام في غيابته فأيقن الحارس انه قد مات ، ولكنه ناداه : يا ابراهيم ! أأنت بقيد الحياة ؟ فسمع جوابه : نعم أنا بقيد الحياة .

فأمر الملك بضرب عنقه ، فلم يعمل فيه السيف . . فأوقد له نارا ودفع به الى أحد أعوانه ليقذف به فيها ، فلما قاربها خرج من الأتون لسان من النار والتهم الجلاد ولم يقترب من ابراهيم .

فتشاور الملأ عند الملك في أمره ، فاتفقوا على احراقه والقائه في النار من منجنيق بعيد ، مخافة من ألسنة النار . وضرع الملائكة الى الله أن ينجيه فأذن لهم أن يعملوا لنجاته ما يستطيعون ، ولكنه أبى أن يعتمد في نجاته على أحد غير الله ، واذا بالجمر من حوله كأنه فراش من الورد والريحان . .

ولم يصدق النمروذ انها معجزة من الله ، بل قال لابراهيم انها من سحرك وحيلتك . . أما الأمراء والوزراء فخذلوا الملك وآمنوا برب ابراهيم . . .

ولم تذكر التوراة ان ابراهيم ألقي في النار ، وانما ورد في سفر دانيال من أخبار بابل أن نبوخذ نصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لأنهم لم يسجدوا لصنم من الذهب . . « حينئذ امتلأ نبوخذ نصر غيظا وتغير منظر وجهه على شدرخ ، وميشخ وعبدنغو . . وأمر بأن يحمى الاتون سبعة أضعاف . . وأمر جبابرة القوة في جيشه بأن يوثقوا شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو ، ويلقوهم في أتون النار المتقدة ، ثم أوثق هؤلاء الرجال في سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم ولباسهم وألقوا في وسط أتون النار المتقدة . والأتون قد حمي جدا فقتل لهيب

النار الرجال الذين رفعوا شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو . . وهؤلاء الثلاثة سقطوا موثقين في وسط الأتون . . حينئذ تحير (نبوخذ نصر) الملك وقام مسرعا وسأل مشيريه : ألم نلق ثلاثة رجال موثقين في وسط النار ؟ فأجابوا وقالوا : نعم أيها الملك !. قال : ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار وما بهم ضرر ، ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة . ثم اقترب نبوخذ نصر الى باب أتون النار المتقدة ونادى فقال : يا شدرخ وميشخ وعبدنغو ، يا عبيد الله العلي . . اخرجوا وتعالوا !. . فخرجوا ، واجتمعت المرازبة والشحن والولاة ومشيرو الملك ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم ولم تحترق شعرة من رؤوسهم ولم تتغير سراويلهم ورائحة النار لم تأت عليهم ، فأجاب نبوخذ نصر وقال : تبارك اله شدرخ وميشخ وعبدنغو الذي أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتكلوا عليه » .

والشبه بين هذه القصة وقصة ابراهيم ظاهر ، وسماع دانيال بها في بابل له دلالته في هذا الصدد ، ولكن بعض الشراح يزعم ان القصة لم تكن معروفة قبل يوناثان بن عزييل الذي كان يجهل البابلية فالتبس عليه معنى (أور) لأنها بالكلدانية تعني النار وبالعبرية تعني النور ، وظن أن نجاة ابراهيم من « أور الكلدانيين » يعني نجاته من نار الكلدانيين .

ولكن هؤلاء الشراح ينسون أن القصة قديمة وردت في باب الفصحيات من القسم الثاني من المشنا ، وهو قسم المواعيد والمواقيت[1] : وأنها أطول أصولا وفروعا من أن تبنى على خطأ في ترجمة كلمة ، ولا سيما الكلمة التي يعرفها كل يهودي يذكر « أورشليم » ويفهم معنى أور ومعنى شليم ، وهما معروفان لأجهل القوم بالعبرية ، ومن معانيها الشعبية الشائعة دار السلام ، على صواب أو على خطأ .

وزعم شابيرا Shapira أن القصة من وضع كعب الأحبار ، ولا تعويل على أقوال شابيرا هذا لأنه زور بعض الوثائق على المتحف البريطاني ، وانكشف تزويره فبخع نفسه في روتردام (١٨٨٤) .

ومن المعلوم ان ترجوم يوناثان ـ أي ترجمته ـ كان المعتمد الأكبر فيها على شروح الربانيين ولم تكن نقلا مباشرا من نصوص التوراة .

---

(١) صحيفة ٢١٢ من المجلد الخامس من أساطير اليهود المتقدم ذكره .

ولا بد أن يلاحظ هنا أن الكنيسة السريانية التي يعيش أتباعها في بلاد الكلدان القديمة بين سورية والعراق ، والتي اشتهر آباؤها بدراسة السريانية - وهي الأرامية بعينها - لا تعتبر أن القصة ناشئة من غلطة في الترجمة وتقيم لنجاة الخليل من النار حفلا سنويا في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني .

على أنه من الراجح جدا أن اليهود رجعوا الى المصادر العربية في رواية قصص المدراش وما اليها ، لأنهم كادوا أن ينحصروا في بلاد الدولة العربية من صدر الاسلام الى القرن الثالث للهجرة وكادت بحوثهم الفقهية في ديانتهم أن تكون اقتباسا من بحوث علماء الكلام المسلمين ، وكادت اللغة العربية أن تكون معتمدهم الوحيد في الثقافة العليا والثقافة العامة ، حتى كانوا يكتبون العربية أحيانا بحروف عبرية ، ولكن الاحتراس واجب على أية حال من تلك العلل التي يستند اليها بعض المستشرقين في نسبة الأخبار الى المصادر العربية الاسلامية ، ومن أمثلة هذه العلل أن بعضهم يرد الى المصادر الاسلامية قصص المدراش التي تقول ان جبريل هدى ابراهيم الى عين ماء يغتسل فيها قبل العبادة ، فان التطهر بالاغتسال قبل العبادة شعيرة قديمة في الأديان وليست مقصورة على الوضوء في الاسلام ، وقد قيل ان الصابئة محرفة من السابحة لأنها تفرض الاغتسال في شعائرها قبل كثير من العبادات . . ولا بد من التفرقة بين المصادر العربية والمصادر الاسلامية في كثير من الروايات ، فقد يكون المصدر عربيا اسرائيليا لا علاقة له بتاريخ الاسلام . .

***

ومن أشهر الروايات في النمروذ والخليل تلك القصة التي يعللون بها اختلاف الألسن بين الأمم ، وخلاصتها ان النمروذ هذا أراد أن يتحدى اله ابراهيم فبنى له برجا عاليا وصعد عليه ليناجز الله في سمائه ، ثم طفق يرمي السماء بالسهام حتى عاد اليه سهم منها وقد اصطبغ بالنجيع الأحمر ، فخيل اليه أنه أصاب مرماه ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض وسقط معه قومه ، ونهضوا من سقطتهم وهم يتصايحون بكلام لا يفهمونه ، لأن السماء أرسلت عليهم سهاما من الصواعق زلزلت البرج وقوضت أركانه وتركتهم في بلبال حائرين لا يدرون ما يفعلون وما يقولون ، ولا يفقه السامع منهم ما يقال له أو يفعله في حيرته .

قال الرواة : ولهذا سميت المدينة في موضع البرج « يابل » من تبلبل الألسنة والأفكار .

* * *

ويندر الاتفاق على أصل قصة واحدة من القصص التي تفيض بها كتب المدراش وحواشيها ، بل تروى الأسماء والأعلام أحيانا على روايات متعددة ، ومن ذلك أنهم يذكرون سارة باسم اسكاح Iscah ويقولون انها مأخوذة من النظر ، ويوحدون بين اسم ابراهيم واسم ايثان الازراحي في المزمور التاسع والثمانين ، ويقولون ان داود كتبه بمشاركة الخليل .

وللتوحيد بين الاسمين هنا دلالة خاصة ، فان ايثان الأزراحي منسوب الى زارح وينطق بهمزة في أوله على العادة في النطق بالساكن ، وقد تكون الحاء والياء للنسبة كما يقولون في (مزراحي) بمعنى مصري ، ويكون ايثان منسوبا الى آزر ، وهو الاسم الذي ذكر في القرآن كما سيأتي بيانه في المصادر الاسلامية .

ومن الواجب أن يلتفت هنا الى المقاربة بين زارح وزارع وتارح ، وقد تقدم ان لاسم تارح علاقة بحبوب الزرع التي تلتقط قبل تمكنها من التربة . .

فلا محل اذن لنقد الاسم كما جاء في القرآن الكريم ، اعتمادا على ذلك الاختلاف اليسير في اللفظ القديم ، وقد ذكر يوسبيوس Eusobius المؤرخ المسيحي اليوناني أن أبا ابراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم بعضهم - ومنهم سنكلر تسديل ، صاحب كتاب مصادر الاسلام ، وهو من أشد المتعصبين قدحا في الاسلام - ان للاسم أصلا في الفارسية القديمة بمعنى النار . .

* * *

ومن الاختلاف في الأخبار المدراشية التي اتصلت بالتاريخ أن بعضها أنكر أن يقال عن الخليل انه عالم بالنجوم ورد على الربيين الأقدمين الذين زعموا أنه كان يحمل في قلبه زيجا فلكيا يكشف به الغيب لمن يسألونه من ملوك الشرق والغرب ، فقال صاحب مدراش رباه انه نبي وليس بمنجم ، واتصلت هذه الروايات المدراشية بالتاريخ فقال يوسيفوس المؤرخ الاسرائيلي المشهور ان الخليل درس علم النجوم ولكن في مصر لا في بابل واستند في ذلك الى رواية

ارتبانوس Artapanus الذي زعم أنه أقام بمصر عشرين سنة واطلع على أسرار الكهانة وعلم الفلك وطوالع النجوم ، وفي قصة أخرى لم يذكرها يوسيفوس يقال ان ابراهيم هو الذي علم المصريين الفلك والتنجيم .

ولكن كتب المدراش تتفق على وصف الخليل بالسماحة والكرم والعطف على خلق الله من الانسان والحيوان ، ومن أحاديثها في ذلك أن ابراهيم سأل ملكي صادق : كيف خرجت سالما من سفينة نوح ؟ فقال له بالخير الذي فعلناه .

قال ابراهيم وما الخير الذي تفعله في سفينته ؟ هل كان في السفينة من فقير تسدي اليه المعروف ؟ ان نوحا قد حمل معه بنيه فهل كان فيهم فقير ؟

قال ملكي صادق : بل كان معنا الحيوان والطير وكنا لا ننام حتى نطعمها ونسقيها . .

وقد عاش ابراهيم حياته يطعم الفقير ويحسن الى الانسان والحيوان ، ويفتح بابه للضيفان ولا يجلس الى الطعام الا اذا نادى على الرائح والغادي في الطريق ليجلس معه الى طعامه .

وما من علامة أدل على صدق النسب الى ابراهيم من نظرة سليمة (لا تحسد) ونفس مطمئنة وقلب وديع .

وتذكر « مدراش رباه » فيما تذكر أن ابراهيم شفيع أمته يوم القيامة ، وأنه يقف على باب جهنم فلا يدع اسرائيليا مختونا يدخلها . ومن عظمت سيئاته منهم وحرم التوبة في آخرته فلن يدخل النار مختونا ، بل توضع له جلدة من جلود الأطفال الذين ماتوا قبل الختان . وصحت لهم نعمة الغفران . .

* * *

أما (سارة) فقد خصتها (المشنا) بقسط كبير من الأخبار والنوادر ، ولم يخل منها خبر أو نادرة من خلاف كثير . .

فهي تارة أخت غير شقيقة لابراهيم ، وهي تارة بنت أخيه الذي مات قبل الهجرة الى كنعان . .

وهي المرأة الوحيدة التي خاطبها الله ، وهي نبية تنظر الى الغيب وتدعو الله أن ينقذ ذرية ابراهيم مما سيلقون من المحن والشدائد ، ولكنها في مواطن كثيرة

تعاقب لمخالفة السنن وضعف اليقين .

ولم تخلق امرأة قط بجمال سارة . فأجمل النساء بالقياس اليها كالقرد الممسوخ . . وقد بلغ من فتنة جمالها أن ابراهيم لم يملأ منها عينيه ، وانما لمح خيالها في الماء وهم يعبرون بعض الجداول الى مصر ، فخاف على فرعون وقومه فتنتها ، وحملها في تابوت وهم يعبرون تخوم الديار .

وسأله عمال المكوس عما في التابوت فأنبأهم أنه شعير . . قالوا بل نأخذ المكوس على قمح قال : خذوا ما تشاؤون ، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار ، فأجابهم الى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدي الضريبة على وسق التابوت ذهبا فقبل وأعطاهم سؤلهم . فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم ، ففتحوا التابوت عنوة فاذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشي عين فرعون .

ولما حاول فرعون أن يقترب منها رصد له حارسها من الملائكة فجعل يضربه على يده كلما بسطها ، وعلى قدمه كلما سعى اليها ، وأصبح فاذا هو مصاب بالجذام وبالعنة ، واذا بنذير من الله ليرسلن الوباء على فرعون وقومه ان لم يرجع سارة الى ابراهيم . .

ويفسر بعض المدراش عقمها بأن الله أحب أن يسمع صلواتها ، ويفسر عقمها في مدراش آخر بأنها قد نزهت عن خلقة الرحم ويروى في كثير من الحواشي أنها أرضعت مائة طفل يوم ختان اسحاق .

وبعض الحواشي يتكلم عن فرعون ابراهيم وفرعون يوسف كأنهما ملك واحد . .

فلما شكا فوطيفار الى فرعون لأنه أقام عبده الذي اشتراه بعشرين دينارا حاكما على مصر - يعني يوسف الصديق - قال يوسف : بل أنت اقترفت خطيئة عظمى يوم اشتريت أميرا من نسل سام بالثمن كما يشترى العبيد ، وانما يشترى بالثمن أبناء كنعان ، وان أردت برهانا على نسبي فدونك التمثال الذي صنعه فرعون لجدتي سارة ، فهو ينبئك بالشبه الذى بيني وبينها ، ثم جاؤوا بالتمثال فاذا بالشبه بينه وبين يوسف جد قريب . .

والكلام على أبي سارة يدور تارة على حاران وتارة على تارح فمن أقوال

الحواشي عن حاران أنه احترق بالنار حين اقترب منها ، لأنه قاربها ممتحنا لقدرة الله ، ومن أقوالها عن تارح انه عاش حتى رأى اسحق في الخامسة والثلاثين من عمره .

وأشهر الروايات عن تارح أنه كان مثالا يصنع الأصنام ، وان ابراهيم اهتدى الى ضلال هذه العبادة لأنه رأى أباه يصنعها ويصلحها ، وكان يبيعها لأبيه ، فعجب للذين يشترونها كيف يعبدون صنما مصنوعا بالأمس ومنهم من جاوز الخمسين .

وكان لناحور - أخي ابراهيم - صنم يسمى زيوكس Zucheus والى جانبه صنم يسمى جوآف وأولهما مصنوع من الذهب والثاني مصنوع من الفضة ، وأما الأصنام الأخرى فمن الخشب أو الطين .

وحاور ابراهيم أباه - وقد رأى الأصنام تحترق ذات يوم - فقال له : يا أبت ! ان النار أحق بعبادتك من أصنامك ، لأنها تحرقها ، ثم قال : « بيد أني لا أحسب النار الها لأن الماء يخمدها ، ولا أحسب الماء الها لأن الأرض تبتلعه ، ولا أحسب الأرض الها لأن الشمس تجففها وتنشر على الكون كله أشعتها ، ولا أحسب الشمس الها لأن الظلام يحجبها ، ولا أحسب القمر والنجوم التي تظهر في الظلام آلهة لأنها تحتجب عند طلوع النهار ، وانما الاله القدير على كل شيء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها ، وخالقي وهادي الى الحق المبين .

ولم يستمع اليه أبوه فذهب الى أمه وسألها أن تعد طعاما للاصنام ، ثم أهوى على الأصنام يحطمها ووضع القدوم في يد كبيرها ، وأسرع أبوه على صوت الحطام فسأله : ماذا دهاها ؟ قال : هذا أنحى عليها فكسرها ولا يزال القدوم في يديه ، فصاح به أبوه : انك لتكذب فما في وسع هذا الصنم أن يفعل ما زعمت ، قال ابراهيم : عجبا لك يا أبتاه ! تعبد هذه العجزة التي لا تقدر على ضرر ولا نفع ، ثم وثب على الصنم الكبير فأخذ القدوم من يده وضربه فألقاه ، وهرب من وجه أبيه .

ونختم الاقتباس من المرويات الاسرائيلية برواية الكتاب الذي يسمونه سفر التكوين الصغير ، وينسبون اليه الدقة في ايراد التواريخ بأرقام السنين والاعتدال في أسلوب الكلام على المبالغات والتشبيهات الوثنية ، ونعني به كتاب اليوبيل .

فهذا الكتاب يقول ان نوحا عليه السلام توفي بأرض الكلدانيين سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد ، وأن تيرحا أو تارحا أبا ابراهيم ولد سنة ١٨٠٦ وولدت زوجته « ادنا » ابنه ابراهيم سنة ١٨٧٦ وسماه « ابرام » على اسم أبي جدته لأمه واسمها ملكة ، وهذا بحساب السنين من تاريخ الخليقة .

***

وهذه الأخبار والنوادر تزدحم بها مئات الحواشي والتفاسير ، ومعظمها مسطور في المجلدات السبعة التي جمعت أساطير اليهود وسبقت الاشارة اليها ، وكل ما عداها فهو من قبيلها .

وحقيقتها التي نخرج بها منها جميعا أنها مرويات متواترة بالسماع ، يتناقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، ولا يظهر فيها الاعتماد على النصوص المكتوبة ولا سيما نصوص التوراة ، لأنها تخالف هذه النصوص وتناقضها أحيانا ، وبينها ولا شك روايات متأخرة في تصورها وروايتها ، ولكنها تبنى على قديم ثابت ولا تخلق شيئا من لا شيء ، فلا بد وراءها من أصل منقول غير الأصل المكتوب ، وليست نصوص العهد القديم هي الأصل الوحيد الذي تدور عليه هذه الحواشي والتعليقات .

المراجع المسيحية

المصادر المسيحية المتفق عليها بين الكنائس هي الأناجيل الأربعة وما يلحق بها من أقوال الرسل والحواريين ، وهي المعروفة بالعهد الجديد . . .

وهذه الكتب لم تزد شيئاً على سيرة الخليل كما جاءت في سفر التكوين وبعض كتب العهد القديم ، ولكنها جاءت بتطور هام في دعوته كما تلقاها اليهود في عصر الميلاد ، ويبدو هذا التطور الهام في مسائل ثلاث من كبريات المسائل الدينية ، وهي مسألة الحياة بعد الموت ، ومسألة الوعد الالهي للشعب المختار وعلاقته بالقومية أو الانسانية ، ومسألة الشعائر وعلاقتها بالروحانيات والجسديات .

ففي عصر الميلاد كانت طائفة كبيرة من اليهود وهي طائفة الصدوقيين تنكر القيامة بعد الموت ولا ترى في الكتب الخمسة دليلا واضحا عليها ، وكانت الطوائف الأخرى تؤمن بالثواب والعقاب على الجملة ولكنها لا تتوسع في وصفها ولا ترجع في هذا الوصف الى سند متفق عليه .

وكانوا اذا وصفوا سوء المصير عبروا عنه بالذهاب الى الهاوية (شيول) واذا وصفوا الرضوان قالوا عن الميت انه انضم الى قومه ، أو اجتمع بقومه ، وفي أذهانهم صورة غامضة عن وجود هؤلاء القوم في عالم غير عالم الحياة الدنيا . .

وانتشرت بين أهل فلسطين من اليهود وغيرهم عقائد المصريين في اليوم الآخر ، لأنهم كانوا يترددون على الاسكندرية ، كما كان أهل الاسكندرية يترددون عليهم ، ولم تكن في العالم معاهد للثقافة والبحث أكبر من معاهدها ، غير مستثنى من ذلك رومه ولا أثينا ولا المدن الشرقية التي كان لها قبل ذلك شأن مذكور في العلم والفن والحكمة .

وانتشرت بينهم كذلك عقائد الفلاسفة اليونانيين في خلود الروح والتمييز بينها وبين الأجساد التي يعرض لها الفناء .

فلما ظهرت الدعوة المسيحية جاءت بوصف للعالم الآخر لم يكن معهوداً في كتب اليهود ، ولكنه وصف لا سبيل لهم الى الاعتراض عليه ، لأنه قائم على قاعدة من دعوة ابراهيم . . ففي مسألة الحياة بعد الموت ضرب لهم السيد المسيح مثل ابراهيم والعازر والرجل الغني في العالم الآخر فقال :

« كان انسان غني يلبس الارجوان والبز وينعم كل يوم في رفاهة ، وكان عند بابه رجل مسكين مطروح مضروب بالقروح يشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدته ، بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه ، فمات المسكين وحملته الملائكة الى حضن ابراهيم ، ومات الغني ودفن فرفع عينيه في الهاوية وهو يتعذب ، ورأى ابراهيم من بعيد والعازر في حضنه ، فنادى وقال : يا ابراهيم ! ارحمني ، وارسل العازر ليبل طرف اصبعه بماء ويبرد لساني ، لاني معذب في هذا اللهب .

« فقال ابراهيم : يا ابني ، اذكر أنه استوفيت خيراتك في حياتك واستوفى العازر بلاياه ، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب ، وفوق هذا بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت ، حتى ان الذين يريدون العبور من ها هنا اليكم لا يقدرون ، ولا الذين من هناك يجتازون الينا ، فقال : اسألك اذن يا أبت أن ترسله الى بيت أبي ، لان لي خمسة إخوة يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً الى موضع العذاب هذا .

« قال له ابراهيم : عندهم موسى والانبياء ليسمعوا منهم ، فقال : لا يا أبي ابراهيم ، بل اذا مضى اليهم واحد من الاموات يتوبون . فقال له : ان كانوا لا يسمعون من موسى والانبياء فمن قام لهم من الاموات فما هم بمصدقيه[1] » .

والشراح يقولون ان هذه العظة يجوز أن تكون خبراً ويجوز أن تكون مثلا ضربه لهم السيد المسيح من قصة معروفة لديهم ، ويقول لوثر كلارك Lowther Clarke شارح التوراة والانجيل ان اسم العازر « اليعازر » معناه « ايل آزر » أو الله أعان ، وأنه من الأسماء التي قد تطلق على المجهولين عند ضرب الأمثال (كما نقول في اللغة العربية زيد وعمرو وبكر وخالد) وقد سبق مثله في كلام

---

(١) انجيل لوقا الاصحاح السادس عشر

ابراهيم عن خدام داره . . . قال : وان في مأثورات مصر قصة شبيهة بها عن مصير المحسن والمسيء يجوز أن تكون معروفة بين يهود فلسطين ولم يذكر اسم علم قط في مثل من أمثلة السيد المسيح غير هذا المثل .

وأيا كان المعتمد من أقوال الشراح فلا خلاف بينهم على امر واحد ، وهو وصف الحياة الأخرى وما فيها من الثواب والعقاب بهذه الصفة ، فانه معنى جديد لم يسبق له مثيل في كتب العهد القديم ، واذا استثنينا كتاب المكابيين ـ وهو من الكتب المختلف عليها ـ فلم تأت عبارة حضن ابراهيم أو غيره من الأنبياء بهذا المعنى في كتاب من كتب التوراة .

قال « جورج ستمبسون » Stimpson في مصنفه الذي سماه « كتاب عن الكتاب » :

« كان رجاء الحياة بعد الموت مقصوراً في أيام العهد القديم على البعث الذي سيعقب ظهور المسيح ، ولكن الكلام عن السماء والجحيم وحضن ابراهيم كان شائعاً على عهد عيسى (عليه السلام) بين طوائف من اليهود ، ومن ثم مثل الغني والعازر في انجيل لوقا ، وفيه يقول عيسى : فمات المسكين وحملته الملائكة الى حضن ابراهيم . من هذه العبارة أصبح حضن ابراهيم مرادفاً لمعنى النعيم أو السماء » .

وقد ورد في سفر أيوب أن نفسه سترى الله بغير الجسد حيث يقول في الاصحاح التاسع عشر « وبعد أن يفنى جلدي هذا ، وبدون جسدي ، أرى الله » . . . وورد في المزمور السادس عشر « انك لن تترك نفسي في الهاوية » . . . وورد في الاصحاح الثاني عشر من سفر دانيال : « وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء الى الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار . . . » .

ولكن ورد في سفر التكوين أن الهاوية مصير جميع الموتى ، وجاء على لسان يعقوب في الاصحاح السابع والثلاثين ، وهو يبكي على يوسف : وقال : اني أنزل الى ابني نائحاً الى الهاوية » .

وهكذا جاء على لسانه في الاصحاح الثاني والأربعين : « تنزلون شيبتي بحزن الى الهاوية » .

وجاء على لسان أيوب في الاصحاح الرابع عشر « ليتك تواريني في الهاوية

وتخفيني الى أن ينصرف غضبك وتعين لي أجلا فتذكرني » .

وانما يأتي البعث من القبور بعد ظهور المسيح كما جاء في الاصحاح السابع من سفر دانيال : « والمملكة والسلطان ، وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسي العلي » .

وكل ما ورد في العهد القديم باسم جهنم فهو في الاصل العبري باسم شيول أو الهاوية .

أما عقيدة الحياة بعد الموت للأبرار والأشرار فقد وضحت في عصر المسيح على نحو لم يكن معروفاً قبله ، ولم يكن المفهوم في ذلك العصر أن الأبرار يذهبون فعلا الى صدر ابراهيم ، وانما كان المقصود أن ابراهيم يرحب بذريته في عالم الرضوان .

***

ومن العقائد التي ظهرت مع المسيحية أن رسالة ابراهيم روحية وليست جسدية ، وأن المقصود بذريته من يسيرون على نهجه ويعملون بوصيته ، فهي رسالة انسانية وليست عصبية مقصورة على قوم من الأقوام . .

ففي الاصحاح الثامن من انجيل متى يقول السيد المسيح :

(الحق أقول لكم لم أجد في اسرائيل ايماناً بمقدار هذا ، وأقول لكم ان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السماوات وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة الخارجية . .) .

ومثل هذا في كلام يحيى المغتسل ـ أو يوحنا المعمدان ـ (. . اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم : لنا ابراهيم أبا ، لأني أقول لكم ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم) .

وتكرر هذا المعنى من كلام السيد المسيح في انجيل لوقا حيث جاء في الاصحاح الثالث عشر :

« اني اقول لكم ان كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون من بعد أن يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجاً وتقرعون الباب قائلين : يا رب ! ايا رب افتح لنا . . يجيب ويقول لكم : لا اعرفكم من اين

انتم . . تباعدوا عنا يا جميع فاعلي الظلم . هناك يكون البكاء وصرير الاسنان ، متى رأيتم ابراهيم واسحاق ويعقوب وجميع الانبياء في ملكوت الله وانتم مطروحون خارجاً ، ويأتون من المشارق ومن المغارب ، ومن الشمال والجنوب ، ويتكئون في ملكوت الله ، وهو ذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين » .

وفي الاصحاح الثاني من انجيل يوحنا أن المسيح قال لليهود الذين آمنوا به : « انكم ان ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم » فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط ، فكيف تقول انكم تصيرون أحراراً ؟ قال : الحق الحق أقول لكم : ان من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى في البيت أبداً . أما الابن فيبقى الى الابد .

ثم قال : لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم ! . .

وقال بولس غير مرة ان الختان لا يجعل الانسان ابناً لابراهيم وانما أبناؤه من يسلكون في خطوات الايمان ، وان ابراهيم « أب لنا جميعاً والله جعله أباً لأمم كثيرة » .

كما جاء في رسائل بولس الى أهل رومية « لأن الكتاب يقول : ان كل من يؤمن به لا يخزى ، ولا فرق بين اليهودي واليوناني ، لأن رباً واحداً للجميع » . . « وان حكم الناموس يتم بالروح لا بالجسد » . . « وان اهتمام الجسد موت ، وأما اهتمام الروح فهو الحياة والسلام » .

***

وتوسع الشراح المحدثون في التعليق على أقوال بولس الرسول وأمثالها فقال الدكتور جورج دنكان Duncan في أحدث تفسيراته لرسالة بولس الى أهل غلاطية « مما له بعض المغزى أنه في حين أن قصة ختان ابراهيم تقوم عى المصدر المتأخر لكتب التوراة الخمسة الذي نسميه بنسخة الكهان ، فان معظم قصص ابراهيم . . . ترجع الى مصادر نسخة يهوا وألوهيم التي تقترن بتعاليم الأنبياء الأولى ، وهي تشف عن نزعة دينية لا تخالف الشرعيات التي برزت خلال فترة النفي وحسب ، بل تناقضها ، ولا جرم تنزل هذه القصص منزلة الرضى والاعجاب عند اليهود الذين كانوا في الأزمنة المتأخرة لا يعطفون على منهج الشرعيين ، ومن ثم كان الفيلسوف فيلون الاسكندري المشهور بالتوفيق

الكبير ، ويبدو في الاصحاح الحادي عشر من الرسالة الى العبرانيين أنه كان في ذلك الحين اتجاه مستعد في بعض البيئات لاعتبار حياة ابراهيم كلها دائرة حول الثقة بالغيب » .

يريد الشارح الحديث بالتوفيق الذي اشتهر به الفيلسوف فيلون توفيقه على الخصوص بين مذهب الروحيين المتعلقين بالايمان ووجدان النفس ، وبين الشرعيين أو الكهان الذين كانوا يتشددون في المراسم والشعائر وكل ما يعتمد في القيام به على الكهانة والوظائف الهيكلية ومنها الختان وأعمال الطهارة والكفارة ، وهذه هي الشعائر التي كان كهان اسرائيل يحرصون عليها في منفاهم ببابل ، ابقاء على معالم العبادة الاجتماعية ، وخوفاً من نسيانها واندثارها اذا وكل الأمر كله الى عقائد الوجدان في نفوس الآحاد متفرقين ، وقد كان فيلون مطلعاً على نسخ التوراة الأولى ، ومنها نسخة يشير فيها سفر التكوين الى ابراهيم باسم الخليل قبل أن تعرف هذه التسمية في كتب الأنبياء .

وقد نقل بولس بعض الشعائر من المدلولات الحسية إلى المدلولات النفسية الرمزية وانفتح الباب واسعاً لهذا التحول منذ قال السيد المسيح ان أعمال الانسان هي التي تطهره أو تنجسه ، ثم مضى بولس في هذا الطريق على الرغم من معارضة بطرس وزملائه ، لأنه أدرك ان اشتراط الختان ومراسم البيع والهياكل لقبول الوثنيين في الدين الجديد عائق شديد يوشك أن يصدهم جميعاً عن الاصغاء اليه ، وقد انتهى الأمر في القرون الحديثة الى اسقاط هذه المراسم في مذهب اليهود الذين سموا أنفسهم بالأحرار أو يهود الاصلاح ، وشاع مذهبهم منذ القرن التاسع عشر بين اليهود الغربيين .

وتتابعت تفسيرات الآباء للشعائر الجسدية بالرموز النفسية من القرن الأول للميلاد ، فأخذ بها معظم الكنائس الشرقية والغربية وفيما يلي مثال من تفسيرات هذه الرموز منقول من كتاب الدر الثمين في شرح سفر التكوين .

« ان الخطيئة هي غلفة النفس ، فاذا نحن تعمدنا ختن روح القدس تلك الغلفة التي جعل الله غلفة اللحم اشارة اليها ، وانما غلفة اللحم اذا اختتنت لا يمكن عودتها ، واما هذه الغلفة التي هي الخطيئة فاذا ختنها روح القدس يوم

---

(١) طبع سنة ١٨٩٥ بمصر ونقل من نسخة خطية كتبت سنة ١٤٠٩ قبطية البطرق وتصديره

المعمودية وطهر الانسان منها فالشيطان يعود فيقده بها فينبغي له ان يقاتله دائماً ولا يفعلها » .

الى أن يقول : « أما قول الله لابراهيم ان ملوكاً تخرج منك فليس بملوك ارضية يمتدح الله ويفخر ، ولو كان ذلك كذلك لكان للكفرة فخر كبير لكثرة الملوك منهم بل في الوقت الذي امره الله بالختان قال له : ان ملوكاً تخرج منك ، وحقق ذلك ان الذي يختتن الختانة الروحانية المتقدم ذكرها فعقله يكون ملكاً وحاكماً على أفكاره وعلى شهواته ولذاته . . » .

***

وظلت أخبار التلمود والمدراش عن ابراهيم شائعة بين المسيحيين كما كانت شائعة قبل الميلاد ، لأنهم يرجعون الى العهد القديم وشروحه وتفسيراته ، ولكنهم اعتبروا أن بشائر ابراهيم كلها مرهونة بظهور المسيح الذي يكون الخلاص على يديه ، ومن أجل المسيح تلقى ابراهيم تلك البشائر من الله ، فانتشرت الكرامات والمعجزات التي نسبت الى الأنبياء والآباء قبل الميلاد انتشاراً كبيراً في صدر المسيحية وزمناً طويلا بعد نشأتها الأولى الى ما بعد القرون الوسطى ، وجعل الرواة المسيحيون يلحقونها بمعجزات المسيح ويحسبونها مقدمة لا تتم الا بنتيجتها الموعودة ، وهي دعوة المسيح الى النجاة .

وعمد بعضهم الى تفسير كتب العهد الجديد بهذه العقيدة في أقوال غير معتمدة ولكنها سرت بين السواد والعلية كما سرت من قبل تفسيرات العهد القديم . .

فمن أمثلة ذلك عبارة وردت في رسالة بطرس الأولى حيث يقول في الاصحاح الثالث :

« ان المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا . . مماتاً في الجسد محيي في الروح[1] وبالروح أيضاً ذهب فوعظ الارواح التي في السجن . اذ عصت قديماً حين كانت اناة الله تنتظر مرة في أيام نوح » .

فبنى بعضهم على هذه العبارة قصة لا يعتمدها المفسرون الكتابيون وقالوا في تفسيرها ان السيد المسيح هبط الى الهاوية ـ سنة ثلاث وثلاثين للميلاد ـ وأطلق

---

(١) يقول الدكتور وندل هاريس Harris ان كلمة اخنوخ حذفت من نسخة قديمة في هذا الموضع ، ويكون أخنوخ على هذا هو الذي وعظ الارواح . . . تراجع ترجمة Moffat طبعة سنة ١٩٥٠ صفحة ٢٩٥

منها أرواحاً صالحة ذهبت اليها قبل بعثته ، ولم تكن لها جناية تعاقب عليها ولكنها كانت في حاجة الى التطهير بماء العماد لتدرك نعمة النجاة . .

وسرت هذه القصة من السواد الى العلية من أمثال الشاعر الايطالي الكبير دانتي اليجيري صاحب الكميدية الالهية ، فقال في القصيدة الرابعة من الحوار بينه وبين الشاعر الروماني القديم (فرجيل) قائده في طبقات الهاوية :

« لم تكن ثمة شكاة تسمع الا الانين الذي يهز الاجواء الابدية ، وكان ينبعث من تلك الاحزان التي لا عذاب فيها : أحزان الجموع المتكونة من الاطفال والنساء والرجال . فقال لي استاذي : انك لم تسأل عن هذه الارواح التي تراها هنا . وأود أن أعرفك بها قبل أن نتقدم في طريقنا .

« انها لم تخطىء ، وكان لها فضل ، ولكنه لا يغنيها لحاجتها الى العماد وهو الايمان الذي أنت به تدين . .

« فانها تقدمت عصر المسيح فلم تعبد الله على سواء ، ومن هذه الارواح كنت المتحدث اليك . .

« ولهذا النقص ـ لا لنقص غيره ـ ضاعت أرواحنا ، وكل ما نقاسيه من الجزاء ضيق الحاجة بغير رجاء . .

« فغشي قلبي حزن عظيم عند سماعه ، لانني أعرف اناساً ذوي فضل كبير معلقين في تلك الطبقة . .

« وقلت له : أخبرني يا أستاذي . اخبرني . وأردت اليقين من هذا الايمان الذي يغلب كل خطأ : ألم يخرج من هذا المكان أحد خرج منه بفضله أو بفضل غيره وأدركته النجاة بعد خروجه ؟

« وفهم طوية كلامي فأجابني قائلا : « لقد كنت هنا حين لمحت قادماً جليلا عليه اكيل النصر ، فاذا هو قد بدا فأخذ في الظل أبانا الاقدم ـ ادم ـ وابنه قابيل ونوحاً وموسى المشترع المطيع ، ثم ابراهيم الاب وداود الملك ، واسرائيل واباه وبنيه ، ومنهم راحيل التي صنع من أجلها الكثير وأخرج غيرهم ، وباركهم ونجاهم ، واعلم أن أحداً قبل هؤلاء لم يكن نبياً » .

وبهذه الصبغة وما شابهها سرت أخبار العهد القديم وتفسيراته بين المسيحيين ، ثم تفرق رأي الكنائس المسيحية في النظر الى العهد القديم ، فمنها

ما يعتبره وحياً منزلاً بجميع تفصيلاته ، ومنها ما يقصر الوحي على كتب الشريعة وهي الكتب الخمسة التي تعرف بكتب موسى ، ومنها ما يعتبره كله أخباراً تاريخية أو وقائع مروية في صيغة شعرية .

وعلى حسب النظر الى هذه الكتب يختلف النظر الى ابراهيم من حيث اعتقاد العصمة أو الخطيئة .

فمن اتباع الكنيسة الانجيلية من ينقد مسلك ابراهيم حين قال ان سارة أخته ولا يبالي أن يصرح بالنقد في كتب التدريس كما فعل الأستاذ وليام نكلسون حيث قال في موسوعته الموجزة عن التوراة تحت مادة ابرام :

« ان مسلك ابرام هنا هو أحد المواقف التي نميل الى اسدال الستار عليها في سيرة هذا الرجل الجليل . لقد كان عملا لا يوائم مقام تلك الشخصية العظيمة . ولا جرم ففي وجه الشمس سفعات ، ومثل هذا دليل على صدق تاريخ الكتاب وأن مؤرخيه لم يستروا نقصاً قط في أحسن الناس[١] .

ومن شراح الكنائس الأخرى من لا يلوم ابراهيم على هذا المسلك ويشيد به لأنه أسلم نفسه الى مشيئة الله وأيقن أنه لن يخذله ولن يصنع ما يعاب ، فهو آية على ايمانه وغلبة الثقة بتدبير الله على وساوس الخوف والريبة في نفسه .

ويتوسط بعضهم بين النقد والاعجاب كما فعل الدكتور جويلبود Guillebaud فيقول :

« ان هذه الخطايا سجلت بأيدي فاعليها وبرضاهم وموافقتهم ، وحفظها أبناؤهم وذراريهم من بعدهم . فلم كان ذلك ؟ ان شيئاً من هذا لم يسجل على ملوك بابل ومصر ، وتكاد سيرتهم أن تبدو كاملة نقية من العيوب ، وقد محيت من تلك الصور كل وصمة وجليت فيها كل زينة . ولكن من يا ترى من ذوي العقل السليم بعد هذا يود أن يتبع مثال رمسيس أو نبوخذ نصر كما يود المسيحيون أن يدرسوا حياة ابراهيم ويعقوب وداود ؟ ان العلة غير بعيدة المنال . فان أبطال العهد القديم اناس حقيقيون لهم حس كحسنا وشعور كشعورنا ، وسيرتهم صادقة الخبر وعيوبهم سافرة للنظر ، فمن هدف السيرة الامينة يستطيع القارىء أن يبصر النذير ويتقي مثل هذه السقطة ، ويغنم مع

---

(١) Bible Student's Companion

هذا شجاعة والهاماً من قدوة الايمان المنتصر في تلك السير . . » .

***

وكذلك تبدو لنا صورة الخليل كما تمثلت في المراجع المسيحية من كتب العهد الجديد ومن المرويات الشعبية التي تناقلتها الألسنة وسرت الى كتب الأدب ذات الصبغة الشعرية الى ما بعد القرون الوسطى .

وقد عنيت المراجع المسيحية في العصر الحديث بناحية من تاريخ الخليل أهم من تلك المرويات الشعبية في نظر القارىء العصري وهي الناحية التاريخية . .

فالمراجع المسيحية تشغلها هذه الناحية في القرن الأخير بعد أن شاعت بدعة الشك في وجود أقطاب الأديان ، وفي مقدمتهم ابراهيم وسلالته الأولون . .

وليست الناحية التاريخية عامة هي التي تعنينا في هذا الباب لأننا سنفرد لها باباً خاصاً يدور على الكشوف الحفرية والبحوث المتقابلة في أقوال المؤرخين المحدثين .

ولكن الناحية التاريخية التي نعنى بها في هذا الباب ـ باب المراجع المسيحية ـ هي الناحية التي تفرغ لها الدارسون ليلحقوها بالكتب الدينية وشروح العهدين القديم والجديد ، فهي مقصورة على هذه الناحية ، ومحورها الغالب عليها هو المضاهاة بين تواريخ الكتب الدينية والمواقيت التي اتصلت بها من تاريخ الأمم الغابرة .

***

فمن أحدث هذه المراجع كتاب « موجز التعليقات الحديثة على الكتاب » من تأليف نحو ثلاثين عالماً من علماء اللاهوت في انجلترا ، وكلهم من المطلعين على كشوف الآثار التي لها علاقة بتواريخ التوراة والأناجيل .

يذكر المؤلفون في الفصل الذي عنوانه « العالم في أيام ابراهيم » أن لوحاً من الألواح التي كشفت بمدينة أور قد وجد عليه نقش باسم « ابراما » يرجع على ما يظهر الى زمن سابق لزمان ابراهيم ، ومن هذه الكشوف لوح آخر منقوش عليه شريعة حورابي وفيها أحكام مماثلة لأحكام الشريعة الموسوية ، ومع هذه الكشوف ألواح كتبت عليها جداول للضرب ومعجمات للمفردات اللغوية وسجلات لأنظمة الحكومة وأسانيد بما وصل الى الهياكل من حساب القرابين .

فقد نشأ ابراهيم اذن في مدينة ليست بالهينة والعالم يومئذ قديم . .

ويشيرون في هذا الفصل الى نقوش كشفت على جدار قبر من القبور الأثرية بقرية بني حسن بمصر يرجع تاريخها الى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، وبين تلك النقوش صورة قافلة مؤلفة من سبعة وثلاثين من الساميين بقيادة أبيشوا Abichua يحملون بضائع بلادهم ليستبدلوا بها غلة مصرية (صفحة ٨٥) .

وأشاروا الى كلمة « عبري » ومعناها ، فقالوا انها وجدت في آثار « رم سن » سلف حمورابي ، كما وجدت في نص من النصوص البابلية التي كشفت في بلاد الحيثيين الأقدمين من آسيا الصغرى - وتسمى إليوم بوغاز كوي - ووجدت كذلك في نصوص حورانية عند بلدة توزي بالعراق وكان لها معنى أعم من معناها الخاص بعد ذلك بأبناء اسرائيل ، ويفهم منه أن الكلمة كانت مرادفة لكلمة الجنود الرحل الذين يستأجرهم قادة الجيوش .

قالوا : وان عاصمة الحيثيين التي رفعت عنها الانقاض سنة ١٩٠٦ قد كشفت فيها ألواح بالخط المسماري دلت على مفتاح اللغة الحيثية ، وأن الحيثيين كانوا يتكلمون لغة هندية جرمانية على مشابهة باللاتينية ، وقد نزحوا من الشرق الى آسيا الصغرى وامتدت دولتهم شرقاً الى الفرات وجنوباً الى قادش ، وهم بنو « حث » الذين أشار اليهم ابراهيم في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين اذ يقول : « وكلم بني حث قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم ، اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي » . .

وقالوا : ان أسماء الملوك التي وردت في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين قريبة من بعض الأسماء التاريخية ، فاسم امرافل قريب من اسم حمورابي البابلي وتدعال قريب من تدخاليا الحثي والأسماء الأخرى وجدت لها مشابهات من هذا القبيل ، ولكن لا يوجد الدليل القاطع على وحدة المسمى . .

وكان الرعاة أو الهكسوس (هاك شاسو) يحكمون مصر من الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة السابعة عشرة ، وفي هذه الفترة حدثت هجرة الآباء العبريين الى الديار المصرية .

***

ومن كتب التعليقات كتاب كالذي تقدم في موضوعه ، الا أنه أوسع شرحاً وأحدث عهداً ـ لأنه طبعته المنقحة سنة ١٩٥٢ ـ وعنوانه « تعليقات موجزة على الكتاب » ، ومؤلفه جوزيف انجوس Angus من أكبر فقهاء اللاهوت .

يقول مؤلف هذا الكتاب « ان الآثار تحتمل أن أمرافل ـ الذي حارب ابراهيم ـ هو حمورابي الذي كان ملكاً على بابل سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، والحفريات المسمارية تربط بين اسمه واسم معاصره « أري آكو » . . في حين أن كدلعومر يشابه قدار لعمار بمعنى خادم لعمار أحد الأرباب الكبار في شرق الدجلة السفلى ، واسمه منقوش على حجر من ألواح حمورابي ، وكان هذا قبل ارتباط أرض اسرائيل ببلاد شنعار بعدة قرون .

قال المؤلف : وكانت مصر عند هجرة ابراهيم ثم هجرة يعقوب وآله ، خاضعة لحكم الرعاة المكروهين الذين تسلطوا على مصر أكثر من خمسمائة سنة ، ومن ثم كان الترحيب بابراهيم ثم الترحيب بيعقوب واقطاع قومهم أرضاً في البلاد . .

قال : وفي عصر ابراهيم كانت في أرض فلسطين الجنوبية جالية من الحيثيين ، ولكن عاصمتهم كانت الى الشمال تمتد كما جاء في كتب العهد القديم من لبنان الى الفرات .

وقال عن « أور الكلدانيين » مدينة ابراهيم انها كانت في الموضع الذي يسمى الآن المقير على الفرات الأدنى ، ولم تكن في أورفة كما خطر لبعضهم من قبل لتشابه اللفظ بين أورفة وأور .

وتقول تعليقات ابنجدون Abingdon التي اشترك في تأليفها نحو سبعين عالماً من علماء التاريخ الديني والتوراتي :

« على حاشية الهلال الخصيب انتشرت خلال الفترة التاريخية جماعات من القبائل الرحل تشتغل بالصيد تارة وبالغارات تارة أخرى وبالمرعى بين هذا وذاك ، وهم الذين نسميهم في الزمن القديم بالاراميين ، ومع استحالة الحياة المستقرة على الزراعة أو التجارة أو تقسيم الحقول وسكنى المدن في ظل ذلك النظام الاجتماعي ـ يميل القوم الى تجميع أنفسهم في جوار مركز من مراكز الحضارة يعاملونه ويتجرون معه وقد يتصلون معه ببعض الصلات السياسية .

« وفي وسع أمثال هؤلاء القوم أن يعيشوا على انتاج قطعانهم وصيدهم .

ولكنهم غالباً ما يعتمدون على صلتهم بالمدينة ـ كما يحدث اليوم في الجزيرة العربية ـ لتحصيل غلات الحقل ومصنوعات المعمل بالمقايضة على مقتنياتهم . .

« ان تاريخ العبريين الرسمي يبتدىء بقبيلة من هذه القبائل سكنت الى جوار مدينة أور في جنوب العراق ، وعند نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد هاجر فريق منهم الى الشمال بقيادة رئيس يسمى تارح ، كما جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين .

« وربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسي في جنوب العراق ، أصابت جرائره معيشة أهل أور ، ولعل هذا الاضطراب قد نشأ من تحول السيطرة السياسية من المدن العراقية الى قبائل عيلام ، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة في مدينة أور ، وهذا الفرض يرجع بالحركة الى ما بين سنة ٢٣٩٠ وسنة ٢٠٠ قبل الميلاد ، وكيفما كانت الحقيقة ، فالهجرة قد حصلت ونزل القوم فترة بجوار حاران الى شمال الهلال الخصيب .

« ومما يستحق الملاحظة أن كلا من أور وحاران كانت في القدم مركزاً لعبادة الاله ـ سن ـ اله القمر من معبودات الساميين ، وسيلفانا اسمه مرة أخرى في شبه جزيرة سينا .

« وظلت طوائف من القبائل تترحل غرباً وجنوباً ، حيث صادف بعضها أرض المرعى والزرع وادي الفرات والاقاليم الجبلية المخصبة ، فاستقروا في مدن أشهرها دمشق ، ومضت طائفة أخرى بقيادة ابرام بن تارح (وابن قد تكون هنا بمعنى سليل) الى أن استقر بها السير البطيء عند فلسطين وهي يومئذ في ظل حكومات المدن المتفرقة ، ولم تزل الهجرة في مجراها تارة الى غرب الاردن وتارة الى شرقه ، وحيناً من دمشق وحيناً من شرقها الى الحدود المصرية ، وخلال ذلك تمر بنا قصة عن علاقة مباشرة بين مصر وهؤلاء البدو ، وأخبار عن العلاقات بين الآباء العبريين وسكان كنعان المستقرين » .

ثم يسترسل كاتب التعليقات فيقول ان بعض العبريين وصل في هجرته الى أرض جاثان بمصر ، ويرجح أن دخولهم لاول مرة كان على عهد دولة الرعاة أو الهكسوس ، بين القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب . .

* * *

وترجح تعليقات هالي Halley الجيبية أن أمرافل هو حمورابي أشهر ملوك البابليين ، وأن كارثة سدوم وعمورة التي حدثت في عصر ابراهيم تقترن بالخراب الذي قضى على سكان المدن هناك حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كما ظهر من كشوف بعثة البرايت وكيلي Albright and Kyle سنة ١٩٢٤ .

ويضع هالي للحوادث المصرية مقابلا من حوادث التوراة ، فيضع عصر ابراهيم مقابلا للاسرة الثانية عشرة حوالي سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر يوسف مقابلا للاسرة السادسة عشرة سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد ، على سبيل الاحتمال ، وعصر موسى مقابلا للاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بين سنتي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد ، وتظهر الغرابة في تقديرات هالي ومدرسته عند الرجوع الى عصر ابراهيم وعصر يوسف وبينهما في تفديره نحو ألف ومائتي سنة ، والمعلوم أن يوسف بن يعقوب وأن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، وهذا مع اعتماده أحياناً على نقوش الآثار وحسبانه أن وفد الساميين المرسوم على مقابر بني حسن ، قد يكون وفد ابراهيم على الفرعون سنوسرت الذي يظن أنه كان على عرش مصر في ذلك الحين .

ومن أصحاب التعليقات التوراتية المعروفين بالتحرج في التقدير لوثر كلارك Clark صاحب التعليقات التي تقع في ألف صفحة كبيرة وتجمع من أطراف المعلومات ما لم يجتمع في مرجع آخر بمثل حجمها[1]

فهذه التعليقات تضع عصر حمورابي حوالي سنة ١٩٠٠ ق م وعصر الآباء العبريين في كنعان بين سنتي ١٩٠٠ و ١٧٠٠ ق . م وعصر يعقوب وأبنائه في مصر حوالي سنة ١٧٠٠ ق . م ، ونهاية عصر الهكسوس حوالي سنة ١٥٥٠ ق . م .

ويرجح كلارك ـ اعتماداً على الآراء الحديثة ـ أن عصر حمورابي متخلف عن عصر الوقائع التي تنسب الى امرافل بمائة سنة أو أكثر ، وان امرافل وحمورابي لا يدلان على شخص واحد ، وان الغور العميق الذي تملأه أمواه البحر الميت أقدم جداً من الوقت الذي قدر لخراب المدن المذكورة في قصة ابراهيم ، ويتساءل : ما هو الباعث الذي أتى بالملوك الخمسة الى الأردن جنوباً قبل مواجهة أعدائهم الذين يحاربونهم ، وهو لا يستبعد أن يكون جيش من البابليين والعيلاميين معاً قد زحف على جهات في ذلك الموقع لارغام القبائل على أداء الجزية أو الضريبة التي تفرض على رؤوس القبائل .

---

(١) Concise Bible Commentary

ويعتمد كلارك على الظواهر الأرضية (الجيولوجية) كثيراً فيرى أن العيون الحمر التي أشار اليها الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين هي في الغالب من النفط الذي يتكاثف بالتبخر ويطفو على الماء كما كان يحدث على سطح البحر الميت ، ولا مانع أن يشاهد على وجه الأرض قبل امتلاء الغور بالماء ، ويرتبط خراب المدن التي وردت قصتها في سيرة ابراهيم بهذه الظواهر الأرضية التي يمكن أن تستقصى في يوم قريب ،فيبنى على استقصائها تحقيق محكم لتاريخ تلك الأحداث .

ويضارع هذا الكتاب في الصبغة العلمية الكتاب الذي ألفه جماعة « دراسة العهد القديم » واشترك في تأليفه أكثر من عشرة من علماء هذه الدراسات ، وهو كتاب العهد القديم والدراسة الحديثة[1] .

يقول الأستاذ البرايت Albright وهو أحد أصحاب البعوث للكشف عن الآثار :

« ان مسألة الهكسوس لا تزال على عسرها ، ولكنها آخذة في التكشف والابانة عن الحوادث التالية بعد البحوث التي تناولها ونلوك وستوك كاتب هذه السطور ، فنحن نعلم اليوم أنها لا بد أن ترجع الى الفترة بين سنتي ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد وان قيادة الهكسوس في يد الساميين ولم تكن حورية أو هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدرون الى زمن قريب . . » .

الى أن يقول بعد استطراد وجيز عن مقبرة توت عنخ آمون :

« ولكن أهم من هذا كله ـ ثقافياً ـ تلك الاوراق البردية التي كشفها شستر بيتي Beatty من آثار عصر رمسيس بما احتوته من الدلالة على مدى النهضة الادبية في ذلك العصر الذهبي ، ونخص منها بالذكر من حيث فائدتها لدارس التوراة تلك القصائد الدرامية التي تنبيء عن نظم أناشيد سليمان ، وان خالفتها كثيراً في التفصيلات ، وتلك الترنيمة المقاربة لعقائد التوحيد التي تدل على استمرار التوحيد الشمسي من العمارنة بعد وقوف كهنة آمون له بالمرصاد » .

ويقول هذا الكاتب ومعه زميل من المشتغلين بالكشوف في فلسطين :

« ان فلسطين لم تدخل في قصص التوراة قبل هجرة ابراهيم من حاران ولا يمكن بأي تقدير من التقديرات أن توضع تلك الهجرة في تاريخ سابق لنهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تأتي بعد ذلك بقرون ، ويبدو واضحاً من مأثورات سفر التكوين أن هناك دوراً متوسطاً من العصر البرونزي بين القرن

---

(١) The Old Testament of Modern

الحادي والعشرين والقرن السادس عشر قبل الميلاد » .

ويتحدث عن كشوف رأس شمرا في الشمال المقابل لجزيرة قبرس من شاطىء بحر الروم ، أنها غيرت الصورة التي كانت مرتسمة للحضارة الكنعانية في أذهاننا كل التغيير ، وأنها أثبتت أن حضارة كنعان كانت تمتد في العصر البرونزي المتأخر من غزة جنوباً الى رأس شمرا شمالا « أغاريت القديمة » وان اللغة والديانة والحضارة كانت واحده في هذا البقاع ، ولم يكن اختلاف اللغة الا من قبيل اختلاف اللهجات . . وانما نرى اختلاف الصناعة الفخارية وغيرها من البقايا المادية بارزاً بيِّنا عند الجانب الأسفل من نهر العاص حيث تتضح الملامح الحورية والأمورية في معالم الثقافة العليا ولا يلحظ على الساحل مثل هذا الاختلاف .

ثم يتحدث عن كشوف تل الحريري عند وادي الفرات الاوسط فيقول :

« ان الاستاذ أندري باروت وزملاءه أخرجوا من الانقاض قصراً كبيراً من العصر البرونزي الاوسط ، كان مزدهراً في أواخر القرن الثاني عشر وفاقاً للتقديرات التي تتقدم بعصر حورابي الى ما بين سنتي ١٧٢٨ و١٦٨٦ قبل الميلاد . .

« وقد أخرجوا في هذا الموضع نقوشاً فذة على الجدران وبقايا فنية أخرى ، وفوق ذلك نحو عشرين ألف لوحة وأعشاراً من اللوحات من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، كلها باللغة الاكادية التي تأثرت أحياناً باللغة الامورية التي يتكلمها أبناء القبائل في ذلك الاقليم . . وفائدة هذه المكشوفات التي كسرت الان جواجز البحث في دراسات التوراة ستأتي في أكثر الاحوال من طريق غير مباشر ، ولكنها لا تنقص بذلك في قيمتها ، اذ كانت الثقافة العالمية في عصر الآباء العبريين وراء كل تطور في آسيا الغربية ، وسيصبح ميسوراً لنا عما قريب أن نركب أجرومية اللغة الامورية ومعجماتها من تلك الامورية الاكادية التي كان يكتب بها كتاب ماري في الوادي الاوسط من نهر الفرات ، ويظهر أن هذه اللغة التي تتخلل أسماء الاعلام هي لغة الاباء العبريين في لبابها ، وانها على التحقيق لغة الكلام الذي نتمثله في أعلام الفلسطينيين الرحل والمقيمين التي وردت في الحفريات المصرية التي ترجع الى القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد[1] » .

---

(١) سيأتي بيان الاهمية الكبرى التي ينطوي عليها هذا الكشف الخطير لانه سيحدد العلاقة بين اللغات السامية القديمة ومنها الاكادية لغة بابل والعبرية لغة الخليل والارامية لغة العرب الشمالية واللغة العربية على العموم ، ويتبع ذلك الاستدلال على أصول المعتقدات عند ابناء هذه اللغات .

ثم يعرض الكاتب لكشوف تل العطشانة على نهر العاص الأسفل وكشوف حماة على أواسط النهر فينوه منها على الخصوص بسيرة حياة الملك ادريمي المنقوشة على تمثاله الذي يمكن تاريخه أن يكون قريباً من سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ، وفي هذه السيرة حوادث وقعت في سورية الشمالية مشابهة للحوادث في قصة يوسف ، ولعلها كانت تتجمع حوال نواة من عصر الهكسوس ، وقد أشارت سيرة ادريمي الى غيرة اخوته الكبار وقحط السنوات السبع وضروب من الحدس لاستطلاع الغيب .

ثم يعرض للكشوف التي أبرزت المنافسة بين حضارة الحيثيين والاراميين وحضارة اسرائيل ودمشق .

وينتقل الى كشوف الريحانية في الناحية الجنوبية من سهل انطاكية وما لها من القيمة في الاستدلال على العصر الحديدي ، وأهم ما فيها بقايا هيكل من القرن التاسع قبل الميلاد على رسم قريب من رسم هيكل سليمان الذي بني في القرن العاشر .

ويستطرد الى كشوف قليقية على مقربة من حدود سورية الشمالية ، وأسانيدها ترجع الى ما بين سنتي ٨٥٠ و٦٥٠ قبل الميلاد ، ولها شأنها في دراسة تطور اللغة العبرية .

ويتناول الأستاذ هنيمان Heinneman من جامعة سانت اندروز بحثاً لغوياً عن العبرية ، فيقرر فيه أن الارامية ـ وهي العربية الشمالية ـ كانت سابقة في سورية وفلسطين لكل من اللغتين الكنعانية والعبرية ، معتمداً على كشوف رأس شمرا ، وعلى المحسنات الكنعانية التي اشتملت عليها رسائل تل العمارنة ويردها الى نحو ١٣٧٥ قبل الميلاد .

وتختم هذه الشواهد بمرجعين تقليديين من مراجع هذا الموضوع وهما أطلس وستمنستر التاريخي ، وموسوعة وستمنستر المنقحة طبعة سنة ١٩٤٤ ، وهما خاصان بجغرافية التوراة والعهد الجديد وتاريخهما ، وقد توفر على تأليفهما من وجهات النظر المتعددة نخبة من علماء هذه المباحث المشتغلين في الكتب الأثرية والكتب العصرية بدرسها في الآثار والحفريات وبالاطلاع على سجلاتها ومدوناتها .

هذان المرجعان متفقان مع أحدث المراجع المتقدمة على تقريب عصر الآباء العبريين ، واستضعاف الأقوال التي توغل به في القدم ، وقد وضع الأطلس التاريخي عصر ابراهيم بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ووضع عصر حمورابي في ختام هذه الفترة ، وعرض لقصة سنوحي الموظف المصري الذي

غادر بلاده (حوالي سنة ١٩٠٠ ق . م) وعاش بين الأموريين في سورية الشرقية ، ولاحظ المشابهة بين الأمكنة التي أقام فيها سنوحي على نحو من البداوة وبين الأمكنة التي عاش فيها على هذا النحو آباء العبريين ، ورجح أن وفد الساميين المرسوم على مدافن بني حسن قدم الى مصر في عصر القصة السنوحية وأن الدولة المصرية التي كانت قائمة بمصر هي الأسرة الثانية عشرة وقد بسطت حكمها على سورية وفلسطين وأدارت حركة واسعة من التجارة البحرية بين مصر وقبرس وكريد وشواطىء البحر الأحمر ، وبلغت بحدودها الجنوبية الى الشلال الثاني حيث أقامت حصن الحدود عند سمنه ، وكانت لها بعثات الى سيناء للكشف عن معادن النحاس والفيروز ، وأخرى الى أرض النوبة للكشف عن معادن الذهب .

وجاء في هذا الأطلس أن التاريخ حقق وجود بلاد في أرض حاران تطلق عليها أسماء كأسماء آباء ابراهيم : فالج وسروج وناحور وتارح ، وان اسم حاران نفسها قريب من اسم أخ لابراهيم ، وان وحدة الاسم قد تأتي مصادفة في حالة شخص واحد ولكنها هنا متفقة في أربعة أسماء على الأقل في حيز محدود ، والمهم في هذه الملاحظة أن كتاب الأطلس يحسبون أن هذه البلاد حملت أسماء القبائل التي أنشأتها أو أن القبائل أطلقت عليها أسماءها بعد الاستيلاء عليها في القلاقل التي حدثت حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

واستطرد كتاب الأطلس من تشابه أسماء الآباء والمدن الى الأسماء التي كانت شائعة بين الأموريين ، ومنها ابرام في صيغة أبا مرام ويعقوب في صيغة يعقوب ابل ، وذكروا أن اسم قبيلة بنيامين وجد في ألواح الحفائر بوادي الفرات الأوسط ، وأن حفائر توزي في وادي الفرات الشمالي اشتملت على وصف عادات اجتماعية تفسر عادات الارث والزواج وأصنام الأسرة (الطرافين) التي أشارت اليها كتب العهد القديم ، وأن عصر تلك الحفائر يوافق العصر الذي دون فيه الاسرائيليون كتب التوراة وما بعدها من الكتب القديمة ، وهذا عدا الآثار التي روت أخبار الطوفان واخبار الخليقة مما لا نظير له في مأثورات مصر أو كنعان .

ومن الطبيعي أن يعنى الأطلس بالمواقع الجغرافية في سياق التاريخ ، وكذلك عني الأطلس في سيرة ابراهيم بمواقع رحلاته الى مصر في ذهابه وعودته ، ومنها أرض الجنوب بين قادش وشور ، وتعرف الآن باسم وادي غزة ، وهو واد كان له شأن في تاريخ بني اسرائيل الى ما بعد خروجهم من الديار المصرية . .

أما الموسوعة التي تحمل اسم وستمنستر أيضاً ـ مع اختلاف المؤلفين ـ فهي توافق المراجع الحديثة كذلك في تقريب زمان الآباء ، وتقرر أن وحدة اسم حمورابي واسم أمارفيل محل مناقشة واعتراض في المباحث الأخيرة ، وأن الحاق ايل باسم أمارفيل مشكلة تستوقف انظار الباحثين المتأخرين . .

وبعد أن ذكرت أن تاريخ حمورابي وضع في عصور مختلفة بين سنة ٢١٢٣ وسنة ١٨٣٠ قبل الميلاد عادت فقالت ان الكشوف الحديثة ترجح وضعه بين سنتي ١٧٩٢ و١٧٥٠ أو ١٧٤٩ ، وأن شريعته المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية في سفر الخروج من التوراة ، وان أسلوب المواد يتشابه في ابتداء الجمل كما تتشابه العقوبات ولا سيما عقوبات القصاص . . قالت : وبعيد أن يكون شريعة حمورابي أمام المشرع العبري عند تدوين احكامه ، ولكن المحتمل أن الشريعتين ترجعان الى أصل سامي قديم .

وترى الموسوعة ـ اعتماداً على تقدير الأسقف يوشر ـ أن مولد ابراهيم يوافق سنة ١٩٩٦ ق . م ، وأن طريق الجيوش التي حاربها ابراهيم كما جاء في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين كانت الى الجنوب على حافة جلعاد وموآب ، وتدل كشوف العالمين الأثريين البرايت وجلويك على أن هذا الطريق تخللته فيما مضى مدن هامة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م ، وظلت عامرة نحو قرن أو قرنين لا أكثر ، وفي رواية سفر التكوين أن سدوم وعمورة دمرتا في حياة ابراهيم ، ومن كشوف جلويك يظهر ان المدن التي على هذا الطريق ظلت مقفرة الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكنها في القرن العشرين ق . م كان محجة دينية حافلة بجوار المكان الذي يعرف الآن باسم باب الدرعة . فمن المعقول اذن أن يكون مولد ابراهيم حوالي الزمن الذي قدره الأسقف يوشر ، وأن سدوم وعموره خربتا حوالي سنة ١٨٩٨ قبل الميلاد .

وتقول الموسوعة ان اسم مرافل ـ أحد الملوك الذين حاربهم ابراهيم ـ يصعب تعيين صاحبه كما يصعب تعيين زملائه الآخرين ، ولكن هذه الأسماء جميعاً لا يبدو عليها أنها اختراع من مخترعات الخيال . اذ ليست غارة الأمراء البابليين على فلسطين وما جاورها أمراً نادراً في تلك الأيام .

ونكتفي بما تقدم من هذه المراجع التاريخية التي ألحقناها بالمصادر المسيحية ، وقد ألحقناها بها لان كتابها في جملتهم يدونون التاريخ من الجانب الذي له علاقة

بكتب العهد القديم والعهد الجديد ، وتغلب عليهم رغبة في تدوينه على النحو الذي يصحح أخبارها وينقض مآخذ الناقدين عليها ، فهو باب في التاريخ غير الباب الذي سنفرده لأقوال المؤرخين للحوادث من الوجهة العامة .

وليس أهم من تمحيص هذه الأقوال لمن يريد أن يحقق سيرة الخليل عليه السلام . اذ هي ألزم ما يلزم لمعرفة العقائد والشعوب في عصره ، ومن هنا تنجلي حقيقة الرسالة وبواعثها ومبلغ الخلاف والوفاق بينها وبين ما حولها ، وكل شيء يتوقف على تقدير أحوال الزمن بعد تعيينه ، وتقدير أحوال الشعوب في ذلك الزمن بعد التثبت من مواقعها وعلاقاتها .

وفيما أسلفناه بصيص من النور نرجو أن نضيف اليه بصيصاً آخر يفيض على جوانب السيرة جميعاً ، بعد الفراغ من تلخيص هذه الشواهد والمصادر . .

المراجع الاسلامية

وتأتي مصادر الاسلام في ختام مصادر الأديان الكتابية ، وسنرى أنه ما من شيء كالمصادر الاسلامية يثبت قيام دعوة ابراهيم ، بل يثبت وجود ابراهيم الذي شك فيه أصحاب بدعة الشك في كل خبر قديم من غير سند يستندون اليه ، ولا نعني هنا أدلة تاريخية تستمد من روايات الأخبار ، وانما نعني دليل التسلسل المنطقي الذي يصدق حين تكذب التواريخ ، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه ، ونكتفي هنا بايراد أخبار الخليل في المصادر الاسلامية وهي : القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، والتفسير وما يلحق به على سبيل التفصيل أو الاستطراد .

وردت أخبار الخليل في سور كثيرة ، بعضها الى الاسهاب وبعضها الى الايجاز ، وهذه هي الآيات التي جمعت سيرته في بيان مفصل .

فمن سورة مريم :

« واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً ، اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ، يا أبت اني قد جاءني من العلم مالم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ، قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرني ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفياً ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى الا أكون بدعاء ربي شقياً » .

ومن سورة الأنبياء :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذا قال لأبيه وقومه ما هذه

التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم انت من اللاعبين قال بل ربكم رب السماوات والارض الذي فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين وتالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين » .

ومن سورة الصافات :

« وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون أإفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين فأقبلوا اليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » .

ومن سورة البقرة :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا

الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم زبنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » .

ومن سورة آل عمران :

« كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل عل نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً » .

ومن سورة البقرة :

« ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن اتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي واميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » .

ومن سورة الانعام :

« واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به

الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من تشاء ان ربك حكيم عليم » .

ومن سورة ابراهيم :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الاصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ربنا إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » .

ومن سورة الحج :

« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

ومن سورة البقرة :

« واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهم جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم ان الله عزيز حكيم » .

ومن سورة الذاريات :

« هل آتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة (بفتح الصاد) فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك انه هو

الحكيم العليم قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين » .

ومن سورة هود :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ان هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود » .

ومن سورة النحل عن دين ابراهيم :

« ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » .

ومن سورة الأنعام عن دين ابراهيم والاسلام :

« قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

ومن سورة آل عمران عن دين ابراهيم والاسلام وسائر الأديان :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » .

هذه جملة الآيات التي جاء بها القرآن الكريم مطولة في سيرة ابراهيم ، او مشيرة الى دعوته وما فيها من سابقة للدعوة الاسلامية ، ولا حاجة بمن يكتب عن الدعوة الاسلامية الى ابراز جانب منها لاثبات الانتقال من العقيدة المحصورة في

عصبية خاصة الى العقيدة التي تعم كل أمة وتخاطب كل ملة ، فهذه المساواة بين الأمم هي صبغة الاسلام في كل جانب من جوانب دعوته من مبدئها الى ختامها .

أما أخبار ابراهيم في القرآن فمنها ما تقدم في التوراة والمشناه ، ومنها ما انفرد به القرآن . ومداره على أمرين :

أحدهما خاص بالوقائع ، وهو قيام ابراهيم واسماعيل الى جوار البيت الحرام ، والآخر خاص بالنظرة الدينية وهو على جانب عظيم من الدلالة في هذا المقصد ، لأنه يبين الفارق بين التجسيم والتنزيه في العبادة على مدى الزمن الذي انقضى بين كتابة أسفار العهد القديم وقيام الدعوة المحمدية .

فالضيوف الثلاثة الذين ورد ذكرهم في سفر التكوين كانوا يأكلون ويشبعون من الطعام ، وكان مفهوماً من أسلوب بعض النسخ القديمة ان واحداً منهم هو الاله ، ثم أصبح مفهوماً أنه ملك يتكلم باسم الاله ومعه صاحباه من السماء .

الا أن القرآن الكريم يروي قصة هؤلاء الضيوف ولا يروي أنهم أكلوا وشبعوا ، بل جلسوا الى الطعام ولم تصل أيديهم اليه ، وسألهم ابراهيم أن يأكلوا فلم يفعلوا ، فأوجس منهم خيفة وعلم من ثم أنهم من غير البشر وأن لهم شأناً غير شأن ضيوف الزاد والمقام .

ان هذه النقلة ليست بالأمر الهين في تاريخ بني الانسان . فان النوع الانساني قد انتقل من استخدام مادة الحجر الى استخدام مادة الحديد في عشرات الألوف من السنين ، فهذا الانتقال بين العقل الذي يقصر عن ادراك مخلوق سماوي يخالف الأجساد الحية في مطالبها المادية ، وبين العقل الذي تهيأ للتمييز بين الحياة الروحية والحياة المادية ، هو الانتقال الذي يؤرخ به عصران في حياة بني الانسان ، بينهما من الفارق أبعد جداً مما بين عصر الحجر وعصر النحاس وعصر الحديد .

***

وأهم المصادر الاسلامية بعد القرآن الكريم أحاديث النبي عليه السلام ، ومنها طائفة عن الخليل تصفه وتصف أعماله وتلم بسيرته ، وللفقهاء فيها

خلاف . اذ كان بعضها ينسب أموراً الى الخليل لم يعهد في الأحاديث النبوية أن تنسبها الى الانبياء .

والحكم في هذا الخلاف ان الأحاديث التي يرويها الآحاد لا يجوز أن تخالف أصول الاعتقاد لأن الآحاد يجوز عليهم الخطأ والكذب ، ومثل ذلك لا يجوز في العقيدة ، ولا سيما العقيدة التي يقررها الكتاب .

وقد أخذ الامام الفخر الرازي بهذا الحكم في تفسيره ، ودارت حوله مساجلة بين الشيخ عبد الوهاب النجار ولجنة العلماء التي راجعت كتابه عن قصص الأنبياء ، فقال رحمه الله :

« نص العلماء على ان الحديث اذا كانت روايته آحاداً وفيه نسبة المعاصي أو الكذب الى الأنبياء يرد » .

« ففي شرح العصام على العقائد النفسية بعد أن ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه : اذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية ، فما كان منقولا بطريق الآحاد فمردود ، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره ان أمكن ، أو محمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعث » . .

وجاء في الحاشية عليه قوله : فما كان منقولا بطريق الآحاد سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ الى الرواة أهون من نسبة المعاصي الى الأنبياء . .

ونحن نمهد بهذه الملاحظة للاحاديث التي ننقلها ، ونختار من الأحاديث ماله علاقة بصميم السيرة وندع للقارىء ان ينظر فيها وبين يديه ما تقدم من أقوال الفقهاء . .

ففي بعض الأحاديث أن ابراهيم كان أشبه الناس بالنبي عليهما السلام . .

وعن أبي هريرة قال :

« قال النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به : لقيت موسى . قال فنعته . فاذا رجل حسبته ـ مضطرب ـ رجل[1] الرأس كأنه من رجال شنوءة[2] قال :

---

(١) الشعر الرجل بسكون الجيم ما كان بين الجعد والمرسل

(٢) ازد شنوءة ، قبيلة عربية مشهورة

ولقيت عيسى . فنعته النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت ابراهيم وانا اشبه ولده به » .

وعن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما ، فذكروا الدجال فقال : انه مكتوب بين عينيه كافر ، وقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ، ولكنه قال :

« أما ابراهيم فانظروا الى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة ، كأني أنظر اليه اذا انحدر في الوادي يلبي » .

وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« عرض علي الانبياء ، فإذا موسى عليه السلام رجل ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، فرأيت عيسى بن مريم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت ابراهيم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم » .

وعن ابن عباس :

« دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت فوجد فيه صورة ابراهيم وصورة مريم ، فقال : أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة ، هذا ابراهيم مصور فماله يستقسم ؟ » .

وعن ابن عباس انه عليه السلام لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، ورأى ابراهيم واسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله ! والله ان استقسما بالازلام قط .

وعن أبي هريرة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اختتن ابراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم .

وقال ابن عباس في قصة هاجر : « ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم ، في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم منطلقاً فتبعته أم اسماعيل فقالت : يا ابراهيم . . أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال

نعم . قالت اذن لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .. وجعلت أم اسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى . . فانطلقت كراهية أن تنظر اليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر احداً فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي . ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات . .

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فلذلك سعى الناس بينهما . . . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت : صه ! تريد نفسها ، ثم تسمعت أيضاً فقالت : قد اسمعت ان كان عندك غواث ؛ فاذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم ! وقال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا معيناً . قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فان هذا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله .

« فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم مقبلين على طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً ، فقالوا : ان هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جرياً أو جريين ، فاذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا . . قال : وأم اسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا نعم .

« قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فألفى ذلك أم اسماعيل وهي تحب الأنس . فنزلوا وأرسلوا الى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى اذا كان بها

أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حتى شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت خرج يبتغي لنا رزقاً ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقال : نحن بشر . نحن في ضيق وشدة ، وشكت اليه . قال : فاذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام ، وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، وسألني : كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك . قال اسماعيل ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى ، وغاب عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم فلم يجد اسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا الرزق ، قال كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله فقال ما طعامكم ؟ قالت اللحم ، قال فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل ، قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم وهو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . . قال ذاك أبي ، وأنت العتبة . أمرني أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا اسماعيل ! ان الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك . قال وتعينني ؟ قال : أعينك ، قال : فان الله أمرني أن أبني هنا بيتاً ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني واسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » .

هذه القصة التي رواها ابن عباس وتخللها بكلمات للنبي عليه السلام هي أطول خبر عن ابراهيم نقله رواة الحديث .

أما الاحاديث التي أشرنا الى الخلاف عليها بين الفقهاء ، وعلماء الاصول فمنها الحديث التالي وفيه غنية :

حدث أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لم يكذب ابراهيم النبي عليه السلام قط الا ثلاث كذبات : اثنتين في ذات الله قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة في شأن سارة ، فانه قدم أرض جبار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس ، فقال لها : ان هذا الجبار ان يعلم انك امرأتي يغلبني عليك ، فان سألك فاخبريه انك اختي ، فانك اختي في الاسلام ، فاني لا اعلم في الارض مسلماً غيري وغيرك ، فلما دخل ارضه رآها بعض اهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها ان تكون الا لك ، فأرسل اليها فأتى بها ، فقام ابراهيم عليه السلام الى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك ان بسط يده اليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت . فعاد فقبضت أشد من القبضتين الاوليين ، فقال : ادعي الله أن يطلق يدي فلك عهد الله الا أضرك . ففعلت واطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : انك انما اتيتني بشيطان ولم تأتني بانسان . فاخرجها من أرضي واعطها هاجر . . قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها ابراهيم عليه السلام انصرف فقال لها : مهيم[1] . قالت خيراً . كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً .

قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء !

وليس بعد القرآن والاحاديث النبوية من مصدر يصح أن يسمى اسلامياً غير أقوال المفسرين . .

وانما تسمى أقوال المفسرين مصدراً اسلامياً حين تكون مقصورة على تفسير معاني القرآن وألفاظه أو الاستشهاد بالأحاديث النبوية . فأما ما عدا ذلك فلا ينسب الى الاسلام . وانما المرجع فيه الى الاخبار المروية عن النسابين وأصحاب الاخبار عامة ، ومنهم اليهود الذين أسلموا والنسابون الذين توارثوا تواريخ أسلافهم بالسماع .

فمن اليهود الذين أسلموا كعب بن ماتع الحميري الذي اشتهر باسم كعب

---

(١) مهيم بسكون الهاء وفتح الياء اسم فعل بمعنى ما خبرك . وهي منحوتة من « ماها يوم » العبرية بمعنى مايومك أي ما خبرك .

الاحبار ، كان من علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر ، وعاش في المدينة زمناً ثم خرج الى الشام بعد مقتل عمر فأقام بحمص ومات فيها . ومنهم وهب بن منبه وهو من يهود اليمن أيضاً وكان من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى الى اليمن ثم أسلم وتوفي في عهد الدولة الأموية ، وكلاهما كثير الرواية والنقل عن الكتب الاسرائيلية ، ويظن بهما انهما وضعا كثيراً مما روياه .

والمعلوم أن المسلمين في صدر الاسلام لم يتحرجوا من النقل عن أهل الكتاب الا فيما يناقض القرآن الكريم . لأن المسلم يؤمن بالكتب التي تنزلت قبل القرآن ويؤمن بأن العقائد التي تخالف عقيدته منها تحريف من الكهان والاحبار وأنهم يجهلون بعض ما عندهم من الآيات ويخفون بعضها أو يتحملون له التأويل .

فاذا دخل عالم من علماء اليهود في الاسلام ونفى من روايات دينه ما يخالف القرآن ثم يتحرج المسلم أن يستمع اليه فيما ينقله عن كتبه ، وأمن له واعتبره من العلم الذي سبقه اليه أهل الكتاب ، وكذلك فعل كثير من المفسرين ، وبالغوا في الطمأنينة الى أولئك الرواة وفاتهم أنهم ان سلموا من سوء النية لم يسلموا من الجهل وضعف السند وقلة التثبت والتمحيص . .

وكان الفاروق والامام علي رضي الله عنهما ينهيان كعب الأحبار عن الافاضة في رواياته وأساطيره ، وسخر الفاروق منه حين زعم له أن مقتله مكتوب في التوراة ، ولم يثبت أحد من جلة الصحابة شيئاً من تلك الأساطير ، ولكن كعب الاحبار وأمثاله قد طاب لهم أن يتحدثوا بتلك الأساطير التي ينفردون بدعواها فأفرطوا فيها وجعلوا يطرقون السامعين بجديد كلما نفد قديمهم المعروض وآنسوا من السامعين اقبالا على هذه البضاعة التي لا يزاحمهم فيها أحد من المسلمين .

الا أن المصادر الاسرائيلية لا تستوعب كل ما وعاه العرب قبل الاسلام من تواريخ عقائدهم ، ولا سيما العقائد التي تلصق بالكعبة ونشأتها واقامة الشعائر فيها وأسباب تلك الشعائر منذ أقدم عصورها ، ومن الخطأ أن يقال ان الروايات عن بناء الكعبة تلفيق من اليهود لارضاء العرب والتقرب اليهم بتوحيد النسب بينهم والارتفاع بنسبهم جميعاً الى جدهم ابراهيم . فان نسبة العرب الى اسماعيل بن ابراهيم مكتوبة في سفر التكوين ، ومن العرب الذين كانوا يجهلون التوراة من كانوا ينسبون أنفسهم الى (نبات) بن اسماعيل كما جاء في تاريخ ديودورس الصقلي المتوفى بعد منتصف القرن الأول للميلاد ، وقد كانت

الروايات ترتفع ببناء الكعبة الى آدم والى الملائكة ولا تقف بها عند ابراهيم وجاء فيما رواه التقي الفاسي صاحب كتاب شفاء الغرام ان الكعبة بنيت عشر مرات : بناء الملائكة وبناء آدم وبناء أولاده وبناء ابراهيم وبناء العمالقة وبناء جرهم وبناء قصي بن كلاب وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء الحجاج ، ثم قال ان بناءها قبل ابراهيم لم يأت به خبر ثابت ، وقال المسعودي ان بناء الملائكة وآدم وشيث لم يصح ، وأما بناء جرهم والعمالقة وقصي فهو ترميم ، وتوسع الأرزقي صاحب كتاب أخبار مكة غاية التوسع في هذه الروايات التي لم تستوعبها الاسرائيليات ولا يمكن أن تستوعبها ، لأن تبجيل العرب للكعبة أقدم من هذه الاسرائيليات ، وقد جاوز حدود جزيرة العرب الى الهند ومصر كما ذكر برتون في رحلته الى الحجاز ، ولا يزال الصابئة اليوم كما كانوا قبل الاسلام يحسبونها من البيوت السبعة التي تناظر الكواكب السبعة ويقولون انها بيت أشرفها داراً وهو زحل ، وستبقى في الأرض ما بقي زحل في السماء .

وسيأتي الكلام بشيء من التفصيل عن سلالة ابراهيم في البلاد العربية ، ولا محل هنا لنقل الروايات المختلفة التي اقتبسها المفسرون أو المؤرخون التفسيريون ، سواء منها ما أخذوه من الاسرائيليات وما أخذوه من حفظة الأنساب وبناء الاسلاف ، فانها جميعاً على نحو ما تقدم . ولكننا ننقل هنا ما فيه اجتهاد للمفسرين أو ما فيه خبر يضاف الى أخبار السيرة ويعولون على روايته .

فالمفسرون الأوائل يقولون ان النار لم تحرق ابراهيم لأن الله سلبها خاصة الاحتراق ، والالوسي صاحب روح المعاني من المفسرين المتأخرين يقول : « وأيا ما كان فهو آية عظيمة ، وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبي الحبيب صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما يشاهد من وقوعه لبعض المنتسبين الى حضرة الولي الكامل الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره من الفسقة الذين كادوا يكونون لكثرة فسقهم كفاراً فقيل انه باب من السحر المختلف في كفر فاعله وقتله ، فان لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ، ولا يبعد أن تكون كفراً وان كان معها ما لا كفر فيه . . ولم يكن ذلك في زمن الشيخ الرفاعي قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعاً للسنة وأشدهم تجنباً عن مظان البدعة ، وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل أتباعه قدس سره ، ثم طرأ على بعض المنتسبين اليه ما طرأ . . قال في العبر : قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت

لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التاتار العراق - من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات ، وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم . . والحق أن قراءة شيء ما عندهم ليست شرطاً لعدم التأثر بالدخول في النار ونحوه ، فكثير منهم من ينادي اذا أوقدت له النار وضربت الدفوف : يا شيخ أحمد يا رفاعي أو يا شيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار ولا يتأثر منها دون تلاوة شيء أصلا ، والأكثر منهم اذا قرأ الأسماء على النار ولم تضرب له الدفوف ولم يحصل له تغير حال لم يقدر على مس جمرة ، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضرب له الدفوف وينادي من ينادي من المشايخ فيدخل ويتأثر . والحاصل انا لم نر لهم قاعدة مضبوطة . بيد أن الأغلب أنهم اذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعربدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون ، وقد رأيت منهم من يأخذ زق الخمر ويستغيث بمن يستغيث ويدخل تنوراً كبيراً يضطرم فيه النار فيقعد في النار ويشرب الخمر ويبقى حتى تخمد النار فيخرج ولم يحترق من ثيابه أو جسده شيء . وأقرب ما يقال في مثل ذلك أنه استدراج وابتلاء .

واما أن يقال ان الله عز وجل أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره بعدم تأثر المنتسبين اليه كيفما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره اذا هتفوا باسمه أو اسم منتسب اليه في بعض الأحوال ، فبعيد بل كأني بك تقول بعدم جوازه ، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين في بعض الأحوال اعانة له ، وقد يأخذ بعض الناس بيده ولا يتأثر لاجزاء يطلي بها يده من خاصيتها عدم اضرار النار للجسد اذا طلي بها ، فيوهم فاعل ذلك أنه كرامة . . » .

والشيخ محيي الدين بن العربي يفسر الآية على أسلوب المتصوفة الذين يرمزون بالكلمات الى الأسرار فيقول : حرقوه أي اتركوه يحترق بنار العشق التي أنتم أوقدتموها أولا بالقاء الحقائق والمعارف اليه التي هي حطب تلك النار عند رؤيته ملكوت السماوات والأرض بارادة الله اياه كما قال : وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض . . واشراق الأنوار الصفاتية والأسمائية عند تجليات الجمال والجلال عليه من وراء أستار أعيانكم التي هي منشأ اتقاء النار ، وانصروا آلهتكم أي معشوقاتكم ومعبوداتكم في الامداد بتلك الأنوار وايقاد تلك النار . ان كنتم فاعلين . بأمر الحق « يا نار كوني برداً وسلاماً بالوصول حال الفناء . فان لذة الوصول تفيد الروح الكامل والسلامة عن

نقص الحدثـــان وآفـــة النقصـــان والامـــكان . . ـ وأرادوا به كيداً ـ بافنائـه واحراقه . . » .

ومن المفسرين المحدثين محمد علي الهندي الذي ترجم القرآن الكريم الى الانجليزية واجتهد في تفسير آياته ، فقال ان الحادث ـ حادث الأصنام المحطمة ـ قد هاج ثائرة القوم وأوقد نيران ضغنهم ، وان الآية التالية تدل على أن النار نار كيد ـ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين .

ولعلهم أرادوا احراقه فنجاه الله من تدبيرهم ، ثم فسر الآية في سورة العنكبوت : فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار . فقال في تفسيرها : ان أعداءه عجزوا عن احراقه وكانوا يدبرون له القتل والاحراق فلم يستطيعوا .

والامام البيضاوي يفسر : فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم فيفهم من الآية انه ربما رأى مواقع النجوم واتصالاتها أو نظر في علمها أو في كتابها ثم يقول : ولا منع منه مع أن قصده ايهامهم ، وقد سألوه أن يخرج معهم الى عيدهم الذي يعيدونه لأربابهم ، فأراهم أنه استدل بالنجوم ـ لأنهم كانوا منجمين ـ على أنه مشارف للسقم ، وكان أغلب أسقامهم الطاعون ، ويخافون عدواه . . قال : وربما أراد انه سقيم القلب لكفرهم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال .

ومن الجديد في المصادر الاسلامية أن ابراهيم ولد على مقربة من دمشق وان آزر عم ابراهيم ولم يكن أباه . قال صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور : « روى وهب بن منبه أن ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم بن تاريخ بن ناخور . وقال الحافظ السهيلي انه كان مولوداً ببلاد حوران ، وقيل بقرية تسمى برزة من قرى دمشق في مغارة هناك معروفة ، وفيها الدعاء مستجاب . . قال الرواة : ان ساماً وحاماً ويافثاً اولاد نوح عليه السلام كانوا ثلاثة أقسام فكانت النبوة في أولاد سام ومساكنهم الحجاز وما يليها ، والقوة في أولاد حام ومساكنهم المغرب ، والتجبر في أولاد يافث ومساكنهم المشرق . . » .

ومن المختلف عليه بين المفسرين والمؤرخين التفسيريين قرابة سارة وابراهيم . . فالحافظ بن كثير يروي أن المشهور أنها ابنة عم لابراهيم يسمى هاران ، ويقول ابن اسحاق الثعلبي صاحب قصص الانبياء نقلا عن أهل العلم بسير الماضين انها ابنة عمه ولا يذكر اسمه . .

ويختلفون كذلك في ولد ابراهيم الذي أمر بذبحه ، فمنهم من يرى انه اسحاق ومنهم من يرى أنه اسماعيل ، وجاء في قصص الأنبياء : أن محمد بن اسحق روى*عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول ان الذي أمر الله تعالى ابراهيم بذبحه من ابنيه اسماعيل . . ولم يكن يأمره بذبح اسحاق وله فيه من الله تعالى من الوعود ما وعده ، وما الذي أمر بذبحه الا اسماعيل . قال محمد بن كعب القرظي فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، اذ كنت معه بالشام . فقال لي عمر : ان هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، واني لأراه كما قلت ، ثم أرسل الى رجل كان عنده من الشام وكان يهودياً فأسلم وحسن اسلامه ، وكان يرى أنه من علماء يهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، فقال له : أي ابني ابراهيم الذي كان أمر بذبحه ؟ فقال : اسماعيل ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ان اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذي ذكر انه كان منه بصبره على ما أمر به ، فهم يزعمون انه اسحاق لأن اسحاق أبوهم » .

وسنرى فيما يلي أن هذا الاختلاف له جانب هام يفوق في أهميته جانب البحث التاريخي الذي يراد به مجرد العلم باسم الذبيح من ابني ابراهيم ، فانه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود ويتعلق به الحذف والاثبات في سيرة ابراهيم ليتصل بذرية اسحاق وينقطع عن ذرية اسماعيل ، أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق باسرائيل وينقطع منها كل ما يتعلق بالعرب ، وان هذا النزاع قد بدأ قديماً قبل تدوين نسخ التوراة التي كتبت في بابل ، أي قبل الميلاد بعدة قرون . .

وواضح أن النزاع في أوله لم يكن نزاعاً على العقيدة ، فان العهد القديم يروي عن ابراهيم أنه قدم العشر لملكي صادق كاهن الله « العلي » أو عليون الذي كان معبوذاً لسكان فلسطين وما جاورها الى الجنوب ، وقد زار هيرودوت بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر وروى عنهم انهم كانوا يعبدون الله تعالى واللات أو ايليلات Alilat منذ قرون سابقة للقرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذي عاش فيه هيرودوت . فلم يكن النزاع على العقيدة في نشأته الا فرعاً من فروع التنازع على الميراث ، ولم يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة الا أنها تعزز دعواها في ذلك النزاع ، وتنفي عنه من ينازعها عليه .

وهذه المشكلة التي عرضت لمحمد بن اسحاق القرظي قد صادفت فقهاء المسيحية من قبل كما صادفت فقهاء الاسلام إذ كيف يؤمر ابراهيم بذبح اسحاق

وهو ابنه الموعود الذي يخرج منه شعب الله المختار ؟ ان كاتب الرسالة الى العبرانيين يقول في الاصحاح الحادي عشر حلا لهذه المشكلة « ان ابراهيم بالايمان قدم اسحاق . . وحيده . . الذي قيل له انه باسحاق يدعى لك نسل اذ حسب ان الله قادر على الاقامة من الأموات » .

وحل المشكلة على هذا الوجه جديد في المسيحية لم ينظر اليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم ابراهيم بموت اسحاق ، وانه أطاع الله ولم يطع قلبه ولم يحفل بحنانه على ابنه الموعود ، ويبقى من المشكلة جانب آخر وهو وصف الابن بالوحيد ، فلم يكن اسحاق وحيداً مع وجود اسماعيل أما اسماعيل فكان وحيداً قبل مولد اسحاق .

ان فهم السيرة كما جاءت في الكتب الدينية أو في كتب الشروح والتعليقات لا يتهيأ للباحث ما لم يضع أمامه سر الاختلاف على اسحاق واسماعيل ، وما نقلناه هنا من المصادر الاسلامية يوضح هذا السر بعض الايضاح ، وربما تم ايضاحه بما يلي من مصادر التاريخ .

مراجع الصابئة

تدين بعقائد الصابئة ملة يبلغ عدد أبنائها ستة آلاف بين رجل وامرأة وطفل ، ولا يجاوز بها المبالغ في عددها عشرة آلاف .

وهي على قلة عددها تستقل بلغة « مقدسة » خاصة ، ولها كتابة أبجدية خاصة ، وأحكام دينية في معيشتها لا تشبه في جملتها ديناً واحداً ولكنها تشبه في بعض أجزائها كل دين .

ومن ثم كان لها شأنها في الدراسات الدينية .

ففيها ولا شك عقائد سابقة لجميع الأديان الكتابية ، وعقائد سابقة لدين الخليل . .

بل فيها ، على رأي بعض الباحثين ، بقية من الديانتين المختلفتين في عصر الخليل ، لأن الصابئة يدينون بمذاهب مختلفة يرد بعضها على بعض ، ولا سيما مذاهب الكواكب والأصنام ، مما تواترت الأخبار بالاختلاف عليه بين قوم ابراهيم ومن حاربوهم واضطروهم الى الهجرة من بلادهم . .

ويقول رايت Wright صاحب كتاب المطالعة العربية ان حروفهم الأبجدية تشبه الحروف النبطية ، وأن لغتهم تشبه لغة التلمود الذي كتب في بابل ، ويقولون هم ان لغتهم الأولى سريانية وانهم كانوا بمصر على عهد الفراعنة الأول وتلقوا ديانتهم الأولى عن أحبارها ثم هجروها حين تحول أهلها عن الدين القويم .

والمحقق من أمرهم أنهم يرجعون الى أصل قديم ، لأن استقلالهم باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، لم ينشأ في عصر حديث ولهذا يفهم الدارسون للأديان أن تحقيق لغتهم وكتابتهم يؤدي الى جلاء الغوامض عن كثير من تاريخ

الكلدان في الزمن الذي قام فيه الخليل بدعوته ، ويؤكد هذا الفهم ان هؤلاء الصابئة يقيمون في الأقاليم الجنوبية من العراق حيث أقام الخليل في رواية العهد القديم ، ومنهم فئة تحج الى حاران التي هاجر اليها ، وينسب اليها الصابئة الحرانيون . .

ومع استقلال الصابئة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، يشتركون مع أصحاب الأديان في شعائر كثيرة ، ولا يعرف دين من الأديان تخلو عقيدة الصابئة من مشابهة له في احدى الشعائر . . فهم يشبهون البراهمة والمجوس والأورفيين أصحاب النحل السرية كما يشبهون اليهود والنصارى والمسلمين ، أو كما يشبهون الفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية في تفسير الوجود والموجودات .

وهم كما يشبهون الجميع يخالفون الجميع . .

وتعليل هذه المخالفة أنهم تشبثوا بأصل قديم لا يفارقونه ، أما تعليل المشابهة فليس بالعسير ، فان مقام الصابئة عند خليج فارس يجعلهم في طريق كل ملة يتردد أبناؤها على ذلك الاقليم أو يقيمون فيه ، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطورانيون وعرب وسريان وفينيقيون ، واتصل به أبناء البحار كما اتصل به أبناء الصحراء ، فليس بالعجيب أن تعلق بعقيدة الصابئة الأقدمين مسحة من كل ملة على طول الزمن وتتابع العهود . .

فمن مشابهتهم للبراهمة انهم يتحرجون من ملامسة غيرهم ويتطهرون اذا لمسوا غريباً في حالة من حالات العبادة .

ومن مشابهتهم لأصحاب العقائد الأورفية ـ أو السرية ـ أنهم يكتمون كتبهم أشد الكتمان ، ولا يباشرون شعائرهم مع الغرباء ، ويتقاسمون الخبز المقدس علامة على الاخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان وان الخلق خلقان . فالكون الظاهر غير الكون الباطن ، ولكل مخلوق في العلانية صورة محجوبة في عالم الغيب . . حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن لا يراهم من يعيشون في العلانية .

ومن مشابهتهم للمجوس أنهم يتوجهون الى قطب الشمال والى الكواكب عامة ولكنهم لا يعبدونها ، بل يحسبونها من مظاهر الروحانيات التي لا تبرز للعيان . .

ومن مشابهتهم للمسيحيين انهم يدينون بالعماد ويبجلون يوحنا المعمدان أو

يحيى المغتسل . ولكن التعميد أعم عندهم من التعميد في المسيحية ، ويندر منهم من يسكن بعيداً من الأنهار لحاجتهم كل يوم الى العماد ، والى التطهر بالماء . .

ومن مشابهتهم للمسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات في اليوم ، ويقولون انها فرضت عليهم سبعاً ثم أسقطها يوحنا عنهم وأدخل بعضها في بعض واكتفى منها بثلاث ، ولكنهم لا يسجدون في صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع ، وهم يتوضأون قبل الصلاة ويغتسلون من الجنابة ويعرفون نواقض الوضوء ولكنهم يغالون فيها .

وعندهم ذبائح كذبائح اليهود ويوم في ختام السنة كيوم اليهود . ولكنهم يحرمون الختان ولا يبنون لهم هيكلا قائماً ، بل يبنون الهيكل من القصب كما تبنى الخيام ، موقوتاً عند الحاجة اليه في الأعياد . فكأنها بقية أو أصل لعيد الظلال وللهيكل المنقول .

ومنهم من ينتمي الى كاظم بن تارح ، وقد ذكرهم المقريزي بين الفرق المختلفة ، وكأنهم يقابلون دين ابراهيم بدين أخ له ينتمي الى تارح ، أبي ابراهيم في رواية العهد القديم .

وهم ينكرون الأنبياء ، ويقولون ان الله لا يخاطب أحداً من البشر وانما خلق الله الروحانيات ، أي الملائكة ، ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر الى أمثلة لهذه الكواكب يراها العباد حين يشاؤون ، صنعوا لها صوراً من الأوثان ، وجعلوا اتجاههم الى نجم القطب لأنه ثابت في مكانه ، لا يختلف له فلك باختلاف الأزمان .

ولهم أقوال في تنزيه العقل الالهي تشبه أقوال الفلاسفة ، ومنهم من يحرم الطعام الذي حرمه أتباع فيثاغورس كالبصل ويضيفون اليه أنواعاً من الخضر كالكرنب ولحوم الحيوان ذي الذنب ، لأنهم يستوحون الغيب في الرؤيا ، وهذه الأطعمة تمنع الرؤيا الصادقة .

والغالب أنهم عرفوا شيئاً من أقوال حكماء اليونان من طريق القساوسة النسطوريين الذين هاجروا الى جنوب العراق في صدر المسيحية هرباً من الاضطهاد ، وكان أكثرهم يعرفون اليونانية ويقرأون الفلسفة ولا سيما الرواقية

والفيثاغورية ، ولكن اتصال اليونان ببلاد الكلدان أقدم من المسيحية ومن اليهودية ، ومن الكلدانيين أخذاليونانيون خصائص الكواكب المعبودة وحرمات المعابد التي تقام لها ، وشعائر الطواف اليها وحماية الضحايا التي ترسل في حرم المعبد وما الى ذلك من العادات والعبادات التي اندثرت بين الصابئة المحدثين ضرورة لا حيلة لهم فيها ، لأن اقامة الحرم في مكان مطروق انما يقوم بقوة الحاكم ، وبناء المعابد انما يقوم بوفرة المال وكثرة العدد ، وهم قلائل متفرقون لا يملكون الثروة ولا السلطان .

* * *

والمشهور عن الصابئة انهم يوقرون الكعبة في مكة ، ويعتقدون انها من بناء هرمس أو ادريس عليه السلام وانها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة ، وينقل عنهم عارفوهم أنهم قرأوا صفة محمد عليه السلام في كتبهم ، ويسمونه عندهم ملك العرب ، لأن الشائع فيهم أنهم لا يؤمنون بالأنبياء الا فرقة واحدة تذكر شيثاً وادريس وابراهيم ويحيى المغتسل ويحسبونهم تارة من الانبياء وتارة من عباد الله الخلص الذين وصلوا بالرياضة والعبادة الى مقام الزلفى والالهام .

وقد كان الباحثون يعجبون لتنويه القرآن الكريم بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء أمرها ، ولكن الدراسات الحديثة بينت للباحثين العصريين شأن هذه الملة في دراسات الأديان كافة ، فعادوا يبحثون عن عقائدها الآن وعقائدها في عصر الدعوة الاسلامية ، وثبت لهم أنها تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتؤمن بالحساب والعقاب وأن الأبرار يذهبون بعد الموت الى عالم النور « آلمي دنهورو » وأن المذنبين يذهبون الى عالم الظلام « آلمي دهشوخا » ويلبثون فيه زمناً على حسب ذنوبهم ، ثم ينقلون منه الى عالم النور . .

ولهم كتاب يسمونه (كنزة) ولعله من مادة الكنز التي تفيد معنى النفاسة والكتمان ، لأنهم يقدسونه ويخفونه فلا يطلعون أحداً على أسراره . .

الا أن المتفق عليه أن اللغة التي كتب بها كتاب الكنزة وغيره من الكتب المقدسة عندهم هي لغة سامية الأصل قريبة من السريانية ، وتكفي نظرة في مصطلحاتهم للجزم بهذه الصلة الوثيقة بين لغتهم واللغة العربية الحديثة فضلا عن القديمة المهجورة .

* * *

فمن كلماتهم ومصطلحاتهم « آلمي » بمعنى عالم ، و« شماس » بمعنى شمس و« هي » بمعنى حي ، و« روحايا » بمعنى روح و« موشيهه » بمعنى المسيح ، و « بهيه » بمعنى يحيى ، و« قدموي » بمعنى القديم ، وحران « سفلايي » بمعنى السفلى و« ترميد » بمعنى تلميذ ، و« أسفر » بمعني سفر ، و« تنيائي » بمعنى الثاني ، و« تليثائي » بمعنى الثالث ، واسم الصابئة نفسه على ما يقول بعضهم مأخوذ من النسابحة ، سموا به لكثرة الاغتسال في شعائرهم وملازمتهم شواطىء الأنهار من أجل ذلك ، ولكنهم هم يطلقون على ملتهم اسم « مندالي » ولا يعرف من أين مأخذه القديم ، واشتقاق اسمهم من السبح أرجح من نسبة الاسم الى السبأوث العبرية بمعنى الجنود ـ جنود السماء ـ أي الكواكب ، التي اشتهروا بعبادتها . .

والأبجدية عندهم قريبة من أبجدية حساب الجمل على حسب ترتيبها في أبجد هوز حطي كلمن الخ وهي « آ . با . كا . دا . ها . وا . زا . ها . طا . ها . يا . كا . لا . ما . نا . سا . أى . يا . صا . قا . را . شا . تا » .

ومن هذه الحروف ما يقارب مخارج الحروف التي تقابله في اللغة الفارسية ، لأنهم تعودوا نطقها منذ زمن قديم .

ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم ، لأنهم يضطنعون التقية ويوجبونها ، ومن ذاك أنهم يحرمون الصيام باطناً كما اشتهر عنهم ، ولكنهم يصومون جهراً.ويروي ابن النديم في الفهرست انهم يصومون ثلاثين يوماً مفرقة على أشهر السنة ، وقد يتنفلون بصيام أيام النسيء الخمسة ، ويروى عنهم أيضاً أنهم يصومون خمسة أسابيع يأكلون فيها الطعام نهاراً وليلا ويجتنبون أكل اللحوم المباحة لهم وهي غير ذات الذنب ، ويقال ان الصيام بنوعيه قديم عندهم يرجع الى أيام البابليين .

وقد ذكرهم القرآن الكريم غير مرة وجاء في سورة البقرة : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

* * *

ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم في أيام الدعوة الاسلامية ولكنهم كانوا ولا يزالـون ينزهـون الله غاية التنـزيه ويقولـون ان الـكواكب ملائـكة نورانية ، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الاسلام ، ولا بد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدي الناس الى الحق لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا ، دعاها بأسمائها فوجدت ، ولا يصل كلام الله الى الناس الا بوساطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله .

وأقرب ما نشبه به هذه العقيدة انها كالحوض الذي تصب فيه مسارب الماء من كل مورد ، فاذا أخذت ماءه فحللته وجدت فيه أثراً من كل مسرب ، ولكنها توجد فيه على امتزاج ولا بد من الجهد لتصفيتها والرجوع بكل جزء من أجزائها الى ينبوعه الذي صدر منه في أصله البعيد . .

وهكذا العقيدة الصابئية في امتزاج عناصرها وعلاقة كل عنصر منها بالعناصر الأخرى ، ولكنها على هذا الامتزاج مهمة جداً في البحث عن تلك العقائد ، وبخاصة عقيدة الخليل .

فهي مهمة من وجهة المكان ، لأنها قديمة العلاقة بكل مكان تعلقت به سيرته عليه السلام ، من جنوب الفرات الى شماله ، الى بلاد السريان ، الى البـلاد النبطية من شمال الحجاز .

وهي مهمة من وجهة زمانها ، لأن لغتها المقدسة تشير الى زمان متوسط بـين اللغات القديمة المهجورة واللغة السريانية الحديثة ولم تكن لغة ابراهيم سريانية حديثة كالتي بقيت الى الزمن الأخير ، ولم تكن احدى اللغات المهجورة التي يجمـع المؤرخـون موادهـا مبعثـرة متفرقـة ولا يفهمـون مفرداتهـا وتراكيبهـا وقواعدها ، فان تلك اللغات المهجورة قد انقطعت صلتهـا بمـن بعدهـا على خلاف لغة الخليل . فاذا أشارت لغة الصابئة الى زمن متوسـط بـين اللغـات المهجورة واللغات السامية المتأخرة فهي احدى القرائن التي يستعـان بهـا على تعيين زمان الخليل .

* * *

وهي مهمة من جهة موضوعها ، لأنها ترينا ملتقى التوحيد القديم والوثنية القديمة ، وفيها بقايا الاصطدام بين العقيدتين ، وقد يكون مدار الاختلاف بين عقيدة الخليل ومخالفيه حول هذا المصطدم ، فان بقايا التنازع بين المعتقدات ظاهرة في العقائد الصابئية يكاد بعضها أن يكون رداً على البعض الآخر ، فلا وثنية ولا ايمان بالكواكب من جهة ، ولا خلاص في الوقت نفسه من الوثنية والايمان بالكواكب على صورة من الصور ، ولعل العقيدة الصابئية كما بقيت خليط مجتمع من الجانبين بعد هجرة ابراهيم وشيعته من وطنهم القديم .

ومن هنا كان نحلة الصابئة مهمة في دراسة الأديان على العموم ودراسة دين ابراهيم على الخصوص ، وكان لها في ذلك شأن لا يناسب عددها القليل وعزلتها التي فرضتها على نفسها وفرضتها عليها أحداث الأيام .

مصادر التاريخ القديم

لم يبق من المراجع القديمة ما يضاف الى الأبواب السابقة غير أقوال المؤرخين الأقدمين . .

وهؤلاء المؤرخون الأقدمون ينتمون الى الأديان الكتابية الثلاثة ، ويعول كل منهم على كتب دينه ، فلا يناقضها وقد يزيد عليها ما ينطوي فيها ولا ينفيها ، وقد يأتي في أخبارهم ما يخالف كتب الأديان الأخرى ويزيد عليها شيئاً لا يسلمه من يعتقدونها ، ولكن التواريخ القديمة على العموم لم تعتمد على مصدر غير كتب الدين وتفسيراتها في كل ملة .

وليس المقام هنا متسعا للافاضة في النقل من كتب المؤرخين الأقدمين ، فنحن نختار مؤرخا من كل ملة يقتدي به المقتدون في بابه ، ونكتفي بيوسيفوس من مؤرخي اليهود ، وأبي الفرج ابن العبري من مؤرخي المسيحيين وأبي الفداء من مؤرخي المسلمين :

(١) تاريخ يوسيفوس

« سأتكلم الآن عن العبرانيين :

« فالج بن عابر ولد له رعوس ، وولد لرعوس سيروج ، وولد لسيروج ناخور ، وولد لناخور ثيروس[١] Therrus وهو أبو ابراهيم العاشر من سلالة نوح ، ومولده في سنة ٩٩٢ بعد الطوفان .

« . . وكان لابراهيم اخوان : ناخور وآران .

« وولد لآران (حاران) لوط وبنتان هما سارة وملكة ، ومات في بلاد الكلدان في بلدة تسمى أور الكلدانيين ، وقبره هناك يرى الى اليوم . .

(١) هكذا ينطق بالاغريقية وهو تارح في كتب اليهود

وتزوج ناخور بنت أخيه ملكة ، وتزوج ابـراهيم بنـت أخيه سارة ، وكره ثيروس المقام بأور حيث فقد ابنه المحزون عليه حاران فهاجر منها الى شاران (حران) بالعراق حيث مات ثيروس وله من العمر مائتا سنة وخمس سنوات ، اذ كان عمر الانسان قد قصر ولم يزل يقصر الى عهد موسى فأصبحت غايته مائة وعشرين سنة وهو عمر موسى .

« وولد لناخور ثمانية من زوجته ملكة ، وهم عز وبوغر وبثوئيل وخـزام وعنرو وآدلفاس وآدفاس وثبوئيل ، وهؤلاء هـم أبنـاؤه الشرعيون من زوجتـة ملكة . أما ابناؤه الآخرون فهم طباي وجدام وطاو وماخاس من جاريته روما .

« وولد لبثوئيل بنت اسمها رفقة وولد اسمه لابان . .

« ولما لم يكن لابراهيم ولد شرعي تبنى لوطا ابن أخيه حاران وأخا زوجتـه سارة ، وترك بلاد الكلدانيين وهو في الخامسة والسبعين ليذهب الى كنعان حيث أمره الله وحيث ترك ذريته من بعده .

« وكان ابراهيم رجلا متيقظ الذهن في جميع الأمور ، مقنعا لمن يسمعه ، غير مخطىء في فهمه واستدلاله . فأدرك من حقائـق الفضائـل ما لم يدركه سائـر البشر ، واعتزم أن يصحح الأفكار التي شاعت بينهم عن الله ويغيرها ، فكان من ثم أول من اجترأ على المناداة بأن الله خالق الكون واحد ، وأنه اذا وجد كائن آخر ينفع الناس فانما يفعل ذلك باذنه ولا يفعله بقدرة من عنده ، وقـد انتهى الى ذلك من مراقبته لما يطرأ على الأرض والماء والشمس والقمر وسائر الاجرام السماوية من عوارض التغير والتقلب ، أو لاح له أن هذه الاجرام لو كانت لها مشيئة لحكمت على نفسها ، فأما وهي لا تملك نفسها فكل ما تصنعه ، وكل ما ينفعنا من صنيعها ، فليس من عندها بل من عند من يحكمها وهو الجدير دون سواه بالشكر والطاعة منا . .

« والواقع أن هذه الأفكار هي التي أثارت عليه الكلدانيين والعراقيين فرأى من الخير بمشيئة الله ومعونته أن يرحل الى أرض كنعان ، وهناك استقر وبنى لله مذبحا وقدم عليه القربان .

« ويذكر المؤرخ برسوس أبانا ابراهيم ولا يسميه حيث يقول انـه في الجيل العاشر بعد الطوفـان عاش بـين الكلـدانيين رجـل صدق متبحـر في العلـوم

السماوية . . وزاد المؤرخ هكتاتوس[1] على ذلك انه ألف كتابا عنه ، وقال نقولا الدمشقي في الكتاب الرابع من تاريخه أن ابراميس[2] حكم في دمشق وكان مغيرا قدم من أرض بابل من البلاد التي تسمى بلاد الكلدانيين ، ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه الى أرض كنعان ـ وتسمى اليوم يهودا ـ وفيها ذريته الذين سأكتب عنهم في كتاب آخر ، ولا يزال اسم ابرام مشهورا في اقليم دمشق حيث تسمى احدى القرى بمسكن ابرام .

« ثم مضى زمن وأصاب كنعان القحط وسمع ابراهيم برخاء المصريين ، فاعتزم الهجرة الى مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها في أمر الله ، وفي نفسه اذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله ، أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم اليها .

« وأخذ سارة معه ، وخاف ولع المصريين بالنساء وأن يغصبه عليها الملك ويقتله من أجلها لجمالها فأوصاها أن تقول انها أخته ، وحدث بعد وصوله الى مصر كل ما توقعه فتسامع الناس بجمال زوجته ولم يقنع فرواثيس[3] ملك المصريين بالسماع فهمّ بأخذها لولا ان الله أحبط جريمته بما فشا في مصر من الوباء والقلاقل ، ثم قرب الملك قرابينه ليعلم حقيقة البلاء فقال له الأحبار ان البلاء من غضب الله لأنه نوى في نفسه أن يغتصب امرأة رجل غريب . .

« ولما بلغ منه الرعب سأل سارة من هي ومن هو الرجل الذي جاءت به معها ، فاعتذر لابراهيم حين علم جلية الخبر وقال له انه لم يتعلق بها الا لظنه أنها أخته لا زوجته ، وانما أراد أن يبني بها ولم يرد أن يغتصبها في نزوة من نزوات هواه ، ثم أغدق على ابراهيم ثروة جزيلة[4] ، وطفق ابراهيم يباحث علماء مصر وتزداد شهرته بالعلم والفضيلة .

« ولما رأى ابراهيم أن المصريين متشبثون بعادات شتى يخالف بعضهم بعضا من جرائها ويعادي بعضهم بعضا لأجلها جعل يناقشهم فيها كل فريق على حدة

---

(١) عاش هكتاتوس في مصر في القرن الثالث قبل الميلاد .

(٢) حسب الكتابة الاغريقية .

(٣) يقصد فرعون .

(٤) في موضع آخر من تاريخ يوسيفوس يذكر ان حاكما أغار على فلسطين واقتاد سارة مع السبايا .

ويبدي لهم جميعا أنها ليست على شيء من الحق ، ويحل بذلك منهم محل الاعجاب فيعلمون أنه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب ، بل كان كذلك عظيم القدرة على اقناع سامعيه في كل موضوع تناوله ببحثه ، وقد أطلعهم على علم الحساب وقوانين الفلك ، ولم يكن أحد من المصريين على علم بها قبل مقدم ابراهيم ، وانما جاءت من الكلدان الى مصر ثم من مصر الى الاغريق .

« ثم قسم الأرض بينه وبين لوط بعد عودته الى أرض كنعان ، وكان رعاتهم يتنازعون المرعى في مكان واحد ، فجعل لوطا يختار ما يشاء ورضي هو بما تركه له من منخفض الأرض في تابرو - حبرون - وهي أقدم من مدينة تانيس بسبع سنوات[1] .

« أما لوط فاختار السهل الى ناحية نهر الأردن غير بعيد من مدينة سدوم ، وكانت مدينة عامرة قضى الله عليها بالخراب لما سنبينه في موضعه .

« وكانت سدوم مزدهره في العصر الذي سيطر فيه الاشوريون على آسيا ، وغزرت ثروتها وتكاثر عدد شبابها وحكم أرضها خمسة ملوك هم بالاس وبالياس وسينابان وسنفبر وملك البالان - كل منهم في اقليمه ، وزحف الأشوريون على هؤلاء الملوك الخمسة بعد أن قسموا جيوشهم الى أربعة أقسام يقود كل جيش منها قائد غير قواد الجيوش الأخرى ، ثم ضربوا عليهم الحصار ودارت المعركة بينهم وفرض الأشوريون جزية على الملوك السدوميين ، وخضع هؤلاء الملوك اثنتي عشرة سنة يؤدون الجزية التي فرضت عليهم ، ولكنهم ثاروا في السنة الثالثة عشرة فجرد عليهم الأشوريون جيشا بقيادة أمرا بسيدس واريوخ وقدر لعومر وثدال ، وعاث هؤلاء في سورية جميعا وأخضعوا سلالة الجبارين ثم بلغوا بسدوم وعسكروا في الوادي المعروف بحفرة القار ، اذ كان الوادي كثير الحفر حين كانت سدوم عامرة ، ثم امتلأت الحفر بالماء بعد تدميرها وأصبحت بحيرة تسمى بالاسفليتة ، وسأعود الى خبر هذه البحيرة قريبا .

« واشتبك السدوميون والأشوريون في قتال عنيف هلك فيه كثيرون ووقع الباقون من السدوميين في الأسر ، وكان بين الأسرى لوط وقومه لأنهم حالفوا السدوميين .

---

(١) يرجع تاريخ تانيس الى أكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكان الشائع في القرن الاول للميلاد على غير ثقة أن حبرون بنيت سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد .

« وسمع ابراهيم بالنكبة فداخله الخوف على قريبه لوط والاشفاق على أصحابه وجيرانه السدوميين ، واعتزم التعجيل بانقاذهم وخرج في الليلة الخامسة فانقض على الأشوريين بالقرب من مدينة دان على احدى شعبتي نهر الأردن وفاجأهم قبل أن يستعدوا بالسلاح ، وذبح بعضهم وهم على فراشهم جاهلين بمصيرهم ، وهرب الآخرون الذين استلقوا على الفراش سكارى ولما يستغرقوا في الرقاد ، فجد ابراهيم في اقتفاء أثرهم حتى بلغ (أوبه) بارض الدمشقيين ودل بذلك على أن النصر لا يتوقف على كثرة الأيدي وان الغيرة والصلابة تغلبان العدد الكثير ، لأنه انتصر بثلثمائة وثمانية عشر من عبيده وثلاثة من أصحابه على ذلك الجمع الكبير ، وأرسل بقيتهم ناجين بالخزي الى ديارهم .

« ولما خلص ابراهيم السدوميين ومعهم قريبه لوط عاد في سلام ، ولقيه ملك سدوم في المكان المسمى بالوادي الملكي واستقبله هناك ملك سليمي ملكي صادق ، ومعنى هذا الاسم الملك الصديق وهو اسم اشتهر به بين الجميع فاختاروه كاهناً لله ، وأصبحت سليمي هذه المكان الذي عرف بعد ذلك باسم أورسليمي (أورشليم) .

« ورحب ملكي صادق بابراهيم ووسعه ومن معه في ضيافته وجعل في أثناء الضيافة يثني على ابراهيم ويحمد الله الذي أسلم أعداءه الى يديه ، فقدم له ابراهيم عندئذ عشر الغنائم فقبل الهدية ، أما ملك سدوم فقد رجا ابراهيم أن يستبقي له كل الغنائم ولم يطلب غير رعيته التي أسرها الأشوريون ، فأبى ابراهيم أن يأخذ شيئا غير طعام عبيده ، ووهب بعض الغنائم لشركائه في القتال ، وأولهم اسخون والآخران عنر ومامبر .

« ورضي الله عن هذه المأثرة منه وقال له : انه لن يضيع جزاءه على هذا العمل الطيب ، فأجاب ابراهيم : وأي شيء يسرني من هذا الجزاء ان لم يكن لي وريث بعدي ؟ فأنبأه الله انه سيعقب ولدا تبلغ ذريته عدد النجوم في كثرتها . فقرب ابراهيم الى الله قربانا حسب أمره عند سماعه بهذه البشرى ، وكان القربان على هذا النحو ، اذ أخذ عجلا ابن ثلاث سنوات وحملا ابن ثلاث سنوات كذلك ويمامة وحمامة ، وذبحها وشطر كلا منها شطرين ما عدا الطير ، وقبل أن يقام المذبح ، ولما تزل جوارح الطير تحوم على الذبائح ، متعطشة الدم ، سمع صوت الهي يقول له ان ذريته ستلقى الشر من جيرة مصر أربعمائة سنة ولكنهم بعد العذاب يغلبون عدوهم ويقهرون الكنعانيين في القتال ويملكون أرضهم ومدائنهم . .

« وكان ابراهيم يعيش على مقربة من بلوطة عجيج ، غير بعيد في أرض كنعان من مدينة الحبرونيين ، حيث أحزنه عقم زوجته فصلى لله كي يرزقه ولدا ذكرا وأمره الله أن يوقن من ذلك كما أيقن بالخير من طاعته لأمر الله الذي أمره بالهجرة من العراق .

« وأحضرت سارة بأمر الله الى فراشه احدى جواريها المصريات المسماة هاجر عسى ان يرزق منها ذرية ، فلما حملت احترأت على اهانة سارة واتخذت سمة الملكات كأنما تصير حوزة ابراهيم كلها الى ابنها الذي لم يولد ، فأسلمها ابراهيم الى سارة تؤدبها ، ولم تصبر هاجر على مذلتها فهربت ودعت الى الله ان يتولاها برحمته ، وبينما هي في البرية ظهر لها ملك من عند الله وأمرها أن تعود الى سيدها وسيدتها ووعدها أن ترضى عن عيشها اذا هي غضت من كبريائها لأنها لقيت ما لقيته من جراء الاستطالة على مولاتها ، وانها اذا عصت أمر ربها هلكت ولكنها اذا عادت الى البيت صارت أما لولد يملك تلك الأرض ، فأطاعت وعادت الى سيدها وسيدتها فسامحاها ووضعت بعد قليل ولدا سمته اسماعيل أي المسموع من الله ، لأن الله استمع لصلاتها .

« وكان ابراهيم قد بلغ السادسة والثمانين حين ولد له هذا الولد ، وبلغ التاسعة والتسعين حين تراءى له الرب وبشره بولد يرزقه من سارة ، آمرا له أن يسميه اسحاق وموحيا اليه أن أمما عظيمة وملوكا سيخرجون من نسله ، وأنهم يستولون بالحرب على أرض كنعان كلها من صيدا الى مصر ، وعليهم أن يختتنوا لكيلا يختلطوا بالأمم الأخرى ، وأن يكون الختان في اليوم الثاني بعد الولادة ، وسأبين فيما بعد أسباب عادة الختان عندنا . .

« وسأل ابراهيم عن اسماعيل هل يعيش ؟ فأنبأه الله أنه سيعيش ويعمر ويصبح أبا لأمم عظيمة ، فشكر ابراهيم لربه هذه النعم ، واختتن هو وآل بيته جميعا واسماعيل الذي كان يومئذ في الثالثة عشرة ، وكان أبوه في التاسعة والتسعين . . »

ثم مضى يوسيفوس يروي قصة سدوم ، ونجاة لوط الى صغير التي سميت بذلك لصغرها ، وان بنتي لوط أشفقتا من هلاك الجنس البشري فولدتا لأبيهما موآب ومعناها من الأب ، وعمان ومعناه ابن السلالة ، ومن ذريتهما أبناء سورية الشرقية والجنوبية .

ثم روى يوسيفوس مولد اسحاق وختانه في اليوم الثامن، وأن العرب يؤجلون الختان الى السنة الثالثة عشرة كما اختتن أبوهم اسماعيل ، وان سارة عادت فأصرت على اقصاء هاجر وابنها ، فخرجا الى البرية وكاد الغلام أن يموت عطشا تحت شجرة من أشجار التنوب لولا أن هدى الملك من الرب هاجر أمه الى ينبوع ماء قريب .

قال يوسيفوس : ولما بلغ الصبي مبلغ الرجال زوجته أمه مصرية من قومها فولدت له اثني عشر ولدا هم نبايوث ، وقدار ، وعبدئيل ، ومبسام ، ومشمع ، وادوم ، وماسم ، وقدوم ، وتيمان ، وجثور ، ونافش ، وقدماس ، واستولى هؤلاء على الأرض كلها من العراق الى البحر الأحمر وسموا بالنباتيين (النبطيين) وهم الذين سمي باسمهم جميع أمة العرب وقبائلها اكراما لشأنهم ولشهرة ابراهيم .

ثم بنى ابراهيم بعد ذلك بقطورة وولد له منها ستة أبناء أقوياء على العمل سرعاء في الفهم ، وهم زمبران وجزار ومدان ومديان ولوشباق وسوس . . فأرسلهم ابراهيم وأبناءهم يلتمسون لهم منازل على التروجلوديتس[1] Troglodytis وفي بلاد العربية السعيدة التي تمتد الى البحر الأحمر ، ويقال أن أفرون بن مدان جرد حملة على لوبيا واحتلها وان أبناء أبنائه أقاموا هناك وسموا الأرض باسم افريقا ،

ثم ختم يوسيفوس قصة ابراهيم بنبأ وفاته ،

وقال : ان اسحاق واسماعيل دفناه الى جوار سارة في مقبرة حبرون ، وكان قد روى في ختام قصة سارة ان الكنعانيين تبرعوا بدفنها على النفقة العامة ، ولكن ابراهيم اشترى المدفن من اخرايم بأربعمائة مثقال .

٢ ـ ابن العبري

واذا كان يوسيفوس مثلا للمؤرخ القديم من الوجهة الاسرائيلية فابن العبري أبو الفرج بن هرون صاحب مختصر الدول المتوفى سنة ١٢٨٦ قد يكون المثل الوحيد للمؤرخ القديم من الوجهة المسيحية في هذا الموضوع لانه امام من ائمة الكنيسة السريانية التي ينتشر اتباعها في مواطن ابراهيم ويحفظون اخباره التقليدية منذ القرن الاول للميلاد .

---

(١) شاطىء البحر الاحمر الشرقي وقد يطلق على الشاطىء المقابل .

قال في كلامه عن دولة الاولياء ـ أي الآباء ـ في بني اسرائيل :

« ومن أئمتنا باسليوس وأفريم يزعمان أن من آدم الى عابر هذا كانت لغة الناس واحدة وهي السريانية ، وبها كلم الله آدم .

« وتنقسم الى ثلاث لغات : افصحها الآرامية وهي لغة أهل الرها وحران والشام الخارجة ، وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلة ، واسمجها الكلدانية النبطية وهي لغة أهل جبال أثور (أشور) وسواد العراق . ويعقوب الرهاوي يقول ان اللغة لم تزل عبرية الى أن تبلبلت الألسن ببابل .

« وفالغ بن عامر ولد له أرعو وعمره على الرأي السبعيني[1] مائة وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود ثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وثلاث وأربعون سنة . .

« في سنة مائة وأربعين لفالغ فلغت الأرض أي قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح . فصار لبني سام وسط المعمورة فلسطين والشام أشور وسامرة وبابل وفارس والحجاز ، ولبني حام التيمن كله أي الجنوب : أفريقية والزنج ومصر والنوبة والحبشة والسند والهند ، ولبني يافث الجربيا أي الشمال : الأندلس والافرنجة وبلاد اليونانيين والصقالبة والبلغار والترك والأرمن . وبعد وفاة فالغ ثارت الفتن بين بنيه وبين بني يقطان أخيه ، وشرع الناس في تشييد الحصون .

« وأرعو بن فالغ ولد له ساروغ وعمره على الرأي السبعيني مائة واثنان وثلاثون ، وعلى رأى اليهود اثنتان وثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وتسع وثلاثون سنة .

« وفي سبعين سنة لارعو قال الناس بعضهم لبعض هلموا نضرب لبنا ونحرق آجرا ونبني صرحا شامخا في علو السماء ، ويكون لنا ذكر كي لا نتبدد على وجه الأرض ، فلما جدوا في ذلك بأرض شنعار وهي السامرة ونمرود بن كوش قات رافعي الصرح بصيده ـ أي جلب لهم القوت ـ وهو أول ملك قام بأرض بابل ، وهو الذي رأى شبه اكليل في السماء واتخذ مثله ووضعه على رأسه فقيل ان اكليله نزل من السماء . . قال الله تعالى : هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شيء يهتمون به ، سوف أفرق لغاتهم لئلا يعرف أحدهم ما يقول الآخر . فبدد الله شملهم على وجه الأرض ، وأرسل رياحا عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه

(١) ترجمة التوراة المعروفة بالترجمة السبعينية في اشتراك اثنين وسبعين مترجما في نقلها الى اليونانية .

نمرود الجبار وتبلبلت لغات الآدميين ، ولذلك دعى اسم ذلك الموضع بابل . . وبنى نمرود ثلاث مدن : ارخ وخيليا ـ أي الرها ونصيبين ـ والمدائن .

« وسازوغ بن أرعو ولد له ناحور وعمره على الرأي السبعيني تسع وسبعون سنة وعلى رأي اليهود تسع وعشرون سنة ، وجميع أيامه مائتان وسنة واحدة ، وفي خمس وعشرين سنة من عمره كان جهاد أيوب الصديق على رأي أروذ الكنعاني ؛ وبنى أرمونيس ملك كنعان سدوم وغامورا على اسم ولديه ، ومدينة صاعر على اسم أمهما .

« وترح بن ناحور ولد له ابراهيم وعمره على الرأيين جميعا سبعون سنة ، وجميع أيامه مائتان وخمس وسبعون سنة ، ومات بمدينة حران ، وبنى مورفوس ملك فلسطين مدينة دمشق قبل ميلاد ابراهيم بعشرين سنة ، ويوسيفوس يقول ان عوص بن أرام بناها ، ومن ها هنا يتفق التاريخان السبعيني والعبراني .

« وابراهيم بن ترح ولد له اسحاق وعمره مائة سنة ، وجميع أيامه مائة وخمس وسبعون سنة ، ولما أتت عليه خمس عشرة سنة استجابه الله في العقاعق ـ أي الطيور ـ التي كانت تفسد في أرض الكلدانيين وتسحق زروعهم . . وأحرق ابراهيم هيكل الأصنام بقرية الكلدانيين ودخل هاران أخوه ليطفيء النار فاحترق ، ولذلك فر ابراهيم وعمره ستون سنة مع أبيه ترح ، وناحور أخيه ، ولوط بن هاران أخيه المحترق ، الى مدينة حران وسكنها أربع عشرة سنة .

« ثم خاطبه الله قائلا : انتقل عن هذه الديار التي هي ديار آبائك الى حيث آمرك . فأخذ سارة امرأته ولوط ابن أخيه وصعد الى أرض كنعان وحارب ملوك كدرلعمر وقهرهم . وفي عوده من المحاربة اجتمع بملكيزدق الكاهن الأعظم وحر لوجهه بين يديه وأعطاه عشرا من السلب وباركه ملكيزدق . .

« وفي سنة خمس وثمانين من عمره وعده الله أن يجعل نسله كعدد الكواكب في السماء ، وذريته كرمل البحار ، فوثق ابراهيم بالله حق الثقة . وفي هذه السنة دخل الى مصر ووشي بحسن سارة امرأته الى فرعون فسأل ابراهيم عنها ، فقال : هي أختي من أبي لا من أمي . ولم يكذب بقوله هذا لأنها كانت ابنة عمه ، فأقام جدهما مقام أبيهما .

« فاحتازها فرعون الى نفسه مختليا حتى تحقق انها زوجته فردّها اليه مع هدايا جزيلة ، من جملتها هاجر المصرية أمة سارا ، وتقدم اليه بالانتزاح من بلده خوفا من أن يهجس في صدره هاجس سوء ثانيا .

« ولأنه لم يكن لابراهيم ولد من امرأته سارا سمحت بجاريتها هاجر فوطئها ابراهيم وولدت له اسماعيل ، واستهانت هاجر بسارا مولاتها شامخة عليها بسبب ولدها فأزاحتها سارا من عندها الى القفر بغيظة منها . فتراءى ملك الرب لهاجر قائلا لا تيأسي من رحمة ربك ، فان الله قد بارك على الصبي حين خاطب أباه ابراهيم ، وكان خاتمة البركة باللغة السريانية هكذا : وأكبرته طب طب وأعظمته جدا جدا .

« أقول قد اتفق في هذه الألفاظ سر عجيب لاح في عصرنا وهو أنا اذا جمعنا حروفها بحساب الجمل كان الحاصل ستمائة وستا وخمسين سنة ، وهي المدة من الهجرة الى السنة التي قتل فيها آخر الخلفاء العباسيين وزوال الملك المعظم جدا عن آل اسماعيل .

وبعد مائة سنة مضت من عمر ابراهيم ولد له اسحق من سارا ، ولما حصل لاسحاق تسع عشرة سنة أصعده ابراهيم لجبل نابو ليضحي به ضحية لله تعالى ، ففداه الله بحمل مأخوذ من الشجرة وأنقذه . .

« والحمل مثال لسيدنا يسوع المسيح له المجد الذي فدى العالم بنفسه ، ولذلك قال في انجيله المقدس : ان ابراهيم كان يرجو أن يشاهد يومي ، فشاهد وسر . وقيل في تلك السنة أتم ملكيزدق بناء أورشليم .

« وفي ثماني وثلاثين سنة من عمر اسحاق درجت سارا أمه وعمرها مائة وسبع وعشرون سنة ، وتزوج ابراهيم قنطورا ابنة ملك الترك .

« ولما بلغ اسحاق أربعين سنة نزل اليعازر ـ وليد بيت ابراهيم ـ الى حران وجاء برفقا زوجة اسحاق ، ولما توفي ابراهيم دفن الى جانب قبر سارا زوجته في المغارة المضاعفة التي ابتاعها من عفرون الحيثاني خوفا من عود الطوفان . .

٣ ـ أبو الفداء

ونختار أبا الفداء من المؤرخين الاسلاميين ، لأنه كتب في القرن الثامن واعتمد على كبار المؤرخين الموسوعيين من قبله ، وقضى أيامه على صلة بأقطار العراق العليا و« أشور » القديمة وعلى علم بمراجع أصحاب السير فيها ، فليس أقدر منه على تلخيص تاريخ ابراهيم والتعقيب عليه من مصادره في زمنه

قال عن ابراهيم عليه السلام :

« هو ابراهيم بن تارح ، وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن رعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وقد اسقط ذكر قينان بن أرفخشذ من عمود النسب ، قيل بسبب أنه كان ساحرا فأسقطوه من الذكر ، وقالوا شالح بن أرفخشذ وهو بالحقيقة شالح بن قينان بن أرفخشذ فاعلم ذلك » .

« وولد ابراهيم بالاهواز ، وقيل ببابل . وهي العراق . وكان آزر أبو ابراهيم يصنع الأصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها . فكان ابراهيم يقول : من يشتري ما يضره ولا ينفعه ! ثم لما أمر الله ابراهيم أن يدعو قومه الى التوحيد دعا أباه فلم يجبه ، ودعا قومه فلما فشا أمره واتصل بنمرود بن كوش - وهو ملك تلك البلاد . وكان نمرود عاملا على سواد العراق وما اتصل به للضحاك . وقيل بل كان نمرود ملكا مستقلا برأسه - فأخذ نمرود ابراهيم الخليل ورماه في نار عظيمة فكانت النار عليه بردا وسلاما وخرج ابراهيم من النار بعد أيام . ثم آمن به رجال من قومه على خوف من نمرود ، وآمنت به سارة وهي ابنة عمه هاران .

ثم ان ابراهيم ومن آمن معه وأباه على كفره فارقوا قومهم وهاجروا الى حران وأقاموا بها مدة ، ثم سار ابراهيم الى مصر وصاحبها فرعون ، قيل كان اسمه سنان بن علوان ، وقيل طوليس فذكر جمال سارة لفرعون - وهو طوليس المذكور - فأحضر سارة اليه وسأل ابراهيم عنها فقال : هذه أختي ، يعني في الاسلام . فهم فرعون المذكور بها فأيبس الله يديه ورجليه ، فلما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ، ثم هم بها فجرى له كذلك ، فأطلق سارة وقال : لا ينبغي لهذه أن تخدم نفسها ، ووهبها هاجر جارية لها ، فأخذتها وجاءت الى ابراهيم ، ثم سار ابراهيم من مصر الى الشام ، فأقام بين الرملة وايليا ، وكانت سارة لا تلد ، فوهبت ابراهيم هاجر ، وواقعها ابراهيم فولدت اسماعيل ، ومعنى ابراهيم بالعبراني مطيع الله .

« وكانت ولادة اسماعيل لمضي ست وثمانين سنة من عمر ابراهيم ، فحزنت سارة لذلك فوهبها الله اسحاق ، وولدته سارة ولها تسعون سنة .

« ثم غارت سارة من هاجر وابنها اسماعيل ، وقالت : ابن الامه لا يرث مع ابني ، وطلبت من ابراهيم أن يخرجها عنها ، فأخذ ابراهيم هاجر وابنها وسار بهما الى الحجاز ، وتركهما بمكة ، وبقي اسماعيل بها وتزوج من جرهم امرأة . .

« وماتت هاجر بمكة ، وقدم اليه أبوه ابراهيم وبنيا الكعبة ، وهي بيت الله

الحرام ، ثم أمر الله ابراهيم أن يذبح ولده ، وقد اختلف في الذبيح هل هو اسحاق أم اسماعيل ، وفداه الله بكبش .

« وكان ابراهيم في أواخر أيام بيوراسب المسمى بالضحاك ، وفي أوائل ملك افريدون ، وكان النمرود عاملا له حسب ما ذكرناه .

« وكان لابراهيم اخوان وهما هاران وناحور ، ولدا آزر .

« فهاران أولد لوطا ، وأما ناحور فأولد بتويل ، وبُتويل أولد لابان ولابان أولد ليا وراحيل زوجتي يعقوب . ومن يزعم أن الذبيح اسحاق يقول كان موضع الذبح بالشام على ميلين من ايليا ، وهي بيت المقدس . ومن يقول انه اسماعيل يقول ان ذلك كان بمكة .

« وقد اختلف في الأمور التي ابتلى الله ابراهيم بها ، فقيل هي هجرته عن وطنه ، والختان ، وذبح ابنه ، وقيل غير ذلك .

« وفي أيام ابراهيم توفيت زوجته سارة بعد وفاة هاجر ، وفي ذلك خلاف ، وتزوج ابراهيم بعد موت سارة امرأة من الكنعانيين ، وولدت من ابراهيم ستة نفر ، وكان جملة أولاد ابراهيم ثمانية : اسماعيل واسحاق ، وستة من الكنعانية على خلاف في ذلك . . »

***

ثم انتقل المؤرخ الى سيرة اسماعيل واسحاق ، فقال عن اسماعيل . . « انه ولد لابراهيم لما كان لابراهيم من العمر ست وثلاثون سنة ، ولما صار لاسماعيل ثلاث عشرة سنة تطهر هو وابراهيم ، ولما صار لابراهيم مائة سنة وولد له اسحاق أخرج اسماعيل وأمه هاجر الى مكة بسبب غيرة سارة منها . وقولها : أخرج اسماعيل وأمه . لأن ابن الأمة لا يرث مع ابني . وسكن مكة مع اسماعيل من العرب قبائل جرهم ، وكانوا قبله بالقرب من مكة ، فلما سكنها اسماعيل اختلطوا به ، وتزوج اسماعيل امرأة من جرهم ورزق منها اثني عشر ولدا . ولما أمر الله تعالى ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببناء الكعبة ـ وهو البيت الحرام ـ سار من الشام وقدم على ابنه اسماعيل مكة ، وقال : يا اسماعيل ! ان الله تعالى أمرني أن ابني له بيتا ، فقال اسماعيل : أطع ربك . فقال ابراهيم : وقد أمرك أن تعينني عليه . قال : اذن افعل . . فقام اسماعيل معه وجعل ابراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة ، وكانا كلما بنيا دعوا فقالا : ربنا تقبل

منا . انك أنت السميع العليم ، وكان وقوف ابراهيم على حجر وهو يبني ، وذلك الموضع هو مقام ابرهيم ، واستمر البيت على ما بناه ابراهيم الى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بناء الكعبة بعد مضي مائة سنة من عمر ابراهيم بمدة ، فيكون بالتقريب بين ذلك وبين الهجرة ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة » .

« وأرسل الله اسماعيل الى قبائل اليمن ، والى العماليق ، وزوج اسماعيل ابنته من ابن أخيه العيص[1] بن اسحاق ، وعاش اسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه هاجر بالحجر ، وكانت وفاة اسماعيل بعد وفاة أبيه ابراهيم بثمان وأربعين سنة . . »

ثم قال المؤرخ بعد أن استطرد الى سيرة موسى الكليم : « وكان مولد موسى لمضي أربعمائة وخمس وعشرين سنة . . الى أن قال عن خراب بيت المقدس سنة عشرين من ولاية بختنصر تقريبا ، وهي السنة التاسعة والتسعون بعد التسعمائة لوفاة موسى . . »

---

(١) هو عيسو في لغة التوراة .

تذييل

الى هنا انتهت المصادر الدينية ومراجع التاريخ القديم التي رويت فيها سيرة الخليل ابراهيم .

وهذه المراجع هي الاساس الذي يقوم عليه كل ما تجده في العصر الحديث من اخبار الحفريات الاثرية وتعليقات المؤرخين عليها .

ومن الواجب ان نعرف مبلغ قوة هذا الاساس قبل ان ننتقل منه الى البناء الذي يرتفع عليه .

ففي تقديرنا ان هذا الاساس اليوم أقوى مما كان عليه عند المؤرخين العلميين قبل القرن العشرين .

فقد كانت البدعة الشائعة في القرن الماضي ان التواريخ الدينية لا تصلح ان تكون اساسا للتواريخ العلمية .

وكان يكفي أن تروى الحادثة وتنسب الى سبب خارق للطبيعة ليقول المؤرخون العلميون انها لم تحدث ولا يعقل ان تحدث ، ولا يقنعوا بالشك في السبب ومحاولة البحث عن سبب آخر داخل في التعليلات الطبيعية . .

وكان يكفي ان يقال ان نبيا من الانبياء عاش ثلثمائة سنة او نحوها ليقال انه لم يوجد قط فضلا عن ان يكون قد وجد وقد عاش أقل من عمره المذكور . .

كل هذا قد تغير في معيار البحث الحديث أو وجب ان يتغير ، لأنه مناقض للعلم نفسه ، عدا ما هو ظاهر من مناقضته للدين .

فقد ثبت اليوم ان الاخبار الدينية سبقت المباحث الحفرية والمقارنات العلمية الى تقرير احكام التاريخ التي صحت في رأي المتأخرين بالبراهين الحديثة . . .

ومن أمثلة ذلك وحدة الاجناس السامية في نشأتها ، فان العلماء العصريين قد عرفوا هذه الوحدة من المقارنة بين اللغات ، ومن الدراسات الأخيرة في علم السلالات البشرية ، ومن تفسير الكتابة على الآثار المطمورة والهياكل المهجورة .

وهذه الدراسات جميعا من مستحدثات الزمن الاخير ، لم يستخرج منها العلماء دليلا موثوقا به قبل مائة سنة .

فاذا احترم العالم حكمه وتقديره وجب ان يفهم ان كلام الأمم السامية عن وحدة اصولها يستند ولا شك الى أصل عريق وسند وثيق ، لأنها تكلمت عن هذه الوحدة وهي لا تعرف شيئا من مقارنات اللغات والاحافير ولم يكن في وسعها ان تعرف شيئا عنها قبل ألوف السنين .

فمن أين جاء لتلك الأمم انها سلالة أصل واحد ان لم يكن لها مرجع تعول عليه ولا يجوز للعلم رفضه واسقاطه من الحساب ؟

كذلك شاعت في القرن الماضي بدعة العلم ـ أو أدعياء العلم ـ الذين رفضوا كل خبر له علاقة بالمعجزات وخوارق الطبيعة .

فاذا قال قائل ان هذه المدينة دمرها الله لفسادها وعدوانها على أنبيائه أسرع أولئك الأدعياء فأبطلوا القصة كلها وقالوا انه لا مدينة ولا فساد ولا أنبياء ، وان الأمر كله حديث خرافة أو تلفيق خيال . . .

فاليوم قد ثبتت وقائع لا شك فيها من تواريخ تلك المدن التي تواترت الأنباء الدينية بتدميرها في الزمن القديم .

وقد تتابع التنقيب في وادي الأردن وشواطىء البحر الاحمر ورمال الاحقاف من جنوب بلاد العرب ، فظهر من الاحافير انها كانت بلاد زلازل وأغوار وعوارض جوية تطابق ما وصفته الكتب الدينية من أحوال عمارها وأحوال خرابها ، وان الزمن الذي وقعت فيه نكباتها قريب من الزمن المقدور لقيام الأنبياء فيها ، ولم ينحصر الأمر في دلالات الكوارث الطبيعية كالزلازل

والأعاصير . بل جاءت الدلالات الاجتماعية مصححة موضحة تعلم الباحثين الاناة والرصانة قبل التعجل بالرفض والانكار .

فلم يكن أبناء الشواطىء على البحر الاحمر يعلمون شيئا عن التواريخ التي كتبت بالاغريقية واللاتينية ثم اندثرت في القرون الوسطى وظلت مندثرة الى أن تجددت وانتشرت بين الاوروبيين والمطلعين على اللغات الاوروبية في العصر الحديث .

ولكن القدماء على شواطىء البحر الاحمر تحدثوا عن المدن التي كانت تحتكر التجارة وتماكس وتبالغ في اضافة الارباح والاتاوات ، ولم تأتها هذه الاخبار من المراجع الاغريقية او اللاتينية بطبيعة الحال ، فلا بد من الاعتراف لها بمرجع معول عليه ، وليس من الجائز ان يتعجل العالم الامين بالشك فيه . . .

ومن أمثلة هذه الاخبار مثل الهزيمة التي حلت بأبرهة الاشرم صاحب الفيل الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وان جيشه هلك بالطير الابابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وقال أبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس انهم أصيبوا بالجدري (وان من أصابته الحجرة ، جدرته) .

فهذا الخبر عن الجدري قد أيده من لم يرد تأييده من مؤرخي اليونان والرومان ، فقد ذكر الوزير بركوب (Procobe) من أبناء القسطنطينية ان مرض الجدري ظهر في مصر عند منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وروى بروس (Bruce) الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر ان الاحباش يذكرون في تواريخهم كيف ارتد ابرهة وانه رجع عن مكة لما اصاب جيشه من المرض الذي يصفونه بصفة الجدري ، وكتب غير واحد من مؤرخي اليونان ان ابرهة زحف على مكة في مركبة يجرها اربعة من الفيلة وان جيشه لم يعد منه الا القليل لكثرة من مات منه بالوباء .

فأيسر ما يفهمه العالم الامين من هذا وأشباهه ان المصادر القديمة قائمة على أساس لا يجوز اهماله ، وان المستقبل خليق أن يفسر منه اكثر مما فسرناه حتى اليوم .

وقد تمحصت مسألة الأعمار الطوال ووضعت في مواضعها من الدراسة التاريخية فليس فيها ما يعترض الباحث في تاريخ قديم أو تاريخ حديث .

وهذه المسألة ـ أي مسألة الأعمار ـ قد نوقشت كثيرا قبل القرن العشرين ، وتساءل المتناقشون فيها : هل حساب السنين واحد بين الأوائل والأواخر . أو هما حسابان مختلفان ؟

وضربوا لذلك مثلا بأيام الخليقة ، فان خلق العالم في ستة أيام يعني اياما غير الأيام التي تحسب بطلوع الشمس وغروبها ، لأن الشمس خلقت في اليوم الرابع ، فلا بد أن يكون معنى الأيام انها أدوار لا تحسب بالشروق والغروب .

وتقرر ان الأوائل كانوا يحسبون للسنة رأسين : رأس السنة الزراعية ورأس السنة الديوانية ، فربما اجتمع في العام الواحد رأسان للسنة على هذا الحساب . .

وظن بعضهم ان حساب السنين كحساب الأهلة عند الأوائل ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعري حيث يقول :

ورأيت الحمام يأتي على العا	لم من قاهر ومن مقهور
وادعوا للمعمرين أمورا	لست أدري ماهن في المشهور
أتراهم فيما تقضي من الأيا	م عدوا سنيهم بالشهور
كلما لاح للعيون هلال	كان حولا لديهم في الدهور

وليس هذا الظن بالصواب ، لأن الأوائل كانوا يعرفون حساب الأهلة وحساب الشمس منذ عهد بعيد يرجع الى ما قبل التاريخ .

واجتهد بعضهم فقال ان الأعمار المقدرة هنا هي أعمار العشائر والدعوات النبوية ، وكثيرا ما يجري الحديث حتى اليوم باسم رأس العشيرة ويكون المقصود هو العشيرة كلها ، أو يقال ابن الشرق وابن الغرب وابن اوربة وابن امريكا ، والمقصود هنا هو العشائر بأجمعها .

وتوافق على هذه المذاهب من التأويل اناس من كل ديانة كتابية ، فليست هي مقصورة على المسلمين ولا على المسيحيين ولا على اليهود ، بل يشترك فيها أصحاب الفقه من جميع الاديان .

ونحن هنا لا حاجة بنا الى الفصل في هذه التأويلات ، وانما أردنا بتمحيصها ووضعها في مواضعها ان الاتفاق تام بين اصحابها جميعا على أمرين :

« أولا » ان تقدير الأعمار في كتب العهد القديم يزداد كلما تباعد الزمن بين رواة الخبر وبين عصور المعمرين الذين تحسب أعمارهم ، فكلما صغرت المسافة بين الزمنين كان التقدير أقرب الى العمر المألوف .

فعند كتابة العهد القديم كان قد انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون ، وانقضى على عهد ابراهيم عليه السلام نحو احد عشر قرنا ، فحسب عمر موسى مائة وعشرين سنة ، وعمر ابراهيم مائة وخمساً وسبعين سنة ، ويزداد التقدير الى أكثر من ذلك كلما أوغل الزمن في القدم الى ما قبل التاريخ .

فبهذه القاعدة أصبح تقدير الأعمار مساعدا على تقرير وقت الكتابة وتقرير الفترات بين العهود ، فلم يبطل حساب المراجع القديمة بهذا الاختلاف بين الأوائل والأواخر في حساب الأعمار الطوال ، بل جاء فيه ما يساعد على الموازنة والقياس .

و « ثانيا » يلاحظ ان حساب العهود بيننا وبين الأوائل لا يختلف كما يختلف حساب الأعمار ، فابن الاثير مثلا يقول اعتمادا على مصادره جميعا ان عهد ابراهيم مضى عليه ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة قبل الهجرة المحمدية ، وهذه التقديرات لا تطيل العهود والفترات بينها بنسبة الطول في أعمار الأفراد المعمرين ، فان هذا الحساب قريب من حساب علماء الاحافير وطبقات الارض الذين يقيسون الفترات بمقياس تكوين الطبقات وتتابع الظواهر الجيولوجية ، وسيأتي فيما بعد ان التفاوت بين تقديرات علماء الاحافير انفسهم لا يقل عن التفاوت بين تقدير ابن الاثير على حسب مصادره وبين تقديرات هؤلاء العلماء مجتمعين .

وأيا كان مقطع الرأي في هذه المسائل جميعا فليس من امانة التاريخ ان يستند اليها أحد في نفي الأخبار المتواترة ، ولا سيما أخبار العهود والدعوات ، ولا تزال الأسانيد الأولى أساسا قويا لتواريخ الأمم ، ترجح فيه دلائل الثبوت على دلائل البطلان .

وبهذا الوزن ننتقل من المصادر الأثرية الى ما بعدها ، ونعتمد على هذا

الأساس ثم لا يمنعنا هذا الاعتماد أن نفرق بين الأسانيد في درجة القبول وميزان الترجيح . .

ولا ننتقل من الكلام عن المصادر الأثرية في جملتها حتى نضيف اليها مصدرا يستمد قوته من السكوت ولا يستمدها من البيان والايضاح .

فلا يخفى ان السكوت المتعمد يدل على كثير ، وربما كان في ميزان الصدق أدل من الكلام الذي يتعرض للتورية والمحال .

فاذا علمنا من بعض التواريخ انها تسكت عمدا عن بعض الأمور فقد علمنا شيئا صحيحا يبين لنا تلك الأمور المسكوت عنها ، وبخاصة حين نعلم سبب السكوت .

لقد سكتت مصادر اليهود عن حالة العرب الدينية كل السكوت ، وترجع هذه المصادر الى القرن السابع قبل الميلاد .

وقد تعمدت هذه المصادر أن تخرج ابناء اسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه ابراهيم من الله ، وقالت ان هذا الوعد انما هو حق لأبناء ابراهيم من سلالة اسحاق .

ان انتساب العرب اذن الى اسماعيل قد كان تاريخا مقررا لا سبيل الى انكاره عند كتابة المصادر اليهودية التي حصرت النعمة الموعودة في ابناء اسحاق . . .

ولو لم يكن انتساب العرب الى اسماعيل بن ابراهيم تاريخا مقررا في ذلك العصر ـ عصر كتابة المصادر اليهودية الأولى ـ لما كانت بهم حاجة الى التمييز بين ابناء اسحاق وابناء اسماعيل . اذ كان يكفي ان يقال ان النعمة الموعودة من نصيب ابناء ابراهيم عامة ليخرج من هذا الوعد من لم يكن من اليهود الذين لاينازعهم أحد في الانتساب الى ابراهيم .

لكن انتساب العرب الى ابراهيم كان تاريخا مقررا كما هو واضح مما تقدم ، فلم يكن في الوسع انكاره ، ولم يكن ثمة مناص من التفرقة بين ابناء ابراهيم من سلالة اسماعيل وابناء ابراهيم من سلالة اسحاق .

وأكثر من ذلك ان كهان اليهود كانوا يحسون من العرب منافسة دينية فضلا عن المنافسة الدنيوية ، فلو لم يكن للعرب حياة دينية يخشى الكهان منافستها لكان يكفيهم ان يحصروا وعد ابراهيم في ابنائه المؤمنين دون ابنائه الوثنيين الذين لا

يعرفون الله الواحد الأحد ، فيخرج العرب بهذا الاستثناء من وراثة ابـراهيم الروحية ، ولا تدعو الحاجة الى اكثر من ذلك الاستثناء . . .

ولا شيء غير خطر المنافسة في النسب وخطر المنافسة في العقيدة الدينية يلجىء الكهان الى حصر النعمة الموعودة في أبناء اسحاق دون أبناء ابراهيم .

وقد لوحظ ان الكهان يحصرون النسب شيئا فشيئا كلما احسوا بخطر المنافسة على سلطانهم وسلطان هيكلهم على الخصوص .

فخصصوا ابناء يعقوب بعد ان كان الوعد عاما شاملا لأبناء اسحاق اجمعين ، وقالوا ان الاسرائيليين هم ابناء يعقوب دون غيره ، واسرائيل هو لقب يعقوب .

ثم انقسمت دولة اليهود الى دولة في الشمال تسمى مملكة اسرائيل ودولـة في الجنوب تسمى مملكة يهودا ، فقال كهان الهيكل ان النعمة الموعودة محصورة في ابناء داود .

وقبل ذلك بزمن طويل كان اللاويون يحصرون الرياسة الدينية فيهـم دون غيرهم ، لأنهم يقولون ان اللاويين قبيلة موسى الكليم .

فاستثناء ابناء اسماعيل لم يحصل عبثا منـذ القـرن السابـع قبـل الميلاد على الأقل ، ولا بد من منافسة دينية ودنيوية دعت الى هذا الاستثناء ، والى السكوت عن الحالة الدينية التي تخشى منها المنافسة ويشعر بها الكهان .

ولعل المنافسة في الحقيقة كانت بـين الايمـان بـ « يهوا » والايمـان بالايل او الاله ، فان العرب الاقدمين لم يذكروا « يهوا » قط بين اربابهم ، وانما ذكروا الايل والاله والله تعالى ، وكان اليهود يعبدون الايل كما يعبده العرب ، ومن ذلك تسمية اسماعيل واسرائيل وبتوئيل . فلما تشابـه النسـب بالانتماء الى ابراهيم ، وتشابهت العبادة بالاتفاق على اسم الاله ، جدت الرغبة بالكهان في الاستئثار من جهة والاستثناء من جهة اخرى ، فحصروا النعمة الموعودة في ابناء اسحاق ثم في ابناء يعقوب ، ثم في ابناء داود ، جريا على عاداتهم المطردة في امثال هذه الاحوال .

ومهما يكن من أمر هذا التاريخ المسكوت عنه فوجود النسبة الى اسماعيل قديم لم تكن فيه حيلة لليهود ولا للعرب .

فلو أراد العرب أن يخترعوا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها الى جارية ، وتخص

غيرهم بالانتماء الى السيدة المختارة .

ولو كان في وسع اليهود أن يحتكروا النسب الى ابراهيم لما ذكروا شيئا عن نسبة غيرهم اليه . . .

فالانتساب الى ابراهيم لم يكن مسألة اختراع واختيار ، ولكنه كان مسألة تاريخ مقرر لابد من البحث فيه على هذا الاساس ، ومن هنا قيمته التاريخية التي نضيفها الى الاسانيد القوية في سيرة الخليل .

ويقضي استيفاء البحث في الاخبار المسكوت عنها أن نشير هنا الى المراجع التي ذكرتها كتب العهد القديم ولم يبق لها اثر بين هذه الكتب ولا بين غيرها من المراجع الاسرائيلية .

فليست الكتب التي ضمت الى العهد القديم هي كل كتب التوراة المعترف بها ، لأن الكتب التي جرى الاستشهاد بها على ألسنة الأنبياء من بني اسرائيل لم توجد كلها بين أسفار التوراة ، كما هو واضح من الشواهد الكثيرة التي نلم ببعضها في هذا السياق .

ففي ختام كتاب الأيام الأول يقول الكاتب : « وأمور داود الملك الأولى والأخيرة هي مكتوبة في سفر اخبار صموئيل الرائي واخبار ناثان النبي وأخبار اسرائيل وأخبار جاد الرائي ، مع كل ملكه وجبروته والاوقات التي عبرت عليه وعلى اسرائيل وعلى كل ممالك الأرض » .

فهناك على هذا كتب تاريخية لم توضع بين كتب العهد القديم ، لأن كتاب صموئيل موجود بينها ، ولا يوجد بينها كتاب للنبي ناثان ولا للرائي جاد . . .

وفي الاصحاح التاسع من كتاب أخبار الأيام الثاني ان « بقية أمور سليمان الأولى والأخيرة اما هي مكتوبة في اخبار ناثان النبي ، وفي نبوة اخيا الشيلوني وفي رؤى يعدو الرائي على يربعام بن نباط » .

وقد تقدم ان كتاب ناثان غير موجود ، وكذلك نبوءة اخيا الشيلوني ورؤى يعدو الرائي ، فانهما غير موجودين على انفراد او على اتصال بغيرهما من الكتب المعروفة .

وفي الاصحاح الرابع عشر من كتاب الملوك الأول : « واما بقية امور يربعام

كيف حارب وكيف ملك فانها مكتوبة في سفر اخبار الأيام لملوك اسرائيل » . . . وجاء في الاصحاح السادس عشر من كتاب الملوك الأول : « ان بقية أمور يعشا وما عمل وجبروته ، أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك اسرائيل ! » . . .

وليس في كتاب الملوك شيء عن هذه الأمور ، ولا عن أمور تاريخية اخرى وردت الاشارة اليها مردودة الى نحو ثلاثين كتابا لم يبق منها اثر محفوظ . . .

ومن هذه الأمور ما هو منسوب الى الاله كما جاء في الاصحاح الحادي والعشرين من كتاب العدد حيث يقول الكاتب : « لذلك يقال في كتاب حروب الرب واهب في سوفة وأودية ارنون ومصب الاودية » . . . او كما جاء في

الاصحاح العاشر من كتاب يشوع : « حينئذ كلم يشوع الرب يوم اسلم الرب الاموريين امام بني اسرائيل وقال امام عيون اسرائيل يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي ايلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من اعدائه . أليس هذا مكتوبا في سفر ياشر ؟ » . :

وليس بين المراجع المحفوظة كتاب ياشر الذي اشير اليه في هذين الموضعين ، وقد اشير اليه في موضع آخر من كتاب صموئيل الثاني حيث يقول : « ورثى داود بهذه المرثاة شاؤل ويغرباثان ابنه ، وقال ان يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس ، هوذا مكتوب في سفر ياشر » .

ويؤخذ من مراجع كثيرة كالكتاب الرابع لعزرا وكتب الحكيم فيلون وكتب آباء الكنيسة الأولين ان اسفارا غير الأسفار الخمسة كانت تنسب الى موسى عليه السلام .

وصفوة القول في هذا الصدد ان المراجع الاسرائيلية قد سكتت عن بعض الامور ولم تستوعب امورا اخرى في سجلاتها المحفوظة فليس من الجائز أن يعترض المعترضون على أمر من الأمور التاريخية لأنه غير مذكور في تلك المراجع ، واذا جاز ان يذهب بعض السجلات من تاريخ سليمان وابنائه فمن الجائز ان تذهب سجلات أقدم منها في التاريخ ، كالسجلات التي حفظت عن عهد ابراهيم ، وهي اقدم منها بعدة قرون .

واذا صرفنا النظر عن هذا كله ، ولم نقدر ان هناك اخبارا مسكوتا عنها ، واخبارا ضائعة فالمسألة التي لا يصح الخلاف عليها عند المقابلة بين المصادر القديمة ، هي نقص المصادر اليهودية حتى في اخبار البلاد المجاورة لمملكة

اسرائيل ، فان المصاد الاسلامية أوفى بأخبار هذه البلاد من مصادر اليهود ، ويكفي لتقرير ذلك ان كتب اليهود لم تذكر قط اخبار عاد وثمود وانفرد القرآن الكريم بذكرها مع ما جاء عنها في المأثورات العربية ، ولولا ان اسم عاد واسم ثمود قد وردا في جغرافية بطليموس لكان من اليسير على الذين يحملون اسم الخرافة على اطراف السنتهم ان يزعموا انها احدى الخرافات ولكن اسم عاد (Oadita) واسم ثمود (Thamudita) قد وردا في جغرافية بطليموس ، وليس موقعهما كما وصفه الجغرافي الكبير بعيدا عن مملكة اسرائيل ، فاذا كان بطليموس قد سمع بهما فلا يعقل ان يكون امرهما مجهولاً عند كتاب العهد القديم ، وانما المعقول ان السكوت عن كل رسالة في ابناء اسماعيل هو المقصود .

ومن الواجب تقرير هذه الملاحظات قبل الانتقال الى مصادر الاحافير وتعليقات المؤرخين المحدثين .

الأحافير والتعليقات

البلاد والسكان :

بلاد الشعوب التي تعرف بالسامية ـ أو على الاصح بالعربية ـ هي شبه جزيرة العرب ، ومن شبه جزيرة العرب هاجرت بعض القبائل الى بلاد الهلال الخصيب بين وادي الفرات والبحر الابيض المتوسط ، وهاجوت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة الى الحبشة في افريقية .

والرأي الغالب ان الهجرة تتبع طريقها من جنوب الجزيرة الى شرقها في محاذاة البحر الهندي فالخليج الفارسي فنهر الفرات الى أقصاه شمالا ، ويرتفع بعض المؤرخين بأول فوج من افواج الهجرة العربية الى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، ثم تتابعت الافواج من هذا الطريق الى ما بعد التاريخ .

فالاشوريون والاكاديون والبابليون والكلدانيون هم افواج متلاحقة على فترات متباعدة تتراوح الفترة منها بين ستمائة سنة والف سنة ، واقدمها ما اقام في الشمال ، لأن الاقاليم الشمالية في وادي النهرين كانت اخصب الاقاليم وأصلحها للزراعة والمرعى خلافا لأقاليم الجنوب التي كانت مغمورة بماء البحر الملح وظلت كذلك زمنا طويلا قبل ان ينحسر عنها الماء وتصلح فيها الارض للسكن والزراعة . فلما انحسر عنها الماء اصبحت أعمر الجهات في وادي النهرين ، لقيام المدن على شواطئها ووفرة الموارد فيها من التجارة والزراعة .

ومن شمال العراق ، كانت قبائل المهاجرين الأوائل تنحدر الى بادية الشام والى شواطىء البحر الأبيض المتوسط على مقربة من صحراء سيناء .

فالقبائل العربية التي قامت في فلسطين من شمالها الى جنوبها انما قدمت اليها

على الاكثر من الشرق لا من الجنوب ، ولم يظهر لنا من الآثار ما يدل على هجرة كبيرة من طريق الحجاز وشواطىء البحر الاحمر قبل الدعوة الاسلامية .

وسبب ذلك ان الحجاز - كما هو معلوم - واد غير ذي زرع ، فلم يكن فيه من السكان من يزحفون في حشد كبير لغزو البلاد الشمالية ، وكان معظم الرحلة فيه للتجارة مع القوافل التي تذهب وتعود ، ولا يبقى منها في الشمال الا العدد القليل ، ولكنه مع هذا كان طريقا غير منقطع من طرق التجارة القديمة . لأن سلوك القوافل بين اليمن والعقبة على طريق البر أيسر من سلوكها بحرا مع قلة السفن واعتماد العرب في اسفارهم على الجمل الذي سموه بحق سفينة الصحراء .

وربما حدث مرات ان يوغل العرب الشماليون جنوبا كلما ضاقت بهم مساكنهم أمام المغيرين عليهم او حاقت بهم نكبة من الزلازل والصواعق وهي كثيرة في تلك البقاع ، كما ظهر من آثارها الباقية الى هذه الأيام . .

ولهذا يعتقد المؤرخون ان اليمن هي مصدر العربية الأول ، ويتلاقى هنا رأي المؤرخين المحدثين ورأي المؤرخين الأقدمين من أهل الحجاز ، اذ كانوا يقولون ان العرب العاربة هم أهل اليمن ، ثم يليهم العرب المستعربون . .

ولكن هذا الترتيب اذا صح من حيث النسب لا يصح من حيث الارتقاء باللغة العربية ، فان اللغة العربية الأولى في اليمن لم تبلغ من الصقل والفصاحة وانتظام القواعد ما بلغته لغة الحجاز ، فهي نهاية الدورة بعد مطاف اللغة العربية من اقصى الجنوب في شبه الجزيرة الى اقصى الشمال في العراق ، الى الرقعة الوسطى بين العراق والبحر الابيض المتوسط ، وهي لا تزال تنتفع وتتهذب في كل مرحلة من مراحل المطاف . .

على ان البقايا التي تخلفت منذ عشرات القرون قبل الميلاد لاتدع مجالا للشك في وحدة اللغة بين الأقوام العربية في شبه الجزيرة العربية وفي ارض الهلال الخصيب ، ويقول البرايت Albright في كتابه عن احافير فلسطين[1] :

« ان اللغات السامية المشهورة في القدم هي الاكادية - الاشورية - البابلية - والسامية الشرقية والسامية الغربية ، وتنقسم هذه الى العربية الشمالية والعربية الجنوبية أي المعينية والسبئية والأثيوبية ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث ، وكل تقسيم من هذه التقسيمات فانما هو مسألة اصطلاح ، والتفرقة فيه اقل جدا من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التي درسها الباحثون

---

(١) Archeology of Palestine by Albright

خلال القرن او القرن والنصف الاخير . اذ ان اللغات السامية القديمة ـ عدا الاكادية ـ تتقارب في الاجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ، ولا يلحظ الانتقال من لهجة الى لهجة الا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية . . ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكد الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة في هذه الأيام ، ولم تكن الاكادية نفسها منفصلة عن سائر اللغات السامية الغربية اكثر من الانفصال بين المالطية والعراقية الحديثتين »

ويقرر علماء المقارنة الدينية مثل هذا عن التقارب بين عبادات العرب الأولين . فيقول الاستاذ اندرسون في مجموعة العهد القديم والدراسات العصرية[1] : « ان اله الكنعانيين الأعلى ـ ايل ـ يعبد بأسماء متعددة بين الساميين الغربيين ، ويعرف باسم شداي ، وايل عليون ، وسالم ، وصادق ، وحداد ، ويرى انجنل Engnell ان اسم يهوا واحد من هذه الاسماء كان مهملا على عهد موسى فأحياه موسى بدعوته ، ثم امتزج اسم يهوا بالصيغ الاخرى ولا سيما صيغة ايل عليون في اورشليم وتم هذا الامتزاج بسهولة لأنها عنوان على اله واحد » . .

ثم قال ان الوحدانية التي كانوا يدركونها في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها كانت وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب . .

ويقول وولي Woolley صاحب أهم المباحث في تاريخ ابراهيم : « انه من المحتمل جدا ، وان لم يكن ثابتا ثبوت اليقين ـ ان اسم يهوا كان معروفا عند بعض قبائل سورية الشمالية قبل زمان موسى بعهد طويل »[2]

والظاهر انهم كانوا الى الزمن الذي كتب فيه المزمور الخامس والثلاثون بعد المائة من المزامير المنسوبة الى داود ، يصفون يهوا بأنه « مفرق جميع الآلهة » .

والظاهر كذلك انهم كانوا الى ما بعد خروجهم من مصر لا يزعمون انهم مميزون على القبائل الأخرى ، بل يخطر لهم كما جاء في الاصحاح الأول من سفر التثنية ان الرب « لبغضه لهم قد أخرجهم من أرض مصر ليدفعهم الى أيدي العموريين ويهلكهم على أيديهم . »

وظاهر كذلك ان وحدة الأصل واللغة كانت توقع اللبس في تسمية القبيلة

(١) The old Testament and Modern Study

(٢) Abraham: by Woolley

الواحدة أو الشعب الواحد ، فنسخة يهوا من العهد القديم تسمي سكان غرب الأردن بالكنعانيين ، ونسخة الوهيم كانت تسميهم بالعموريين كما يرى من مراجعة الاصحاح الأول من سفر القضاة .

ويعنينا في هذا الفصل أن نبرز هذا التشابه في السلالة العربية منذ أقدم العصور التاريخية ، فلم نعثر في مصدر واحد على خبر يفهم منه أن ابراهيم التقى بمن يعارض عقيدته الالهية بعد خروجه من موطنه الأول ، وقد كانت في طريقه عبادات محلية مختلفة وأرباب محليون مختلفون ، وشأن هؤلاء كشأن الأولياء والقديسين الذين يتشفع بهم أبناء كل جهة في الأمم التي تؤمن بالوحدانية ، فأبناء الجهة يفضلون أولياءهم وقديسيهم وقد يتحولون من جهتهم الى جهة أخرى فلا ينكرون التشفع بالأولياء والقديسين في الجهه التي تحولوا اليها ، لأنهم أصحاب الحق فيها . أما العقيدة الالهية فهي واحدة أو متقاربة ، ولولا ذلك لما كان الخليل عليه السلام يوقر ملكي صادق ويقدم قربانه للاله عليون كما روى سفر التكوين . .

انما اشتد الخلاف الديني وخلاف العصبية بين أبناء هذه الشعوب عندما وقر في أذهان طائفة من العبريين انهم هم وحدهم ذرية ابراهيم المختارة ، وكانت دعواهم هذه طارئة لم يسمع بها الا بعد أيام موسى بمئات السنين ، وفي هذا يقول سفر التثنية : « أنتم مارون بتخم اخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير ، فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم لأني لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم . ولعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثا . . طعاما تشترون منهم بالفضة لتأكلوا وماء تبتاعون منهم بالفضة لتشربوا . . ومتى قربت الى تجاه بني عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم لأني لا أعطيك من أرض بني عمون ميراثا ، ولبني لوط قد أعطيتها وهي أيضاً تحسب أرض رفائيين ، سكنوها قبلا . . لكن العمونيين يدعونهم زمزميين : شعب كبير وكثير وطويل كالعناقيين أبادهم الرب من قدامهم فطردوهم وسكنوا مكانهم الى هذا اليوم . . »

هكذا كانت حال الشعوب المتفرعة على الأصول العربية ، ولكنها لم تكن وحدها في بقاع الهلال الخصيب أو بين النهرين ، اذ كانت هذه البقاع مفتوحة للواردين من الشرق والغرب والشمال ، وما حدث في عهود التاريخ المعلومة قد حدث مثله في العهود التي لم يدركها التاريخ فقد نزح قوم من الشرق يدعون بالسومريين ، وأناس من الغرب يدعون بالحيثيين ، وأناس من الشمال مجهولون

يحسبهم المؤرخون تارة من السومريين وتارة من الحيثيين .

فالسومريون في الغالب من أصل مغولي ، وسواء ثبت انهم من المغول أو ثبت غير ذلك ، فالأمر الذي لا شك فيه انهم من غير الساميين أو السلالة العربية ، لأنهم كانوا يتكلمون لغتغروبة Agglutinatine بعيدة جدا في أصولها وقواعدها من اللغات السامية الاشتقاقية ومنها العربية Inflectiona و . . . ومن المقابلة بين صورهم وتماثيلهم وبين الصور والتماثيل العربية في أرض بابل وغيرها يبدو الفرق واضحا بين الملامح والقسمات ، فضلا عن الفروق البعيدة في الطبائع والعادات ، ولكنهم لم يعرفوا باسم غير الاسم الذي أطلقه عليهم العرب الأقدمون ، وهو اسم السومريين أي سمر الرؤوس كما جاء في وصفهم على الآثار .

والحيثيون على الأغلب آريون قدموا من الشرق الى آسيا الصغرى قبل فجر التاريخ ، ولا بد أن يكون مقدمهم الى آسيا الصغرى بعد احتلال الساميين للهلال الخصيب بقوة لم يستطع الحيثيون أن يتغلبوا عليها ، والا لما تجاوزوا هذه البقاع المخصبة الى ما وراءها .

ويذهب أناس من المؤرخين المحدثين الى أن العموريين أيضا من الأقوام التي لا تنتمي الى سلالة سامية عربية ، ومن هؤلاء المؤرخين العلامة سايس Sayce المشهور . . وحجته في ذلك أن صورهم على معبد رمسيس تخالف في اللون والقامة صور الأقوام الأخرى من أبناء آسيا الغربية ، وهي حجة لا تنهض وحدها أمام اللغة وانقطاع الصلة بينهم وبين كل قطر من الأقطار التي يفرض الفارضون انهم قدموا منها ، ولا يعقل انهم قدموا من أوربة عن طريق افريقية وهي خالية ثم اختاروا بقاع فلسطين وسورية دون غيرها ، ولا يعقل كذلك انهم حاربوا أبناء البلاد التي وقعت في طريقهم وتغلبوا عليهم واجتازوهم دون أن يسلبوهم أرضهم ويستقروا فيها ، وليس أقرب الى التقدير الصحيح من مجيئهم في زمن قديم من الشرق عند وادي الفرات ، ولعلهم ينتمون الى الأرض المعروفة باسم (امرو) هناك ، ولا اعتداد بلون البشرة أو طول القامة ، فلم يثبت قط أن الجو العربي منذ الأزمنة الخالية كان يستلزم السمرة والقصر ، ولم يزل بين أجناس الجنوب عمالقة غير العموريين .

ذلك مجمل الحال من حيث السكان من بلاد النهرين والهلال الخصيب ، فمن شرق الدجلة الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط عشائر عربية ، تقيم وتترحل وينافس بعضها بعضا على المرعى والمورد كلما ضاقت بها البقاع أو جاءها من

الجنوب وارد جديد .

وكان السلطان الأكبر على هذه العشائر للدولة التي تقوم في العراق ، سواء كانت دولة الأشوريين أو الأكاديين أو البابليين ، أو كانت دولة السومريين قبل هؤلاء أجمعين . . لأن هذه العشائر تقيم وتترحل في بقاع لا تنفصل عن بقاع النهرين ، وربما دخل بعض البقاع في حوزة مصر وتولاها حكام من قبل فرعون ، وربما اقتدى بعض العشائر بالمصريين في العادات والعبادات ، وربما انتقل بعضهم الى مصر مرتادين أو متجرين فاقتبسوا كذلك من عاداتها وعباداتها ، ولكن وحدة اللغة ووحدة المكان ووحدة العادات كانت هي الغالبة على طول الزمن ، ولهذا كان الولاة المصريون على آسيا الغربية يكتبون الى فرعون بالخط المسماري وعلى ألواح الطين المطبوخ ، كما كان يكتب البابليون والأشوريون . .

وحدث غير مرة أيام ضعف الدول أن تجترىء العشائر القوية عليها فتهزمها وتنشىء فيها دولتها : حدث هذا من العموريين والعيلاميين في وادي الفرات ، وحدث من الرعاة الذين اشتهروا باسم الهيكسوس في وادي النيل ، ويرتبط تاريخ الخليل كما يلي بقيام هذه الدول وانتقال هذه العشائر من أماكنها كلما قامت لاحداها دولة مستقرة في الحواضر والعواصم ، وهجرة ابراهيم على اتصال وثيق بالزعازع التي تنشأ حتما من تبدل النظم وتبدل العبادات والكهانات وحلول الجديد منها محل القديم ، مع المساومة والمصالحة بين النظام المقبل المعمول به والنظام المدبر المهجور . .

ولكننا على كثرة الأحافير لا نجد بينها خبرا يعين لنا التاريخ في حادث من الحوادث تعيين الجزم واليقين . ولم يهتد المنقبون الى تاريخ منها الا على وجه التقريب ، وبعد الموازنة والترجيح .

وعلة ذلك أن الدول الكبرى في تلك العهود لم تكن موحدة الحكومات ، بل كانت منقسمة موزعة يتولاها في الوقت الواحد ثلاثة أمراء أو أربعة أو أكثر من ذلك ، فاذا حاول المنقب أن يضع لهم ترتيبا متعاقبا لم يلبث ان ينكشف له من محفورات جديدة انهم كانوا في عصر واحد ، ومن الأمثلة الكثيرة على هذا أن المنقبين كانوا يعينون سنة ١٩٤٠ قبل الميلاد لحكم حمورابي ثم انكشفت أحافير (ماري) للاستاذ اندريه باروت André Parrot فقدموها قرنا كاملا الى نحو سنة ١٨٤٠ لأنهم وجدوا ملوكا معاصرين له وكانوا يحسبونهم سابقين له في موطنه .

، وفي مصر كان المظنون أن ترتيب الأسر متعاقب ، ثم ظهر من النقوش المتوافقة في الزمن أن الأسر الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة حكمت في عصر واحد بين أقاليم الوجه البحري والصعيد ، وأن الاصلاحات التي تمت في اقليم الشلال لم تكن من عمل الهكسوس المعاصرين ، وان من هؤلاء الهكسوس من كان يرسل الهدايا والاتاوات الى ملوك الصعيد . . ويقول المؤرخ بتري Petrie أن الصورة التي على معبد بني حسن هي صورة رئيس من الهكسوس ، وان الكلمة مركبة من هيك بمعنى أمير ومن شو اسم القبيلة ، وانه يضاهي اسم (خيان أو شر) المنقوش بين أسماء الملوك الشماليين على معبد تحوتمس الثالث بالكرنك واسم خيان هذا خليق ان يقف عنده القارىء ، لأنه قريب من اسم ريان الذي حسبه مؤرخو العرب الاقدمين بين اسماء ملوك الرعاة ، ونتيجة هذا التداخل في أزمنة الأسر الحاكمة ان يلتبس الأمر على المؤرخ عند تعيين أوقات الحوادث وتعيين اسم الأمير الذي تنسب اليه ، وقد مضى زمن على الهكسوس في الوجه البحري وهم رواد يطلبون المرعى والضيافة ولا يجسرون على المنازعة في الملك ، فاذا وجدت لهم آثار سابقة لعصر دولتهم فلا يلزم من ذلك تعديل تاريخ الدولة ، لأن دخول الهكسوس الى مصر للمرعى والرحلة من مكان الى مكان غير دخولهم بجموعهم وجنودهم للسيطرة واقامة الملك بأسمائهم ، وكل ما يدل عليه السماح لهم بالدخول واهمال الحيطة في أمرهم ان فراعنة الصعيد كانوا يومئذ في شاغل بالنزاع عن الحيطة والتحصين .

ولا داعي كذلك لتخطئة المؤرخين الذين نقبوا في فلسطين ، فعينوا للهكسوس تاريخا غير تاريخ دولتهم بالديار المصرية ، فان زحف الهكسوس على جنوب فلسطين سابق بالبداهة لقيام دولتهم بالوجه البحري من أرض مصر . فالمنقبون في مدينة اريحا علموا من بقاياها انها خربت بالزلازل وقذائف البراكين ثلاث مرات ، وعلموا من اساليب البناء ونقش الفخار واثر التحلل على المنسوجات في طبقات الارض متى كان الموعد المقارب لكل كارثة من هذه الكوارث . وفي الدور الثالث وجدوا مقابر للهكسوس واستطاعوا أن يعينوا وقتا لوجودهم بأرض كنعان حوالي سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وعلموا ان أمير (اريحا) تواطأ مع الهكسوس على غزو مصر وان هؤلاء اقاموا معه موظفا يسمونه كاتب الوزير للرقابة على البيادر وخزائن الغلال ، وان الفترة كانت فترة اضمحلال وهزال اصاب الدول في مصر والعراق وشجع الرعاة والقبائل

الرحل علي غزوها وتوطيد أقدامهم فيها فكان هجوم الهكسوس على مصر معاصرا لهجوم قبائل البدو من عيلام وعمور على بابل ، وكانت الارض التي في طريق مصر موزعة بين العمالقة والحيثيين واليبوسيين والعموريين ، وليس بينهم ذكر للعبرانيين . .

الا ان المنقبين الذين عينوا زمنا للهكسوس حوالي سنة ١٧٥٠ لم يعرفوا من هم هؤلاء الهكسوس[1] على وجه التحقيق ولكنهم استخلصوا من « خط السير » الذي اتبعوه بعد خروجهم من مصر منهزمين انهم عادوا الى مواطنهم في شمال سوريا ، وانهم على الأرجح مزيج قديم من الاراميين والحيثيين ، ولم يطل مقامهم بمصر اكثر من قرن ونصف قرن ، ثم تعقبهم المصريون ودمروا المدن التي تواطأت معهم على غزو الديار المصرية ، ومنها اريحا ، وقد وجد المنقبون فيها بين الفصوص الكثيرة فص خاتم باسم خاميس أو احمس قاهر الهكسوس .

الى هذا التاريخ لم يكن للعبريين الذين يسمون انفسهم بأبناء اسرائيل أي اثر بين القبائل التي في طريق مصر ، ولم يذكر لهم اسم في اثر من الآثار التاريخية قبل سنة ١٢٢٠ قبل الميلاد .

في هذا الاثر يروي الفرعون مر نفتاح خبر حملته التأديبية على عسقلان وجزير ويو انام واسرائيل ، ويقول انه محا اسرائيل فلم تبق منها باقية ، ويؤيد خبره هذا ان النصب الذي اقيم بعد ذلك مسجلا لانتصار رمسيس الثالث على العموريين والفلسطينيين والحيثيين سنة ١١٩٠ قبل الميلاد ، لم يرد فيه ذكر لاسرائيل .

وعصر ابراهيم قبل هذه الفترة على التحقيق ، فمن القرن الثاني عشر الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد لم يكن لابراهيم وذريته مقام في غير الجنوب عند جيرار أو وراءها جنوبا ، ولم يكن لابراهيم مقام في حبرون ، ولهذا يرجح الدكتور (كامبيل) ان ابراهيم لم يدفن في مغارة مكفيل بحبرون على مقربة من اورشليم ولكن الذين انتسبوا اليه تعلقوا بذكرى هذا المدفن لتسويغ دعواهم في مملكتهم ، ولا بد هنا من ابراهيمين أحدهما جاء بعد الآخر بزمن طويل .

***

ويذهب الدكتور كامبيل بعيدا جدا في هذا الفرض . فيشير الى ورود اسم ابراما في الآثار البابلية . وقد ورد في خلال قصة زراعية حيث قيل ان ابراما

---

(١) كتاب قصة أريحا للاستاذ جارستانج وابنه Garstang

استأجر ثورا للزرع من أحد الفلاحين ، ولا شأن لابراما هذا بسيرة الخليل . . ولكن الدكتور كامبيل يسرد أسماء أخرى في الاحافير قريبة من هذا الاشتقاق ، ومنها « ابرمراما » ، وهو على رأي الدكتور قد يكون أمر مرابي الذي هو أمورابي بعينه . وهو ولا شك جد من جدود العموريين الذين ملكوا بابل ، وكانت منهم شعبة تملك بيت المقدس وحبرون بجوارها ، فلما امتزج العموريون والعبريون ، واشتركوا في العبادة وفي السيادة صعد العبريون بنسبهم الى جد مدفون في حبرون يسمى ابرام وذكروا ان قبره مشترى بالمال من ملوك الارض(١) الاصلاء ، فليس في دفنه ثمة عدوان ولا ادعاء .

وقصة الابراهيمين قد لجأ اليها كاتب منقب لا يغلو في فروضه على هذا المثال ، وهو السير ليونار صاحب كتاب ابراهام والكشوف الاخيرة ، فقد رجح ان ابراهام غير ابرام ، وقال ان تسمية الحفيد باسم الجد كانت مألوفة جدا في البلاد البابلية كما يظهر من مقابلة اسماء الملوك من اسرة واحدة ، فاذا كان لابراهيم جد باسم ابرام كما جاء في كثير من الروايات فالاقرب الى المألوف ان المتأخرين بعد عصره جمعوا بين اخبار الاثنين ، ووصلوا عمر أحدهما بعمر الآخر فبلغوا بهما مائة وخمسا وسبعين سنة . . .

وغير بعيد ان يكون العبريون المتأخرون قد تكلموا عن ابراهيمين لا عن ابراهيم واحد ، فهذا التاريخ الغامض قد زاده اختلاطا على اختلاط دعوى الطائفة العبرية التي تنتسب الى ابراهيم انها ذريته التي ترثه في الارض والسماء ، وانها ورثت ارض فلسطين من أمام ابراهيم مع انهم كانوا الى أيام موسى يشترون المرعى والمورد فيها بالفضة ، ولم يستطيعوا ان يدخلوا فلسطين الا بعد ضعف العموريين والحيثيين والهكسوس .

***

ومن حقائق التاريخ المطردة ان الملك هو بلاء القبائل الرحل فلما ملك الحيثيون والهكسوس ضاعوا واندحروا ، ولما هجم العموريون على بابل فملكوها ضاعوا واندحروا في بابل وفي بيت المقدس ، ولما دخل العبريون انفسهم بيت المقدس وملكوا فيها ضاعوا واندحروا وحاق بهم ما حاق بالقبائل الأولى . .

فالملك هو نهاية كل قبيلة من تلك القبائل ، وقد ظلت كلها قبائل نامية الى ان ملكت ، فانتهت بذلك الى دورها الاخير .

---

(١) Race and Religion by : C.G. Campbell

وعلى هذه السنة عاش العموريون والكنعانيون والحيثيون ، وعاش معهم العبريون قلة ضعيفة الى اقصى الجنوب من تلك البقاع ، فكان وطن ابراهيم عند سيناء وشمال الحجاز ، وكان الجنوب مفتوحا له وأيسر له من الشمال ، حيث تجول القبائل التي بلغ من قوتها أن تغير احداها على بابل وتغير الأخرى على مصر ، فأيسر من اجلائها عن أرضها أن يبقى حيث هو او يمعن في الجنوب ويستقبل الحجاز ، وعبرة التاريخ هنا ان المتحذلقين الذين خطر لهم ان ذهاب ابراهيم الى الحجاز اعجوبة ملفقة يرون بالنظر الصادق انها هي التقدير الصحيح ، وان الاعجوبة هي اتجاهه من الجنوب الى الشمال .

اللغة

ربما كان من المفاجآت عند بعض الناس أن يقال لهم ان ابراهيم عليه السلام كان عربياً ، وانه كان يتكلم اللغة العربية .

ولكنها الحقيقة التاريخية التي لا تحتاج الى فرض غريب او تفسير نادر غير ترجمة الواقع بما يعنيه ، وانما الفرض الغريب ان يحيد المؤرخ عن هذه الحقيقة لينسب ابراهيم الى قوم غير قومه الذين هو منهم في الصميم . .

وليس معنى هذا بالبداهة انه كان يتكلم العربية التي نكتبها اليوم أو نقرأها في كلام الشعراء الجاهليين ومن عاصرهم من العرب الاقدمين ، فلم يكن في العالم احد يتكلم هذه اللغة في عصر ابراهيم ولا في العصور اللاحقة به الى القرن الرابع او الثالث قبل الميلاد .

وانما اللغة العربية المقصودة هي لغة الاقوام التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية وتهاجر منها واليها في تلك الحقبة ، وقد كانت لغة واحدة من اليمن الى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء .

ولقد عرفت تلك اللغة حينا باسم اللغة السريانية غلطاً من اليونان في التسمية ، لأنهم أطلقوا اسم اشورية او اسورية على الشام الشمالية ، فشاعت تسمية العربية باسم السوريانية والسريانية من المكان الذي اقامت فيه بعض قبائل العرب الوافدة من شبه الجزيرة منذ أقدم العصور ، قبل عصر ابراهيم بزمن طويل .

واشتملت هذه اللغة السريانية في بعض الازمنة على عدة لغات لا تختلف فيما

ببينها الا كما اختلفت لهجات القبائل العربية قبل الدعوة الاسلامية ، ومن هذه اللغات لغة ارام وكنعان وادوم وموآب ومديان وما جاورها في الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء .

وربما كانت المفاجأة اشد على من يسمع ان الخليل لم يكن عبرياً من العبريين .

فقد مضى زمن طويل والناس يفهمون ان العبرية واليهودية كلمتان بمعنى واحد ، ولم تكن اليهودية قط مرادفة للعبرية في معنى صحيح .

فالعبرية في نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة عامة تطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرحل في صحراء الشام ، وكان من ابناء هذه القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة هنا وهناك حسب المواقع والمناسبات ، وبهذا المعنى وردت كلمة العبري والابري والهبيري وما قاربها لفظاً في احافير « تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق ، وجاءت بهذا المعنى في الكتابات السماوية والفرعونية » ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين . .

ولما وجد اليهود وانتسبوا الى اسرائيل كانوا هم انفسهم يقولون عن العبرية انها لغة كنعان ، ثم انطوت العبرية في الارامية التي غلبت على القبائل جميعاً بين فلسطين والعراق مع اختلاف يسير بين الارامية الشرقية والارامية الغربية . .

واصبحت العبرية لهجة تختلف بنطق بعض الحروف كما تختلف القبائل بنطق الشين والكاف او نطق الميم واللام الى هذه الايام .

ففي الاصحاح الثاني عشر من سفر القضاة يقول : « كان رجال جلعاد يقولون له أأنت من افرايم ؟ فان قال لا كانوا يقولون له : قل شبولث . فيقول سبولث . فكانوا يأخذونه ويذبحونه » .

ولما كشف حجر موآب المشهور[1] وجدت الكتابة عليه قريبة جداً من العبرية ، وهو يرجع الى القرن التاسع قبل الميلاد .

وقد أقام هذا الحجر ملك موآب ميسا بن شموس ، وقال فيه ان الاله شموس (أي الشمس) نصره على اله اسرائيل ، وانه بنى هيكل بعل معون ، وذكر (اشتار شموس) في موضع آخر كما قال انه جر محاريب (يهوا) أمام ربه

---

(١) كشفه « كلين » الالماني سنة ١٨٦٨

المعبود ، وكان هذا الرب راضياً عنه بعد جفاء وعقاب .

وظهر من أحافير اليمن والعراق والشام وفلسطين ان اسماء الاله واحدة في جميع هذه البلاد ، ففي كلامها اسم بعل والرب وايل وصادق بمعنى المعطي الوهاب ، ومن هذا التشابه اسم ملكي صادق في فلسطين واسم ايل صادق في معين وحضر موت .

ومن أقوى الأشياء دلالة على العلاقة بين ابراهيم والحجاز أن اسم بعل يطلق كثيراً على الاله في ديانات جميع القبائل ما عدا القبائل التي دانت بدعوة ابراهيم وخلفائه ، فان اطلاق اسم البعل على الاله مكروه فيها لا يذكرونه الا عرضاً في تركيب الأسماء التي يتوارثها الناس بغير نظر الى معناها ، وقد ورد اسم البعل في ديانات الجزيرة العربية ما عدا ديانة الكعبة او ديانة الحجاز ، ومن قال ان اسم (هبل) تصحيف لاسم (يهو بعل) لم يستند الى دليل ولا قرينة معقولة . اذ لا معنى لتصحيف الكلمة في اسم الصنم مع وجودها في اللغة بمعنى السيد او الزوج الى اليوم ، ولو كانت الكلمة منسية لما كان بالتصحيف من غرابة ، واما وهي مفهومة معروفة فتصحيفها في اسم صنم معبود غير معقول ، وأبعد من هذا القول أن يقال ان (هبل) منحوت من كلمة يهوا وكلمة بعل فان الدعوة الى يهوا تناقض الدعوة الى بعل ، ومن آمن بهذا لم يؤمن بذاك . . الا أن يقال ان اسم يهوا مأخوذ من لغة العربية الحجازية أو الجنوبية ، وينبغي لمن يقول هذا أن يستشهد بأمثلة لوجود الكلمة مفردة ومقترنة ببعل في أثر ثابت ، وليس لهذا الأثر وجود . .

ويرجح بعضهم أن اسم ابرام يتألف من أب ورام ، وان رام هنا بمعنى احب ، فاسم ابرام اذن يعني محبوب الله ، وهو وصف يوافق تلقيبه بخليل الله ، ويستبعد مرجليوت[1] أن تكون (رام) من مادة الرفعة كالرامة التي تطلق على القرية في البناء العالي ، وتجمع على رام كما تجمع ساعة على ساع وحالة على حال وحانة على حان .

وينقل مرجليوت عن جليزر Glaser أن الملك الحميري شرحبيل يعفور ذكر اسم الله في الحجر المنقوش على سد مأرب فسماه « بعل السمائين والأرضين » وأنهم عرفوا التوحيد في منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينقل عن ديسو Dussaud أن الأحافير النبطية التي ترجع الى القرن الثالث قبل

---

(١) رسالته في مطبوعات الاكاديمية البريطانية سنة ١٩٢٤

الهجرة تدل على تقارب شديد بين الارامية والعربية الفصحى . .

وقد لوحظ التقارب بين اللغات او اللهجات العربية ، فيما هو أقدم من ذلك كثيراً بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفي سنة قبل الميلاد . فان أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفي والنهي وتصريف الأفعال مشتركة في اللغة العربية واللغة الأشورية التي ... اليها السريانية كما تقدم .

وهذا التقارب هو الذي أوحى الى الأستاذ دويرتي أن يترجم اسم (دمقي اليشو) بحبيب الله من المقة بمعنى الحب والايل بمعنى الله وضمير الاضافة ، وجاء فلبي فظن أن هذا الاسم يطابق في الزمن والصفة اسم الخليل ابراهيم ، وان الخليل كان ملكاً من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج الفارسي لأن الأقوال متواترة بمقام الخليل هناك في أور الكلدانيين ، ولأن اسم (دمقي اليشو) ورد في الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشاطىء أو ملوك الأرض البحرية[1] وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات .

وهذا التقارب في اللغة والكتابة يفض لنا ـ فيما نعتقد ـ خلافاً شديداً دخل فيه المهاجمون للاسلام والمدافعون عنه حول نسب الخليل ابراهيم واسم أبيه .

فقد جاء في القرآن الكريم « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر . . » فاتخذ المهاجمون للاسلام من ذلك دليلا على الخطأ في تسمية أبي الخليل ، وقالوا ان اسمه تارح كما ورد في العهد القديم .

وجاء بعض المفسرين من المسلمين فحاولوا طويلا ان يجعلوا لكلمة (آزر) موضعاً من الاعراب او مدلولا يبطل ذلك الانتقاد ويردون به تخطئة المهاجمين . .

والواقع أن هذه التخطئة لا محل لها عند النظر في أصول الأسماء ، فان ابراهيم قد انحدر الى أرض كنعان من أرض أشور ، واعتقد شراح الكتب الاسرائيلية في غير موضع أن الآباء كانوا ينسبون الى بلادهم أو أممهم كما يقال عن ابن مصر وابن أوربة وأبناء الشرق وابناء الغرب وأبناء النيل .

فاذا نسب ابراهيم الى أشور فمن الجائز جداً ان يكون تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم على رجل أو على الجد القديم الذي

---

(١) The back Ground of Islam by Philby

تنسب اليه أمة أشور ، وكثيراً ما انتسب القوم الى اسْم جد قديم كما يقال في النسبة الى عدنان وقحطان . .

ونظرة واحدة في كتابة اسم اشور ونطقها الى اليوم في العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيداً لأول وهلة .

فقد كتبت أشور تارة أزور وتارة أثور وتارة أتور بالتاء وتارة أسور بالسين .

ولا يخفى أن اللغات السامية لم تكن تكتب لها حروف علة الى زمن قريب ، وأن الاغريق الذين اطلقوا اسم (اسورية) على وطن ابراهيم من نهر الفرات الى فلسطين ينطقون الياء الاغريقية بين الواو والياء ، ولهذا تكتب لوبيا بالواو كما تكتب بالياء ، وتنطق سيريه بالياء في اللغات الأوربية وتنطق سورية بالواو في اللغات الشرقية .

ولا يخفى كذلك أن كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية ، وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالحاء . .

فاذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل أتور واتير الى تيره وتيرح ، وقد وردت في تاريخ يوسيفوس بغير الحاء ووردت في تاريخ يوسبيوس أثور ، وهو مكتوب باليونانية ، وقد ورد في التوراة اسمان بمعنى الأميرة أحدهما بالحاء وهو سارح (٤٦ تكوين) والآخر بغير الحاء وهو سار أو ساره . .

ومؤدى هذا أن (آزر) هي النطق الصحيح الذي عرف به اسم أسور القديم ، وان تيره وتيرح هي نطق الذين يكتبونها اتيرة واتيرح ، وينطقون بكلمة أتور بين الواو والياء .

روى صاحب (المزهر) عن الاصمعي ان رجلين « اختلفا في الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا اقول كما قلتما انما هو الزقر ، وعلى هذا يتخرج جميع مارد من التداخل نحو قلى يقلى وسلى يسلى » .

واذا اختلفت الحروف في اللهجة العربية الواحدة هذا الاختلاف فلا محل للجزم بالتخطئة حين تختلف السين والزاي او التاء والثاء في لغات تباعدت بينها الآماد .

وأيا كان القول في نسبة ابراهيم الى آزر بمعنى اسور فهو أقرب من القول بأن أباه سمي تارحاً من الحزن أو من الكسل ، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاشتقاق .

وتفيد هذه الملاحظة فائدة جلى في معرض آخر من معارض سيرة الخليل فلم يكن تاريخ ابراهيم في الاسلام مستمداً من المصادر اليهودية كما زعم بعض المتسرعين من رواة الأخبار الدينية غير الاسلامية ، والا لما كان أيسر من تسمية أبيه تارحا أو تيرحا او تيره وماشابه هذه التصحيفات ، ولما كان هناك سبب قط لتسميته بآزر على أي توجيه .

وانما هذا بينة من بينات شتى على أن دعوة ابراهيم لم تصل الى الحجاز من مصادر اليهود . .

والبينة الكبرى التي تأتي من مباحث اللغة هي التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة النبط أو النباتيين الذين ينتمون الى نبات من أبناء اسماعيل .

فقد عقد اللغويون مقارنات كثيرة بين لهجات العربية القديمة التي بقيت الى ما قبل الاسلام ، فظهر من هذه المقارنات ان التقارب بينها يقاس بالزمان ولا يقاس بالمكان ، فقد يكون الجاران مختلفين غاية الاختلاف ، وقد يكون التشابه قريباً جداً بين طائفتين تسكن احداهما الى أقصى الجنوب وتسكن الأخرى الى أقصى الشمال .

فالحميريون كانوا يقيمون بأقصى الجنوب من الجزيرة العربية ، والأشوريون كانوا يقيمون بأقصى الشمال من العراق ، ولكن التشابه بين لهجة حمير ولهجة اشور اقرب جداً مما بين اللهجة الحميرية واللهجة القرشية بمكة ، والمسافة بين اليمن والحجاز أقرب المسافات .

فاللغة الحجازية لم تتطور من اللغة اليمانية مباشرة ، وانما جاء التطور من العربية القديمة الى الاشورية الى الارامية الى النبطية الى القرشية ، فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل ، وكان التقارب بينهما في الزمان ، أو في درجات التطور ولم يكن تقارباً يقاس بالفراسخ والأميال .

هذه هي البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة اهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء اسماعيل ، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسابين او فقهاء الاسلام ، ولكنها كانت قرابة الواقع التي حفظتها اسانيد اللغة والثقافة واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشوف الحديثة .

ومما يدعو الى احترام روايات النسابين في هذا الباب انهم عرفوا الحقيقة التي كشفها علماء الأحافير في الزمن الأخير ، فقال ابن عباس : « نحن معاشر

قريش من النبط » .

هذا من جهة الأصل واللغة ، ومن جهة الكتابة يقـول الشاعـر المتصر بن المندر المديني :

ملوك بين حطي وسعفص في الندى

وهوز أرباب الثنية والحجر

وربما اختلفوا في مسألة الكتابة لأنها طارئة لـم يتعلمها منهم غير القليلين اما النسب ومرجعه في نبات والنباتيين ، فالتوافق فيه واضح بـين رواية النسابـين وتحقيق الأحافير .

مدن القوافل

أكثر غوامض التاريخ يخلقها المؤرخون ، لأنهم ينظرون الى التاريخ كأنه حسبة أرقام لاحصاء السنين والأيام ، أو كأنه أطلس مواقع ومعالم ، أو كأنه سجل حوادث وأنباء . . ولو أنهم واجهوه على قاعدة واحدة ، وهي أنه وصف نفوس انسانية وان حوادثه وأنباءه ومعالمه ومواقعه وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام انما هو تبع لوصف النفوس الانسانية لما بقي فيه غموض أو بقي فيه الغموض الذي يغمض علينا لسبب مجهول . .

وقد غمض على المؤرخين شيء كثير من أحوال الرسالات النبوية ، لأنهم لم يرقبوا حالة مشتركة في جميع هذه الرسالات ، وهي الحالة النفسية التي تكون عليها الأمم في طور واحد ، وذلك هو طورها حيث تتصل البداوة والحضارة ، فلم تتهيأ النفوس للرسالة النبوية في حالة قط كما تهيأت لها وهي قائمة بين البداوة والحضارة ، ولم يعرف التاريخ رسالة نبوية في الحضارة دون غيرها ، أو في الصحراء المنعزلة دون غيرها ، وانما عرفت هذه الرسالات على الدوام في مدينة حولها صحراء ، أو في صحراء على مقربة من مدينة ، ولهذا كانت مدن القوافل وما في حكمها أحق الأماكن بالدراسة من جانبها هذا الذي يرشحها لقيام الدعوات الدينية . .

لم اختص الله الأمم السامية بالرسالات النبوية ؟ لم لم تظهر هذه الرسالات في الهند أو في الصين أو في القارة الأوروبية ؟ لم كانت هذه الرسالات هي الدور الذي تهيأت له أمة واحدة في وسط العالم : أمة وسطا كما نعتها القرآن الكريم ؟

تلك أسئلة غامضة تظل على غموضها ، حتى ننظر في الأحوال النفسية التي يكون عليها الانسان بين الحضارة والبداوة ، ولا تهيئه لها الحضارة على انفراد ، ولا البداوة على انفراد ، بل لا بد فيها من التقاء الشعورين وامتزاج المجتمعين ، ولم يحدث قط انهما التقيا وامتزجا على هذا النحو في غير البلاد التي قامت عليها الحضارات الأولى ، وظلت زمنا طويلا جامعة بين الصحراء والمدنية والأقطار المتحضرة ، كأنها خلقت للنهوض بهذه الأمانة ، ثم نهضت بها ونشرتها في جميع أنحاء العالم ، فهي دورها الأكبر بين سائر الأدوار التي توزعتها الأمم والعصور .

لماذا كانت مدن القوافل أو المدن القريبة من الصحراء ، أصلح البلاد للرسالة النبوية ؟

انها صلحت لذلك لأن الأحوال النفسية التي تتوافر فيها لا تتوافر في حضارة العمران المتصل ، ولا تتوافر في الصحراء المنعزلة ولا تتم أسبابها الحسنة ولا أسبابها السيئة في بيئة أخرى ، كما تتم في المدينة حولها الصحراء . فأما القطر الذي يتصل عليه العمران فهو مختلف من هذه الناحية ، واما الصحراء التي تنعزل عن العمران فهي من هذه الناحية مختلفة كذلك ، وسنرى أوجه هذا الاختلاف في عرض موجز لهذين الطرفين المتقابلين ثم نعود الى الوسط الذي يلتقيان لديه .

ان القطر الذي تتصل فيه الحضارة وتتلاحق فيه مظاهر العمران يعطينا المشترعين والكهان ولا يعطينا الأنبياء المرسلين أو الرسل المجاهدين .

ففي هذا القطر يسري العرف وترتقي العادات الاجتماعية ، ويستقر نظام القانون والمعاملة وقد يتقدم أهله في ادراك العقائد الدينية من طريق تقدم المجتمع وتقدم الثقافة ومعاهد التعليم .

بل هو قد يتقدم قبل البداوة الى ادراك عقيدة الوحدانية ، لأن الدول الكبار تنشأ في مبدأ أمرها من قبيلة تتسلط على قبائل أصغر منها ، ثم يجتمع من القبائل شعب كبير يتسلط على شعوب أصغر منه ، فتقوم دولة الحضارة من امتزاج هذه القبائل والشعوب ، وتتقدم الى الايمان بالوحدانية كلما اشتركت في عبادة واحدة يفرضها الشعب الذي سادت عبادته على مختلف العبادات .

فالقبيلة القوية تفرض على القبائل الصغيرة أن تطيع ربها كما تفرض عليها أن

تطيع اميرها ، ثم يجتمع من هذه القبائل شعب كبير يفرض على الشعوب التي دخلت في حوزته أن تطيع ربه وأن تدين بديانته ، ولا تزال كذلك حتى يتوحد لها رب معبود تدين له جميعا وتؤمن بوحدانيته وتؤمن بسيادته على جميع الأرباب زمنا ، حتى يبطل التعدد ويستقر التوحيد .

ان دولة الحضارة التي تقوم على هذه الأسس قد تسبق البداوة الى الايمان بالوحدانية ، ولكن مسألة الذين فيها تؤول الى سلطان الكهان ، وهم أعداء الأنبياء ، وعداوتهم لهم تنكشف للعيان حتى في الأمم التي تعودت أن تتلقى الرسالات النبوية منذ عهد بعيد .

فلما توطد سلطان الكهنوت في بني اسرائيل خرج من الكهان أنفسهم من يتنبأ وينكر دعوة النبوة على غير أصحاب الكهانة ، وقال زكريا صاحب آخر كتاب ـ قبل الأخير ـ من كتب العهد القديم :

« . . يقول رب الجنود اني أقطع أسماء الأصنام من الأرض فلا تذكر بعد ، وأزيل الأنبياء أيضا والروح النجس من الأرض ويكون اذا تنبأ أحد بعد ان أباه وأمه ـ والديه ـ يقولان له : لا تعيش لأنك تكلمت بالكذب باسم الرب ، فيطعنه أبوه وأمه ـ والداه ـ عندما يتنبأ ، ويكون في ذلك اليوم أن الأنبياء يخزون كل واحد من رؤياه اذا تنبأ ، ولا يلبسون ثوب شعر لأجل الغش ، بل يقول : لست أنا نبيا أنا انسان فالح الأرض لأن انسانا اقتناني من صباي ، فيقول له : ما هذه الجروح في يديك ؟ فيقول : هي التي جرحت بها في بيت أحبائي »

ويحدث أحيانا أن يتصدى الكاهن للنبي حماية لعرش الملك كما فعل الكاهن أمصيا حين وبخ النبي عاموس وأنذره بالرحيل من بيت ايل : « فأرسل أمصيا كاهن بيت ايل الى يربعام ملك اسرائيل قائلا : قد فتن عليك عاموس في وسط بيت اسرائيل لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله . لأنه هذا قال عاموس : يموت يربعام بالسيف ويسبى اسرائيل عن أرضه ، فقال امصيا لعاموس : أيها الرائي إذهب . اهرب الى أرض يهوذا وكل هناك خبزا ، وهناك تنبأ . وأما بيت ايل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك ، وبيت الملك .

« فأجاب عاموس وقال لأمصيا : لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبي ، بل أنا راع وجاني جميزة فأخذني الرب من وراء الضأن ، وقال لي الرب اذهب تنبأ لشعبي اسرائيل »

وقد ينقسم الكهان والأنبياء الى معسكرين عند الاختلاف على ولاية العهد ، كما حدث عندما وثب (ادونيا) بن داود لاغتصاب العرش . . : « وأعد لنفسه عجلات وفرسانا وخمسين رجلا يجرون أمامه ، ولم يغضبه أبوه قط قائلا : لم فعلت هذا وهو أيضا جميل الصورة جدا . وكان كلامه مع . . أبياثار الكاهن وأما ناثان النبي . . فلم يدعه »

وحدث في أوقات شتى أن مساومة السياسة وصلت الى الايمان بالاله المختار ، فترك الملوك عبادته وعبدوا (البعل) وصنعوا له التماثيل ، فتزوج آخاب ملك اسرائيل بنت ملك صيدا « وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة » .

وحدث هذا من أحد أبناء داود . . فلم يستقم آحاز في عيني الرب كداود أبيه « بل سار في طرق ملوك اسرائيل وعمل أيضا تماثيل مسبوكة للبعليم . »[1]

وكان النبي أرميا ينعى على الأنبياء انهم يتواطأون على نسيان اسم الاله « كما نسي آباؤهم اسمي لأجل البعل » . واستمرت هذه المساومات الى عهد النبي هوشع الذي تخيل أمة اسرائيل مزفوفة الى (يهوا) لا تدعوه باسم البعل وتنزع أسماء البعليم من فمها .

حدث هذا بين بني اسرائيل ولم يطل بهم عهد الملك والاستقرار ولم يزل أكثرهم رعاة يتنقلون في البادية ، ولم يزل من هؤلاء الرعاة أناس يجهرون بالنبوة بين حين وحين ، فليست دعوة النبوة بالدعوة التي تشيع وتجتذب اليها الأسماع في مواطن الحضارة القديمة بعد استقرار العمران فيها بعاداته وآفاته مئات السنين أو ألوف السنين ، وليس بالنادر في هذه المواطن أن يعلم الكهان حقيقة الوحدانية ويتركوا الشعب وشأنه يعبد الأصنام والأرباب المتعددة ، ويتخذ له في كل اقليم ربا مقصورا عليه ويستبقون اله الدولة الأكبر لمراسم الدولة الكبرى في الأعياد والمواكب التي يشهدها أصحاب التيجان ورؤساء الكهان .

واذا شاع الفساد في مواطن الحضارة فالمسألة في هذه الحالة مسألة تشريع وقانون أو مسألة تنظيم وتدبير ، وربما حالت ألفة العادات الفاسدة دون التنبه لاصلاحها بالتشريع أو بالتنظيم .

---

(١) الاصحاح السادس عشر من سفر الملوك الاول

وأوضح الأمثلة على موقف الحضارة بالنسبة للدعوات الدينية هو مثل الملك اخناتون بالديار المصرية . فان دعوة اخناتون بلغت بالتوحيد أعلى مرتقاه في تلك العصور ، وبلغت بتنزيه الاله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الأمم في البلاد الشرقية أو الغربية ، ولكنها دعوة جاءت من طريق الأوامر والقوانين ، ولم تلبث أن ذهبت بذهاب الملك الذي أصدر تلك الأوامر والقوانين ثم عادت الحضارة الى مجراها كأنها لم تنحرف عنه في عهد الملك الراحل طرفة عين .

فليست بلاد العمران المتصل مهدا صالحا للرسالة والنبوة ، فما حال الصحراء التي انقطع ما بينها وبين العمران كل الانقطاع ؟

ان لم يكن شأنها في أمر الرسالة النبوية شأن العمران المتصل فما هو بأصلح منه ولا أيسر .

فليس في الصحراء التي انقطع ما بينها وبين العمران من شريعة غير شريعة العدوان ، ولا عمل للقبائل فيها غير الاغارة والاستعداد لدفع الغارات من الآخرين . وربما تفاهموا على آداب الجوار والمهادنة كأنها من التدبيرات العملية التي لا ترتقي الى طبقة الفضيلة والعقيدة ، وربما تحلى بعض الناس فيها بمناقب الشجاعة والسخاء وما اليها من مناقب الميادين وشمائل السيادة والرئاسة . أما أن يتعارف المقاتلون المنقطعون عن العمران على الحقوق والفضائل وخلائق الصلاح والاستقامة التي ينشرونها باسم الاله ويستمعون وحيها من نذر السماء فذلك من وراء التخيل فضلا عن التفكير .

وقد عرفت في البداوة حالات قريبة من عقيدة التوحيد ولكنها لم تعرف حتى كان أصحابها معروفين لأهل العمران في المدن المجاورة ، ولولا ذلك لما اتصل خبرها بالتاريخ .

فحالة البداوة التي ترشح أصحابها لعقيدة التوحيد هي حالة البدوي المترقي من عبادة الجن والعفاريت الذين ينتشرون في كل موطن الى عبادة رب كريم يرعاه حيث سار وحيث أقام ، فهذه الحالة من البداوة ترشح صاحبها للايمان بالاله الموجود في كل مكان . لأن الايمان باله « محلي » محصور في مكان واحد عبث ينفر منه طبعه ولا يلائم مطالب عيشه ، ولا يتكفل له بالأمان الذي يتطلع اليه في حله وترحاله . . .

وكثير من أهل البادية الأقدمين من يجمعون بين عقيدة التوحيد وبين الوثنية

على نحو يوافقهم في حالتي المقام والمسير فيتخذون لهم تماثيل يحملونها معهم ويرمزون بها الى الاله ، وقد بقيت هذه التماثيل عند قبائل بني اسرائيل الى ما بعد أيام داود عليه السلام ، وهي التماثيل التي كانوا يسمونها بالطرافين ويقتنيها أصحاب كل بيت كما يقتنون اللوازم المنزلية . .

ولكن هذا التوحيد كتوحيد أهل الحضارة الذي تقدم ذكره ـ كلاهما لا يخلق الجو الذي يلائم الرسالة النبوية ، ولا بد لهذا الجو من شيء يأخذه من البداوة وشيء يأخذه من الحضارة ، ولم يتحقق ذلك في غير مدينة القافلة وما اليها .

لا بد من النخوة الحية التي تتوقد بما تعتقد وتحس في أعماقها أن العقيدة حياة تحياها وليس قصاراها أنها تدبير من المجتمع أو قانون من الدولة . .

لا بد من بساطة التصديق الذي لا يعرف التردد ولا يحسن اللف والدوران وتخريج الكلمات وتزييف الشعائر والأحكام .

لا بد من الاستغراق في الايمان على وجهة واحدة لا تتحمل ولا تتأول ولا تجعل العقيدة أجزاء مفرقة تتوزعها النصوص والفتاوى وتتعاورها المتون والشروح . .

لا بد من الجمع بين سهولة التغيير وصعوبة التغيير في وقت واحد ، وهذه خصلة تتيسر للبداوة ولا تتيسر في الحضارة ، فليس أكثر من التغيير في حياة البدوي لأنه أبدا على عزم السفر والانتقال ، وليس أكثر من الثبات في حياة البدوي لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد ينوط الفخر كله بما بقي له من التراث القديم .

وهذه هي حصة البداوة في تهيئة الجو للرسالة النبوية .

أما حصة الحضارة فهي أصول الاستقرار وقواعد الشريعة وحماية المعاملة وأسباب السخط والثورة والدعوة الى التغيير .

وهذه الأسباب موفورة في مدينة القافلة من جوانبها الحسنة ومن جوانبها السيئة على سواء ، وعندها حصتها وافية لقيام الدعوة النبوية في زمان بعد زمان .

فمن الأسباب الحسنة التي تهيأت بها مدينة القوافل للرسالة النبوية « شقة الحرام » أو الحرم المقدس ، أي المكان الذي تبطل فيه العداوات ويتلاقى فيه الناس من كل ملة ونحلة على سلام .

فهذا الحرم المأمون من مأثورات المدائن المطروقة بحكم موقعها وتشعب الموارد منها واليها .

وقديما نشأت مدائن كهذه بين دولتين متناظرتين على عداء دائم لا يهدأ الا في تلك المدائن المطروقة ، كمدينة تدمر أو بعلبك في موقعها بين دولة القياصرة من الغرب ودولة الأكاسرة من الشرق ، ويتبع هؤلاء وهؤلاء أخلاط من كل قوم وكل لغة وكل عقيدة ، وبينهم ما لا بد أن يكون بين هذه الأخلاط من التنافر أو من الخصومة أو من التراث والدخول أو من التزاحم في المصالح والتجارات . فان لم يكن هنالك ملاذ يأمنه الجميع وحرم يتسع لعبادة كل عابد وولاء كل حاكم ، تقطعت العلاقات وأحجم الوراد وبارت التجارة وكسدت الأسواق .

ومن المدائن ما يقوم في أمة واحدة متفرقة القبائل والبطون يتربص بعضها لبعض في كل موقع وكل موسم ، ولا غنى لها عن موقع واحد في موسم معلوم تنسى فيه هذه الفوارق ويتلاقى الناس فيه للمعاملة والمعاونة لا للقتال والانتقام .

فهذه الشقة الحرام احدى الأسباب الحسنة التي تتهيأ بها المدائن على حافة الصحراء لرعاية الحرمات وفهم القداسة في البيع والمناسك ، وكفى بكلمة « البيعة » نفسها دليلا على فضل المدائن المطروقة في رعاية حرم العبادة من أقدم العصور ، وكفى بكلمة « الاحترام » دليلا على الصلة بين هذه المحرمات وبين شعور التوقير والرعاية .

ومن الأسباب الحسنة تقرير الحقوق واقامة القواعد في المعاملات وتواضع المختلفين والمؤتلفين على مبادىء الأخذ والعطاء والذمة والوفاء ، وعمل الحاضر للغائب والقريب للبعيد على ثقة واطمئنان .

وليس في وسع أحد أن يزعم أن الحقوق والقواعد التي يتعارف عليها الناس في مدن القوافل تصان في كل صفقة وتحفظ في كل علاقة . فقد يكون الغش فيها أكثر من الصدق ، والخداع فيها أكثر من الأمانة ، ولكنها على أسوأ الأحوال ملزمة للمشتركين فيها لا يجترىء القوي على الجهر بنكرانها والعدوان عليها ، سواء كان العدوان على قوي مثله أو على ضعيف غير مرهوب الذمار .

ومن الأمثلة التاريخية على ذلك حرب الفجار وحلف الفضول في مكة المكرمة ، وهي من أكبر مدن القوافل ومن أعظم النماذج لها في جميع ما ذكرناه . .

ففي حرب الفجار أجاز زعيم من هوازن قافلة للنعمان بن المنذر على غير العرف المتفق عليه ، اعتزازا بعزته ومنعته ومكانة النعمان بن المنذر في الأمم العربية ، فهاجت لها حرب استمات فيها الفريقان حتى شد بعضهم نفسه بالحبال لكيلا يفر من القتال .

وفي حلف الفضول كان سبب الحلف أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل وحبس عنه حقه فاستعان عليه الزبيدي جماعة من الرؤساء فلم يعينوه ، فوقف الرجل على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وصاح يطلب الغوث ، فمن جراء ذلك اجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جدعان فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي اليه حقه ثم مشوا الى العاصي بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه ، وقال أحدهم :

سيعلم من حوالي البيت أنا

أباة الضيم نمنع كل عار

وقال ابن قتيبة ان قريشا قد سبقها الى مثل هذا الحلف قبيلة جرهم ، فتحالف منهم ثلاثة هم الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة وفضل بن الحارث ، فسمي لهذا حلف الفضول وجاءت قريش فسمت حلفها بهذا الاسم لأنه مقصود لما قصده الأحلاف الأولون .

وليس بالقليل ما تعلمته الأمم من اقامة « الحوزة » التي يدين لها الجميع بالرعاية ويتعودون عندها أن يجعلوا الذمم والعهود في حماية الاله المعبود ، ومن الجائز ان تعدد الأرباب وتناقض الدعاوى في موطن واحد يجاوز فيه كل دير ، نقيضه ، قد فتح الأعين على ما وراء ذلك من السخرية والتهافت ، ولا سيما أعين الطارئين العابرين من أهل البادية الدارجين على البساطة واجتناب المتناقضات .

أما الأسباب السيئة التي أوجبت قيام الدعوات النبوية في تلك المدن فهي أسباب قوية كثيرة لم تكن توجد يومئذ في غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة . .

وأقوى تلك الأسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال . . فان تجارة العالم اذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت في كل مدينة الى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب المماكسة ورفع

الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة ، ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ، ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادي والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلي التجارة لأنهم قابضون على الزمان ، وليس في قدرة دولة أن تحاربهم الا بالاشتباك في الحرب مع دولة أخرى ، أو بانفاق أموال في الغزو والحصار تزيد على الأموال التي يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها ، وقد يغلو هؤلاء المحتكرون في الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول الى المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات .

كذلك صنع انتيجون خليفة الاسكندر مع أهم هذه المدن في زمانه وهي سلع (أو البتراء) فجرد عليها حملتين ولم يفلح في غزوها ، وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها الى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار .

واشتهرت سدوم بين هذه المدن بالظلم وسوء المعاملة وسلب الغرباء وتدليس القضاء ، وفي قضائها يقول المعري :

وأي امرىء في الناس ألفي قاضيا
ولم يمض أحكاما كحكم سدوم

ومن أمثلة هذا القضاء في احتياله على الشريعة ان رجلا اسمه حضور رأى طارئا غريبا أعجبه في رحله بساط ملون فدعاه الى منزله ليبيت فيه وسرق منه البساط ، فلما طلبه الرجل قال له انك حالم ، وان تفسير البساط الملون في الرؤيا أنك تزرع أرضا ينمو فيها النبت من كل لون ، ثم ساقه الى القاضي ليعطيه أجره على تفسير رؤياه ، فقضى له بالأجر المطلوب .

ومن أمثلتها أنهم سرقوا اليعازر خادم ابراهيم عليه السلام ، فلما أخذ بتلابيبهم ضربوه ورماه أحدهم بحجر وساقه الى القاضي يطلب منه أجره على فصده ، ولم يخلصه من حكم القاضي الا انه ضربه بحجر وأسال دمه ، ثم قال له انني نزلت عن أجري كي تعطيه لغريمي !

وفي المشنا أسماء يزعمون أن اليعازر هذا أطلقها على قضاة سدوم وهي شقارة أي الكاذب وشقرورة أي المحتال وكذبان أي المزور ومضل دين أي المتجانف في

دينونته وقضائه ، وليس أكثر من حكايات التدليس التي تروى عنهم في كتب المشنا والمدراش .

ولا ينسى القارىء ان الجريمة الكبرى التي أحصاها القرآن الكريم على أهل مدين ـ ومدائن الحجر عامة ـ انهم يختلسون ويطففون الكيل :

« والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من الـه غـيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان اني أراكم بخير واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسـوا النـاس أشياءهـم ولا تعثـوا في الأرض مفسدين » .

ولا يلبث الترف أن يجني جنايته على هؤلاء المحتكرين فيغريهم بكل مفسدة ويجلب الى بلادهم كل فاسد ، وشر هذه المفاسد في أعين أبناء الفطرة من قبائل البادية رذائل الشذوذ وتدنيس غريزة النسل التـي تصونهـا تلك القبائـل على فطرتها ، ولـم توجد مدينة من مدائن القوافل سلمت من هذه الرذائل ، حتى قالت كتب المدراش ان طوفان نوح انما كان من جرائر هذا الشذوذ في قومه ، وانه كان فاشيا في بيت المقدس يوم أنذر النبي حزقيال قومه بالنفي أو بالسبي والتشريد[١] .

هذه الأسباب جميعا هي التي هيأت مدن القوافل للدعوات الدينية ، لأنهـا دعوة تتهيأ أسبابها بين الحاضرة والبادية ولا بد لها من التقاء هذه وتلك ، ولا غنى لها عن صفات المدينة وصفات الصحراء . ولحكمة بالغة قال النبي صلوات الله عليه : « ما من نبي الا وقد رعى الغنم » . . ولحكمة بالغة قامت مدينة القوافل بدورها في تاريخ بني الانسان . فنشأ الحكماء والنساك في الصين والهند على مثال كنفشيوس وبوذا ولـم ينشأ فيهم الأنبياء المرسلون والرسل المجاهدون . اذ كانت أمانة النبوة المجاهدة شيئا غير أمانة الاصلاح والتعليم ، وما عهدنا سورة العقيدة تملأ الوجدان كله وتشغل الحياة كلها كما عهدناها في المرسلين الى الأقوام الذين عاشوا على هذه الرقعة الوسطى من العالم ، وتلقـوا عقائدهـم كأنهـم يصلون الأرض بالسماء صلة اللحم والدم ، ولا يحسبونهـا سمـة من سمات الأدب والمعرفة وكفى ، أو نصا من نصوص الشريعة والنظام وحسب ، أو نهجا من مناهج السلوك ولا زيادة .

---

(١) صفحة ٢٤٦ من المجلد الاول وصفحة ٤٢٠ من المجلد السادس من أساطير اليهود

وأحسب لو اننا بدأنا دراسة التواريخ الدينية في الشرق العربي على ضوء هذه الحقيقة منذ بداءة النظر في هذه التواريخ لما تسرع المتسرعون بالنفي والانكار تارة والفهاهة وسوء الفهم تارة اخرى ، بل كان من الميسور لهم أن يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات في السلسلة الواحدة ، وأن يملأوا فراغ التاريخ بما يسده ، بدلا من خلق الفراغ حيث لا فراغ . .

ان بعض الفلكيين قد عرفوا أماكن الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر المكبّرة ، لأنهم قدَّروا موقعها من الفلك بحساب المدارات والأحجام . .

وقد عرف ، بعض الكيميين أماكن عناصر لم يشهدوها في الطبيعة ، لأنهم قدروا نسبة الكهارب والنواة فيها الى العناصر المشهودة .

ولو أننا تتبعنا سلسلة الدعوات في مواقعها وتواريخها لما قال المتشككون : ان ابراهيم لم يوجد . . بل لقالوا : هنا مكان لابراهيم لا بد أن يشغل ، واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماتها ان يربطوا بين أور وأشور وبيت المقدس وجاشان والبتراء ومكة ، لأنها نسق واحد يدل الأخير منه على الأول كما يتقدم الأول منه في زمانه ووضعه على الأخير . . فكلها دعوات لا بد فيها من شخص الرسول ولا بد فيها من عنصري الحضارة والبداوة ، ولا بد فيها من تمام المجزوء ووصل المقطوع واطراد مراحل التطور على نهجه الوحيد ، وليس له نهج وحيد أصلح من نهجه الذي هيأته أسباب الدعوات موقعا بعد موقع ، كما تعينت مواقع الكواكب في دراسة الفلك ومواقع العناصر في دراسة الكيمياء .

أو لعلنا نصل الى النتيجة من درب قريب اذا اعتمدنا على قياس التاريخ بمقياسه الذي لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يرسمها الواقع والعقل . فان هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية في التمييز بين الخطأ والصواب ، وما علينا اذا أردنا أن نمتحن حادثة تاريخية ، أو سلسلة من الحوادث التاريخية ، الا أن نسأل أنفسنا : كيف ينبغي أن تحدث ؟ فاذا ارتسمت لنا على الترتيب الذي يقبله العقل ويطابق الواقع ، فذلك هو الاستحسان الصادق وما نستخلصه منه هو الصواب ، كأصدق ما يمكن أن يصوره تاريخ الحوادث لمن لم يشهدها شهادة العيان .

اذا كانت دعوات النبوة متصلة بمدائن القوافل فليس أولى من بلاد النهرين في العصر القديم أن تبدأ منها الدعوة الأولى ، ثم تتلوها المدن الأخرى على حسب

مكانتها ومكانها من حيث النظر الى الطرق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة .

فالدول القديمة بين النهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذي اشتهر في علم السياسة باسم نظام « حكومات المدائن » لأنه يقوم على مدن أربع أو خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التي تزرع مرعاها أو ترعى ماشيتها في المزارع الطبيعية وتسافر بالقوافل على حسب مراحلها ، ويجوز أن تتغلب دولة واحدة على جميع هذه المدن الى فترة قصيرة كما يجوز أن تتفرق وأن تنفرد كل منها بحكومتها ، ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها البادية وتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعمور الى أقصاه في الأزمنة القديمة .

وترتيبها على حسب مكانتها ومكانها في وادي النهرين ، وفي العالم كله : يبدأ من مدينة (أور) في الجنوب وينتهي الى مدينة أشور شمالا ، ثم يتجه غربا وجنوبا الى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز ، حيث تلتقي قوافل الشمال وقوافل الجنوب .

فمدينة (أور) أهم هذه المدائن لأنها تتلقى التجارة من البحر ومن البر وتنقلها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، كما تنقلها بين الجنوب والشمال . .

ويليها في مكانها ومكانتها مدينة أشور لأنها تأخذ من الجنوب وتوزع على ما حولها ، وقد تصل قوافلها الى أقصى الشمال من القارة الأوروبية كما تصل الى آسيا الصغرى وأوربة الشرقية . .

وفي مدينة (أور) بدأت دعوة ابراهيم ، والى مدينة (أشور) انتقلت ولم يطل بها القرار في هذه النقلة العاجلة .

وهنا كان مبدأ الدعوة النبوية التي لم يكن لها نظير في غير هذه البقاع من أوطان الأمم العربية الأولى .

* * *

ويطرد الترتيب بزمانه كما يطرد بمكانه ، فمن أشور الى حبرون أو بيت المقدس ، الى مدن خليج العقبة الى مدينة الحجاز المقدسة ، وعندها نهاية المطاف . .

جاء في تاريخ مكة قبل أيام اسماعيل ان مضاض بن عمرو كان يعشر (أي يفرض ضريبة العشر) على من دخل مكة من شمالها ، وأن السميدع كان يعشر على من دخل مكة من أسفلها .

وجاء في العهد القديم ان الخليل قدم العشر لصاحب بيت المقدس (ملكي صادق) لأنه سادن الاله العلي في محرابها الأعلى .

نظام واحد في مدن القوافل يدل عليه هذان التاريخان المنفصلان .

وتتوالى الدعوات النبوية بعد ذلك على حسب المكانة بين مدن القوافل ، وعلى حسب المكان من بقاع الهلال الخصيب والجزيرة العربية . .

فلما بدأ تاريخ الدعوة النبوية من أور الى أشور الى بيت المقدس الى مدن الجنوب كانت هذه المدن الجنوبية على غايتها من الازدهار وعلى غايتها من الفساد ، وكان لها دورها الذي انتهى بكوارث الزلازل أو الهزيمة . .

وبقيت شواهدها في خرائبها تنطق بما كان بينها من صلات ومعاملات : ففي البتراء محاريب الحجارة السود التي تساقطت من السماء ، وفيها هيكل البنت او الربة المصرية « ايزيس » . . وما ايزيس ؟ . . اتكون هي العزى التي عبدت زمنا في الجنوب ؟

***

تكون أو لا تكون . . فالرواة الذين أرخوا ظهور الأصنام في الكعبة المقدسة بمكة لم يدرسوا الآثار المصرية ولم يدرسوا الأحافير التي درسها العصريون في القرن العشرين ، ولكنهم أرخوا الأصنام فقالوا ان سيد مكة في زمانه (عمر بن لحي) سافر الى الشام وعاد منها بطائفة من الأصنام ، وان أبناء اسماعيل بالحجاز تعودوا عبادة الأنصاب لأنهم كانوا يحملون معهم الحجارة المقدسة للتبرك بها كلما ابتعدوا من الحرم ، ثم انتقلوا من التبرك بها الى عبادتها مع طول الزمن ، وكانت روايتهم هذه مصدقة لما فعله أتباع ابراهيم وموسى وسائر الأنبياء في الأماكن الأخرى ، فهكذا تحولوا من عبادة الاله الواحد الى عبادة الأنصاب والتعاويذ والتماثيل والطرافين .

***

وسواء صح هذا كله أو لم يصح فالصحيح الذي لا شك فيه ان الصلة الدينية والثقافية واللغوية والتجارية لم تنقطع قط بين النبطيين والمكيين ، واننا لو سلكنا التاريخ الديني طردا وعكسا ، ثم سلكناه عكسا وطردا لما كان له من مسلك أقوم وأثبت من بدايته ونهايته بين (أور) في جنوب العراق ومكة في وسط الحجاز !

واذا كان التاريخ يرتسم على هذه الصورة معقولا وموافقا للواقع او ما ينبغي أن يقع ، فلا وجه للشك فيه ، بل الوجه كل الوجه أن نلتمس من طريقه هذا أسباب اليقين .

النبوة

عثر الباحثون في آثار بابل وأشور على كلمات كثيرة في الألواح المسمارية من مصطلحات علم الفلك القديم ، ومنها أسماء المنازل والبروج ومجاميع الكواكب والنجوم .

وأكثر الباحثين في الآثار البابلية والأشورية معنيون بمباحث التوراة وتواريخ الأنبياء ، لعلاقتها بأرض بابل أيام الخليل ثم أيام السبي بعد عصر الخليل بأكثر من ألف سنة ، فهي علاقة تمتد من أقدم العصور الأثرية الى أحدثها ، أي من قبل عصر الخليل الى ما بعد عصر الميلاد .

فعاد الباحثون الى كتب العهد القديم يعارضون عباراتها على الكلمات المسمارية ولا سيما الكلمات التي تطلق على الشؤون السماوية ، فتوقفوا عند كلمات مختلفة كانوا يمرون بها ولا يلتفتون لمعنى فيها غير ظاهر معناها . . وعن لبعضهم ان بعض الأنبياء من العبرانيين كانوا على علم بالفلك ، وأن النصوص التي كتبت بها نبوءاتهم تثبت علمهم به على نحو قاطع أو على ترجيح يقرب من اليقين . .

وليس لابراهيم كما هو معلوم نصوص محفوظة منسوبة اليه ، وهي نبوءات يعقوب فعارضوها على معلوماتهم من اللغة المسمارية ، واختاروا منها ما كان من قبيل الطوالع الفلكية وهي الطوالع التي احتواها الاصحاح التاسع والاربعون من سفر التكوين وفيها ينبيء يعقوب أبناءه بما يصيبهم في آخر الأيام ، فتراءى لهم أن التوافق بين ألفاظها ومنازل السماء أوضح من أن يعزى الى المصادفة ، وهذا هو الاصحاح الذي وجهوا اليه معظم البحث في كلام

يعقوب .

« ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب واصغوا الى اسرائيل أبيكم .

« رأوبين أنت بكري ، قوتي وأول قدرتي ، فضل الرفعة وفضل العز . فائراً كالماء لا تتفضل . . .

« شمعون ولاوي أخوان ، آلات ظلم سيوفهما ، في مجلسهما لا تدخل نفسي . . بمجمعهما لا تتحد كرامتي . لأنهما في غضبهما قتلا انساناً وفي رضاهما عرقبا ثوراً .

« يهوذا اياك يحمد اخوتك . . يهوذا جرو أسد . . جثا وربض كأسد وكلبوة ، من ينهضه ، لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب ، رابطاً بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن اتانه ، غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه .

« زبولون عند ساحل البحر يسكن . .

« يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر . .

« دان يدين شعبه كأحد أسباط اسرائيل ، يكون دان حية على الطريق . . يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه الى الوراء

« جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره .

« أشير خبزه سمين وهو يعطى لذات ملوك .

« نفتالي ايله مسبية يعطى أقوالا حسنة

« يوسف غصن شجرة مثمرة على عين . . فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام ، ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه . .

« بنيامين ذئب يفترس في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهباً » .

هذه الطوالع درست باستفاضة وتدقيق وكتب خلاصة درسها الأستاذ أريك بروز في كتابه طوالع يعقوب وبلعام[1] فانتهى منها الى وحدة بين كل اسم من

(١) The Aracles of Jacob and Balaam by Eric Burrows

أسماء الأسباطويين برج من أبراج السماء .

فرأوبين الفائز كالماء يقابل برج الدلو ، وقد جاء في مدراش التكوين أن أباه قال له : جعلت نفسك دلواً ، وبرج الدلو في منطقة البروج على صورة انسان قائم وباسط يديه وآخذ باحداهما كوزاً مقلوباً ليسكب منه الماء ، وفي الكلمة جناس بين كلمة رأب بمعنى نام واسم رأوبين .

وشمعون ولاوي أخوان ، طالع يشير الى برج التوأمين ، وهو برج اله الحرب زجال عند البابليين ويصورون أحدهما وفي يديه خنجر والآخر في يديه سلاح شبيه بالمنجل ، والى هذا تشير كلمة آلات الظلم التي في سيوفهما ، وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذي يتعقبه التوأمان في السماء كأنهما يطاردانه ويعرقبان رجليه .

ويهوذا . . ربض كأسد وكلبوة . اشارة الى برج الأسد . وقد كان عند البابليين برجان : أحدهما برج الأسد أرجولا والثاني أرماح وهو أحد نجوم الدب الأكبر ، وأمام الأسد في البروج علامة الملك Rogulus Seonis . . والى هذا يشار بالقضيب الذي تخضع له ملوك .

وزبولون عند ساحل البحر يسكن . اشارة الى برج الحوت ، وكان عند البابليين على صورة أصبعين منفصلتين احداهما ترمز الى الدجلة Diglat والأخرى الى الفرات Purattu .

ويساكر اشارة الى برج اليحمور « حمار جسيم رابض بين الحظائر » ويلفت الباحثون النظر الى التشابه بين اللون الأشقر وبين يشاكر أو يساكر ، والى ورود اليحمور بمعنى حمار الوحش ومعنى الظبي في اللغة العربية . .

ودان . . حية على الطريق يلسع عقبي الفرس ، والمراد صورة الحية الشمالية أو عنق الحية ، وموقعه الى شمال برج العقرب . .

أما قوله « يلسع عقبي الفرس » فالاشارة فيه الى النعائم الصادرة Saguit taru . وصورتهما كالسنتاوْر الذي له جسم فرس ورأس انسان ، ويضعون السلاح على مقدمه وعلى مؤخره وقد يكون في هذا تفسير طالع (جاد) الذي يأتي بعد « دان » ويزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره .

وأشير طعامه سمين ، والكلمة العبرية (لحم) وتنصرف الى برج السرطان والى جانبه علامة الملك ، ومن ثم يعطي لذات ملوك . .

وعلى هذا النمط يمضي علماء الأحافير في تفسير هذه الطوالع ، ومن تفسيراتهم ما هو قريب ومنها ما هو بعيد معتسف ، لارتباط الجناس اللفظي تارة بمدلول الفلك وتارة بمدلول النسب والتاريخ .

وقد صنعوا مثل ذلك في دراسة طوالع بلعام كما جاءت في الاصحاح الثالث والعشرين وما بعده من سفر العدد ، وقد اشتملت على تكرير عدد السبعة ، وعلى اسم الثور والحمل والظبي والأسد وعلى طوالع الأمم التي ليست من اسرائيل ،وعارضوا المصطلحات الفلكية على أقوال الأنبياء الآخرين ، وثبت على الأقل من هذه المعارضات أن معرفة الفلك كانت شائعة عند كتاب هذه الطوالع ، سواء كتبت على إيام الأنبياء الذين نسبت اليهم أو كتبت بعد أيامهم عندما تحقق بعض الطوالع أو بدا أنه متحقق عما قريب .

فاذا صحت هذه التخريجات ـ كلها أو بعضها ـ فهذا موضوع من الموضوعات التي تطابقت فيها الأحافير وأخبار التواريخ الأثرية والتواريخ القديمة ، اذ كانت هذه التواريخ مجمعة على معرفة الأنبياء الأوائل بالنجوم ، وان اختلفوا في المقصود بعلم النجوم .

وندع المبالغات من قبيل مفاخر يوسيفوس ودعواه ان ابراهيم هو الذي علم أحبار المصريين أسرار الكواكب وحساب الفلك ، فليس الخبر كله في هذه المسألة خبر تواريخ وروايات . لأن العقل يفرض بغير حاجة الى التواريخ والروايات أن يكون رؤساء القبائل المترحلة على علم بمواقع النجم ومطالع الأفق ومهاب الأنواء ، وقد كان الأنبياء الاوائل رؤساء لقبائلهم لا تبرم هذه القبائل أمراً من الرحلة والاقامة الا بمشورتهم وتوجيههم ، ومقام الأنبياء في بابل حيث يرقب الناس الكواكب لأنهم يعبدونها ولأنهم يربطون بها مواسم الزرع والري خليق أن يشغلهم بها للمحاجة في شؤون العبادة وللنظر في شؤون المعاش . .

وقد جاء في القرآن الكريم ان ابراهيم كان ينظر في النجوم ، وان يوسف كان يعبر الرؤيا وان موسى كان يطلع على سحر الكهان ، فمن موافقات الأحافير انها تأتي بالسند المكتوب الذي يشرح لنا تفصيلات هذه الأخبار ، ويكاد أن يعين لنا الوقت الذي كتبت فيه طوالع الأنبياء ، لأن تقسيم بروج الفلك قد مر في أدوار متلاحقة من تاريخ بابل ، بعضها محدود على وجه التقريب .

والحد الفاصل بين النبوة والكهانة في السلالة العربية مرسوم أو كأنه مرسوم ،

فكان الأنبياء هم أول من تولى أمر الدين في أمم السلالة العربية ، وكانوا يسوسون أمر الدنيا فيما تتطلبه الرئاسة ، ومنه علم النجوم .

ثم افترق عمل النبي وعمل الكاهن ، ووقع بينهما العداء أحياناً كما رأينا في غير هذا الفصل ، فأصبحت الكهانة وظيفة تعارض النبوة في كثير من الأوقات وهنا الفارق الأعظم بين النبوة والكهانة .

فالكهانة وظيفة ولكن النبوة ليست بوظيفة ، ولم يحدث قط أن أحداً عين نبيا لعمل النبوة كما حدث كثيراً تعيين الكهان لعمل الكهانة .

ان النبوة التي تنفصل من الكهانة خاصة لم تتكرر في غير السلالة العربية ، فما من ديانة كبرى أو صغرى في أنحاء العالم الا يستطيع المؤرخ أن يحيلها كلها من مبدأ التاريخ الى عمل الكهان ، وما من كهانة الا وهي وظيفة قابلة للتعيين .

أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية ، والاختلاف بينها وبين الديانات الأخرى ان النبي لا يعينه أحد ولا ينبعث بأمر أحد ، ولكنه ينبعث بباعث واحد من وحي ضميره ووحي خالقه ، وقد يأتي ليصدم العبادات التي يقوم الكهان على شعائرها ومراسمها ، وهم أنفسهم مرسومون معينون . .

والفرق بين النبي وبين الكاهن في جوهر العمل أوسع جداً من الفرق بينهما في التعيين والاختيار . فالكاهن موكل بالشعائر والمراسم والأشكال ، يحرص عليها ويأبى أن يشاركه أحد فيها . .

ولكن النبي تعنيه روح الدين وحقيقته في الضمير قبل هذه الشعائر والمراسم والأشكال .

سريرة الانسان هي وجهة النبي وغايته من التبشير والانذار ، وأما الكاهن فوجهته نظام المجتمع وتقاليد الدولة وما اليها من الظواهر أو الواجبات العامة . .

ولم تخل الديانات الكبرى من أحبار معينين يوجبون على الناس الاستقامة ويحذرونهم غضب الاله على الذين ينحرفون عن سبيلها .

ولكن الاله هنا أشبه برئيس الديوان الذي يجري الأحكام وفقاً للمأثور من نظام الدولة ، والكاهن أشبه بمندوبه وأمين سره في المحاسبة على الشريعة : كلها

مسألة نظام ومجتمع ، وكلها مراسم وتقاليد .

أما النبي فالعالم الذي يصوره لنا أسرة حية ، والاله قائم على ذلك العالم لأنه على صلة قريبة بكل من فيه من خلقه ، وكل كائن من تلك الخلائق رهين برضاه وغضبه ، وذو شأن في دعوة الدين مقدم على شأن المجتمع والدولة ، وأهمه وأصدقه ما كان في الضمائر والنيات .

والنبي ذو شأن حي في دعوته يلعج نفسه ولا يريحه دون أن يبرىء منه ذمته ، وليس كذلك جماعة الكهان الذين لهم محل مستقر وعمل راتب وعلاقة بالناس كعلاقة المصالح والأشغال .

وهنا أيضاً نرجع الى « القبيلة » ولا سيما القبيلة في حالة الشعور بالخطر كائناً ما كان ، فضلا عن الخطر الأبدي الذي يحيق بالحياة وما بعد الحياة . .

فلا ينتظر من المصلح أو المعلم أو الكاهن في بلاد الحضارة والعمران أن تخامره نخوة اللحم والدم كما تخامر النفس التي تعودتها في كل شعور وفي كل علاقة ، ولم تعرف حالة غيرها فيما بينها وبين الناس .

واذا كان هذا الطابع ملازماً لبعثات الرسالة حول مدن القوافل جميعاً فقد عرفنا ما نفتقده اذا افتقدنا سراً من أسرارها ، وعرفنا كيف تتبع آثارها اذا انقطعت الصلة بين سوابقها ولواحقها ، فلا نخبط على ضلال ، ولا نضيع البحث في شكوك محيرة للمسالك ، لا موجب لها على هذا المهيع المسلوك . .

آنبياء من غير بني إسرائيل

كلمة النبي عربية لفظا ومعنى .

عربية لفظا ، لأن مادة النبأ والنبوءة أصيلة في اللغة .

وعربية معنى ، لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى : فهي تجمع معاني الكشف والوحي والانباء بالغيب.والانذار والتبشير ، وهي معان متفرقة تؤديها اللغات الحديثة بكلمات متعددة ، فالكشف مثلا تؤديه في اللغة الانجليزية كلمة Revelation والوحي تؤديه كلمة Inspiration واستطلاع الغيب تؤديه كلمة Divination أو Aracle ولا تجتمع كلها في معنى النبوة كما تجتمع في هذه الكلمة باللغة العربية .

وقد وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما اليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة كما تلتبس في الألسنة الأخرى عند أصل التسمية واشتقاق المعاني الجديدة من الألفاظ القديمة .

فكلمة النبي تدل على معنى واحد لا تدل على غيره ، خلافا لأمثالها من الكلمات في كثير من اللغات .

والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر الا معنى الانذار .

وقد أشارت التوراة الى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكي صادق الـذي لقيه الخليل عند بيت المقدس ، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة هم يثرون وبلعام وأيوب ، ومنهم من يقال انه ظهر قبل اثنين وأربعين قرنا ، وهو أيوب .

وقصة بلعام تروي لنا ما حدث بين شيوخ مديان (مدين) بعد خروج بني اسرائيل من مصر ، فان بالاق ملك موآب قد استعان عليهم بالنبي بلعام من تخوم العراق ، ليبطل دعواهم باسم النبوة ويدحض أقوالهم بأقوال من قبيلها ، فجاء بلعام وحكم بتفضيل عبادة الله على عبادة بعل الذي كان يومئذ معبـودا للموآبيين .

وأما يثرون فهو نبي مدين قبل خروج بني اسرائيل من مصر ، ويظن بعض الشراح أنه هو شعيب المشار اليه في القرآن ، ولعل شعيبا هو قريبه (هو باب) أو شوباب بمعنى محبوب الله . . وبين النطق العربي والنطق العبـري تقـارب محسوس ، ومن شراح التوراة من يقول ان « يثرون » لقب وليس باسم يدعى به نبي مدين ، فلا يبعد اذن أن يكون شعيب اسمه الذي لم يذكروه .

ومجمل القصة مع قصة بلعام يفيد أن النبوة كانت معهودة متـكررة في تلك الأرض قبـل خروج بنـي اسرائيل من مصر ، وأيام أن كان موسى سائحـا في الأرض لم يتلق الوحي ولم يرجع الى مصر ليخرج بقومه منها . . أمـا أيوب فالرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات وكشـوف في بلاد العـرب » Alarms And Exploration in Arabia يحسبه من أهل عمان ، وغيره يحسبه من أهل نجد ، وزمنه متباعد بين المؤرخين وشراح التوراة .

ومنهم من استعان بعلم الفلك على تحديد زمنه ، لأنـه ذكر النعش والجبـار والثريا ومخادع الجنوب في القبة السماوية ، وفي اشارته الى عين الثـور وقلـب العقرب من منازل الفلك ما يفهم منه زمان تلك المقارنات على تقدير الفلكيين المحدثين ، وقد ذكر المفسر هالس Hales أن هذه المقارنات تجعل تاريخ أيوب قريبا من سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد .

ومما يقرب هذا التقدير ويدل على اتصال أيوب بالبلاد المصرية أنه ذكر الأهرام والمدافن التي يبنيها الملوك لأنفسهم ، ولكنه اذا لم يبلغ هذا الحد من القدم فلا شك عند جمهرة الشراح في سبقه لعهد الخروج من مصر ، وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة الى الخروج ولا الى خراب المدن التي دمرتها الزلازل

بجواره ، ولم يرد ذكر « يهواه » في صلب كتابه ، وانما ورد في المقدمة والذيل وهما مضافان بعد عصره كما هو راجح عند الشراح . .

ولم تكن حجته قط في الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للآباء والاسلاف ، وقد جاء في مزامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الأنبياء في الجزيرة العربية ، وكلهم متفقون على انه من أبنائها وان اختلفوا في مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة .

ومن جامعي التوراة من يضع سفره بين كتب موسى وكتاب يوشع وسائر الأنبياء من بني اسرائيل ، وهكذا وضعه جامع النسخة السريانية من كتاب العهد القديم .

***

وقد كان أيوب يعرف الكتابة ، ولكنه اشار الى أقدم أدوات الكتابة كما هي معهودة بمصر : نقش بالحديد على الحجر ، وليست طبعا على الطين المحروق أو خطوطا على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذي كان يطبع في البلاد الشرقية جميعا على نحو واحد .

أما عقيدة أيوب كما تفهم من سفره المجموع في العهد القديم فغاية في السمو والكرم والتنزيه .

انه ينكر عبادة الشمس والقمر ، ويصف الله القدير بأنه أعلى من السماوات وأعمق من الهاوية وأعرض من البحر ، وسوّى بين الحرّ والعبد قائلا : « أو ليس صانعي في البطن صانعه وقد صورنا واحد في الرحم ؟ » ويحمد من الغني أن يكون أبا للفقراء وأن تكتئب نفسه على المساكين ، وأن يبكي لمن عسر يومه ، ويستعيذ بالله أن ينظر انسان الى امرأة غير امرأته وأن يطمع في مال غير ماله .

وأجل من ذلك شأنا في تاريخ العقيدة الدينية ، أنه كان أول من نص على البعث في كتب العهد القديم ، وكانت تربيته الالهية التي انتهى منها الى هذه العقيدة تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والبوار وخيانة الاقربين والأبناء ، وتدرّج من القول بالزوال والعدم الى القول برؤية الله بعد فناء الجسد ، فكان في أول السفر يقول : « الذي ينزل الى الهاوية لا يصعد » ويقول « الانسان يضطجع ولا يقوم » و« اذا مضت سنوات قليلة أسلك في طريق لا أعود منها » ويتساءل « ان مات رجل أفيحيا ؟ » ثم انتهى من هذه

التجارب الى الأمل في خلود النفس ولقاء الله « فبعد أن يفنى جلدي هذا ، وبدون جسدي ، أرى الله ، »

***

وعلى الجملة يبدو سفر أيوب غريبا في وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بني اسرائيل أن يجمعوا في التوراة كتبا لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه في بقاع فلسطين الجنوبية محفوظا يتذاكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان ، ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامع به الناس فانه عزاء صالح للمتعزين وعبرة صالحة للمعتبرين ، ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة في مصر والشام ، ولا نعرف كتابا من كتب التوراة ظفر في رأي النقاد الغربيين بالاعجاب الأدبي الذي ظفر به سفر أيوب ، فقال توماس كارليل عنه انه واحد من أجلّ الأشياء التي وعتها الكتابة ، وانه أقدم المأثورات عن تلك القضية التي لا تنتهي قضية الانسان والقدر والأساليب الالهية معه على هذه الأرض ، ولا أحسب أن شيئا كتب مما يضارعه في قيمته الأدبية » . .

وقال فيكتور هيجو « انه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الانسان »

وقال شاف Schaff « انه يرتفع كالهرم في تاريخ الأدب بلا سابقة وبغير نظير » . .

أما بلعام ويثرون فقد ذكر الأول في كتب العهد القديم لانه نصر بني اسرائيل في الخصومة بينهم وبين الموآبيين ، وذكر الثاني لما بينه وبين موسى من المصاهرة وما كان له من الفضل في تعليمه نظام الحكم وسياسة القبائل ، وغيرهم ولا شك كثيرون لم يذكروا في المراجع اليهودية ، اذ كانت هذه المناسبات لا تستوعب تاريخ البقاع بين تخوم العراق وتخوم العقبة وما وراءها من أرض الجنوب .

وهذا بعض القرائن على مكانة النبوة في أرض الجنوب مما يلي سيناء والحجاز ، ومن القرائن الأخرى في كتب العهدين القديم والجديد يفهم بغير تردد أن تلك البقاع كانت وجهة الأنبياء في كل عصر تحدثت عنه تلك الكتب . فابراهيم توجه الى جيرار وموسى توجه الى مدين (مديان) وبولس الرسول قال في كتاب

غلاطيه انه ذهب الى بلاد الغرب قبل أن يأتي الى دمشق ، ولم يفتأ بنو اسرائيل الى عهد المسيح ينعون على الشمال أنه لا يخرج منه شيء حسن ، وينتظرون النبوءات من برية الجنوب .

***

ويجب أن يتأنى المؤرخ طويلا عند ملاحظة هذه القرائن المتعددة فهي في تاريخ الخليل دليل على الوجهة التي يجب أن يبحث عنهاالمؤرخ اذا أراد البحث الصحيح عن مسلك الخليل في أيامه الأخيرة ، فانما يكون مسلكه المعقول الى طريق الجنوب ، ولا يعقل له مسلك الى بيت المقدس يستقر عليه قراره ، فان المصادر الاسرائيلية نفسها تقول انه كان غريب الدعوة والموطن في حبرون ، وانه اشترى مدفنة من الحيثيين ، وما لم تكن له دعوة ولا موطن في الأرض فالجنوب الذي اتجه اليه ، واتجه اليه أصحاب الدعوات النبوية أحرى أن يكون قبلته ومرجعه ، وليس من الغريب أن تتعمد المصادر اليهودية اغفال هذه القبلة والتعلق ببيت المقدس بعد أن قام فيها عرش داود ، فانها الدعوة التي يقومون بها ويسقطون بنفيها ، وفي ذلك وحده تفسير يغني عن كل تفسير .

العقائد والشعائر

من الألف الثالثة الى الألف الثانية قبل الميلاد ، أقام في البلاد العربية أناس من أتباع كل عقيدة دينية عرفت في تلك العصور .

وكان مركزها الأكبر في بلاد النهرين ، حيث تتابعت الدول فتتابعت معها الديانات والشعائر ومراسم العبادة .

عبدت فيها الكواكب ، وعبدت فيها الملوك ، وعبدت فيها قوى الطبيعة ، وعبدت فيها الأرباب العليا التي تعم عبادتها رجال الدولة ، وعبدت فيها الأرباب المحلية التي يدين بها أبناء كل اقليم على حدة ، ولا تشترك الأقاليم جميعاً في عبادتها . .

وقامت الشعائر على اختلافها مع كل دين من هذه الأديان ، فعرفوا الضحايا البشرية كما عرفوا القرابين من غلات الزراعة في مواسمها ، وعرفوا الصلوات في الهياكل بقيادة الكهان ، كما عرفوا الصلوات في البيوت أو في المدافن الملحقة بها ، وعرفوا الديانات التي تؤمن بالروح والجسد ، كما عرفوا الديانات التي تؤمن بالجسد ولا تذكر شيئاً عن الروح ، أو التي تؤمن بأن الروح يلصق بالأعضاء فلا ينتقل الى العالم الآخر ما دام للجسد بقية باقية . .

ومنهم من كان يفهم أن العالم الآخر ناحية من هذا العالم الأرضي أو هاوية في أعماقه ، ومن كان يفهم أنه آت بعد حين في آخر الزمان .

وشوهد من الآثار والأحافير أن هذه الديانات تتغير كلما تغيرت الدولة القائمة في مكانها ، فيقضي الدين الجديد على بعضها ويستبقي بعضاً منها أو يحوله الى

صورة أخرى .

ومعظم هذه الشعائر والعبادات له علاقة بدعوة الخليل ابراهيم ، اما بالاقرار أو بالانكار والتحويل . .

وسبيل الباحثين الى تصفية هذه الشعائر والعبادات عسير بل جد عسير لاختلاط الأزمنة واختلاط الشعوب واختلاط البقايا في العصر الواحد ، فلا ندري على التحقيق ما كان من عقيدة هذا الفريق وما كان من عقيدة غيره ولا وسيلة الى الجزم بالقديم منها والحديث .

ويصدق هذا على العقائد والشعائر التي يقبلها اناس ويستنكرها أناس آخرون ، ولكنه لا يصدق على العقائد والشعائر التي يمكن أن يقبلها أتباع العبادات المتناقضة في وقت واحد ، كالحج وقد كان مفروضاً في الجاهلية وظل مفروضاً في الاسلام مع اختلاف العقيدة والحكمة فيه ، وكالقول عن أصل الخليقة وقد اتفقت فيه الأديان الكتابية على الجملة وظهر من الآثار والأحافير أنه كان من عقائد الأمم الغابرة قبل الأديان الكتابية ، وما لم يأت نص بالمخالفة فليس ما يمنع تعاقب الاديان على قول واحد في هذه الامور .

والمتواتر من سيرة الخليل ابراهيم أنه شهد عبادات الأقوام في عصره من أرض النهرين الى وادي النيل ، وأنه تنقل بين أقطار تتناقض في بعض العبادات وتتلاقى في بعضها على اتفاق قريب أو بعيد ، فاذا نظرنا فيما أبقى وفيما ترك وعارضناه على المشهور من عبادات أولئك الأقوام فليس من العسير أن نستخلص رسالته عليه السلام ، وما فيها من الجديد والقديم ، ومن الوفاق أو الخلاف .

وحاصل ما يقال هنا قبل تلخيص العقائد والعبادات في زمانه أن ظهوره عليه السلام قد كان ولا ريب على مفترق من الطرق يختلف فيه الجيلان في البيت الواحد ، فضلا عن الملتين أو القطرين .

وهذه طائفة من العقائد والشعائر التي كانت لها علاقة بدعوته ، وينبغي النظر فيها قبل التصفية التي نخلص منها الى بيان رسالته ورسالة الخالفين من بعده . .

١ ـ قصة الخليقة

وجدت قصة الخليقة منقوشة بالخط المسماري على الألواح التي عثر عليها

المنقبون عند مدينة الموصل ، ونقلوها الى المتحف البريطاني بلندن حيث تعاون المفسرون على تفسيرها ، وهذه خلاصتها :

« كان الأفق الأعلى لا يسمى بعد بالسماء ، وكان الأفق الادنى لا يسمى بعد بالارض ، ولما تفتح الهاوية ذراعيها .

« وكان الماء يغمرها جميعاً ، وليس من انسان ولا حيوان يجوس خلالها .

« وولد يومئذ أقدم الأرباب لخم ولاخامو .

« ثم ولد آشور وكيشور » .

ويلي هذا بعد كلام مفقود أو مطموس في الألواح المكسورة كلام عن الخلق في اليوم الرابع حيث صنع منازل لأعظم الأرباب ، وصنع بروج الفلك على صور الحيوان ، وقسم السنة الى أربعة فصول ، والى اثني عشر شهراً في كل فصل منها ثلاثة شهور ، وجعل فيها أيام المواسم والأعياد .

« وصنع للسيارات منازل تشرق فيها وتغرب ، ولا يصدم بعضها بعضاً في الطريق ، ووضعها مع منازل بعل وحي .

« وأقام لها مواصد على جوانبها ، واغلاقاً على اليمين واليسار .

« وأقام في الوسط نيرين . أقام القمر يسيطر على الليل ويسير فيه الى مطلع الفجر ، وقدس في كل شهر أياماً ، ليبرز في غرة الشهر قرنيه وينير أجواز السماء » .

ثم يلي هذا كلام ناقص عن اليوم السادس يتلى بعد اتمامه على الوجه الاتي :

« واجتمعت الأرباب وخلقت الوحوش والأنعام والدواب ، ومنها جماعة بيتي (أنا أشور السماء) . . وكانت فيه بهجة .

« والاله المشرف جعل فيها اثنين . . »

***

وفي المتحف البريطاني لوح عليه صورة شجرة جلس الى جانبها رجل وامرأة ، ووراء المرأة حية ، وقد بسطا يديهما الى ثمرتين بأسفل الأغصان . وفحوى قصة خلق الانسان أن الاله مردوخ فاتح الاله (ايا) رب الماء العذب

فأفضى اليه بأنه سيخلق الانسان من دمه وعظمه ، وأمر حاشيته ، أن تضرب عنقه ليسيل دمه ، فنجم منه الانسان ، ولم يمت الاله مردوخ لان الاله لا يموت ، ولكن الانسان قضي عليه بالموت بعد ذلك لأنه طمح بآماله الى خلود كخلود الأرباب .

٢ ـ قصة الطوفان

وتؤلف قصة الطوفان البابلية من اثني عشر فصلاً على حسب البروج : وراوي القصة يسمى (اسدبار) وقد عبر بحر الموت ليصعد الى السماء ويلقى زستور الذي ارتفع اليها بعد نجاته من الطوفان ، والباقي من ألواح هذه القصة في المتحف البريطاني يحيكها على هذا المثال :

« ابن بيتا واصنع سفينة تحفظ النبات والحيوان ، واخزن البذور واخزن معها بذور الحياة من كل نوع تحمله السفينة ، وليكن طولها ستمائة قدم في ستين عرضاً . . وتدخل السفينة وتحكم اغلاقها ، وتضع في وسطها الحبوب والمتاع والأزواد والخدم والجند ، وتضع فيها كذلك أجناس الوحش لتحفظ ذريتها . .

« . . . وقال الله ليلا : اني سأرسل السماء مدراراً ، فادخل الى جوف السفينة وأغلق عليك بابها ، وتغطي وجه الأرض وهلك كل ما عليه من الأحياء ، وفار الماء حتى بلغ السماء ، ولم ينتظر أخ أخاه ولم يعرف جار جاره . ستة أيام وست ليال ، والريح تعصف والأنواء تطغى ، ثم كان اليوم السابع فانقطع المطر وسكنت العاصفة التي ماجت كموج الزلزال . سكنت العاصفة وانحسر البحر وانتهى الطوفان ، وعج البحر بعد ذلك عجيجه ، واستحال الناس طيناً وطفت أجسادهم على وجه الماء .

« ثم استوت السفينة على جبل نيزار . . وأرسلت أنا الحمامة فذهبت وعادت ولم تجد من مقر تهبط عليه ، فأرسلت عصفور السمانة فعاد وما هبط على مكان ، وأرسلت الغراب فراح ينهش الجثث الطافية ولم يرجع ، ثم أطلقت الحيوانات في الجهات الأربع وبنيت على رأس الجبل مذبحاً فقربت لديه قرباناً وفرقته في آنية سبعة وفرشت حوله الريحان ، وشمت الأرباب رائحة جيدة فاجتمعت على القربان ، ونظرت أعاظم الأرباب من بعيد ، وارتفعت أقواس السحاب تحييها عند اقترابها » .

وقد علم المنقبون أن هذه القصة منسوخة من مصدر قديم أقدم منها ، فهذه

الألواح لا يقل تاريخها عن ألفين وخمسمائة سنة ، والمصدر الذي نقلت منه يرجع الى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد .

وعلم المنقبون في جميع آثار الأرض التي كشفت في العالم القديم او العالم الجديد أن قصة الطوفان عامة لا تنفرد بها الآثار البابلية ، ولا يقل تاريخها في القدم عن تاريخها .

٣ ـ عبادة الكواكب

ومن كلامهم عن الخليقة والطوفان نعلم أنهم كانوا يؤمنون باله عظيم خلق الآلهة الصغار وقدر لها منازلها في السماء .

وهذه الآلهة الصغار هي الاجرام العلوية ، وأشهرها القمر ، وقد عمت عبادته بلاد الساميين (أو العرب الأوائل) من وادي النهرين الى سيناء ، ويسمونه سين ومنها أخذ اسم سيناء ، ولعله في الأصل من مادة السنى والسناء . .

وكان له اسم علم في وادي النهرين هو (نانار) وهو الذي يتوجهون اليه بالعبادة ، وكان له مركز في مدينة (أور) بلد الخليل ابراهيم ، ومركز في شمال العراق ومعه هناك اله آخر يسمونه مردوخ ، أو المريخ .

وفي صلواتهم للقمر يقولون : « يا رب . يا من قدرته الوهابة تمتد ما بين السماء والأرض ، ومن يجلب الغيوث والمواسم ، ويسهر على الأحياء ، ومن يعظم في السماء عالية وصيته ، ومن يعظم في الأرض عالية وصيته ، ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية . مشيئتك أنت في السماء مشرقة ، ونسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الارض . فان مشيئتك تطيل الحياة وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن شمولا عجيباً ، وأنت تجري العدل على قضاء الانسان ، وما من أحد ينفذ الى سرها أو يقيس عليها . . أنت رب الأرباب مالك من شبيه ولا نظير . . » .

وكانوا منذ أقدم العصور على عهد السومريين (أو الشمريين) يرفعون الصروح لرصد الكواكب واستطلاع الطريق ، وهي الصروح التي يسمونها (زجرات) أو أماكن عالية ، ويعلل المؤرخون المنقبون ذلك بنشأة السومريين في بلاد جبلية ، وان الجبل والشرق والبلد يطلق عليها في لغتهم اسم واحد وهو (كور) ومعناه في العربية قريب من هذا المعنى ، لأنه يطلق على مجتمع القرى[1] وعلى العمامة وعلى الكارة التي تحمل على الرأس أو الكتف . .

---

(١) الدول المدفونة تأليف باتريك كارلتون Buried Empires by Patrich Carleton

وكانت هياكلهم المبنية ترصد للارباب السماوية ، وتنصب فيها التماثيل بأسمائها ، ومن هنا عبادة الأصنام .

وأشهر الكواكب المعبودة بعد القمر كوكب الزهرة (عشتار) وكوكب المريخ (مردوخ) . وينسبون الى الزهرة أنها ربة الحب لتألقها وزهوها وتقلب أحوالها ، وينسبون الى المريخ أنه رب الحرب لاحمرار لونه كلون الدماء . .
على أنهم عبدوا الشمس قديماً باسم (شماس) وان لم تكن عبادتها عامة بينهم كعموم عبادة القمر .

ويقول وولي Woolley في كتابه عن ابراهيم ، وهو من أشهر علماء الأحافير : « ان الآلهة كانوا عند السومريين على ما يظهر ثلاث طبقات : الآلهة العظيمة التي تخصص لها هياكل الدولة ، والالهة التي دونها وهي التي تقام لها المعابد في مسالك الطرق ، ودون ذلك آلهة الأسرة ، والأغلب على الآلهة العظيمة أنها كانت تشخص قوى الطبيعة كالشمس والقمر والماء والأرض والنار والبرق والنضال والخصب والموت ، وعندها تكمن جميع القوى ويكون التفوق بينها على حسب أحوال الربانية المتعددة ، وقد كانت لها أقاليم تغلب العبادة لكل منها على اقليم ، ومن ثم لا يفرض الولاء الكامل له في غير ذلك الاقليم . ففي أور عبادة نانار ، وفي أريكة عبادة اشتار ، وقد يتنازعان فتصبح كل قوة مشلولة من جراء ذلك النزاع .

« والان وقد غلبت مدينة لارسا على أقليم الجنوب فقد أصبح شماش اله الشمس خليقاً ان يبسط سلطانه على المدن الأخرى التي دخلت في طاعته ، وأصبحت سطوة بابل مرادفة لسطوة مردوخ . ولم يكن في السماء قرار ولا برهان الا بمقدار ما في الأرض بين البشر . كلا ولا كانت ثمة شريعة للاخلاق أرفع من شريعتهم » .

وقد كانت لهم حجة الى الشمال لاعتقادهم أنه مركز القطب الثابت ، ولكن التنازع بين دول الشمال ودول الجنوب حال دون الاتفاق على عبادته ، ويظهر أن الصابئين أو السابحين الذين ظلوا يعبدونه في الجنوب بقيت نحلتهم في مكانها على خلاف مع من حولها .

٤ ـ عبادة الملوك

وفي متحف اشمول[١] بانجلترا أسماء الأسر التي حكمت بابل من بعد الطوفان الى أيام سراجون ، وقد جاء في الألواح التي حفظت أسماءها أن الأسرة الأولى تولى منها الملك ثلاثة وعشرون ملكاً وكانت مدة حكمهم جميعاً أربعة وعشرين ألف سنة وخمسمائة وعشر سنوات .

وكتاب الألواح مجمعون على أن الملوك الأوائل الذين حكموا بعد الطوفان قد هبطوا من السماء الى الأرض لحكمها بعد أن طهرها الله وعاقبها على فسادها . . فهم أرباب سماويون تجب عبادتهم على الرعايا .

وأشهر من حكم منهم في مدينة (أور) أورنامو Ur-Nammu صاحب الصرح الشاهق الذي أقيم لعبادة القمر ، وله تمثال نقل الى متحف بنسلفانيا بأمريكا . .

وقد خلفه ابنه دنقى أوشلقي ـ على حسب اختلاف المنقبين في أساليب ترتيب الحروف والنطق بها ـ وهو أحد العواهل السومريين الذين فرضوا عبادتهم على جميع البلاد توحيداً للدولة ، وزوّج بنته لأمير عيلام (غير بعيد من السليمانية في بلاد الكرد في العهد الحاضر) ليضم اليه الأمارات المجاورة ، واتخذ أصحاب الأقواس الطوال من جند أور ، وخرج بهم وبالفرق القوية من البلاد الأخرى الى الشمال لغزوه والحاقه بدولته ، فامتدت مملكته من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال بوادي النهرين ، ويقدر المؤرخ المتخصص لهذه الحقبة (باتريك كارلتون) في كتابه عن الدول المدفونة أنه تولى الملك سنة ٢٢٧٦ قبل الميلاد .

ولم يكن دنقي بالوحيد الذي فرض عبادته على البلاد كلها ، بل كان هذا شأن جميع الملوك الذين أخضعوها لسلطان واحد ، ومن لم يفلح في اخضاعها قنع بالعبادة من رعاياه حيث ينفرد بالسطوة في بعض الأقاليم ، أو قنع بالكهانة الأولى بين رؤساء الدين .

ولم يتعاقب على (أور) من هؤلاء العواهل كثيرون ، لأن العواهل الذين ضموا البلاد جميعاً الى دولتهم قلائل متناثرون بين الأزمنة المتباعدة ، ومنهم

---

(١) ينسب هذا المتحف الى اشمول Ashmole الذي اهداه الى جامعة اكسفورد سنة ١٦٧٧ .

السومريون والأكاديون والبابليون .

الا أن مدينة (أور) عرفت عبادات شتى غير عبادة القمر وعبادة العواهل ، ومن هذه العبادات عبادة الأسرة بدلاً من الدولة ، شاعت مع ضعف الدولة وسقوط هيبتها وقلة الرغبة في الانفاق على الضحايا والقرابين التي تقدم على محاريبها فاكتفى الناس ببيوتهم يدفنون موتاهم فيها ويتقربون كلهم بمثل طعامهم وهم أحياء بين ظهرانيهم ، وقد كانت أعمال الحفر تبرز للمنقبين طبقة بعد طبقة من أعماق الأرض ومن أعماق التاريخ في وقت واحد ، ومن قيمة القربان تبدو قيمة الثقة بالأرباب أو تطور العبادة بين الماديات والمعاني الروحية . .

٥ ـ الضحايا البشرية

وتدل الأحافير على قدم الضحايا البشرية في العبادات التي سبقت عهد الساميين بوادي النهرين وبقاع الهلال الخصيب وانها بقيت الى ما بعد وفود الشعب السامية الى تلك البقاع .

وتدل الأحافير بمدينة (أور) على قدم تلك العادة في عبادة الملوك خاصة ، اذ كان الملوك يدفنون ومعهم حاشيتهم ووزراؤهم ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل بالضرب العنيف ، ولهذا يعتقد (وولي) في كتابه « أور الكلدانيين » Ur of the Chaldees أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقاراً ساماً يخدرهم ويميتهم ، لايمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب الى حالة في السماء كحالتهم في الحياة الأرضية .

ووجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعاً يشبه رأس الحيوان ، والمظنون أن هذا الزي كان مقدمة للذبح الرمزي واجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس في الاحتفالات العامة ولاسيما الاحتفال بعيد رأس السنة[1] .

ووجد في حفائر (أور) تمثال جدي مربوط مقيد في شجرة ، لعله رمز لاستبدال الضحية الحيوانية بالضحية البشرية ، وتاريخه في تقدير (وولي)

---

(١) أصول الشعائر السامية الاولى تأليف هوك Origins of Early Senitic Ritual by Hooke

سابق لعصر الخليل بألف وخمسمائة سنة .

ولكن الضحية البشرية بقيت الى ما بعد أيام موسى عليه السلام ، ويتضح هذا من الاصحاح الثاني والعشرين في سفر الخروج حيث حرم على بني اسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قرباناً الى الله ، ويتضح أيضاً من الاصحاح العشرين من سفر اللاويين حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يعطي ابنه قرباناً للرب ملوك .

ومع هذا كان بعض أمرائهم ينذر أبناءه ليحرقهم على المذبح قرباناً الى الله ، كما فعل يفتاح ونذر « نذرا للرب قائلا : ان دفعت بني عمون ليدي فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة يكون للرب وأصعده محرقة[1] » .

ونعى عليهم النبي ارميا انهم « بنوا مرتفعات . . ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار . . » .

٦ ـ الختان

وروى هيرودوت أبو التاريخ أنه سأل الفينيقيين والسوريين عن عادة الختان فقالوا : انهم أخذوه من المصريين ، وان المصريين كانوا يتحرون به النظافة والطهارة .

وحقيقته التي تدل عليها المقارنة بين العادات أنه اختصار لعادة الضحية البشرية نشأ مع تقدم الانسان في الحضارة والمدنية .

ففي أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقتل الأسرى قرباناً على محراب المه ، ثم تدرجوا من قتلهم الى قطع أعضائهم ، وتدرجوا من قطع أعضائهم الى قطع غلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة .

ولهذا بدأ الختان بالرجال ولم تنشأ عادة الختان بالنساء الا بعد ذلك بزمن طويل . .

وانتقل الختان من اعتباره علامة تسليم لاله الأعداء ، الى اعتباره علامة تسليم للاله الذي يعبده أبناء القبيلة ، وعند ئذ وجب على النساء كما وجب على الرجال . .

---

(١) أصحاح ٢٠ قضاة

ومن بقايا عاداته الأولى أن شاؤل اشترط على داود أن يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين مهراً لبنته ميكال ، فقدم له مائتين كما جاء في الاصحاح الثامن عشر من سفر صمويل الأول .

وليس بالصحيح أن الاسرائيليين اعتبروه علامة لقبيلتهم تميز الاسرائيلي من غيره ، وانما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم ، وفرضه المكابيون على الأدوميين والأتوريين حين هزموهم ، وجاء في الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين أن أبناء يعقوب أوجبوا على الرجل الذي اغتصب أختهم دينا أن يختتن هو وقومه الكنعانيون .

٧ ـ المعابد والمحاريب

لم يعرف عن قوم ابراهيم ـ أو المنتسبين اليه على الأصح ـ أنهم أقاموا لهم هيكلا قبل الهيكل الذي بناه سليمان عليه السلام .

وكان الخليل يبني المحاريب على الأماكن العالية ، ويختار للمحراب موضعاً الى جوار الشجر والماء ، ثم تعددت المحاريب فتعددت المعبودات وحسب العامة أن كل محراب منها قد أقيم لمعبود غير المعبودات في المحاريب الأخرى ، وخلطوا بين أرباب كل اقليم فعبدوا الأوثان التي كان يعبدها أبناء البلاد الأصلاء من قبلهم ، وخيف عليهم الاختلاط والفناء فيمن حولهم من الشعوب فاجتمعت كلمة الحكماء على تحريم بناء المحاريب في الأماكن العالية وقصر العبادة والقربان وجميع المراسم الكبرى على هيكل واحد ، وكان هذا الهيكل في مبدأ الأمر خيمة تحمل ، ثم بني بالحجارة على رسم الخيمة وتقسيمها . .

ولم يكن هذا هو الأثر الوحيد من آثار نظام المعابد في وادي النهرين .

فقد بقيت عبادة الأسرة زمناً طويلا ممثلة في عبادة الأوثان التي تسمى بالطرافين ، وكانوا يعتقدون أن حيازة الطرافين تحفظ لمن يحوزها حقوق الاسرة من الرئاسة الى البركة والميراث ، ولهذا أخذت راحيل الطرافين معها قبل الهجرة من حرانة ، وظلوا يحتفظون بالطرافين بين ذخائر الأسرة المقدسة الى ما بعد السبي كما يؤخذ من الاصحاح العاشر في سفر زكريا .

٨ ـ العالم الآخر

ولا يخلو دين أمة قديمة من الايمان بعالم آخر غير عالم الأحياء ، لأن الايمان بالأرواح والأطياف شائع بين القبائل البدائية الأولى ، وكلهم كانوا يعتقدون أن الانسان يبقى بعد موته لأنهم يرونه في أحلامهم ، ومن هنا جاءت عبادة الاسلاف .

ولكن الايمان بالعالم الآخر نوعان : نوع ينظر الى العالم الآخر كأنه جزء من هذا العالم المشهود ، ينتقل اليه الميت للاقامة فيه ، وأكثر الأمم القديمة يسميه الهاوية ويجعله تحت الأرض بعيداً من النور .

ونوع ينظر الى العالم الآخر ويؤمن بأنه عالم الحساب والجزاء والتفرقة بين الأبرار والأخيار ، وانه هو عالم الخلود والحياة الباقية ، بعد الحياة الفانية في هذه الدنيا .

وبين هاتين العقيدتين في الغالم الآخر عقيدة متوسطة تجمع بين اعتقاد الهاوية واعتقاد الخلود ، فالموتى جميعاً يذهبون الى الهاوية ثم ينجو منهم في آخر الزمان من يدينون بالاله الحق ، فيعودون الى حياة كحياة الدنيا ، ويتم قضاء الموت الأبدي على الآخرين . .

كانت الديانة البابلية من النوع الأول .
وكانت الديانة المصرية من النوع الثاني .

وكان العبريون يأخذون بجزء من هذه وجزء من تلك ، ويدينون بالعودة الى الدنيا في آخر الزمان ، وأن غيرهم من الأمم لا يعودون .
وتراجع الصلوات البابلية اليوم فلا يرى فيها شيء يشير الى النعيم في العالم الآخر ، وانما ينحصر الدعاء في طلب الخيرات الدنيوية وطول العمر والسلامة من الأمراض والأحزان .

وكانت طائفة من البابليين الأقدمين تعتقد أن الروح تلازم الجسد بعد الموت ، فلا تزال عالقة به محيرة بين هذا العالم والعالم الآخر حتى يبلى رفاته ولا تبقى منه بقية تعلق بها ، ولهذا كانوا يتركون الموتى للجوارح والوحوش تنهشهم وتبيدهم لتستريح الأرواح من عذاب الحيرة بين الدنيا والآخرة . .

٩ ـ التوحيد

والتوحيد كذلك توحيدان :
توحيد الايمان باله واحد خلق الأحياء وخلق معهم أرباباً آخرين .
وتوحيد الايمان باله واحد لا اله غيره .

ولم تعرف أمة قديمة ترقت الى الايمان بالوحدانية على هذا المعنى غير الأمة المصرية ، فعبادة (اتون) التي دعا اليها اخناتون قبل ثلاثة وثلاثين قرناً كانت غاية التنزيه في عقيدة التوحيد كما عرفها الأقدمون ومن علماء المصريات ـ وفي طليعتهم برستيد ويجال ـ من يرى بعد المقابلة بين صلوات اخناتون والمزامير المنسوبة الى داود أن حكماء الاسرائيليين كانوا يطلعون على أسرار المحاريب في مصر ، ولاسيما الأسرار التي كانت محجوبة عن الدهماء ، اذ كانت أسرار الديانة العليا مقصورة على كبار الأحبار وتلاميذهم المختارين .

ومن أسماء الملوك في بلاد العرب الجنوبية يبدو أنهم عرفوا الوحدانية التي يغلب فيها اله واحد على سائر الآلهة ، واسم ايلومي ايلوم الذي تولى الملك في بابل الجنوبية معناه ان الله هو الاله الحق ، ويقول عبد الله فلبي في كتابه سوابق الاسلام ان هذه الكلمة هي شهادة الوحدانية في طورها الأول ، ومن مرادفاتها في أسماء الشعب ايل رب ، وايل ملك ، وايل راب ، وكلها من قبيل القول بأن الله هو الرب وانه هو الملك وأنه هو الرئيس المطاع ، ولا يقال هذا الا لتغليب اله واحد على سائر الآلهة ، أو لنفي صفة الالهية عن سواه . .

١٠ ـ الشرائع

ويلحق ببحث الشعائر والعبادات بحث الشرائع والآداب الاجتماعية ، وقد وجد العمود الذي نقشت عليه شريعة حورابي كاملا ما عدا سطوراً مطموسة أمكن إتمامها من مصادر أخرى .

وتتضمن هذه الشريعة عقوبة الاغراق للسحر والخيانة الزوجية والاحراق لمن يختلس مالا من بيت محترق ، وكان للنهر في هذه الشريعة قداسة يمتحنون بها من يلقونهم فيه من السحرة والمسحورين ، وفيها عقوبات القتل على السرقة والاغتصاب . ومن غرائبها أنها تعاقب البنت البريئة بذنب والدها « فاذا ضرب

رجل بنت انسان حر ضرباً أسقط حملها فعليه عشرة مثاقيل من الفضة غرامة لاسقاط حملها . فان ماتت فبنته تقتل . . »[1]

ولا يشبه هذه الأحكام فيما رواه العهد القديم غير عقوبة عاخان لأنه سرق من غنائم القتال في وقعة عاي التي انهزم فيها الاسرائيليون . . « فأجاب عاخان يشوع وقال حقاً اني قد أخطأت الى الرب اله اسرائيل . . رأيت في الغنيمة رداء شنغارياً نفيساً ومئتي مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتهيتها وأخذتها وها هي مطمورة في الأرض وسط خيمتي والفضة تحتها . . فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ما له وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الى وادي عخور . فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم . فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه . . » . .[2] .

ومن أحكام حمورابي في مسائل الزواج تحريم تعدد الزوجات من طبقة واحدة وتحريم الزواج من الجواري اذا رزق الرجل أولاداً من زوجته المكافئة له في طبقته أو من إحدى جواريها .

« المادة ١٤٤ » فاذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولاداً فلا يجوز له أن يتزوج من سرية » .

« المادة ١٤٥ » واذا تزوج رجل من كاهنة ولم تلد له وأراد أن يتزوج من سرية وأن يؤويها في بيته فهذه السرية لا تكون مع زوجته في منزلة واحدة » . .

« المادة ١٤٦ » واذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولاداً وجعلت نفسها في منزلة السيدة لأنها حملت أولاداً فلا يجوز للسيدة أن تبيعها بالفضة بل تقيدها وتبقيها مع الخدم » .

ولا يجوز حرمان ابن السرية من ميراث أبيه بعد الاعتراف بنسبه .

« المادة ١٧٠ » فاذا كان لرجل أولاد من زوجته وكان له أولاد من سريته ، وكان قد ناداهم بأبنائي في حياته وعدهم مع أبنائه من زوجته ، ثم ذهب لقضائه

(١) المادة ٢٠٩ من شريعة حمورابي من كتاب أقدم شرائع العالم تأليف ستريك ادوارد The World's Earliest Laws

(٢) سفر يشوع الاصحاح السابع

فالأبناء من الزوجة والأبناء من السرية يتقاسمون الميراث على السواء ، ويختار أبناء الزوجة القسمة والاقتراع » .

وتجري المقارنة كثيراً بين شريعة حمورابي والشريعة العبرية ، ويزعم بعض الفقهاء من علماء اليهود المعاصرين أن الشريعة العبرية تخالف شريعة حمورابي في تمييز الأصغر بالميراث ، فالأستاذ جوزيف جاكوب يعلل تفضيل اسحاق على اسماعيل ، وتفضيل يعقوب على عيسو ، وتفضيل يوسف على اخوته بأن الشريعة العبرية كانت لذلك العهد تأخذ بالحكم الذي كان شائعاً في بعض الشرائع الأولى : وهو اختصاص الابن الأصغر بالحصة الوافية من الميراث Ultimageniture

قال هذا الفقيه : إن مؤرخي العهد القديم لم يدركوا معنى هذه السنة القديمة فحاولوا أن يصححوها بالتعليلات التي خطر لهم أنها كفيلة بتصحيحها[1] ولكن القاعدة تطرد اطراداً لا يمكن تعليله بالمصادفة ، فلما قدم يوسف ولديه منسى وافرايم الى أبيه يعقوب ليتلقيا بركته حول الجد يمينه الى افرايم ويساره الى منسى ، وهكذا تولى داود الملك وهو أصغر أبناء أبيه وكان جده فارز أصغر التوأمين اللذين ولدتهما تامار بنت يهودا ، وقد اتبع داود هذه السنة فولى سليمان عرش الملك من بعده وهو أصغر من أخيه ادوناي .

ويخطر لبعضهم أن هذه السنة قديمة في عشيرة الخليل ، وأنه هو صلوات الله عليه كان أصغر من أخيه .

***

والى هنا نقف بالمقتبسات من تواريخ الاحافير والتعليقات عليها ، لان كشوف الأحافير الأخرى لا تعنينا في موضوع هذه الرسالة ، وليس فيها ما يبنى عليه رأي في سيرة الخليل على فرض من شتى الفروض .

---

(١) المأثورات الشعبية في العهد القديم تأليف فريزر
Folklore in the Old Testament by Frazer

الخلاصة

الآن وقد انتهينا من معالم الطريق كما رسمتها لنا المصادر والتعليقات يصح أن نبدأ بتلخيص السيرة على هدى تلك المعالم ، ويحق لنا أن نقرر « أولا » أن قرائن الثبوت في سيرة الخليل أقوى جدا من كل قرينة للشك ينتحلها من يتحدث باسم العلم ، والعلم من حديثه براء .

فالذي يقول ان وجود الخليل مشكوك فيه من الوجهة العلمية يظلم العلم ويحمله جريرة لا يحملها ، لأن سيرة الخليل ليست من السير التي يشك فيها العالم ، بل هي سيرة يبحث عنها العالم ان لم يجدها ، اذ كانت الدعوات النبوية سلالة واحدة يرتبط اللاحق منها بالسابق ، ولا يمكن الرجوع ببداءة لها أصدق من بداءتها بدعوة ابراهيم .

***

ان الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة ابراهيم سلالة لم يظهر لها نظير في غير الأمم العربية ، والأمم السامية ، وقد ختمت بدعوة محمد وجاءت دعوة محمد متممة لها ، فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرها ، بترتيب كل منها في زمانها ، وعلاقة كل منها بمكانها ، فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة .

دعوات لم تظهر في العالم كله على غير هذا النسق ، لأنها ارتبطت بظاهرة غير متكررة حول مدن القوافل التي اختصت بها بلاد الأمم العربية ، وكانت بداءتها في زمانها وعلى ترتيب مكانتها الجغرافية حيث نشأ الخليل ابراهيم .

فهي نشأة لازمة في موقعها وفي عصرها ، والنشأة التي من هذا القبيل تواجه العلم بحقيقة ضرورية ، فلا يشك فيها . بل يكون موقفه منها على نقيض الشك من طرف الى طرف ، لأنه يبحث عنها ان لم يجدها ، وعليه أن يجدها وأن يهتدي اليها .

ومن قرائن الثبوت ـ كما أسلفنا ـ أن هذه الدعوات النبوية نسبت الى أصل واحد وهو السلالة السامية ، قبل أن يعرف الناس علم المقارنة بين اللغات ، وقبل أن يعرفوا علامات الوحدة في التصريف والاشتقاق وقواعد النحو وحركات النطق وأجهزة الكلام ، فلم يكن في وسع الذين قالوا بوحدة أصلها قبل مئات السنين أن يخترعوا هذه النسبة لو لم تكن نسبة صحيحة في مراجع لا تخترع ، ولا يسهل اختراعها .

***

وعلم المقابلة بين الأديان حديث كعلم المقابلة بين اللغات ، فاذا جاء هذا العلم الحديث مطابقا للأخبار الأولى عن ديانة القوم في عصر ابراهيم ـ فتلك قرينة ثبوت وليست بقرينة شك ، ومن خالف ذلك فهو لا يفرق بين الشك والثبوت . .

لم يكن من السهل أن توجد في وطن واحد عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك ، وأن تتعدد الأرباب مع تمييز رب منها على سائرها . .

ليس من السهل أن يوجد هذا الخليط من العبادات في وطن واحد ، فقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الشمس والقمر ، أو يعبدون القمر دون الشمس ، أو يعبدون القمر ولا يعبدون المريخ والزهرة .

وقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الأصنام ولا يعبدون معها الملوك ، وقد يعبدون أربابا كثيرة ولا يميزون ربا منها على سائرها .

أما عبادتها جميعا في وطن واحد فهي حالة لا يمكن اختراعها ما لم تكن حقيقة واقعة . .

ونحن قد علمنا اليوم انها حقيقة واقعة لأننا فككنا ألغاز الكتابة واستخرجنا أسرار الأحافير ، وعلمنا منها تسلسل العبادات واختلاط السكان والحدود وتطور العقائد على حسب أحوال المعتقدين .

وقد علمنا اليوم أن عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس ، خلافا لبادرة الظن الأولى . اذ يسبق الى الخاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يبدأ بها في العبادة . .

بل علمنا اليوم أن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر ، ولهذا يطلقون عليه اسم جوبيتر ويستمدون هذا الاسم من كلمتين بمعنى أبي الالهة Dawes Pater

وفي القرآن الكريم . . « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون »

ومما علمناه اليوم أنهم أقاموا للكواكب تماثيل لا تغيب عن أبصارهم اذا غابت الكواكب ، فعبدوها مع عبادة الكواكب على سبيل التقريب والتمثيل . .

وفي القرآن الكريم : « اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » . .

وفيه : « قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون » .

* * *

وما علمناه اليوم من مقابلات الأديان أن التوحيد جاء بعد تعديد الأرباب وتمييز واحد منها ، وأن أهل بابل خاصة كانوا يرون في قصة الخليقة أن الاله الأكبر خلق الأرباب كما خلق سائر الموجودات الأحياء وغير الأحياء ، وتوحيد الاله على هذا النحو هو الذي يسمونه في العصر الحديث بالهينوثيزم Henotheism ويطلقونه على طور خاص من أطوار التوحيد البدائي لم يكن لزاما أن يوجد في كل أمة .

وفي القرآن الكريم : « . . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » . .

وفيه : « . . . قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » .

أما عبادة الملوك في بابل القديمة فنحن نعلم اليوم أنهم كانوا يعبدونهم

ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان ، لأننا قرأنا الآثار وكشفنا عن الأحافير ، وادعاء الملوك أنهم آلهة يملكون زمام الحياة والموت وارد في القرآن الكريم : « اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت » . .

هذه المطابقات نعلمها اليوم من الكشوف والأحافير ، وسواء آمن العالم العصري بالقرآن أو لم يؤمن به فالمسأله هنا هي مسألة التفرقة بين قرائن الثبوت وقرائن الشك في سيرة ابراهيم ، فليس من قرائن الشك على كل حال أن تروى أخبار العبادة عن عصر ابراهيم على الوجه الذي حققته الكشوف الحديثة ، وعلى خلاف القصص التي تخترع اختراعا بغير سند من الواقع ، لأن الاختراع لا يجمع بين الحقائق المتفرقة من عبادات القوم ، وهي عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك وتعديد الأرباب مع تمييز واحد منها على الآخرين ، وهي المرحلة البدائية في طبيعة التطور بين التعديد والتوحيد . .

قلنا في مقدمة هذا الكتاب ان الشك في وجود ابراهيم لا يستند الى سبب ، لأن الغرائب والخوارق لم تبطل وجود شيء قط ، ومنها أثبت ما في السماء وهو الشمس ، وأثبت ما في الأرض من صنع الانسان وهو الهرم الأكبر . .

ويحق لنا بعد ما قدمناه أن نقول على الأقل ان أسباب الثبوت أقوى من أسباب الشك جميعا ، ان كانت له أسباب .

العصر

معظم المنقبين يعينون تاريخ ابراهيم في زمن متوسط بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ويجعلونه معاصرا لدولة الرعاة في مصر ودولة العموريين في العراق .

وولادة الخليل في هذه الفترة ترجحها الكشوف والأحافير ، كما ترجحها النتائج التي تمثلت في سيرته عليه السلام ، وكلها دلائل على تنازع السيطرة وتنازع العقائد واضطراب الأمور والاضطرار الى الرحلة الدائمة من أور الى أشور الى فلسطين الى مصر الى بيت المقدس ثم الى صحراء الجنوب . .

وتقترن زلازل الطبيعة وزلازل السياسة فلا يستقر لاحد من المقيمين في ديارهم قرار ، فضلا عن القبائل الرحل في طلب المرعى وطلب الأمان .

سقطت دولة بابل وغلبتها عليها قبائل عبلام من الشرق وقبائل عمور من الغرب ، وعاش العموريون والعيلاميون تارة في قتال وتارة في حلف مزعزع خوفا من دولة الأشوريين في الشمال .

وسقطت دولة مصر وغلبتها قبائل الرعاة ، ثم بقيت على خوف وحذر من الشرق ومن فراعنة الجنوب الذين احتفظوا بعروشهم في الصعيد .

وليس أشقى من حياة العشائر الصغيرة بين هذه القلاقل وهذه المنازعات التي يشترك فيها المغامرون من أبناء العشائر الكبرى ، وهم يزحفون للسيطرة على الدول كلما سنحت لهم الفرصة العاجلة ، ولا يقنعون بالتحول من بقعة الى بقعة طلبا للمرعى والأمان .

وكانت عشيرة الخليل صغيرة ولا شك بالقياس الى العموريين والرعاة وسائر القبائل التي تحتل بقاع الهلال الخصيب .

ولو لم تكن صغيرة لما أمكن أن تهاجر من جنوب العراق الى شماله الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط الى مصر الى فلسطين كرة أخرى في حياة زعيم واحد . .

وقد ألجأتها المجاعة الى مصر ولم تلجىء قبيلة أخرى الى مثل هذه الهجرة من القبائل التي أصيبت بالمجاعة في صحراء فلسطين .

وحدث غير حادث يدل على قلة هذه العشيرة في عددها وقوتها ، وأنها ظلت على هذه القلة بعد أيام ابراهيم وفي أيام يعقوب . . ومن أبرز الشواهد على ذلك في حياة البداوة خاصة أن جيرانها كانوا يجترئون على نساء زعمائها فطمع أبيمالك في سارة واعتدى شكيم على ابنة يعقوب ، وكانت العشيرة نزيلة الى جوار الأقوياء الذين يضيفونهم أو يأبون ضيافتهم كما يشاؤون .

ليس أشق من حياة عشيرة صغيرة بين العشائر الكبرى في أيام الزعازع وتقلب السلطان ، ولا سيما الحياة الى جوار الدولة البابلية ، وكل سلطان جديد هناك فهو رب جديد يدين الناس بالعبادة ويسومهم أن يسجدوا له ولا يقنع منهم بطاعة الرعية للرعاة .

وقد حفظ لنا سفر دانيال مثلا من شتى الأمثلة على قيام هذه العبادات مع قيام السلاطين ، فان السلطان الجديد يعلن ولايته بالطبول والزمور ويفرض على كل مستمع أن يسجد لتمثاله على قارعة الطريق ، ومن أبى السجود أحرقوه بالنار . .

« فبوخذنصر الملك صنع تمثالا من ذهب طوله ستون ذراعا ، وعرضه ست أذرع ، ونصبه في بقعة دورا في ولاية بابل ، ثم أرسل ليجمع المرازبة والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والمفتين وكل حكام الولايات ليأتوا لتدشين التمثال . . ونادى المنادى : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة عندما تسمعون صوت القرن والناي والعود والرباب والشيطر والمزمار . . أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب ، ومن لا يخر ويسجد ففي تلك الساعة يلقى في أتون النار . . »

وحفظت لنا الألواح الاشورية صورة جيجو ملك اسرائيل (سنة ٨٤٢ قبل الميلاد) وهو ساجد يقبل الأرض بين يدي شلمنصر ومن ورائه أمراء دولته

يحملون الجزية صاغرين . . ومن كان يتقاضى الملوك أن يسجدوا له عند تقديم الطاعة لا جرم يتقاضى الرعايا دون طبقة الملوك أن يسجدوا له ويعبدوه ، وبخاصة حين يؤسس دولة جديدة قامت على أنقاض دولة ذاهبة ، ولا بد له من توطيد هيبته وقمع المخالفين له ، وأولهم الذين ينكرون دينه كما ينكرون دنياه .

والحوادث التي أحصاها لنا الرواة من سيرة ابراهيم خليقة أن تحدث في مثل تلك الفترة ، سواء منها ما حدث في العراق أو ما حدث في الطريق الى وادي النيل .

وربما صح أنه عاصر حمورابي أو كان في عصر قريب من عصره ، ولكن الأحوال لم تتغير قبل عصر حمورابي وبعد ولايته بسنوات ، فهي أحوال الدول المتبدلة والسيطرة المتقلبة ، ومن علاماتها الكبرى أنها تدعو حمورابي الى نقش أحكام شريعته واقامة الانصاب التي تذكر الناس بتلك الأحكام ، ولا يكون ذلك الا آية من الآيات ، على أن الشريعة قد نسيت وهانت.واحتاجت الى تذكير .

ان كانت شريعة جديدة فموعدها القمين بها زمان كذلك الزمان .

وقد كان ابراهيم زعيم قبيلة بادية ، وكان تهافت العروش ، وتبدل العبادات والكهانات من حوله خليقا أن يريبه في أمرها وأ يحبب إليه النجاة من طوارقها وطوارئها ، وكانت القبائل القوية حول العواصم تتنازع السلطان فهي في شاغل بالسيطرة عن العبادة . أما العشيرة الصغيرة فهي مغلوبة على مرافقها وعلى ضمائرها ، ولا عصمة لها الا أن تعتصم باله قدير أقوى من الغالبين ومن المغلوبين : اله لا تحصره هياكل العاصمة وتماثيلها ولا يتغير من بادية الى بادية فوق بطاح الصحراء وتحت قبة السماء . .

ان وجود ابراهيم في عصر كذلك العصر حقيقة لا غرابة فيها ولا محل فيها لاختراع المخترعين . .

النشأة

من الحقائق ما يبده السامع ، لأنه على قربه لم يلتفت اليه .

كان جندي أوربي يقدح في الشرق وأبنائه وكل ما فيه في أثناء الحرب العالمية الأولى ، ويقول انه مباءة السوء فلا يخرج منه شيء حسن ولا يأتي منه خير . .

وقال له محدثه : انك تدين بدين جاء من الشرق !

فوجم الرجل وأخذته الدهشة لأنه لم يتنبه الى هذه الحقيقة لحظة واحدة طول حياته ، وهو يدين بدين السيد المسيح ، ويستمع الى الانجيل كلما ذهب الى الكنيسة . .

ومثل هذه الحقيقة ما ذكرناه آنفا عن نسبة ابراهيم العربية ، فانها أصح نسبة ينسب اليها ، ولكنها تبدو لمن يسمعها كأنها غريبة يقال لمن يزعمها : من أين جئت بهذه الأحدوثة التي لم نسمعها قبل الآن ؟

فلا يقال عن ابراهيم انه اسرائيلي ، لأن يعقوب هو أول من تسمى باسرائيل ، ويعقوب حفيد ابراهيم .

ولا يقال عن ابراهيم انه يهودي ، لأن اليهودي ينسب الى يهودا رابع أبناء يعقوب ، ولم يكن ينسب اليه الا بعد أن أصبح اسمه علما على الاقليم الذي قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب .

ولا يقال عنه انه عبري اذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف ، فان ابراهيم كان يتكلم

بلغة يفهمها جميع السكان في بقاع النهرين وكنعان ، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام .

وقد يقال عنه انه سامي ينتمي الى سام بن نوح ، ولكنها نسبة الى جد وليست نسبة الى قوم وقد تكلم باللغة السامية أناس كالأحباش ليسوا من السريان ، ولا من الأراميين ولا الحميريين .

فاذا فتشنا عن نسبة لابراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية ، كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب .

وأصح التقديرات أنه نشأ في أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن الى جنوب العراق وكانت هذه الأسرة مع الذين جاؤ وامن « أرض البحر » كما كان البابليون يسمون العرب المقيمين على مقربة من خليج فارس ، وقد وردت أسماء العرب التي لاشك فيها بين الأسر المالكة في جنوب بابل ، خلال عهد طويل يحيط بعصر ابراهيم على أقدم تقديراته ، فلم يمض على أسرته بمدينة (أور) زمن يفصله من عشيرته البادية ، وينسيها معيشة البداوة التي تستجيب للهجرة من أقصى الجنوب في العراق الى أقصى الشمال . ومن جملة أخباره يتبين أنه عليه السلام قد نشأ على مفترق طريق بين جميع العهود . .

مفترق طريق بين عهد الكهانة وعهد النبوة . ومفترق طريق بين اباحة القرابين البشرية وتحريمها . ومفترق طريق بين التعديد والتوحيد . ومفترق طريق بين الايمان بالهاوية والايمان بالحياة الأخرى .

ومفترق طريق في عبادة الأسرة الواحدة ، فلا تلبث الأسرة الواحدة أن تختلف بين طريقين : أب وابنه وأخ وأخوه .

وتاريخ بابل يومىء الى عصر قريب من القرن التاسع عشر قبل الميلاد يصح أن تفترق فيه جميع هذه الطرق . .

ففي حوالي هذه الفترة ضاعت هيبة الهياكل . وسقطت مكانة كهانها وندرت القرابين في محاريب الدولة وتحولت الى مدافن الأسرة حيث تسكن الأسرة مع موتاها في دار واحدة .

وحوالي هذه الفترة تعاقبت الدول وتناقضت أوامر العبادة وتصارع الأرباب فاستحقوا سخرية العباد أجمعين . .

وانتهى قبل ذلك عهد الملوك الذين كانوا يسومون وزراءهم وحواشيهم أن يدفنوا أنفسهم معهم وهم بقيد الحياة ، وبطل ايمان العلية بالحياة بعد الموت في جوار هؤلاء الملوك ، فتفتحت الأذهان لسماع شيء جديد عن اليوم الآخر ومعنى الخلود بعد الفناء .

ولعل الصابئة كانوا في ذلك العصر يدينون بالبقايا المصفاة من هذه العبادات ، ولعلهم خلطوا من أجل ذلك بين انكار الكهانة وانكار النبوة ، فاذا جاءهم ابراهيم بأول دعوة نبوية لم يميزوا بينه وبين الكهانة التي أنكروها على كهان الهياكل المتداعية والمحاريب الدائرة ، ولعل ابراهيم قدْ يئس منهم فاتجه الى قبلتهم العليا شمالا حيث كانوا يتجهون الى نجم القطب أثبت النجوم ، عسى أن يستمع اليه أصحاب القبلة ، وأن يكونوا على استعداد للتفرقة بين الكهانة والنبوة ، فلا يشق عليهم أن يفهموا وحي الله الى النبي كما شق عليهم أن يفهموا أن الكهان يتلقون الوحي من الله . وليس بالعسير علينا في العصر الحاضر أن نصور لأنفسنا معيشة أبناء العشائر بين الحاضرة والبادية .

فرؤساء العشيرة يقيمون بالمدن وتستبقيهم الدولة فيها ولا تضن عليهم بالرئاسة التي تعينهم على حكم العشيرة في بداوتها ، وأبناء العشيرة يروحون ويغدون بين الصحراء والحاضرة ليعرضوا على أولئك الرؤساء مطالبهم عند ذوي السلطان ، ويعقدوا صفقات القوافل أو يبتاعوا حاجتهم في حلهم وترحالهم ، فلا تنقطع الصلة بينهم وبين رؤسائهم ، ولا تنقطع خصوماتهم التي تلجئهم اليهم ، وما انقطعت خصومات أهل البادية قط بين أنفسهم أو بينهم وبين العشائر من حولهم ، فهم أبدا على مطلب من الحكام وشفاعة عند الرؤساء .

وأقلق ما تكون حياة العشيرة البادية حين تطغى عليها عشيرة أقوى منها ويبلغ من قوتها أن تسيطر على الدولة في عواصمها ، وهكذا كانت حياة العشيرة التي تولاها ابراهيم وأبوه أيام طغت على مدينة « أور » أفواج من العيلاميين وأفواج من العموريين ، ولم ينفتح أمامها سبيل للهجرة غير سبيل الشمال . .

ومن اليسير أن نتخيل هنا حنكة الأب وثورة الفتى بين تداول الدول وتساقط الحكومات ، فالأب يتابع سادات الوقت ويجري معهم فيما يجرون فيه ، والابن يأبى الا ما اعتقد وينفر من المراء والرياء ، ويحفزه الى الشمال أمل في صلاح العقيدة وأمل في صلاح الحكومة ، ثم ينقاد الأب بعد طول اللجاج لأن الحنكة

لا تغني عنه شيئا مع فساد الأحوال وتفاقم الخطر من الاقوياء عن اليمين وعن اليسار .

واذا صح أن أبا ابراهيم كان أمينا لبيت الأصنام وكان يصنع الأصنام على يديه فليست الحنكة وحدها هي التي تدعوه الى المحافظة على تقاليد العبادة القائمة ، بل له مع الحنكة داع آخر من المصلحة والمنزلة الاجتماعية ، ويغلب اذن أن يكون ابراهيم قد تربى للامامة الدينية وتعلم العلوم التي كانت شائعة بين طبقة الرؤساء الدينيين ، ومنها علم الفلك والطب والتعاويذ ورقى الأسماء .

واسم ابراهيم من الأسماء التي تنبىء عن نشأة دينية ، لأنه ـ على أرجح معانيه ـ يفيد معنى حبيب الله . وقد كان قدماء السريان يطلقون اسم رأس الأسرة مجازا على الاله المعبود فيسمونه الأب تارة والعم تارة أخرى ، وربما كان العم أغلب على هذا المعنى لأن الرجل ينادي كل شيخ مبجل (بياعم ويا عماه) . . . ومن هنا اسم عمرام وابرام ، ركب كلاهما من العم والأب ومن كلمة رام التي تعني المحبة ، ولعل التغيير الذي طرأ على اسم ابرام انما استحدث لكي يفيد معنى حبيب الله بدلا من حبيب الاله الذي كان يعبده أبوه في معابد الوثنية .

على أن التعليم لم يكن مقصورا على أبناء الكهان ، فان المثقفين الأثريين كشفوا عن أبنية ضخام كانت معدة للمكتبات والمدارس العالية ، ولم يكن من النادر أن يتعلم أبناء العلية دروس الفلك والرياضة والتشريع التي ترشحهم لمناصب الدولة . واهتداء ابراهيم الى حقائق الاجرام العلوية من طريق الفلك أمر معقول في زمانه على الخصوص ، فانه زمان تبددت فيه هالات الربوبية من حول الملوك وهبطت فيه منزلة الكهانات العليا وتصارعت فيه العقائد بين غالبة ومغلوبة وبين متأصلة في العواصم ومقتحمة عليها ، ونظر فيه المثقفون الى الكواكب نظرة جديدة فجعلوها صورا للأرواح النورانية ونزلوا بها من علياء الربوبية الى مرتبة الخلائق المسخرة من الملأ الأعلى ، فان لم يكن مذهب الصابئة قد تم واستقر في ذلك العهد فقد كانت له بداءة تحوم على هذه المعاني وتستشرف لما وراءها ، ولولا ذلك لما بقيت السريانية القديمة لغة مقدسة في كتب هذه النحلة ، اذ كانت السريانية القديمة أعرق من السريانية المتشعبة منها ولا يمكن أن تنعزل الطائفة الصابئية بتلك اللغة الأولى ما لم تكن بداءتها ممعنة في القدم الى ما قبل تدوين اللهجة السريانية الحديثة .

ومن البديهي أن العقائد التي تدعمها الدولة لا تنهدم بضربة واحدة ولا تولي أدبارها لكل منكر يجترىء عليها ، فقد لقي ابراهيم عنتا شديدا من تلك العقائد المتداعية ، وأشد ما تكون العقيدة دفاعا عن نفسها حين يشتد الخطر عليها وتحس في قرارة حصنها ان الضربة تصميها وتزلزل أركانها . .

وينبغي للناقد العصري أن يلمح شيئا يستوقفه في قصة ابراهيم ووعيد الدولة له بالاحراق ان لم ينته عن تسفيه أربابها .

فمن المسلم أن الاحراق عقوبة مقررة في شريعة بأبل ، وأن النار لم تكن مجهولة في بلد من بلاد الأنبياء الآخرين ، ولكنهم لم يتعرضوا للاحراق في غير أرض بابل ، ولم يرد خبر قط عن نبي غير ابراهيم توعده قومه باحراقه ، ومنهم من نشأ في بلاد تحرق القرابين الحية في المحاريب . فليست أخبار الأنبياء اذن مما يرسل جزافا أو مما تنقطع فيه المناسبة بين النبي والبلد الذي يبعث اليه .

وسيأتي الكلام عن معجزات ابراهيم في موضعه ، ولكن موضع الالتفات هنا لمن يصطنع الدراسة العلمية أن يلاحظ شواهد هذا الانفراد بعقوبة الاحراق في قصة ابراهيم دون قصص الأنبياء .

والعبرة من هذه الملاحظة وأمثالها أن الناقد العلمي مسؤول أن يتقصى من الأخبار الأولى مقدار ما فيها من الثبوت ، وليست مهمته كلها أن يأباها جميعا لأنه وجد فيها شيئا يأباه .

الجنوب

انفردت المصادر الاسلامية بأخبار ابراهيم في الحجاز ، وعلق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستنكار ، كأن المصادر الاسلامية قد نسبت الى ابراهيم خارقة من خوارق الفلك وأسندت اليه واقعة بينة البطلان بذاتها وغير قابلة للوقوع . . . ووضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لاثبات دين وانكار دين ، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون ، فضلا عن الاجتهاد في طلب الحقيقة قبل أن يوجههم اليه المخالفون والمختلفون .

أما الواقع الغريب حقا فهو طواف ابراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقوفه دون الجنوب لغير سبب ، بل مع تجدد الأسباب التي تدعوه الى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع .

ولم يكن لابراهيم وطن عند بيت المقدس ، سواء نظرنا الى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى . فالمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد عند بيت المقدس مدفنا لزوجه فاشتراه من بعض الحيثيين .

أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لأحبار ايل عليون ، وكان ابراهيم يقدم العشر أحيانا الى أولئك الأحبار .

ومن كان معه أتباع يخرجون في طلب المرعى فلا بد لهم من مكان يسيمون فيه ابلهم وماشيتهم بعيدا من المزاحمة والمنازعة ، وهكذا كان ابراهيم يعمل في أكثر أيامه ما تواترت أنباؤه في سفر التكوين ، فلا يزال متجها الى الجنوب . .

هناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحي اليه أن يجرب المسير الى الجنوب ، حيث يستطيع أن يبتني لعبادة الله هيكلا غير الهياكل التي يتولاها الكهان والأحبار من سادة بيت المقدس في ذلك الحين فقد بدا له ان اقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون في كل مذبح الى الرب المعبود بجواره ، ومثل هذه الفتنة بعد عصر ابراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان في مكان واحد ، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء .

فان كان هذا الخاطر لم يخطر قط في نفس ابراهيم فذلك هو العجيب الذي يستوقف النظر من سيرة رسول وزعيم ، ولكن الرسالة والزعامة معا توحيانه اليه ولو مرة من المرات وهو على أهبة الرحلة والاستطلاع .

ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به الى الجنوب ثم الى الجنوب اذ لم يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب ، بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصود .

وواضح من تواتر روايات التوراة والمشنا والتلمود أن اللهج ببيت المقدس انما جاء متأخرا بعد عصر ابراهيم وعصر موسى بزمن طويل ، وأنه جاء ، مع عصر المملكة الاسرائيلية وعملت فيه السياسة عملها المعهود .

فبعد موسى بعدة قرون بقيت أورشليم في أيدي اليبوسيين ، واستولى بنو بنيامين على جيرتها ولكنهم لم يطردوا منها اليبوسيين . . . « فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم الى هذا اليوم » أي الى الأيام التي كتب فيها سفر القضاة من العهد القديم .

ثم تغلب بنو يهوذا على المدينة فدمروها وأحرقوها ولم يقيموا فيها ، وعاد اليبوسيون فجددوا بناءها وسكنوها الى أيام الملك شاؤول ، ثم استولى عليها داود فاتخذها عاصمة ، وبنى فيها سليمان هيكلها المشهور .

وبعد هذا جاء ملك من ذرية ابراهيم وهو « يهواش » ملك اسرائيل فهدم سور أورشليم . . وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك والرهناء ورجع الى السامرة . . . ثم اضطجع يهواش مع آبائه ، أي مات مرضيا عنه . .

(١) الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الثاني .

فلم يكن لأورشليم هذا الشأن في حياة ابراهيم ولا في حياة موسى ، ولم يكن لها هذا الشأن من القداسة بين جميع بني اسرائيل حتى في عهد داود . أما « الجنوب » المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القداسة الى أيام أرميا وما بعدها ، وكانت كلمة « تيمان » مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة ، وهي تقابل كلمة « يمن » في اللغة العربية بجميع معانيها ، ومنها الاشارة الى الجنوب . ففي سفر التثنية يقال على لسان موسى : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير » .

وفي سفر حيقوق : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران »

وأوضح من ذلك قول أرميا متسائلا في مراثيه : « ألا حكمة بعد في تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ؟ »

وأيسر ما يستوحيه طالب الحقيقة أن يتساءل : كيف يكون هذا الجنوب موصدا في وجه ابراهيم ؟ وكيف يطوف الأقطار جميعا ولا ينفتح له الباب الذي لا موصد عليه ؟ . . ان كان أحد الطريقين مفتوحا أمامه فليس هو طريق بيت المقدس ، بل طريق الحجاز .

وفي هذا الطريق سلك الأنبياء ، وذكرت المصادر الاسرائيلية منهم من بلغ مدين ، وذكرت منهم من لعله أقام في نجد أو لعله أقام وراءها من البلاد العربية . . ولم تذكر المصادر الاسرائيلية صالحا ولا هودا ولا ذا الكفل ولا غيرهم من الأنبياء . .

فموضع التساؤل هو السكوت عن هذه الناحية ، وليس هو الذكر الذي توحيه البداهة ، ويوحيه الواقع ، ويوحيه المعلوم من اطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية .

ونقول ان السكوت موضع تساؤل وهو في الحقيقة غني عن التساؤل ، لأنه معلوم السبب والغاية ، وحسبنا من التساؤل أن ينتهي بنا الى سبب معلوم وغاية مرسومة . .

انما العجيب من ذوي الدعوى باسم البحث العلمي أن ينتظروا الخبر ممن يقضي على دعواهم كلها اذا رووه ، ويثبت دعواهم كلها اذا نفوه .

ومن الذي يكتم مسير ابراهيم الى مكة ان لم يكتمه الذين ينقضون دعواهم كلها باثبات ذلك المسير ؟

على أن الباحث الذي يتحرى المعرفة لا يصح أن يقف عند النفي ثم يسكت على ذلك ولا يحاول الاثبات ما استطاع . .

ها هنا رواية عن نشأة الكعبة في الحجاز على عهد ابراهيم ، فمن ينكرها فعليه أن يثق أولا من أسباب انكارها ، وعليه بعد ذلك أن يعرفنا بما هو أصح في التاريخ وأولى بالقبول .

ونفرض أن ابراهيم لم يصل الى الحجاز لان المصادر الاسرائيلية لم تذكر رحلته الى الحجاز ووقفت بها عند جيرار وقادش وبلاد أدوم .

ونفرض أن هذا سبب كاف لنفي الرحلة من الوجهة العلمية ، فهذه الكعبة قائمة تحتاج الى بان يبنيها ، فمن الذي بناها ؟

ان روايات هؤلاء القوم الأميين ـ قوم مكة في الجاهلية ـ تذكر لنا أن مكة عمرت قديما بأناس من اليمن ثم أناس من النبط ، وكل معلوم عن أحوال الحجاز يعزز هذه الروايات ، فان أقام مقيم في مكة فسبيله أن يأتي الى وسط الحجاز من الطرفين ، وهما طرف اليمن في الجنوب وطرف النبط في الشمال . .

لكن أهل اليمن ـ في اليمن ـ لا يخلقون لغير بلادهم قداسة تعفي على شأنها بين الشعوب العربية ، وقد حدث منهم غير مرة أنهم نظروا الى الكعبة نظرتهم الى منافس خطر فهموا بهدمها وتحويل الحجاج الى معبد يقوم عند العرب مقامها .

أما النبط في الشمال فمكة هي طريقهم ولا مزاحمة عليها منهم ، وآثارهم الباقية في البتراء تنطق بالمشابهة بينهم وبين الحجازيين في العبادة واللغة والسلالة ، والنسّابون من الحجاز يقولون انهم نبط وانهم أخذوا الأصنام من النبط ، وجميع المصادر بعد ذلك تقول ان النبط هم ذرية نبات بن اسماعيل . .

ومن النظر العلمي أن يجتهد الباحث هذا الاجتهاد وأن يلتفت الى كل باب من هذه الأبواب ، لأن الالتفات اليها واجب عليه ، ومن التقصير أن يكون أمامه باب واحد يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية ثم يهمله ليستخرج منه غاية ما يخرجه من الثبوت أو من الفرض والاحتمال .

أما الأمر الذي لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع ، فهو القول بأن ابراهيم لم يذهب الى الحجاز لان المصادر الاسرائيلية خلو من هذا الخبر ، ثم يكتفي القائل بقوله فلا يضع أمامنا بديلا منه أولى بالأخذ به .

ان ابراهيم صاحب دعوة دينية ، وليس في المصادر الاسرائيلية ما يدل على أنه قد صنع شيئا لنشر دعوته ، وكل ما ورد عنه في هذا الكتاب أنه أقام مذبحا في كل منزل من منازل الطريق ، ثم ترك البلاد جميعا في رعاية الأحبار الذين كانوا مؤمنين بـ « ايل عليون » قبل وفوده الى كنعان ، وليس في ذلك مقنع لصاحب دعوة دينية يغادر دياره في سبيل هذه الدعوة .

فأقرب ما يرد على الخاطر أن ابراهيم قد ذهب الى حيث يصنع شيئا باقيا في سبيل دعوته ، ولا مذهب له اذن الى غير الحجاز ، وهذه هي تتمة السيرة التي لا بد منها في حياة نبي ينتمي اليه سائر الأنبياء ، والا كانت نسبة الدعوة اليه من أعجب الأمور .

وقد جاء في المأثورات جميعا أن ابراهيم شهد عصر الكوارث والرجوم في مدن فلسطين الجنوبية ، وبقيت آثار البتراء (سلع) الى اليوم وفيها أنصاب من هذه الرجوم في أماكن العبادة ، حفظوها تذكيرا لأنفسهم بقضاء الله لأنها هبطت من السماء عقابا للمذنبين .

ولم يذكر مصدر من المصادر أن ابراهيم كان يحمل معه حجرا من هذه الأحجار ، ولكنه اذا تعمد أن يقيم مذبحا باقيا على طريقته فالحجر من النيازك أحق أن يحتفظ به من سائر الحجارة . وليس من اعتساف التفسيرات أن يقال ان الحجر الأسود نقل من البتراء عند بناء الكعبة ، وقد تبين بعد ذلك أنهم نقلوا كثيرا من طريق البتراء بعد اتخاذ الكعبة بيتا للاصنام قبل الاسلام ببضعة أجيال ، وليس من المسائل العرضية أن تتشابه الحجارة في قوام تركيبها ، وهي تختلف في بنيتها المعدنية والصخرية كما هو معلوم .

وربما سميت مكة وبكة باسم البيت الذي بني فيها ، لأن الباك والبكة كانا يطلقان على البيت في اللغة السامية الأولى ، ومنها بعلبك بمعنى بيت البعل . وربما كانت من مادة القربان في السبئية والحبشية لأنهم كانوا يطلقون المقربة على المحراب المقدس ، وبطليموس الجغرافي قد ذكرها باسم مكربة Macaraba نقلا عن أهل اليمن ، ولكن التصحيف هنا بعيد ، ولا تسمى البلدة باسم القربان فيها الا اذا أصبحت محجة لقصادها من المؤمنين بكعبتها ، وقد مضى على السبئيين زمن وهم يعيشون في شمال الجزيرة ، فلم يذكروها بهذا الاسم في أثر من الآثار .

وفي مقاييس الكعبة شاهد لا يجوز اهماله عند البحث في أصل بنائها ، فانها

قد بنيت مرات كما هو معلوم ، وكان البناة في كل مرة يحافظون على معالمها القديمة حيث أمكنت المحافظة عليها ، وقد تعذر عليهم أن يحافظوا على أبعاد جوانبها لدخول الحجر (بكسر الحاء) فيها تارة وخروجه منها تارة أخرى ، ولكنهم حافظوا على ارتفاعها كما جاء في أكثر الروايات ، وارتفاعها الآن سبع وعشرون ذراعا أو خمسة عشر مترا[1] ولن تكون الخمسة عشر مترا سبعا وعشرين ذراعا الا اذا كان الذراع بالمقياس المقدس عند قوم ابراهيم ، لأنه كما حققه الاستاذ جريفس Greaves الخبير المتخصص في المقاييس الأثرية يزيد على واحد وعشرين قيراطا (بوصة) وثلاثة أرباع القيراط ، ويقاس بالتقريب عند مضاهاة الأبنية القديمة التي قدِّرت بالذراع . .

هذه القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه عن الغرض ، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة ابراهيم الى الحجاز ، وأنها هي وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية .

وقد جاء الاسلام مثبتا رحلة ابراهيم الى الحجاز ، وأثبتها ولا شك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول ، لأن انتساب أناس من العرب الى ابراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت اسرائيل انتساب العرب الى ابراهيم ، وأنكر العرب أنهم أبناء ابراهيم من جارية مطرودة ، وليس هذا غاية ما يدعيه المتسب عند الاختراع .

---

(١) الرحلة الحجازية تأليف لبيب البتانوني .

الرسالة

ان تاريخ الأديان لا يرسم لنا خطا واحدا يفصل بين عهدين كلاهما مخالف للآخر كل المخالفة .

فما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة ، وما من عهدين من عهود الأديان الا وبينهما تمهيد وتعقيب ، ولكن الأمانة التي اضطلع بها الخليل ابراهيم حادث جديد لم تعرف له سابقة فيما وعيناه من تاريخ الدين . .

وذلك الحادث الجديد هو أمانة الرسالة النبوية : أمانة نفس حية تخاطب نفوسا حية باسم الإله الذي يتوجه اليه عباده في كل مكان .

أمانة نفس تخاطب النفوس ، ولا تخاطبهم من وراء المحاريب والهياكل ، ولا بسلطان من نظام الدولة أو نظام الكهانة ، ولكنها نداء ضمير الى ضمير . .

وهذه هي الدعوة التي قلنا انها تستلزم وجود « هداية شخصية » أو البقاع العربية وبقاع الهلال الخصيب .

وهذه هي الدعوة التي قلنا أنها تستلزم وجود « هداية شخصية » أو تستلزم وجود ابراهيم متصلا بمن بعده ، لأنها سلالة من دعوات لا يتصورها العقل على غير مثالها الفريد في تواريخ الأديان .

ولولا أن الشكوكيين باسم البحث والنقد يعملون عمل الآلات في شكهم ، وفي بحثهم ونقدهم لفهموا أن الشخصية الخرافية جائزة في نظام الكهانات أونظام هياكل الدولة ، لأنها نظم قائمة على « موظفين » دينيين ، يحل أحدهم

محل الآخر بلا اختلاف ، ولكن الدعوة النبوية على المثال الذي بدأ به الخليل ابراهيم هي عمل لا غنى فيه عن الشخصية الحقيقية ولا عن التتابع الذي ينعقد بين الشخصيات من سلالة واحدة ، وما من حلقة في هذه السلسلة الحية الا وهي تتطلب الحلقة التي قبلها والتي بعدها على السواء . .

كانت دعوة ابراهيم هي الفتح الجديد في تاريخ العقيدة .

فلم يبدأ ابراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك في عهود الكهانات والهياكل .

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره ، فانقلبوا الى عبادة الأصنام وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ، ولكن البداءة قد بدئت وسارت في طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيما بعد ذاك .

***

كان توحيد ابراهيم ايمانا باله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعا ، لأنه أعلى من كل عال في الأرضين أو في السماوات . ولكنه قريب من كل انسان .

ولم يكن « يهوا » اله ابراهيم ، لأن قوم ابراهيم لم يذكروا يهوا من بعده قبل خروجهم الى سيناء ، كما صرحت بذلك كتب التوراة الأولى .

ولكنه كان هو الاله « الايل » واليه ينسب ابنه اسماعيل .

وكان هو العلي « عليون » وعلى محرابه قدَّم قربانه الى ملكي صادق بعد نزوله بكنعان .

فهو اله لا فرق عنده بين وطن قديم أو وطن جديد ، ولا فضل لديه لعشيرة ابراهيم على عشيرة ملكي صادق ، ولا على غيرها من عشائر بني آدم ، بغير التقوى والايمان .

ان هذا التوحيد قد رفع مكانة الانسان في ميزان الخليقة ، فليس في الكون الا خالق ومخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة : وهي فضيلة الضمير الذي يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسيلته الى الله . .

جاء ابراهيم في مفترق الطريق بين استباحة القرابين البشرية وبين تحريمها . . ولكنها لم تحرم لأنها أغلى من أن تقدم . .

وانما حرمت لأن الله أرحم وأكرم . .

ورأى ابراهيم في رؤياه أنه يؤمر بذبح ابنه ، أعز ما في الحياة عنده .

رأى ذلك وهو يعلم أن الأرباب تتقاضى عبادها مثل هذه الضحية ؛ وأن تقريب الأوائل من الأولاد والاوائل من كل نتاج حق مفروض على كل أسرة لرب الأوثان والأصنام . . أيكون ابراهيم أبخل على ربه من عابد الوثن ؟ . . أيكون الوثن أحق بالضحية من خالق الأرض والسماء ؟

أيرتاب ابراهيم في أمر الله وهو ينظر الى شريعة العبادة من حوله ، وان كانت شريعة شر وضلال !

ان العصيان هنا نزول بالاله الأعلى عن مرتبة الأوثان والأصنام .

فلتكن الطاعة تنزيها للاله الأعلى عن ذلك الاسفاف ، ويفعل الاله بالآباء والبنين ما يريد .

قال حكيم من حكماء الغرب[1] ان الدين هو الأمر الوحيد الذي يحق له أن يأمر الانسان بما يناقض الاخلاق ، لأنه يرفعه أوجا بعد أوج في معراج الخلق الشريف . . ان ذبح الأب وليده نقيض الرحمة .

ولكن ايمان الانسان بعقيدة أعز عليه من ولده ومن نفسه غنيمة أقوم وأعظم من رحمة الآباء للأبناء .

فلا ينبغي أن يضن الانسان بشيء في سبيل هذه العقيدة .

ولا ينبغي أن يبطل القربان بالانسان لأن الله لا يستحقه كما استحقته أوثان الجهالة ، بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله ، فهو أعظم وأكرم من الأوثان .

وارتفاع الانسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف الى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه . .

ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف ، وسمو بالرحمة وبالعبادة الى أعلى عليين .

قلنا عن أيوب عليه السلام ان حياته كانت تربية دينية من تجاربها الأولى الى

---

(١) كيركجارد الدنمركي Kierkegard (١٨١٣ - ١٨٥٥)

ختامها ، فعلم في ختامها ما لم يكن يعلمه في أولها ، ولم يذكر البعث حين كان يتمنى الهبوط الى الهاوية التي لا يصعد منها من هبط اليها ، ولكنه ذكره بعد اختبار طويل وبلاء شديد ، فقال : « بعد أن يفنى جلدي هذا ، وبدون جسدي أرى الله . . »

ويصدق هذا القول على حياة ابراهيم في عقائده جميعا ، لأنه اختبر حياة الشرك واختبر شعائره وفرائضه ، وخلصت له الهداية بالخبرة والهداية الالهية . .

وأصدق ما يكون ذلك على البعث خاصة ، فانه لمن مواضع التأمل أن يكون ابراهيم هو النبي الوحيد الذي ذكر القرآن الكريم أنه سأل ربه كيف يحيي الموتى : « واذ قال ابراهيم رب ربي كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . . »

ولم يرو القرآن الكريم خبرا كهذا عن نبي غير ابراهيم ، فانه اذن لمن مواضع التأمل التي ينبغي أن يلتفت اليها من يصطنعون الاستقصاء ، باسم العلم والتاريخ . .

فالحق أن عقيدة البعث ظلت خفية في كتب التوراة ، وأن خفاءها هذا دليل على أنها بقيت زمنا بعد ابراهيم مجهولة غير مفهومة .

واذا اعتمدنا البحث التاريخي وحده لم يجز في العقل أن يكون ابراهيم قد ذهب الى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعدالموت .

فمن ذرية ابراهيم يوسف وقد كان له صهر في كهان المحاريب المصرية ، ومنهم موسى وله علم بمدارس مصر وأسرارها ، وغير معقول أن يكون ابراهيم قد خرج من أرض الكلدان الى مصر ولم يخطر له أن يسائل حكماءها في أمر العقيدة ، وقد كانت في الوجه البحري حيث تنزل القبائل الوافدة - محاريب كثيرة يتقرب منها ملوك الرعاة ويشتركون في شعائرها مع رؤساء الدين . .

فلا يجوز في العقل أن يكون ابراهيم قد ذهب الى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعدالموت ، وأصوب من هذا أن نفهم أن كتب العهد القديم دونت بعد السبي أو نفي اليهود الى بابل ، فطال العهد بينها وبين دعوة ابراهيم ، وطالت عصور النكسة بعد اختلاط العبادات الالهية والوثنية ، ومنها عبادات بعل وعشتروت .

وساعد على خفاء العقيدة بالحياة بعد الموت أنها لم تورث عن ابراهيم مفصلة

منتظرة عن سابقة متتابعة ، فجاز أن يكتب المدونون في سفر الجامعة : « ان ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة . . كلاهما من التراب والى التراب يعود . من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد الى فوق ، وروح البهيمة هل هي تنزل الى أسفل . الى الأرض . . ولا شيء خير من أن يفرح الانسان بأعماله . لأن ذلك نصيبه . . »

وانقضت قرون قبل أن يسمع من دانيال « ان الراقدين في تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء للحياة الأبدية وهؤلاء الى العار . . »

وجاء عصرُ السيد المسيح ولما ينحسم الخلاف بين طوائف بني اسرائيل التي تقول بالحياة الأخرى وطوائفهم التي تنكرها وتتحدى المؤمنين بها أن يؤيدوها بسند من كتب التوراة . . وضرب السيد المسيح المثل بالعازر والرجل الغني ، وفيه اشارة الى النعيم والعذاب بعد الموت ، فكان عقيدة من عقائد الأناجيل لم تتقرر على هذا الوجه في كتب التوراة .

وقد مضى زهاء عشرين قرنا بين عصر ابراهيم وعصر المسيح ومضى زهاء أربعين قرنا بينه وبين هذا الزمن الذي غلب فيه أتباعه على أقطار الدنيا . . ولكن أمرا ابتدىء قبل تلك القرون لم يكن لينتهي الى هذه النهاية لو لم يبدأ ذلك الابتداء .

ولم يكن ذلك الأمر عقيدة التوحيد أو عقيدة الفداء أو عقيدة الثواب والعقاب ، فقبل ذلك ما سمع الناس بتلك العقائد على نحو من الأنحاء . .

وانما سمّي أبا الأنبياء لأنه كان رائد الدعوة النبوية في العالم الانساني بأسره ، وكأنها الرسالة الخاصة من خالق الكون الى كل مخلوق من بني آدم وحواء . .

المعجزة

قلنا في صدر هذه الرسالة ان الاهتداء الى عقيدة التوحيد كان فتحا علميا صحح نظر الانسان الى الكون والحياة ولم يكن قصاراه أنه فتح ديني يصحح ايمانه واعتقاده . . « لأن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بارادة ويتسلط عليها غيره بارادة تنقضها وتمضي بها الى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادة الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى . . . »

ونقول في ختام الرسالة ان الايمان بامكان المعجزة فتح كفتح عقيدة التوحيد ، لأنه يخلص العقل من حجر الحالة الواحدة التي تغلق عليه أبواب الاحتمال غير باب واحد ، هو الواقع المحدود كما يراه .

ان عقل الفيلسوف « ديكارت » قد نظر في الممكنات والمستحيلات فتقرر عنده أن تغيير الحقائق الرياضية نفسها ممكن غير مستحيل ، وأن تغيير العقل الذي ندرك به تلك الحقائق ممكن كذلك غير مستحيل .

وعلماء العصر قد تخلصوا من ربقة القوانين التي سميت زمنا بقوانين الطبيعة ، ووقر في أذهان أجيالها أنها تقيد الظواهر الطبيعية ، فلا يستطيع العقل أن يفسرها بغيرها . .

فالقانون الطبيعي اليوم فرض من فروض ، وقد تصلح الجاذبية زمنا لتفسير

حركات الافلاك ، ثم تأتي النسبية فيثبت لبعض العلماء أنها أصلح لتفسيرها من الجاذبية . ومهما يبلغ من دقة القانون الطبيعي فهو لا يحصر كل حقيقة ولا بد من جزء غير محصور موكول الى التقدير والترجيح .

والايمان بامكان المعجزة نظر متصرف يصل اليه المؤمن بعقيدته ولم يبلغ مبلغ ديكارت في عمق الفلسفة أو مبلغ العلماء في تمحيص القوانين الطبيعية . . فاذا سأل سائل : هل يمكن أن تجري المادة على غير هذه الصورة ؟ فالذي يقول بالامكان أصدق نظرا ممن يجيب بالاستحالة والامتناع ، وأصوب في وزن الكون جملة واحدة ممن يفرضون عليه صورة محدودة من أقدم آباده الى غاية آزاله ، ان كانت للآزال غاية . .

فالمعجزة ممكنة وليست بمستحيلة .

لأن مواد الكون كله ترجع الى أصل واحد ، وليست خصائص هذه المواد مجعولة فيها بارادتها وليست كل خاصة منها مستقلة عن سائرها ، فاذا جاز أن يتشكل الأصل الواحد بجميع هذه الأشكال فاختلافها جائز في أحوال غير هذه الأحوال ، ولا وجه على الاطلاق للجزم باستحالة هذا الاختلاف . . ان الذي أودع في الأصل الواحد كل هذه الصور قادر على أن يودعه صورا أخرى . . وعلى الذي يجزم بالاستحالة أن يقيم الدليل . أما القائل بالامكان فالواقع هو دليله الذي يقيس عليه .

فليس المقياس الحق للمعجزة أن تسأل : هل هي ممكنة أو غير ممكنة ؟ كلا بل المقياس الحق أن تسأل عن حكمتها ولزومها . فان الذي يدبر الكون كله يتنزه عن العبث ، فلا يصنع شيئا لغير حكمة ، ولا تفوت هذه الحكمة ادراك الناس ما داموا هم المقصودين بادراكها .

ذلك هو مقياسنا للمعجزات ، وذلك هو المقياس الذي اعتمدناه في كتابتنا عن الرسل والدعوات الدينية ، وخلاصته التي نعيدها في هذه السيرة أن دعوة ابراهيم تفسرها حوادث عصره وتاريخ قومه من قبله ومن بعده ، وارادة الله في هذه الحوادث هي ارادة الله في كل معجزة ، فليس في القول بهذه أو بتلك اخلال بقدرة الله على جميع الحالات .

ونحن لا نستحسن أسلوب المفسرين الذين يفترضون الفروض لتيسير قبول المعجزة ، فان المعجزة متى وقعت لا بد أن تكون معجزة ، ولا بد أن يكون الناس في النظر اليها بصراء بحقيقتها غير مخدوعين فيها .

فالايمان الصحيح أن المعجزة ممكنة ، والايمان الصحيح أنها ممكنة لحكمة . .

ومن الحق أن نبرز حكمة الله في الحوادث كما نبرزها في المعجزات ، وهذا الذي نصنعه فى دراسة الدعوات الدينية ومنها دعوة الخليل .

خاتمة المطاف

وينتهي المطاف بقصة الخليل الى العصر الحاضر .

ينتهي الى العالم الحديث وفيه ألف مليون انسان ، يقرأون قصتهم وقصة آبائهم وأجدادهم في العقيدة الالهية حين يقرأو ن قصة الخليل . ومن مبدئها كان مبدؤهم في الايمان بالوحدانية .

ومن مبدئها وهي تمتزج بكل ما استطاع آباؤهم وأجداههم أن يمزجوها به من صوابهم وخطئهم ، ومن علمهم وجهلهم ، ومن صدقهم ووهمهم ، ومن أفكارهم وأساطيرهم ، ومن كل ما يفقهون وما لا يفقهون .

تراث ضخم غاية في الضخامة .

فكيف انتهى به المطاف بعد أربعة آلاف سنة أو دون ذلك أو فوق ذلك بقليل ؟ . .

* * *

كيف توزن كفتّاه . كفّة الصواب والعلم والصدق والانكار ، وكفّة الخطأ والجهل والوهم والأساطير . . ؟

انها النفس البشرية بما لها من قوام صالح وغير صالح .

وانها لن تنفصل شطرين يوضع أحدهما في كفة ويوضع الآخر في كفة تقابلها . .

بل خذها جملة أو انبذها جملة ، ووازن بين الغنم والخسارة في الحالتين . .

ومن يفطن لما حوله يفطن لهذا الشأن في كل عقيدة عظيمة وكل فكرة عظيمة وكل فاتحة عظيمة تتلوها الخواتيم على قدرها من العظمة .

فالنوع البشري لم يشرب قط فكرة عظيمة مع جرعة ماء ، ولم يستكمل عقيدة عظيمة بين ليلة وصباح .

وندع الغيب وعلوم الأبد وننظر الى الدنيا المشهودة ومادتها التي تتناولها الأيدي كل يوم .

فمن أقدم القدم نظر الانسان في بنية المادة ، ثم انقضى عشرون ألف سنة يصيب فيها ويخطىء ، ولما يدرك خصائص الذرة جميعا ، ولما يفقه من خصائصها التي عرفها سرا لها وراء القشور .

وندع الزمن وتياراته الخفية ، وننظر الى المكان وتياراته التي تقاس وتكال . .

يهبط ماء النيل ماء طهورا من السماء ، ويخترق الثرى فيأخذ من كل ما فيه من تراب وأذى ومن صفاء وكدر ، ويستفاد من الخليط كما يستفاد من الصفاء . .

وهكذا كل ما يعبر طبيعة الانسان وطبيعة الأرض ، وطبيعة الدنيا وما فيها من أتربة الزمان وأتربة المكان . .

***

تقبلها جملة أو ترفضها جملة ، وتوازن بين الغنم والخسارة في الحالتين .

وازعم ان شئت أنه غنم أنت مخدوع فيه ، ولكن تزعم أيضا أنك مخدوع في حب حياتك فليست هي أفضل حياة . مخدوع في حب نسلك فليس هو أولى بالبقاء من جميع الاحياء . . مخدوع في هذه الألوان والأصوات فليست هي ألوانا ولا أصواتا ولكنها هزات في الفضاء أو هزات في الهواء ، وأنت مع هذا لا تعرف شيئا ما لم تعرفها بهذه الأسماء . .

ولقد مرت بنا في أبواب هذه الرسالة أخلاط من طبائع الملايين يمزجون بها عقائد الروح وأقداس الضمير ، ولا ينفصل المزيج من المزيج في روح ولا في ضمير . .

من يقبلها جملة يبقى له تاريخ الانسان كما كان وكما هو الآن .

ومن يرفضها جملة ماذا يبقى لديه ؟

ان عليه أن يذكر ماذا يرفض ليذكر ماذا يبقى .

انه لا يرفض الدنيا بتواريخ الدول والحضارات وكفى .

انه ليرفض هذه ويرفض معها كل بارقة أمل ، وكل نفحة عزاء ، وكل هاجسة سر ، وكل ركن من أركان الثقة والعزيمة أخذه الانسان من الدين وأخذ منه أعمالا وأحلاما وخلائق وأطوارا وبواعث وأفكارا لا تحصيها الأوراق كما تحصى تواريخ الدول والحضارات .

ولا يزال في جوانب الأرض من يعبد الحجر . .

ولا يزال في جوانب الأرض من يقدح النار من الحجر .

ولا غضاضة من هذا وذاك على ودائع الكهرباء في الكون ، ولا على عقيدة التوحيد في أعلى مراتب التنزيه .

وان في العالم اليوم لمن يعيش فيه وكأنه لم يولد فيه انسان يسمى ابراهيم .

* * *

وربما بقي في العالم شبيه هذا الرجل بعد ألف سنة .

بل ربما كان هذا الرجل خيرا من ألوف يضلون بالنبوءات والأنبياء حيث يهتدي المهتدون .

ولكنهم يسقطون من الحساب .

ويذكر في الحساب ألوف الملايين في مائة جيل ، يقرأون قصة ضمائرهم حين يقرأون قصة انسان واحد مضى ولم يمض لسبيله ، بل مضى على سبيله دعاة وهداة ، ولا يزالون ماضين وحاضرين .

أليس هذا الانسان حبيب الانسان ؟

أليس هذا الانسان حبيب الرحمن ؟

عباس محمود
العقاد

حياة المسيح

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

من رغباتي التي كنت أرددها في نفسي كلما راجعت أسماء الكتب التي أترقب الفراغ لتأليفها ـ أن أدرس تاريخ الدعوة الدينية كما تجلت في رسالات أكبر دعاتها في العالم الانساني : ابراهيم الخليل وأبنائه الكليم ، والمسيح ، ومحمد عليهم السلام .

هذه الظاهرة الالهية ـ دعوة النبوة ـ ظاهرة فريدة في العالم الانساني لم تظهر بين الأمم في غير السلالة السامية ، ولا بد لها من سبب تكشف عنه دراسة النبوات في هذه الأمم .

وسببها من جانبها التاريخي فيما ظهر لنا من المقارنة الطويلة بين الديانات ، أن النبوات الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل ، لأنها بيئة وسطى بين الحضارة والبداوة ، وكذلك كانت أور ، وبعلبك ، وبيت المقدس ، ومكة ، ويثرب ، ومدين ، ومحلات الطريق في جنوب فلسطين وشمال الحجاز ، وهي بيئات لا الى حضارة المدن التي تعول في تشريع الحقوق على نظام الدولة ، ولا الى بداوة الصحراء التي تعول في تشريع الحقوق على سنة الثأر والغلبة . ولكنها ـ مدن القوافل ـ وسط بين الجانبين ، مع حاجتها الى تقرير الحقوق في كل لحظة ، لدوام المعاملات واشتباكها ، ولكثرة الطارقين ذهابا وايابا ، ممن يجدون المال ، ويبحثون عن المتعة العارضة ، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه في سوق الأخذ والعطاء ، وحلبة الخداع والادعاء .

ولهذا تترقب مدن القوافل مصدرا للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية ، وغير مصدر النقمة والتغلب بين الغاصب والمغصوب والعادي والمعتدى عليه ، وذلك هو مصدر الهداية النبوية في بيئة وسطى ، تهيأت لها حماسة النفوس في البادية ، وشعور النفوس بقيمة العهد ورباط الأمانة في كل علاقة واسعة ، كالعلاقة التي ترتبط بالقوافل المترددة على مسافات بعيدة .

ومما وفِّقْت اليه ، مغتبطا بهذا التوفيق ، انني اهتديت الى حكمة هذه الظاهرة في سيرة الخليل ابراهيم ، وسيرة محمد والمسيح عليهم السلام ، وكل هذه السير ظهر في حينه فظهر من استقبال العالم له ، أنه لم يكن رغبة من رغباتي القوية وحسب ، بَل كان على التعميم رغبة قوية لقراء العربية في مختلف الآراء والنحل ، لا نحسبها برزت في استقبال كتاب حديث ، كما برزت في استقبال هذه الكتب الثلاثة ، مما ألفناه خلال السنوات الأخيرة .

وكان من الواجب أن تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب قبل الآن ، لولا أن الفترة الأخيرة قد ازدحمت بالمؤلفات والكشوف الأثرية ، التي تستمهل كل مؤرخ للسيد المسيح ولعصر الدعوة المسيحية ، أملا في الوقوف على جديد يضاف الى تاريخ الداعي أو تاريخ الدعوة ، أو توقعا لتوكيد شيء من القديم يحتاج الى توكيد أو الى تعقيب .

الفصل الاول

كشوف وادي القمران
وتفسيرات من فلسفة التاريخ

في وادي القمران
تفسيرات من فلسفة التاريخ

في وادي القمران

يقال في بعض التعبيرات المجازية ان حادثا من الحوادث وقع في طالع هذا البرج أو ذاك من بروج الفلك المشهورة . فاذا جاز لنا أن نستعير هذا التعبير ، قلنا ان السنوات القليلة قبل منتصف القرن العشرين كانت فترة يظللها في أفق الثقافة الروحية برج البحوث والدراسات عن تاريخ السيد المسيح . . فان اللفائف المطلوبة التي كشفت منذ أوائل سنة ١٩٤٧ ، وما أعقبها من الشروح والمناقشات والردود ، تتألف منها مكتبة عامرة بالموسوعات الدينية والتاريخية ، وأمامي الساعة ثبت موجز مضموم الى ذيل كتاب من هذه الكتب يستغرق خمس عشرة صفحة كبيرة ، ليس فيه من شيء غير أسماء الكتب والرسائل التي ظهرت في موضوع تلك اللفائف المكشوفة منذ سنة ١٩٤٧ . . . وهذا عدا الكتب والرسائل التي ألفها الباحثون عن السيد المسيح بمعزل عن هذا الموضوع ، ممن لم يقصدوا الى التعقيب على تلك الكشوف ، ولم يربطوا بينها وبين ما بحثوه من سيرة السيد المسيح .

واتفق أن اللفائف كشفت ، حيث لا تسمح الأحوال باستمرار البحث فيها والتنقيب عن بقاياها ، في مطلع سنة ١٩٤٧ ، لأنها كشفت بوادي القمران من شرق الأردن ، وتفاقمت يومئذ مشكلة فلسطين ، فحالت دون البحث الهادىء والتنقيب المأمون في ذلك الجوار ، ولم يتصل خبر تلك الكشوف الهامة على شيء من التفصيل أو البيان المفهوم ، الا بعد استئناف البحث فيها والاشتغال بدراستها حوالي السنة التي ألفت فيها كتابي عن « عبقرية المسيح » وهي سنة ١٩٥٢ .

فلما علمت بنبأ هذه اللفائف في وادي القمران ، توقفت عن اعادة طبع الكتاب قبل أن تتهيأ لي فرصة كافية للاطلاع على مضامين اللفائف والاستفادة مما عسى أن تسفر عنه من دفائن التاريخ المجهول ، وفيها ، كما قيل يومئذ ، كتاب كامل من العهد القديم ، وتعليقات على كتب أخرى ، ودفتر واف بالوصايا والأوامر عن آداب السلوك ، بين زمرة دينية تشبه الزمرة المسيحية الأولى في الشعائر والعبادات .

***

ولم يكن هذا التوقف عن البت في الموضوع المرتهن بنتيجة الاطلاع على لفائف وادي القمران ليثنيني لزاما عن متابعة البحث في أسرار النبوة كما بدأت على عهد الخليل ابراهيم وعهد موسى الكليم .. فان البحث في هذه الأسرار على عهد الخليل ، يبتدىء بنا من البداءة الأولى ، ويقترب بنا من مطالعها أو ينابيعها التي تقدمت قبل جميع الينابيع ، ودراسة النبوة على عهد موسى الكليم تفتتح عهودا من النبوءات بلغ فيها عدد الأنبياء المتلاحقين العشرات بل المئات ، ولكن تاريخ موسى الكليم أيضا فانه قد يتصل من كتب بتاريخ اللفائف بوادي القمران ، اذ كان منها ، كما قيل ، لفائف تتضمن كتبا من التوراة ، وقطعا من الكتب الخمسة المشهورة باسم الكتب الموسوية ، وكان العثور على نسخ من هذه الكتب عند استئناف الكشف عنها أملا يساور العلماء الحفريين واللاهوتيين ، ففضلت من أجل هذا أن أرجىء الكتابة عن موسى عليه السلام مبتدئا بالكتابة عن الخليل ابراهيم ، وسميت كتابي عنه « بأبي الأنبياء » وانتهيت فعلا من البحث في تفاصيله الى تقرير العلاقة الحاسمة بين مدن القوافل والبيئة الصالحة لتلقي الرسالة النبوية ، اذ كانت للخليل علاقات متتابعة بكل مدينة من مدن القوافل الكبرى في زمانه ، وكان انتقاله من « اور » الى جوار بعلبك وبيت المقدس ومدن الطريق بين سيناء والحجاز ، سلسلة من الشواهد البارزة ، تلفت النظر الى هذه الحقيقة ، وتجلوها على صورها المتقاربة أتم جلاء .

أما الموضوع الذي توقفت عن المضي فيه ريثما تستقصيني موارده الجديدة فقد كان يتوقف حوالي سنة ١٩٥٣ على مصادر ثلاثة : أهمها لفائف وادي القمران ، ومنها تراجم العهدين القديم والجديد المنقحة في اللغات الغرابية ،

ومنها سيل لم يكن ينقطع في تلك السنة من مؤلفات المفكرين الدينيين وغير الدينيين عن السيد المسيح من وجهة النظر العصرية بعد الحرب العالمية الثانية .

***

وقد كنا نقرأ في الصحف والنشرات أن لفائف وادي القمران تشتمل على نسخة كاملة من كتاب اشعيا ، ونسخة مقروءة سليمة بعض السلامة من تفسير نبوءات حبقوق التي حققتها الحوادث التالية ، وشذرات من تفسير كتاب ميخا ، وقصة تسمى قصة الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام ، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة ، ونسخة آرامية من كتاب غير معتمد بين كتب التوراة ، وقصاصات متفرقة من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم ، ونسخة مفصلة لآداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمنا بصومعة وادي القمران ، وكلها مودعة في جرار كبيرة يوجد الكثير منها في بعض الكهوف المجاورة ، ويبدو من أجل ذلك أنها قد تشتمل على ودائع من هذا القبيل ، لا تقدر عند العلماء الحفريين وعلماء المقابلة بين الأديان وجمهرة اللاهوتيين على الاجمال .

ولو أن أحدا اراد أن يحيط بأطراف الكتب والرسائل التي تناولت مسائل البحث في تلك اللفائف خلال هذه السنوات الخمس ، لما استوعبها جميعا ، ولو كرّس لها كل وقته . . وحسب القارىء العربي أن يعلم انها بحثت من كل ناحية تشترك في موضوعاتها الدينية أو اللغوية أو التاريخية أو الحفرية أو الكيماوية أو الصناعية ، ولم تخل منها لغة من لغات الحضارة الغربية . . فقد تناولت البحوث مسائل الهجاء وقواعد الكتابة ، واختلاط اللهجات واللغات ، ومواد الورق والجلد والمداد واللصق والتجفيف ، كما تناولت اسماء الاعلام وما اليها من الالقاب والصفات وما يقترن بها من تواريخ الشعوب والقبائل ، ومواقع الأرض وعوارض الجو والفلك وأصول العقائد وشعائر العبادات ، في كل فترة على حسب حظها في الأصالة أو الاستعارة ، وعلى حسب المصطلحات التي تلازمها ولا تعهد في غيرها . . واتسع نطاق البحث الى غاية حدوده لتحقيق نماذج البناء ، وصناعة الآنية الفخارية ، وعادات الأكل والشراب ، وأزياء الكساء ، ومواد الأطعمة ، وثمرات النبات ، وتراوحت تقديرات الزمن بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد ، ولم تستقر بعد كل هذا

التوسع وكل هذا الامعان والتدقيق على قرار وثيق .

***

ومن البديهي اننا لم نستوعب هذا الطوفان الزاخر من الفروض والنقائض ، وعلى كل ما في هذه البحوث من مواضع المراجعة والعدول ، ومواضع التشكيك والترجيح ، بل نحن لم نشعر بضرورة الاستيعاب والاستقصاء كي نخلص منه الى القول الجديد في تاريخ السيد المسيح ، ولكننا عمدنا الى نخبة من كتب الثقات التي ألمت برؤوس المسائل ، ولخصت محور الخلاف ومبلغه من الدلالة في كل مسألة منها ، وخرجنا منها بالخلاصة المطلوبة فيما يعنينا ، فكانت هذه الخلاصة أن الجديد في الأمر لا يزال من عمل السيد المسيح أو من فتوحه المبتكرة في عالم الروح ، وان كل مشابهة بينه عليه السلام ، وبين مذاهب الدين قبل عصره ، تنتهي عند الظواهر والأشكال ، ولا تدل على فضل أسبق من فضله فيما ارتقت اليه عقائد الدين على يديه .

ولعل أرجح الأقوال التي خلصت اليها أكثر البحوث والمناقشات ، أن نسّاك صومعة القمران كانوا زمرة من « الاسينيين » احدى الطوائف المتشددة في رعايتها للاحكام الدينية ، وانتظارها للخلاص القريب بظهور المسيح الموعود ، وهذه هي الطائفة التي ذكرناها في « عبقرية المسيح » ، فقلنا عنها ما فحواه انها أقرب الطوائف الاسرائيلية الى التطهر من أدران المطامع والشهوات ، وانهم « كانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات . . . وان أحدهم يقسم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة ، ويحرم عليه القسم بالحق أو بالباطل مدى الحياة ، وليس بينهم رئاسة ولا سيادة . . . والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة . . . وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم . . . وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون ان الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح » ، ثم قلنا عنهم في سياق الكلام على زمرة المتنطسين بمصرTherepeutsان هؤلاء المتنطسين ربما كانوا أساتذة النساك اليهود المسمين بالآسين أو الاسينيين على قول بعض المؤرخين ، لأننا رجحنا ان الاسم مأخوذ من كلمة الآسي بمعنى الطبيب ، وهي تقابل كلمة الثيرابيين اليونانية بمعنى المتنطسين . .

***

فاذا صح ان زمرة وادي القمران كانت تنتمي الى الآسين ، وصح أكثر من ذلك أن صومعتهم كانت هي البرية التي كان يلوذ بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان ـ فالجديد في هذا الكشف هو توكيد الحاجة الى رسالة السيد المسيح ، أو توكيد فضل الدعوة المسيحية في اصلاح عقائد القوم كما وجدتها على أرقاها وأنقاها بين أتباع النحل اليهودية قبل عصر الميلاد . .

فالكتب الاسينية ـ أو الآسية ـ التي وجدت في الصومعة تصف لنا نظام الجماعة وآداب سلوكها وشدة حرصها على الشعائر الموروثة بين قومها ، ولكنها لا تزال مصابة بداء القوم الذي انتهى الى غاية مداه في تلك الفترة ، وهو داء الجمود على النصوص والحروف ، والانصراف عن جوهر العقيدة ولباب الايمان ، ولا تزال النحلة الاسينية نفسها أدل على الحاجة الى الاصلاح من النحل المتهمة أو المحاطة بالشبهات ، لأن النحلة المتهمة تجد اصلاحها عند الراشدين من أبناء الديانة القائمة ، وكل نحلة يهودية زائغة عن سوائها تجد من يقومها من العارفين باستقامتها في نطاق الديانة اليهودية ، ولكن الحاجة الى الاصلاح انما تثبت كل الثبوت اذا بلغت النحلة أرقى ما تبلغه ، واستنفدت كل طاقتها تهذيبا وتطهيرا واخلاصا وتذكيرا ، ولم تزل بعد ذلك قاصرة عن تزويد الروح بما تتعطش له وتفتقر اليه . وكذلك كانت النحلة الأسينية التي كشفت عنها لفائف وادي القمران ، أيا كان اسمها ، وأية كان وجهتها ، فانها لم تمهد لرسالة السيد المسيح الا كما يمهد المريض للعلاج أو يمهد الداء للدواء ، ولا شك أن اللفائف المكشوفة ذخيرة نافعة في بابها ، ولكنها لا تضيف الى معلوماتنا عن حقائق الرسالة المسيحية ، ولا تخرجنا بشيء جديد في أمر هذه الرسالة ، غير انها تؤكد لنا فضلها ولزومها في أوانها ، فمهما يكن من غرض النحلة الاسينية ، فهي في أصولها وفروعها بقيت محافظة على تراثها متشددة في محافظتها ، ناظرة الى أمسها حتى في التطلع الى الغد المرجو انتظارا للمخلص الموعود على حسب النبوءات الغابرة ، ولهذه الآفة الوبيلة ـ آفة التشدد في عبادة المراسم والنصوص ـ كانت الدعوة المسيحية رسالة لازمة تعلم الناس ما هم في حاجة الى أن يتعلموه كلما غرقوا في لجة راكدة من الحروف الميتة والأشكال المتحجرة ، تعلمهم ان العقيدة مسألة فكرة وضمير ، لا مسألة حروف وأشكال . . . وهذه هي رسالة السيد المسيح في ذلك العصر الموبوء بجموده وريائه على السواء ، لأن الرياء انما هو في باطنه جمود على وجهه طلاء .

تفسيرات من فلسفة التاريخ

ونستطرد من تلخيص نتيجة اللفائف المكشوفة الى تلخيص نتيجة المناقشة ـ أو المناقشات الطويلة ـ حول الترجمة المنقحة في اللغة الانجليزية لكتابي العهد القديم والعهد الجديد .

اننا سمعنا بنبأ هذه الترجمة المنقحة بعد سماعنا بنبأ اللفائف المكشوفة ، وكدنا نحصر الضجة الكبرى حول فقرة واحدة في كتاب اشعيا في العهد القديم ، فاعتقدنا ان المشتغلين بتنقيح الترجمة رجعوا الى نص جديد في لفائف وادي القمران لأن كتاب اشعيا هو الكتاب الكامل الذي اشتملت عليه تلك اللفائف فيما اشتملت عليه من الآثار المتفرقة ، ولكننا تلقينا البيان الوافي عن عمل المنقحين ، فلم نجد فيه ما يشير الى علاقة بين الكشوف الجديدة وبين تنقيح الترجمة المتداولة من كتب العهد القديم على الخصوص ، لأن الفقرة التي جاءت في كتاب اشعيا وثارت حولها الضجة الكبرى بين أنصار التنقيح ومعارضيه لم تفاجىء علماء اللاهوت برأي لم يعلموه من قبل ، ولم يذهبوا فيه كل مذهب من الطرفين المتقابلين . .

ثارت الضجة حول فقرة في الاصحاح السابع مترجمة في اللغة العربية بالكلمات الآتية : « . . . يعطيكم السيد نفسه آية . ها العذراء تحمل وتلد ابنا ، وتدعو اسمه عمانويل »

فهذه الفقرة تظهر في الترجمة الانجليزية المنقحة بعبارة « امرأة شابة » في مقابلة

كلمة « علامة » العبرية ، وكلمة Parenthos « بارانثوس » في الترجمة السعينية ، ولا جديد أيضا في هذا الخلاف لأنه خلاف بين المذاهب الثلاثة التي يدور بحثها على تفسير المقصود ببتولة السيدة مريم أم المسيح عليه السلام . فمن أصحاب المذاهب المسيحية من يفسرها بالبتولة الدائمة قبل ميلاد المسيح وبعده ، ومنهم من يقول بالبتولة قبل ميلاده . . ثم ولادة اخوة له بعد ذلك وردت الاشارة اليهم في كتب العهد الجديد ، ومنهم من يرجع الى النصوص العبرية ولا يذكر كلمة البتول كما تقدم . . وجواب القائلين بالبتولة الدائمة على المستشهدين بذكر اخوة السيد المسيح في كتب العهد الجديد انهم أبناء عمومة أو انهم اخوة منسوبون الى يوسف خطيب السيدة مريم ، الى آخر ما ورد في هذا الخلاف القديم الجديد .

ولقد كانت امامنا تفاصيل هذا الخلاف عند كتابة « عبقرية المسيح » فلم نعرض له ، ولم نعرض لبحث من البحوث في هذا الصدد ، الا ما كانت له صلة لا فكاك لها برسالة السيد المسيح في عالم الهداية الروحية . ولهذا لم نذكر معنى كلمة « أخي الرب » التي شفعت باسم « جيمس » المقابل لاسم يعقوب في الترجمة العربية ، وقلنا عنه انه « جيمس قريب السيد المسيح » .

وقد خطر لبعض الناقدين اننا سميناه كذلك لأننا لم نطلع على الترجمة العربية لكتب العهد الجديد ، وانه لظن يستسهله من يستسهل النقد بغير روية ، ويحسبه بعيداً كبعد المستحيل من يعلم من قراءة « عبقرية المسيح » اننا على الأقل فتحنا كتب العهدين مائة مرة ، لنبحث فيها عما بحثناه ، وننقل منها ما نقلناه . . . فالآن تعرض المناسبة التي نذكر فيها سبب تلك الاشارة على علاتها ، دون أن نبدي رأياً في تصحيف كلمة جيمس من كلمة يعقوب ، ودون أن نقرر في الاشارة العابرة حكماً فاصلا لا موضع له بين هذه التفصيلات .

وربما كان اتفاق الوقت بين ضجة الترجمة المنقحة ، وضجة اللفائف المستخرجة من وادي القمران ، مع تكرار الكلام عن كتاب اشعيا في كلتا الضجتين ـ هو الذي أوحى الينا أن ننتظر ما وراء ضجة الترجمة كما أوحى الينا أن ننتظر من وراء ضجة اللفائف المكشوفة . فقد يكون هنالك من النصوص والأسانيد ما يوجب اعادة النظر في كتابة « عبقرية المسيح » . . ولولا هذا التقدير لما كان الخلاف على تفسير البتولة وحده موجباً للانتظار الى ما بعد فراغ

القول منه . اذ كانت أوجه الخلاف جميعاً في هذه المسألة معروفة من زمن قديم ، وكانت من المسائل التي كان في وسعنا أن نتتبعها في مصادرها قبل الكتابة عن السيد المسيح .

***

الا اننا نسأل الآن بعد خمس سنوات : هل كان مما يريح الضمير أن نمضي في اصدار الكتاب مرة أخرى قبل أن نطلع على الكتب الجديدة التي كانت تتعاقب في اللغات الغربية كُتاباً بعد كتاب عن السيد المسيح ورسالته ، ونظرات المحدثين الى هذه الرسالة في زمانها وفيما أعقبه من الأزمنة ؟ . .

اننا تمهلنا قبل خمس سنوات في اصدار الطبعة الحاضرة لأننا اعتقدنا أن تنقيح الترجمة قد يعود الى أسباب توجب المراجعة واعادة النظر ، ولكننا نسأل اليوم : ترى لو اننا علمنا يومئذ محور الضجة على الترجمة ، وعلمنا انها موضوع معاد في قضية معروفة ـ هل كنا نستخف من أجل ذلك بالفيض المتدفق من الكتب والرسائل التي كتبها اصحابها في موضوع كموضوعنا ، ومن وجهة نظر تعنينا ، ايا كان شأنها من الموافقة ، او المخالفة لوجهة نظرنا ؟

نحسب ان اشتغالنا بالاطلاع على طائفة من تلك الكتب كان سبباً كافياً لتعليق النظر كي نصدر الكتاب على الأقل مطمئنين الى عاقبة هذه الاناة . . فان غيرَّ الاطلاع على الكتب الجديدة آراءنا في موضع من مواضع الكتاب فتلك فائدة جديرة بالانتظار ، وان اطلعنا على الكتب الجديدة ولم تتغير نظرتنا فتلك طمأنينة نحمدها ، وما ضيعنا شيئاً بهذه الاناة .

***

وأيسر ما نقوله الآن عن الكتب الجديدة ، ان الاطلاع عليها كان متعة من متع القراءة ، ترضينا قارئين قبل أن ترضينا مؤلفين ، وقد كان فيها السمين والغث ، والمتفوق والمتخلف ، كما يكون في كل تأليف ، ولكننا خلقاء أن نحمد حظنا مما استوفينا منها ، لأن الغث منها كان من قبيل المقروءات التي تنكشف غثاثتها للمتصفح بعد الالمام بسطور هنا وسطور هناك . وأما السمين منها فقد كان كافياً في موضوعه ، كما كان مكافئاً لما ينفقه القارىء من الوقت والجهد فيه .

ونستطيع أن نسلك هذه الكتب القيمة في بابين واسعين : باب التأمل وما اليه من النظر الفلسفي والخواطر الوجدانية ، وباب النقد التاريخي والتحليل العلمي على قواعد المقابلة بين الأديان .

ويلذ القارىء ولا ريب أن يعلم رأي الفيلسوف العصري في المقابلة بين تعاليم السيد المسيح وتعاليم نيتشه في العصر الحاضر ، أو يعلم رأيه في المقابلة بين تعاليم المسيح وتعاليم كارل ماركس وأصحابه الماديين ، أو يعلم وجوه المشابهة ووجوه المناقضة بين خطة المسيح في الاصلاح الانساني وخطط الساسة ودعاة الاجتماع في القرون الحديثة ، أو يعلم بلاغة الكلمات المسيحية حين تقترن بكلمات البلغاء من أصحاب الكلم الجامع والحكمة المأثورة . . . فهذه وأشباهها هي مدار القول في كثير من تلك الكتب العصرية يتفق أحياناً أن تدل عناوينها على أغراضها ، ولكننا لا نعتقد انها مما يقتضينا البحث في كتابنا هذا ان نبسطها أو نطويها موجزين . . وقصارى ما نقوله عنها انها أشبه بالصور المتعددة للوجه الواحد في لوحات كثيرة ، ليست محل تلخيص ولكنها محل استزادة لمن شاء . .

اما الكتب التي نسلكها في باب النقد التاريخي والتحليل العلمي ففيها حقاً ما يهتم به الباحث في تاريخ الرسالة المسيحية وفيها - ولا مراء - بحوث جديرة بطول التأمل وانعام النظر ومواجهة الموضوع كله في نطاقه الواسع من جميع جهاته ، وليس في استطاعة أحد أن يواجه هذا الأفق الواسع ما لم يكن على استعداد له بكل عدته من المراجع والأسانيد .

ومن الاطالة على غير طائل أن نسرد هنا أسماء المؤلفات والمؤلفين في هذه البحوث النقدية . فاننا - بعدما وقفنا عليه منها - نرى ان القارىء لا يفوته شيء من جوهرها اذا اطلع منها على كتابين اثنين يحويان جملة المناقضات والأقاويل التي تتعرض للقبول أو الرفض في هذه البحوث ، ونعني بهما كتاب[1] « الجانب الآخر من القصة » تأليف روبرت فيرنو ، وكتاب[2] « انجيل الناصري يعاد »

(1) The Otherside of the story by Rubert Furneaux

(2) The Nagarene Gospel Restored by Graves and podra

تأليف روبرت جريفس وجوشيا بردو ، وكلا الكتابين مؤلف باللغة الانجليزية .

*****

وندع التخمينات الملفقة التي تتخلل الكتابين ، وينبغي أن نذكر ـ بداءة ـ انها تخمينات كثيرة وانها في بعض الأحايين تخمينات معتسفة يعترف المؤلفون باضطرارهم اليها لاتمام الحلقات المفقودة في السلسلة التي سبكوها من بقايا الأسانيد المتخلفة منذ القرن الأول للميلاد ومن صنع خيالهم في مواضع النقص المعترضة في فجوات تلك الأسانيد ، ولا ننسى أن أحد المؤلفين ـ روبرت جريفس ـ قصاص يعتمد على التصور الفني في التوفيق بين الأخبار وتنسيق الملامح وملاحظة التناسب بين ألوان الشخصيات ، وله قصة في الموضوع نفسه سماها « عيسى الملك » يشرح فيها بالاسلوب الروائي نظريته التاريخية عن سيرة السيد المسيح ، وزبدتها ان السيد المسيح قد نشأ برعاية هيئة باطنية كانت تعمل لتعجيل الخلاص على يد الملك « المسيح » الذي يأتي من ذرية داود لانقاذ شعب الله المختار ، وان يوحنا المعمدان هو الذي وكل اليه اختيار المسيح المنتظر على حسب العلامات المحفوظة في النبوءات ، فاختاره وعاهده وبايعه « ملكاً » مسيحاً أي ممسوحاً بالزيت المقدس على سنة الملوك المختارين من الأقدمين ، وان زعماء الهيكل لم يكونوا جميعاً من المطلعين على سر هذه المبايعة التي جمعت بين يمين الايمان ويمين الطاعة ، وتولاها المشرفون على تنفيذها وهم حذرون من سلطان رومة ومن سلطان الهيكل في وقت واحد ، ثم جرت الحوادث مجراها الذي نعلمه من الأناجيل مزيداً عليها هنا وهناك حلقات تربط الصلة بين التاريخ الظاهر والتاريخ الباطن كما جمعه المؤلف من أسانيده ومن وحي خياله أو تنسيق فنه وتقدير ظنه ، وربما زاد الجانب المضاف هنا وهناك على الجانب الأصيل . .

ونحن ندع هذه التخمينات ونجتهد في حذفها كما اجتهد المؤلف الروائي في اضافتها ، ولكننا لا نريد أن نحذفها حيث تترك الفراغ بعدها ادعى الى الحيرة والتردد من الاثبات .

وصفوة ما يبقى بعد حذف هذه التخمينات ان الدعوة المسيحية بعد السيد

المسيح كانت ترجع الى مركزين : أحدهما برئاسة جيمس أي (يعقوب) المسمى بأخي الرب ومقره بيت القدس ، والثانية برئاسة بولس الرسول ومريديه ومقرها خارج فلسطين بعيداً عن سلطان هيكل اليهود . وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب الى المحافظة والحرص على شعائر العهد القديم ملحوظة المكانة في العالم المسيحي داخل فلسطين وخارجها من بلاد الدولة الرومانية ، كما يظهر من وصاياها ومن أجوبة المسيحيين في الخارج عليها ، وكلها وصايا تحث على رعاية الشعائر الاسرائيلية كما تقدمت في النبوءات .

وظلت الرئاسة على العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المقيمة في بيت المقدس حتى تهدم الهيكل وتقوضت مدينة بيت المقدس وتبددت الجماعة في أطراف البلاد ، وآلت قيادة الدعوة الى الشعبة التي كانت تعمل في خارج فلسطين فكان لذلك أثر كبير في أسلوب الدعوة وفي اختيار وسائل الاقناع ، اذا اختلف الأسلوبان بين الخطاب الموجه الى اليهود وحدهم ، والخطاب الموجَّه الى الأمميين النافرين من اليهود . . فبينما كان الخلاص على يد فرد من بني اسرائيل لانقاذهم دون غيرهم أمراً مفروغاً منه بين اليهود ، كان العالم الخارجي بحاجة الى صفات الهية في الرسول المخلص يقبلها الأمميون ، ولا يتقيدون في قبولها بالشروط والعلامات التي يلتزمها المتشبثون بحرف الناموس ، وقد كانت كتابة الأناجيل في وقت يوافق هدم الهيكل وتفرق الشعبة المقيمة ببيت المقدس ، فوضحت فيها دلائل الدعوة كما تولاها المبشرون بها في بلاد الأمميين ، وغلبت فيها الصفة الالهية على غيرها من الصفات المسموعة في جدار الهيكل ، قبل الحاح الحاجة الى تدوين الأناجيل وان المؤلفين ليطنبون اطناباً كبيراً في ترديد الكلمات الانجيلية التي تدل على اعتصام السيد المسيح بكتب التوراة ، وتوصية التلاميذ باتباعها على سنة الفريسيين ، وأشهر هذه الكلمات قوله للتلاميذ والجموع كما جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى : « انه على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه ، ولكن حسب أعمالهم لا تفعلوا ، لأنهم يقولون ولا يفعلون » .

ومن تلك الكلمات قوله كما جاء في الاصحاح الخامس : « لا تظنوا انني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فاني الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من

الناموس حتى يكون الكل . . » .

ومنها قوله كما جاء في الأصحاح العاشر : « الى طريق أمم لا تمضوا ، والى مدينـة السامـريين لا تدخلـوا ، بل اذهبـوا بالحـري الى خراف بيت اسرائيل الضالة » .

ومنها قوله كما جاء في الاصحاح الخامس عشر : « لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة . . » الى أقوال أخرى تفهم من مضامينها ان لم تفهم من لفظها الصريح كما في هذه الاقوال . .

رد وتعقيب

وعندنا ان المؤلفين أصحاب هذه النظرية في غنى عن العناء والعنت في تأويل الكلمات أو التنقيب عن الصحُائف المطوية اذا كان قصاراهـم ان يثبتـوا ان الدعوة المسيحية ابتدأت بتوجيه الخطاب الى الأمة التي تدين بالتوراة وتترقب ظهور المسيح المخلص من بين أبنائها ، وانهم كذلك في غنى عن العناء والعنت اذا أرادوا أن يثبتوا ان القائمين بدعوة الأمـم قد اتخذوا لهم أسلوبا في الدعوة غير الذي يتفاهم عليه بنو اسرائيل الذين يقرأون الكتب ويعتقـدون بمـا فيهـا من النبـوءات ، وان رسـل الدعـوة المسيحية الى الأمـم قد وصفـوا السيد المسيح بصفات لـم يتصفـ بها السيد المسيح في كلامه الذي نقلته عنه الأناجيل .

كل أولئك لا حاجة به الى العناء والعنت لاستنباط الأدلة عليه من مضامين الأقـوال أو طوايا الصـحف المنسية ، ولـكن هؤلاء المؤلفـين أصحــاب هذه النظريات يكلفون براهينهم عنتا شديدا اذا حاولوا أن ينكروا ان دعوة الأمم قد بدأت في عهد السيد المسيح ، وان التلاميذ والرسل تعلموا منه أن يشملوا الأمم بدعوته ولا يقصروها آخر الأمر على بني اسرائيل . فلـم تتواتر أخبار الأناجيل على شيء كما تواترت على هذه الأخبار في مواضعها وفي مناسباتها المعقولة ، ولم تأت الأناجيل في هذه الأخبار الا بالنتيجة الطبيعية التي يعززها سياق الحوادث ويستلهـم منها منطق الأشياء كما نقول في مصطلحاتنا الحديثة . وماذا كان السيد المسيح صانعاً بعد رفض القوم دعوته واصرارهـم على رفضها الا أن يتجه برسالته الى غيرهـم ، أو أن يكف عن هذه الرسالة ويعدل عنها بتاتـاً ، فيعـدل عنهـا

التلاميذ والرسل ، ولا يتجهوا بها الى الأمم ولا الى اسرائيل ؟ . .

ولا يفوتن المؤلفين أصحاب هذه النظرية ان الرسل الذين بشروا الأمم بالمسيحية هم الدعاة الذين احتملوا أشد العذاب في سبيلها ، وهم الذين صمدوا لها بعد أن تفرق دعاة المسيحية في بيت المقدس ، ومن يفعل ذلك لا بد أن يكون معتقدا لما يدعو اليه ولا يكون مبلغه من العقيدة انه يحتال لاجتذاب السامعين اليه بأسلوب غير الأسلوب المألوف عند بني اسرائيل . . . فكيفما كان مرجع هذه العقيدة فالرسل الذين أعلنوها بين الأمم قد صدقوها قبل أن يدعوا الناس الى تصديقها وقد اطمأنوا اليها قبل أن يروضوا الناس على ابتغاء الطمأنينة فيها .

***

وبعد ، فنحن لا نستغرب الضجة التي أثارها المؤلفون بما ابتدعوه معتمدين على أسانيدهم التاريخية أو على طريقتهم في تكملة التاريخ بتنسيق الصور الفنية من وحي القريحة أو من وحي الخيال . . . الا اننا نعود الى أنفسنا فلا نرى ان هؤلاء المؤلفين قد أطلعونا على رأي طارىء يدعونا الى تعديل شيء جوهري في الصورة التي أوضحت أمامنا لرسالة السيد المسيح عندما استجمعنا خواطرنا ومعلوماتنا لتأليف هذا الكتاب ، ويسرنا اننا نعيده اليوم في طبعته الثانية كما بدأناه في طبعته الأولى بغير تعديل يذكر الا ما كان من قبيل المطبعيات والتصحيفات . . . ويسرنا قبل ذلك اننا لقينا من قرائنا عرفانا مشكورا نغتبط به ، ويغتبط به كل من مارس التأليف في هذا الموضوع الجليل على التخصيص ، ولا نعلم ان منهجنا في الكتابة عن « السيد المسيح » قد لقي من أحد استنكارا يحسبه الكاتب أو القارىء في حساب النقد المفهوم ، وكل ما هنالك ان بعضهم ظن ان التأليف عن السيد المسيح يقتضي منا أن ندين بالمسيحية أو ندين بجميع مذاهبها في وقت واحد ، ولم يقل أحد اننا اذا كتبنا عن برهما وجب أن نكون برهميين ، أو كتبنا عن أديان الأمم وجب أن ننتقل فيها من دين الى دين ، ولو وجب ذلك على باحث لما كتبت تواريخ الأديان ولا تواريخ الدعاة اليها ممن يتفقون في الملة الواحدة أو لا يتفقون . . . بل لو وجب ذلك لما كتب عن الشرق الا المشارقة ، ولا كتب عن أوروبة الا الأوروبيون ،

ولا كتب عن الماضي الا من كان فيه ، ولا عن المستقبل الا مولود من بنيه ، ولا وجوب لشرط من هذه الشروط المفروضة في حكم من أحكام النقد المفهوم .

وانصافا لكثرة القراء الغالبة ، نقول انهم من الوفرة بحيث تحسب هذه القلة الى جانبها بحساب النسبة الى الألف ، لأنها أندر من أن تحسب بحساب النسبة الى المائة ، وانما تصادفها على نسبة متفاوتة في شعب شتى من المطالعات التاريخية الدينية ، فربما كتبنا عن الخلفاء الراشدين كلاما لم يعجب أفرادا من الشيعة ، أو كتبنا عن معاوية بن أبي سفيان كلاما لم يعجب أفرادا من غيرها ، ولكن العبرة من وراء هؤلاء بالقراء الذين يقرأون ما يوافقهم وما يخالفهم ولا يرضيهم من الكاتب أن يعطيهم نسخة مكررة مما في ضمائرهم وخواطرهم ، وبين أيدي هؤلاء القراء قدمنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب ونقدم الآن طبعته الثانية بعنوان « حياة المسيح » على بركة الله . .

الفصل الثاني

المسيح في التاريخ

الشجرة المباركة
المسيح
النبوة بين بني اسرائيل
الطوائف اليهودية في عصر الميلاد
الحياة السياسية والاجتماعية
الحياة الدينية
الحياة الفكرية

الشجرة المباركة

« الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم »

سورة النور

« وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »

سورة الانعام

« وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون »

سورة النحل

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين »

سورة التين

« فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا »

سورة عبس

هذه هي الشجرة المباركة في التنزيل : شجرة الزيتون . شجرة البحر الخالد . شجرة الحوض الذي نبتت عليه حضارة الانسان ودارت حوله ، ولا تزال تدور .

عالية تعلو خمس قامات وتزداد .
باقية تبقى خمسة قرون ، ثم لا تصير الى نفاد .

كريمة تؤتي من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهي به طيب الطعام ، سعيدة تؤتي من عصيرها النور والطب ومسوح الأهاب وجبائر العظام ، من خشبها صور المحاريب وأعواد المنابر ، ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر ، وتتشابه بركتها على الابطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلبا لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ، ويرفعون غصن الزيتون !

***

بوركت في وحي المعابد والضمائر ، وبوركت في رموز القرائح والخواطر ، فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها ، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها الى الضياء ، ورمزوا بها الى السلام ، ورمزوا بها الى الخير والرخاء ، وتزودوا منها في البادية والحاضرة ، وادخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح في محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا اليها باسم من أقدس الأسماء ، وهو اسم « السيد المسيح » .

لأمر ما نبتت في فلسطين ، وانتشرت منها في منابت العالمين ، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين ، فطافت رسالته حيث طافت ، من عليين الى غايتها من البلاغ المبين .

ولولم تكن « للزيتونة » الا ان هذا الاسم المبارك مردود الى منحتها وبركتها ، لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون . .

المسيح

يدل علم المقارنة بين الاديان على شيوع الايمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية ان القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة من الأمريكتين ، وليس في هذا عجب . . لأن الرجاء في الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل في الصلاح مادة من مواد الحياة الانسانية في طلب الكمال والخلاص من العيوب .

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة اليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون « المخلص » المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم ابيور Ipuwer أن المخلص الموعود « يلقي بردا على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضي يومه وهو يلم شمل قطعانه »[1]

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » الى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد انسان ، وقيل انه هو زرادشت رسول المجوسية الأكبر الذي يرجعون اليه بتفصيل الاعتقاد في اله النور واله الظلام ، وقد تخلفت هذه العقيدة الى ما بعد اليهودية والمسيحية والاسلام وأشار اليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه ابراهيم بن سيار النظام حيث قال : « ان السلف زعموا ان

---

(١) صفحة ٧٩ من كتاب نور من الشرق القديم لمؤلفه جاك فينجان

كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له ، فاذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه » . .

أما الايمان بظهور رسول الهي يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها ، في التلمود والهجادا وما اليها . .

ومرجع التسمية نفسها الى الشعائر التي وردت في سفر التكوين وسفر الخروج وما يليهما من اسفار الانبياء . . فان المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم ، وأول ما ورد ذلك في الاصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روي عن يعقوب انه « بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا وصب زيتا على رأسه ودعا ذلك المكان بيت ايل . . أي بيت الله »

***

وجاء في الاصحاح الثلاثين من سفر الخروج ان « الرب كلم موسى قائلا : . . . . وانت تأخذ أفخر الأطياب ، دهنا مقدسا للمسحة ، وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل آنيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة ، وتقدسها فتكون قدس أقداس ، وكل ما مسها يكون مقدسا ، وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم » .

وكان الأحبار والأنبياء يسمون من أجل هذا مسحاء الله وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء في الاصحاح السادس عشر من سفر الأيام : « لا تمسوا مسحائي ولا تؤذوا أنبيائي » .

وكان مسح الملوك اول شعائر التتويج والمبايعة ، فكان شاؤول وداود من هؤلاء المسحاء . .

ثم أطلقت كلمة « المسيح » مجازا على كل مختار ومنذور ، فسمي كورش الفارسي « مسيحا » كما جاء في الاصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا ، لأن الله أخذ بيده لاهلاك أعداء الاسرائيليين واقامة بناء الهيكل من جديد ، وسمي الشعب كله مسيحا كما جاء في المزامير وكتاب النبي حبقوق ، ومنه « خرجت لخلاص شعبك : خلاص مسيحك » بمعنى الشعب المختار . .

وتكررت في كتب « الهجادا » أو كتب التعاليم الاشارة الى الرسول المنتظر باسم المسيح ، فتارة يطلق هذا الاسم على يوسف ، وتارة على موسى عليهما السلام ، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا في صورة رسول هاد أو صورة شعب مبرور ، لأنهم لا يدينون برسالة عيسى بن مريم عليهما السلام .

***

وقد كان الايمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول ، فردد الشعب الاسرائيلي وعود أنبيائه بعودة الملك الى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه ، ثم ترقى الايمان « بالمسيح » بمعنى الملك الى الايمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح ، وبلغ هذا التحول غايته في بعض النبوءات ومنها نبوءة اشعيا التي امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان ، الى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره في سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء في الاصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر انه « محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان » . . . وجاء في الاصحاح التاسع عشر من سفر زكريا انه « عادل ومنصور وديع يركب على حمار ابن أتان » . . . واتفقت أقوال كثيرة على انه يأتي مسبوقا برائد يعلن مجيئه ، وهو النبي ايليا (الياس) منبعثا من الأموات .

***

وقد كان هذا الارتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الاسرائيلي في تاريخه المتعاقب ، فيقوى الرجاء في المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل في استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء الى « المسيح الهادي » كلما استحكم سلطان الغالبين وبدا ان الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل في قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتابع في انتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية ، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان

حينا ، وتفترقان ، بل تتناقضان جملة أحيان . . فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول السلطان القومي كله اليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين الى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الأجنبية ، ومن الناحية الأخرى جنحت الضمائر المتعطشة الى اليقظة الروحية جنوحا متمردا على القديم مؤمنا بانتظار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات .

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد . .

النبوة بين بني اسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة في الشعب الاسرائيلي منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله واسباطه . فان أحوال النبوءة في ذلك الشعب لم تكن على الصورة التي تسبق الى خواطرنا من النظر في كبار الأنبياء ، وتاريخ الفترات التي مضت بين عهودهم في الأمم المتعددة .

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة ، ونعلم عن يقين ان الذي يقدم على ادعاء النبوءة في عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين ، لأن اتباع الأديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبي الجديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه انه يعلمهم ما لم يعلموه من كتبهم وأقوال أنبيائهم ، أما المنكرون والملحدون فانهم لا يقبلون دعوة النبوءة في هذا العصر ولا في غيره من العصور . .

ونحن اليوم نعلم ان الفترة بين ابراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمئات السنين . ففي اعتقادنا على الدوام ان ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر في كل جيل ولا يراه الانسان في عمره مرتين .

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء انهم أقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها ، لأنهم حطموا آلهة

وسفهوا أحلاما وغيروا العقائد التي درجت عليها الأمم عصورا بعد عصور ، وأقاموا عليها سلطان ذوي السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين . كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام ، فمن تولى الهداية الى دعوة على هذا النحو فهو متعرض للعدوان والبغضاء مقتحم على الناس طريقا لا يقبلون اقتحامه من أحد ، ولا يرون أحدا يقتحمه عليهم الا اعنتوه وأقاموا له العراقيل . .

اما احوال النبوءة في بني اسرائيل فينبغي ان نتصورها على غير هذا النحو ، لأنها تخالفه من جملة وجوه . .

فأول ما هنالك من الفوارق أن الأنبياء في بني اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ، أو لم يكن حتما لزاما أن تكون بينهم فترة ، فقد يوجد منهم في العصر الواحد أربعمائة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول حيث جمع ملك اسرائيل « الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم : أأذهب الى رامة جلعاد للقتال ؟ . . »

***

وخير ما ورد في وصف مكان الأنبياء بين بني اسرائيل قول النبي (محمد) صلوات الله عليه : « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » .

فقد كان عمل النبي اذن في شعب اسرائيل كعمل العالم الفقيه في الأمة الاسلامية ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة أو العامة في وقت من الأوقات ، ولم يكن قيامهم انكارا لقيام الأنبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على اتباع السنن التي رسمها لهم من قبل ابراهيم ، وموسى ، ويعقوب ، وغيرهم من الأنبياء السابقين ، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم ان الله وعد اسرائيل « ان يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه في أفواههم (١٨ تثنية) وان بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث الى الناس بكلام غير كلام الوحي فعليهم أن ينبذوه » . . . « وان قلت في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب فاعلم ان ما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب ، فلا تخف منه » .

بل يجوز أحيانا أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع الى

وصايا الأنبياء اذا دعوه الى عبادة رب غير اله اسرائيل . . فاذا قام في وسطك نبي أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة . . . فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو صاحب الرؤيا ان دعاك الى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الاعجوبة أو الآية . .

« ١٣ تثنية »

ولم تكن النبوءة باذن من ذوي السلطان أمراء كانوا أو كهانا أو شيوخا مطاعين في القبيلة . بل يمتلىء يقين الانسان بالايحاء اليه فيمضي في تبليغ وحيه ولا يقوى أحيانا على كف لسانه كما قال ارميا : « قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت علي فغلبت . صرت أضحوكة وهزءا . وكلمة الرب جللتني بالعار والسخرية ، فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد ، فكان قلبي كأنه نار محرقة محصورة في عظامي ، فلم تكن لي طاقة بالسكوت »

« ٢٠ ارميا »

***

وكثيرا ما كان النبي ينحي على زملائه في عصره ويخالفهم في تفسير النذر من ربه ، كما قال ارميا : « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق على الأرض كلها . . . فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم » .

أو كما قال ميخا لملك اسرائيل : « هو ذا الرب قد جعل روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء »

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له : « من أين عبر روح الرب مني ليكلمك »

وكان المعهود في الأنبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء اسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة ، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المنازه والأنهار كما قال دنيال : « لم آكل طعاما شهيا ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول اذ كنت الى جانب النهر العظيم دجلة رفعت عيني ونظرت » .

بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء في سفر صمويل الاول : « انك تصادف زمرة من الانبياء يهبطون من الاكمة امامهم رباب ودف وناي وعودوهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب » .
« ٩ صمويل اول »

أو كما جاء في سفر الملوك الثاني : « فقال اليشع حي رب الجنود ، والآن فأتوني بعواد . . فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب » .

ولكن الأغلب مع هذا انهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون في جوانب الأنهار « عند نهر خابور انفتحت فرأيت رؤى الله » .
« ١ حزقيال »

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة او الدليل البين انسانا من غير الأنبياء ومن غير شعب اسرائيل كما ألهم أبيمالك وبلعام ، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين .

***

وكان الغالب على سامعي النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحي من الله ، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلا على اليقين والايمان ، وربما اذن للنبي آن يطلب الآية ويمعن في طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات .
« ٧ أشعيا »

على انهم كانوا يلجأون الى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الاقامة لعلمهم انهم أقرب الى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين في هموم الحياة ، ومن هؤلاء الأنبياء من كان يستمع الوحي صوتا عاليا ومن كان يحسه الهاما أو هداية أو رؤيا صالحة ، وغالبا ما كانوا يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كلما خرج الشعب عن سنة الأقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها آباؤهم من الأنبياء السابقين ، فلم تكن النبوءة اقتحاما ولا بدعة مستغربة ، ولم يكن فيها خطر على النبي الا حين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ، ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد الى التنكيل بالنبي في هذه

الحالة ليثبت للناس كذبه وانه لم يأت من عند الله ، اذ كان موت النبي الكاذب احدى العلامات على بطلان دعواه .

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول ان القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء ، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها او يستغربون تكرارها ، وان الانسان المتهيىء للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أياما بعد أيام ، حتى يصبح السكوت في حكم سريرته عصيانا لأمر الله ونكولا عن ارادته ، ومتى استقر في سريرته ان طلب الآية تجربة لله وضعف في الايمان.فأسلم الأمور عنده حين تجيش فيه بروح الله أن ينذر ويبشر ، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدي الناس اليه كما يشاء .

***

وفي عصر الميلاد ، ذلك العصر الذي ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه لا جرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود ، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء في الخير المنتظر ، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر في امتحانه ، خوفا من سهولة الدعوى على الأدعياء ، وخوفا من بطلان الرجاء في ابان اللهفة على الرجاء ، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم . .

الطوائف اليهودية في عصر الميلاد

كان العالم اليهودي في العصر الذي ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه في انتظار المسيح المخلص الموعود .

والتعريف بهذه الطوائف ضروري لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التي سبقتها في بيئات بني اسرائيل .

وضروري من جهة أخرى لأنه ـ فيما نرى ـ أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جاوزوا الشك في النصوص والروايات الى الشك في وجود السيد المسيح نفسه ، كأنه في زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير . وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الاحاطة بأصول المذاهب التي كانت معروفة في عصر الميلاد ، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلا لكل مذهب من هذه المذاهب في ناحية من نواحيه ، وكانت هذه التعديلات في جملتها تثوب الى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ، لا بد لها من « شخصية » مستقلة عن هذه المذاهب جميعاً ، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والايمان .

ونكتفي من الطوائف الدينية التي كانت معروفة في عصر الميلاد بخمس منها ، وهي طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسين والغلاة والسامريين ، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة في تاريخ العصر بمزية من المزايا التي

تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية .

فالصدوقيون هم في دعواهم أتباع « صدوق » وأسرته الذين تواترت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان .

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز أصحابها ، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء . .

وقد كانوا متشددين في انكار البدع والتفسيرات ، متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التي احتوتها التوراة وهي كتب موسى عليه السلام ، ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع .

***

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم الى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها . فقد كانوا أقرب اليهود الى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة في البيئات الرومانية ، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوماً في ذلك العصر ، وقد كان الشائع عنه يومئذ انه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم ، ولكنهم في الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم في كل زمن فانهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه ، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسي وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان ، ويملي لهم في هذه النزعة انهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة ، خلافاً للطوائف الأخرى التي تؤمن بالبعث والحساب . .

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين وهما : « حنانيا » و« قيافا » ، ولم يكن في ذلك عجب ، لأن الصدوقيين جميعاً يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لا يستريحون الى الثورة والانقلاب .

وخلاصة الآداب الصدوقية انهم حرفيون في مسائل الدين متوسعون في مسائل المعيشة ، وانهم يعاشرون الأجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوي السلطان .

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هي طائفة الفريسيين ، وهي أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء ، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الأجانب ، وان لم يكن بين أفرادها كثيرون في مرتبة الرؤساء والوجهاء .

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة « الفرز » العربية في لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون وخصومهم يطلقون عليهم هذا الاسم تهكماً وتحقيراً لاعتقادهم انهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى . أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه الى خطاب الله لبني اسرائيل جميعاً كما يروونه في الاصحاح العشرين من سفر اللاويين ، فهناك يخاطب الله الشعب قائلا : « وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي » ، فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون . .

***

لهذا كانت تلازمهم في بعض الأحيان صفات الادعاء والتعالي التي تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الأخرى ، وكان بعضهم هدفاً لحملات السيد المسيح تنديداً بما يظهرونه من الثقة والكبرياء على انهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التي كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين ، وكانوا يثورون على السلطان « الرسمي » حيث كان في الهيكل أو في المراجع الأجنبية ، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ، وينكرون في الوقت نفسه عادات الأجانب والمتشبِّهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين .

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورة على البدع الأجنبية التي كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها ، فلما أمر الملك « أنطيوخس » كاهن الهيكل أن يضحي في مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة ، وحدث في عهد الرومان أن الوالي « بترونيوس » عجب من عنادهم في مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها فسأل زعماءهم : كيف يخطر لكم أن تحاربوا قيصر ولستم أكفاء لربه ، فقالوا : نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم اننا أكفاء لقوته ، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة ، وكشفوا رقابهم مستعدين

لاثبات ما يقولون . .

***

ومن نقائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم في تعميم الشعائر التي كانت محصورة في المحاريب هي التي دعتهم الى اقامة هذه الشعائر في البيوت بغير حاجة الى الكهان المرسومين ، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلا مقدس المراسم . . فكانوا على ميلهم الى السماحة ومقاومة الاستبداد « الرسمي » أشد من المتشددين .

الا أن الغالب عليهم حين يبتعدون عن الأمور التي تتعرض لهذه النقائض انهم أقرب الى التصرف والقياس ، أو أقرب الى تحكيم العقل في مسائل النصوص والتقاليد ، فكان الصدوقيون مثلا يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية ، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص ، وكان الصدوقيون اقرب الى المادية والقواعد العملية وكانوا هم اقرب الى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير ، وقد كان انكار البعث والحياة الروحية أشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين ، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل الى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص في عالم الروح ، غير مقيد بشرط الصولة والصولجان .

واذا وصف الصدوقيون على الاجمال بأنهم طبقة « الارستقراطيين » فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود في ذلك العصر هم الفريسيون . .

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون الى فريقين : فريق منهما يتبع الحكيم « هلل » الذي قدم الى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود في معاملة الأجانب ، والفريق الآخر يتبع الحكيم « شماي » وهو أقرب الى التحرج والتضييق ورد الراغبين في دخول الدين من غير اليهود ، وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة : « ان الزيادة في اللحم زيادة في الدود » ، وشريعته في المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهي ألا تصيب أحداً بما تكره أن تصاب به ، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل ، وأما الحكيم « شماي » فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق ، وروي انه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله ، وان غيرته على

القديم أقوى من اقباله على التجديد والتصرف في تأويل النصوص . .

والقول الراجح بين المؤرخين ان معلمي السيد المسيح في صباه كانوا من طائفة الفريسيين .

* * *

والطائفة الثالثة التي تقل عن هاتين الطائفتين في العدد كثيراً أو تساويهما أو تزيد عليهما في القوة والاثر هي طائفة الآسين أو الأسينيين ـ كما يكتبها رواة الاخبار عنها في عصر الميلاد .

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم في جنوب فلسطين .

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة . . وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم ، لأنهم طائفة من صميم الأمة الاسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن « الهيكل » كله في علاقتها بالدين والقومية ، ولولا انها تعترف بتقريب القرابين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه ، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة ان الاسم مأخوذ من كلمة « آسي » بمعنى الطبيب أو النطاسي في اللغة الارامية ، وهي تفيد هذا المعنى في اللغة العربية التي تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية اليها ، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات والأوراد ، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير .

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد ، واقتبست من مدارس الاسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثاغورث الذي يحرم ذبح الحيوان ، ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل . .

وكان حراماً عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الأمتعة والأقوات ، وكانت الرهبانية غالبة عليهم الا من أذن له

بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة . .

***

وكانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات : درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم ، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة في الرياضة والتدرب على العبادة والاطلاع على الأسرار ، ثم ينقل المريد الى درجة الواصلين ويقضي فيها سنتين ، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس في يده ، كناية عن العمل الشاق ، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الأساتذة ، منها الاغتسال ، وتلاوة بعض العهود ، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة ، ويحرم عليه القسم بالحق أو الباطل مدى الحياة ، ويجوز فصل العضو بعد رسمه اذا حنث في يمينه واتفق مائة من الاخوان على ادانته ، بل يجوز الحكم عليه بالموت اذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الايمان . .

وهم يتطهرون من الحدث ، ويصلون عند الفجر ، ويحافظون على الراحة في يوم السبت ، ومنهم من لا يستبيح في ذلك اليوم ازالة الضرورات . .

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ، والرق عندهم حرام ، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية . أما التجارة فهي في مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق ، وأخبث منها حمل السلاح للقتال .

والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة ، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح ، وهو عالم سماوي في أعلى الأثير يرتفع اليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت .

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون في المدن الآهلة بالسكان أو في الأحياء التي يرتادها القصاد للفرجة وازجاء الفراغ .

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم

في طلب الرضا من الله هو النبي عاموس الذي كان يعلم الشعب أن التقرب الى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب اليه بالذبائح والهدايا .

ولا يبعد أن يكون الغلاة أو الجليليون أتباع يهودا الجليلي فرقة متطرفة من فرق الآسين ، لأنهم يسلكون مسلكهم في التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص ، وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات في السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الاحصاء الذي صدر من « كرينياس » حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا قيصر ، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة . وحجتهم ان طاعة القيصر من عبادة الأوثان ، وان احصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة. ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصري فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاة اليه وانتزعاه عنوة وأنذر اخوانهما من يعيده الى مكانه بالموت ، وقد ثار هؤلاء في سنة الاحصاء بقيادة يهودا الجليلي ومات هو وأبناؤه وذووه في ابان الثورة ، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة في هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث ، فكانت تؤثر التقية والمداراة في معاملة الثائرين ، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة الا اذا ضاقت بها سبل الحلم والاناة . .

والطائفة السامرية خليط من اليهود والأشوريين كانوا يقيمون في مملكة اسرائيل القديمة ، يقال انهم قبائل أشورية أرسلها ملوك بابل الى فلسطين ليسكنوها في أماكن القبائل اليهودية التي نقلت الى ما بين النهرين وسميت من أجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال انهم اختلطوا باليهود الذين بقوا في بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية الى بلادها مع القبائل المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط في السكن والنسب اختلاط في العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبي بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان ، ورفضوا مشاركتهم في بناء الهيكل الجديد ، فعمد السامريون الى بناء هيكل خاص لهم في جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة في هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم . وقد بقي منافساً لهيكل بيت المقدس زهاء مائتي سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة ، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائماً حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين في القرن الخامس للميلاد ،

وقد هدم فسباسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة « نيوبوليس » أو نابلس المعروفة اليوم ، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها ، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التي تعرف بالكتب الموسوية ، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم ، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين في عصر الميلاد حتى بطل الأمان في السفر بين السامرة والبلاد الأخرى ، وتعرض للاهانة والنكال كل من خاطر بالسفر الى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال .

***

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ، ويرجع شأنهم هذا الى النزاع القديم بين مملكة يهودا في الجنوب ومملكة اسرائيل التي ورثها السامريون ، وهم ينسبون الى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم « الاسرائيليين » .

فاذا اعتقد أصحاب مملكة يهودا في الجنوب أن عاصمتهم - بيت المقدس - هي مقر الملك المنتظر ، وان هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد الى دولتهم ويجعل الخلاص على أيديهم ، ولكن السامريين أبناء الشمال كانوا يلجون في عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الأسباط ، وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدي ملك من أسرة الملك في يهودا ويفتحون بذلك السبيل الى الايمان بالخلاص الروحاني والهداية الشعبية ويزعزعون الثقة في أحبار الهيكل الجنوبي وفيمن عسى أن يبايعوه بالملك ، اذا حان الموعد المقدور . .

***

ولم تخل البلاد جميعاً - مع هذا - من اناس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنحل واعتزلوا الدنيا وعاشوا في الصوامع بمعزل عن العمران ، وارتفع شأنهم في أعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المغامسين للدنيا في بيئات الساسة والكهان ، ومن هؤلاء « بانوس » الذي تتلمذ عليه يوسيفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات . وكان هذا الناسك الثائر يعيش في عزلة ويأكل مما يتفق له بغير سعي ولا مسألة ، ويكثر من التطهر بالماء والتزكي بالرياضة والتلاوة ، وكان على مثال

بانوس نساك متعددون يشبهونه في شعائر الاعتزال والاغتسال ، وأشرهم يحيى المغتسل المعروف في الأناجيل باسم يوحنا المعمدان .

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف « الرسمي » المعهود . . وأما موقف المسؤولين الذين يحاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا أو ذاك ، ويجتهدون غاية اجتهادهم ان يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة ، فقلما يتيسر لهم النجاح في هذه المهمة . ولا سيما في أوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود .

كان الهيكل خيمة في عهد البداوة ، وكان الشعب يعتقد قديماً ان الله يتجلى في هذه الخيمة للأنبياء والكهان ، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل في أيام التيه ، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبي ، وقيل انه أنفق على بنائه مائة ألف وزنة من الذهب ، وألف ألف وزنة من الفضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابه ، وبلغت تكاليف بنائه بحساب أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك في حساب الآخرين حسب تقدير المثقال في المغاملات الرسمية وغير الرسمية ، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردحاً من الزمن ، ثم هدمه البابليون بعد أن قام في مجده أكثر من أربعة قرون ، ثم أمر كورش الفارسي باعادة بنائه في سنة ٥٣٦ قبل الميلاد ، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف اليه ، وتم ذلك أو كاد في عصر الميلاد . .

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة ، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى في الحقيقة الواقعة ويتمكن في الصورة الظاهرة : يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة ، ويتمكن لأنه كان الموئل الوحيد الذي بقي لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من اعادة ذلك الملك ، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب في عصر الميلاد . .

***

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة في أصحاب الكهانة ، وهي وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته لا يتولاها غيرهم من أسباط اليهود ، ومن أعمالهم في الهيكل امامة الصلاة والافتاء في مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية في الأعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة ، وقد تزايد

عددهم مع الزمن حتى قيل ان القائد زربابل (أي المولود في بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين ، ولهذا كانوا يقسمونهم الى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياماً من الشهر ويقتسمون جميعاً النذور والمرتبات . .

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل ، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون في تعليم الشعب ولا في اقامة الصلوات ، ووجد الى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه وهؤلاء هم جماعة « الكتبة » أو فقهاء الدين ، وكانوا جميعاً من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات ، خلافاً للصدوقيين الذين كانوا - كما تقدم - يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء . .

***

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون في صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون في الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون في العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين ، وشاع بين الشعب اهمال الكهان في المسائل الدينية التي تحتاج الى التعليم والافتاء على الخصوص وشاع بين الشعب كذلك الاقبال على العلماء « غير الوراثيين أو غير الرسميين » لسؤالهم في المعضلات والاقتداء بهم في مسالك الحياة ، فأصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص . .

ولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة في المجمع المقدس الذي يطلق عليه اسم « السنهدرين » وعدد أعضائه واحد وسبعون عضواً منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية ، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة في الشؤون العامة وما يرجع منها الى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية .

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب في « السنهدرين » أن يرجعوا بأصله الى أقدم العهود ، وكانوا يزعمون انه هو المجلس الذي ورد ذكره في سفر العدد اذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع الي سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك ، فأنزل أنا وأتكلم معك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله أنت وحدك » . .

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين ، الا اشارة عابرة هنا وهناك لا يستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ، ومما لا ريب فيه أن المجلس الذي كان في عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم في الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثاني بنحو أربعين سنة ، وكانت أحكامه الكبرى في أيام المسيح معلقة على اقرار الحاكم الروماني يبرمها أو ينقضها حين يشاء .

***

واذا نظرنا الى موقف هذه الهيئة من بشرى « المسيح المنتظر » لم نكد نرى فيها باعثاً الى الترحيب بتلك البشرى ، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شؤون الدين بين أهله ، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هي باب الأمل الوحيد في وجه المؤمنين والمترقبين ، فهي في موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه ، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الاقبال عليها ومخايل الأمل في شيوعها وانتشارها ، وهي اذا انتشرت لم يكن انتشارها في مثل ذلك العهد مقصوراً على الدهماء دون غيرهم ، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذي يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون ، لأنهم ـ آخر الزمان ـ هم الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب . .

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التي كان لها عمل محسوس في موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الاشارة الى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود : يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التي تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا آحاداً متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حدة ، ولا ينتسبون الى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها . .

والكلمة باللغة العربية ترجع الى مادة تفيد معنى التجنيد واستعيرت الى ما يظهر للجهاد في سبيل الدين ، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة أي طليعة ، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت ، ولا شك ان المادة تدور حول هذا المعنى في العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان .

***

ولا يشترط في النذري أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس في الصوامع ولكنه يراض عل حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة ، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره ان كان منذوراً لأجل مسمى ، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته ، ويقال عن المنذور انه بمثابة النبي في سن الفتوة ، قال النبي عاموس بلسان يهوا اله بني اسرائيل : « وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين . . لكنكم سقيتم النذيرين خمراً وأوصيتم الأنبياء أن يدعوا النبوءة » والنبوة هنا بمعنى الانذار بما سيكون . .

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري ، وهو الموعد الذي كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهي كألف سنة كما جاء في المزامير ، وأن عمر الدنيا أسبوع الهي ، تنقضي ستة أيام منه في العناء والشقاء ويأتي اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم السبت للراحة والسكينة . فيدوم ألف سنة كاملة هي فترة الخير والسلام قبل فناء العالم ، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinnum ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام .

فالذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض الى نهاية الألف السادسة ، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم في انتظار رسول من عند الله

كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف الخامسة موعداً منظوراً يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه .

***

والمهم في أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح أن النبي يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علماً من أعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه ، وان بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبسَ عليه الأمر بين النذيري والناصري وهما في اللفظ العبري متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح في اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديماً ، وانها كانت مرقباً صالحاً للاستطلاع لأن التلول التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير ، وبهذا تزول الصعوبة التي اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولاسيما الناظرين في اللغة اليونانية ، لغة الأناجيل ، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللساني فلا يفرقوا بين النسبة الى المنذورين والنسبة الى النذيرة ، وبخاصة اذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين . .

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون الى كل مذهب يوافق حمية الشباب ، وهذا الذي جعلهم قوة ذات بال في عصر الميلاد خاصة ، لأنهم جميعاً فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح ، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة الى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والاصغاء إليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود . .

الحياة السياسية والاجتماعية

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباي » الذي قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة « سبارتاكوس » المشهور . .

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التي أضافت الى مجد بومباي وخلدت ذكره بين أبطال الرومان ، ولكن هذه العظائم تضفي على الأبطال والدول مجداً لا ينطوي على خير كبير . . فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التي لم يعرف لها مثيل في ثورات العبيد الأقدمين ، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التي تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن في بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات ، ولولا خلل في كيان المجتمع لما اشتمل على أضعاف هذا العدد من الأرقاء المسخرين الذين ينظرون الى مجد رومة نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به الى الحضيض . .

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول « عبد » شرقي ثائر على الدولة الرومانية ، بل سبقه رفيق آخر من البلاد الشرقية الى الثورة في صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشاً استقر في الجزيرة عشر سنين ، وهذه هي الثورة التي تجلى قائدها « أونس » لأتباعه في صورة النبي المرسل وفي شارة الملك المتوج بيد الله ، وكان أصله في سورية وكثير من أتباعه شرقيون .

وقد سبقت ثورة أونس السوري ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف ولم تخل احداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها ، وكانت واحدة منها في آسيا الصغرى تنشىء لها حكومة تسميها حكومة « الشمس » رمزاً الى عبادة النور والحرية ، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون في صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان . .

***

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافياً على المصلحين من ساسة الرومان في الأجيال القريبة التي سبقت ميلاد السيد المسيح ، فأرادوا اصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة الى الشريعة التي تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان ، وظن كايوس جراشس Grachus انه يعالج الآفة بانشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين ، واضطر هو وأخوه الى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها ، ولكن عوامل الخراب كانت في تلك الأجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح ، فلما حاول يوليوس فيلبس في سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال في خطابه « التفسيري » كما روى شيشرون : « ان ملاك الأرض في مدينة رومة لا يزيدون على ألفين » . . وازدادت هذه الحالة سوءاً في عصر أوغسطس المجيد كما يوصف في التواريخ ، فآلت المستعمرة الافريقية الى قبضة ستة من المتبطلين ، وفيها ألوف من الأرقاء المسخرين . .

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذي قال فيه السيد المسيح في رواية الحواري متى « ان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه » .

والواقع انه كان عصراً مجيداً بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية ، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه : فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين ، وألقت رومة بكل اعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سنداً لا غنى عنه ، وانتهت بها الحاجة الى تلك القوة انها ألقت بنفسها على مذبحها ، فباعتها حريتها وكرامتها . . وضيعت الجمهورية في سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر الى مقام الربوبية المعبودة ، فخلعت

على القيصر أوغسطس لقب اله ، وقررت عبادته مع الآلهة ورصدت له شهراً في السنة لا يزال معروفاً باسمه الى اليوم ، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم ، حتى عز عليها آخر الأمر أن تجد القياصرة العسكريين .

***

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين : ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية ، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن في المجتمع ، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع افراط النعيم حتى السأم من الحياة ، وافراط الشقاء حتى النقمة على الحياة ، فصدق في رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذي كسب العالم وضيع نفسه ، فضاع وأضاع .

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية في فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها ، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قراراً في مدى عشرين سنة ، وانقسم رأي القوم وشعورهم بين الدولتين : منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان ، واشتد التناحر بين الفريقين اشتداداً خرج بهم الى ضراوة الوحشية في مناصب الدين فضلا عن مناصب الدنيا ، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان في بيت المقدس ، وكان أنصار الفرس يرشحون الى رئاسة الكهنة انتيجونس بن اورسطبوتس. فقبض هذا بيديه على مزاحمه هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه ، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طوال حياته ، اذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوي العاهات .

وكان في البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصانة والحزم على رأس قبائل الأدوميين، عرف بفراسته وبعد نظره أن الكفة الراجحة في النزاع على فلسطين لدولة الرومان ، فانضوى اليها واستبسل في معونتها ، فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكاً على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح ، وكافأهم هو بالتمادي في محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت اليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية في وقت واحد ، فتغالى في الغيرة اليهودية التي كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة ، وتغالى في

محاكاة الرومان والاغريق بالأزياء والمساكن والشارات والأسماء وتكفل باتمام بناء الهيكل على نفقته . . ثم تكفل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه « المترومنين » ان صح هذا التعبير ، لعلهم يدارون شططه في محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية ، كلما احتاج الى التوفيق بين النقيضين .

***

ومع هذا الجهد المضنى فى التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه اشد الغضب من ابناء دينه ، وحدث قبيل وفاته أن طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وانصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة وأمر بأجناده فحملوه الى المحكمة ، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء !! . . وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم اذا مات ، قبل اعلان وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه ، فلا يمتعهم في ذلك اليوم بالفرح الذي ترقبوه .

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة ، فوقعت الجليل ـ حيث ولد السيد المسيح ـ في حصة هيرود الثاني انتيباس ، ووقعت اليهودية في حصة ارخلاوس ، ووقعت مشارف الشام في حصة فيليب ، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك الى رومة ليتلقى عهد الامارة من يدي القيصر ، فهذا الذي يشير اليه السيد المسيح في مثله المشهور كما رواه الحواري لوقا حيث يقول ما فحواه : « كان انساناً شريف النسب ذهب الى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكاً ويرجع . . وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفراءهم يقولون : « لا نريده ملكاً علينا » .

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة في ولاياتهم ، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشرة وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم الى التنافس بينهم في مرضاتها ، وتتخذهم جميعاً درعاً تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين .

***

ومن المتواتر ـ مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتي بعد ـ أن السيد المسيح ولد في أعقاب ثورة جائحة اشتعلت في أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ،

وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لأنهم هبوا في وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالاحصاء العام . . وليس الاحصاء بطبيعة الحال سبباً مباشراً لاشعال نار الثورة بين ابناء أمة مطمئنة ، ولكنه أشعل نار الثورة فعلا لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين . احداهما ، مشكلة الاعتراف بملك غير « يهوا » الذي يؤمن الشعب اليهودي انه هو الاله وهو الملك ، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليهما بالضربات والمحن ولا يغفرهما له الا بعد كفارة تضيع فيها الارواح والأموال ، فاذا دان اليهودي لملك غير « يهوا » أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان . وقد حسب الشعب الاسرائيلي ان الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فرداً فرداً وتقييدهم عبيداً للقيصر مطالبين بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه ، وكان فقهاء اليهود يذعنون للجزية وهي تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذي لا يخص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والأقاليم ، ولكنهم كانوا ينكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك في تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث اليه ، ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه أمام جمهرة الشعب عن أداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز . . فأرسلوا اليه تلاميذهم من الهيروديين قائلين : « يا معلم : انك صادق تعلم بالحق ولا تبالي احدا لأنك لا تنظر الى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن ؟ . . أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا يجوز ؟ . . ». فكان جوابه المشهور : « أروني معاملة الجزية ! . . » ونظر الى الدينار الروماني فسألهم : « لمن هذه الصورة والكتابة ؟ . . » فلما أجابوه انها لقيصر قال لهم : « اعطوا اذن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . . » وأسكتهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية ، ولو كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة منهم ، وهي التي ثارت عند تقرير الاحصاء العام .

أما المشكلة الأخرى التي أثارها تقرير الاحصاء فهي مشكلة الضريبة وعسف الجباة في تحصيلها ، فقد كان اليهودي يؤدي ضريبتين : احداهما للهيكل ، والأخرى للدولة ، وقد جاء في الأناجيل ان رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه ، وانه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان : « ما تظن يا سمعان ؟ . . ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو

الجزية ؟ . . من بينهم أم من الأجانب ؟ . . » قال له التلميذ : : « بل من الأجانب . . » فقال السيد المسيح : « اذن فان البنين أحرار » ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ .

وقد كان أداء ضريبتين عبئاً فوق طاقة الفقراء ، ولكنه ـ مع العسف في تحصيل ضريبة الدولة ـ كان عبئاً لا يطيقه الموسورون فضلا عن الفقراء ، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة . فاذا حان الموعد السنوي فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام ، وكان الجباة او العشارون يأخذون لأنفسهم شيئاً غير الذي يسلمونه للملتزم ، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئاً غير الذي يسلمه لخزانة الدولة ، فكان المال المحصل يربى على ضعفي المال المطلوب ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة الى الشعب وكان الشعب الاسرائيلي لا يغتفر لاناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب ويبتزوا المال حراماً من أرزاق المعوزين ، ومن ثم كان انكارهم على السيد المسيح انه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع الى مناجاتهم ، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالأمانة في الجباية . . يسألونه : يا معلم ! . . ماذا نفعل ؟ . . فيقول لهم : لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم ، ويقول للجند الذين يصاحبونهم : لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحد ، واكتفوا بعلائفكم ، لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس ! . .

فلما صدر الأمر بالاحصاء العام توهم الدهماء ان الدولة لا تكتفي بما تحصله جملة وتنوي أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فرداً فرداً مع الشطط في تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعي الثورة من الغلاة ، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة الى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون .

ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والأوربيين أن الحالة السياسية في فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون ، ولكنها على افراطها في السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية في الدلالة على القنوط وعموم البلاء ، وحسب القارىء ان يتصفح الأناجيل كائناً ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكي تتمثل له حالة البؤس واليأس التي كانت ترين على القرى والمدن في اقاليم فلسطين ، ولا سيما

اقليم الجليل الذي تواترت الروايات عنه ، فحيثما كتب الانجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج ، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والأطراف ، وبينهم من يقال عنه ان جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار ، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشبان والكهول في مختلف الأعمار ، وهذا الى أمراض البرص والنزيف والصرع الذي لا يقترن بالجنون .

واذا كانت هذه هي الحالات البارزة فالى جانبها ولا شك حالات أخرى دونها في الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التي فشت في ذلك المجتمع وتركته مهيض الأعصاب عرضة للسخط والهياج ، ويضاف الى هذا ان عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الاساة الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحاني ويعتمدون على قوة الايمان وطهارة المعيشة في التطبيب والعلاج ، واذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصراً مهيض الأعصاب فنحن نلتفت التفاتاً خاصاً الى هذه الظاهرة التي تشير الى الحالة النفسية في جملتها ، فليس أحوج من عصر كذلك العصر الى السكينة وثقة الايمان وليس أشد منه تعطشاً الى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه الى الهادي الذي يرجى على يديه التسليم والتطهير ، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل في وجهتها عمل الرواد السابقين .

وقد كان اقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل او يوحنا المعمدان وان لم يكن هو الرائد الوحيد في طريق الرسالة والنبوة ، فجعل للتطهير رمزاً من الاغتسال بالماء ، وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه وهو بلاط الملك هيرود ، فانها البؤرة التي استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الاخوة والأبناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبي على التطهير كفؤا لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة ، وقضي على الرسول أن يكون عاجل الرسالة في حملته الصراح وخرج

من الميدان شهيداً يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبي هدية لراقصة مبذولة الجسد، ولا جرم يكون عصر « يحيى المغتسل » عصر رسالة عاجلة أو عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ثم تبدأ المعركة التي تستوفي الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء . .

الحياة الدينية

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت في حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ما عدا الشرق الأقصى ، وأصبح من رعاياها اناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت في رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند الى الشواطىء الأطلسية وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم الى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس أن ينظروا الى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية .

وأعظم من هذه النظرة العالمية أثراً في موضوعنا ـ عبقرية المسيح ـ ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجري من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى ، خلافاً لما يسبق الى الظن من غلبة العقائد تبعاً لغلبة القوة السياسية .

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من أطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك ان عقائد الشرق هي التي غلبت على رومة وأتباعها ، وهي التي انتقلت من الأمم المحكومة الى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هذه

القاعدة ، بل كانت تطبيقاً جديداً لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها .

وليس في الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر الى الذهن لأول وهلة ، فان سريان العقائد من الشرق الى الغرب في تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التي تؤيدها جميع الأسباب ولا يعوزها سبب واحد صالح للتعليل . .

***

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقاً للقياصرة وموافقاً للرعايا في وقت واحد ، فقد كان القياصرة يطمعون في الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد في الشرق يعلنون حلول الألوهية في اجسام الملوك ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالاسكندر ابنا للاله « آمون » خبراً يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه ، وجر هذا المطمع الغريب الى فتنة عنيفة في وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس - خليفة الاسكندر - يطلب الربوبية وسمى نفسه بالالهي أو صاحب الشارة الالهية .

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطاً من الشعوب المختلفة ، وسرى هذا الاختلاط الى الجيوش التي كانوا يسوقونها الى المشرق ويتركونها فيه زمناً ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الأحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء في العاصمة ، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشارقة كما حدث في عهد الاسكندر - وأن يطلب الربوبية من القياصرة . .

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم انه هو مهبط الأسرار العلوية ، وانه يعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية ، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون الى بواطن الديانات ، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة الى المجوس ، والسحر البابلي في كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم الى الزمن الحديث ، وتوقيت الزمن بالأسابيع التي يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقي موغل في القدم ، لا تزال بقاياه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب . .

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر ، ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء

وأسرارها ، ما دامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاؤون ، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء !..

لهذا زحفت على العالم الروحاني نحلة « مثرا »، ونحلة « ايزيس »، ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نحلة أورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى ، ومرجعها هي أيضاً الى الشرق القديم .

***

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية في أقصى أقطار الدولة الرومانية من المغرب : شوهدت في آثار السور الروماني بالبلاد الانجليزية كما شوهدت في غيرها ، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لأن « مثرا » كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين : احداهما ، صفة النور الذي يبدد الظلام، والحق الذي يمحق الباطل ، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذي قيل فى كتاب المجوس المعروف بكتاب « الافستا » انه يسوق جحافله منتصراً لتغليب إله الخير أورمزد على إله الشر اهريمان وهو كذلك إله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل ، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره في أعمالهم الليلية ، ويعتقدون انه يولد في الجسد الآدمي كما يولد الفقراء في كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف ، وربما حببه الى العباد ذلك الحنين المعهود في الناس الى استطلاع الأسرار والطموح الى الترقي في درجات العلم بالمجهول ، فقد كانت لعباده درجات سبع يتنقلون فيها من درجة الى درجة على أيدي الأئمة المختارين ، ويتعاطون الشعائر في كل احتفال سراً أو جهراً على ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذي يوضع على اللسان رمزاً الى حلاوة الايمان .

واقترنت نحلة « ايزيس » المصرية بنحلة « مثرا » الفارسية في غرو بلاد الرومان واليونان ، فسماها اليونان « ديمتر » ونحلوها صفتها المصرية وهي صفة الأمومة الكبرى او صفة الطبيعة الأم ، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون لها صوراً جميلة تنم على الطهارة والحنان وفي حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمزاً للأمومة والبر والبراءة ، وكان كهانها يحلقون رؤوسهم في الغرب ، محاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والأسرة ، ومن ثم شيوع

عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة وتقديس حقوق الآباء ، ولا شك ان المراسم السرية التي تلازم نحلة « ايزيس » كان لها أثرها في تشويق الناس الى انتحالها كما كان لها مثل هذا الأثر في عبادة « مثرا » وما شابهها من العبادات .

وخرجت من مصر أيضاً نحلة قوية على قلة عدد المنتمين اليها ، وهي نحلة المتنطسين Therapeuts التي ذكرها الحكيم الاسكندري ، اليهودي فيلون ، وقال ان أتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك في الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ورياضة الروح والجسد واسمهم اليوناني معناه الاساة او المتنطسون ، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول مريوط القديمة ، ويظن بعض المؤرخين ان هؤلاء المتنطسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الأسينيين ، وأشرنا اليهم في الكلام على فرق اليهود . .

ومما يلاحظ ان نحلة « اورفيوس » اليونانية لم يكن لها من الاشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة ، ولعلهم كانوا يحسبون « الأسرار الدينية » اختصاصاً للشرق القديم ويرجعون الى اليونان في مسائل الفلسفة والفن والخطابة ، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة « الاورفية » الى ديانة شرقية تجري على سنة الشرق في التقشف والأخوة الروحية ، وقد نشأت الأورفية اليونانية نشأة فنية وقيل في وصف أورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهي تصغي اليه ثم اصبح التأليف بين الضواري والنعم رمزاً الى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الأقوياء ، وجاء عصر الميلاد والاورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيضاء ولا يذوقون الخمر الا في مواسم القربان ، واحتفظوا بعقيدة اليونان الأقدمين في أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا انه يزور عالم الموتى ويعود منه ، وجعلوا لهم موعداً يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه ، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس اله الربيع ، وكثيراً ما قيل في كتب المقابلة بين الأديان أن أتون الاله المصري وادونيس الاله اليوناني وأدوناي بمعنى السيد أو الرب باللغة العبرية أسماء عدة ترجع الى مصدرها المصري القديم .

***

ومن الواضح أن هذه النحل التي كانت تصطفي الأعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الأمم كافة بظواهرها وخوافيها ، وانما كانت في جوهرها أشبه بالروابط والجماعات التي تضم اليها المشتغلين بغرض واحد او المثقفين في المزاج والعاطفة ، وكانت أقرب الى الجماعات الفنية الرياضية التي تقوم على تخير الأذواق وتوحيد العلاقات بين الأشباه والنظراء ، فكان طلابها جميعاً من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون ان هذه الحقائق سر من أسرار العلم والدراية يهديهم اليه الحكماء المجربون ، وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم في الشعائر العامة فانصرفوا عنها الى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير في جو من الالفة واتفاق المطالب النفسية والفكرية ، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية او فنية فهي عنده بمثابة الأندية التي تصون روادها من الاخلاط و« الاغيار » ولا سيما الاغيار من ذوي الجهالة والاسفاف .

ولكن الدلالة الكبرى التي تتجمع من شيوع هذه النحل في عصر الميلاد انها « أولا » علامة على طلب الاعتقاد واحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء في جو التقاليد والمعتقدات .

وانها « ثانياً » علامة على الوجهة العالمية التي أخذت تسري في أنحاء العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية ، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على أحد من أجل جنسه وأصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها الى أعلاها .

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيراً بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها ، وكانت على دأبها سادرة في عاداتها ومألوفاتها ، ولكنها لم تخل في هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين أتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعاً بين حين وآخر محافل الأعياد العامة، التي تقام لهذا « الرب » اولتلك « الربة » أو تتردد في مواسم الطبيعة بصبغتها التي كانت تمتزج بالدين على عادة الأقدمين ، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه ، اذ كان القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة

من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها ، ومن اللعب الذي لا يكلف الدولة شيئاً أن تفرح جماهير العامة بالأعياد وتتسابق في المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة ، فذلك أسلم من التنازع والفتنة والصدام .

وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ في العالم المعمور انها كانت حياة تقليد أو حياة تطلع ورغبة في الاعتقاد عن بحث وبينة انفة من عقائد التقليد ، وانها كانت تجري في مجراها الى « العالمية » التي تعم الناس ولا تخص كل امة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها ، وأهم من هذه « العالمية » في النحل والمحافل « عالمية » في اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التي كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون ، فقد كان العبرانيون يؤمنون ان العبرية هي لسان « يهوا » الذي يخاطب به الأنبياء ويناجي به الكهان في المحارب ، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا الى كتب الوحي باللغة الآرامية ، وما يشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة الى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة الى مداها في عصر الميلاد وما بعده ، فكانت الآرامية هي اللغة التي بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هي لغة الأناجيل ، وكانت السريانية هي لغة التوراة والانجيل معاً ولما ينقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح .

***

وأهم الظواهر التي تسجل في سياق الكلام على الشؤون الدينية العامة قبيل الميلاد أن العقائد الوثنية كانت في حالة أشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الافلاس ، فقد روى المؤرخ سويتنوس ان القيصر أغسطس جمع في سنة « ١٢ قبل الميلاد » قرابة ألفي قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقية وأمر بها فأحرقت علانية ، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها في صندوقين مذهبين ونقلها الى معبد الاله ابولون ، وفي هذا الخبر خلاصة أخبار العقائد الوثنية في ذلك الجيل . .

الحياة الفكرية

كانت المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيراً قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، وأكثرها الفيثاغورية والابيقورية والرواقية ، وهي التي تعنينا فضلا عن شهرتها ، لأنها هي المذاهب التي تتصل بالسلوك والاعتقاد ، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان في عصر يشبه عندهم العصر الذي ولد فيه السيد المسيح ، وهما الابيقورية والرواقية ، فان هذين المذهبين - على تناقضهما - رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية ، وهي حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين .

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في غاية واحدة وهي : طلب السكينة والراحة ، الا ان الفيثاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان أقرب الى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهي جميعاً أقرب الى النشأة الشرقية ، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى . .

وقد كان أتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع في « اخوة » ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التي تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة أو امتناعاً عن بعض العادات ، وقد كانوا يعتقدون في رئيسهم فيثاغوراس انه ابن الاله « ابولون » وانه لم يمت

وسيبعث بعد حين ، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح ، وان الروح في الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الأعمال ، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم ، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح وألا يلتقطوا شيئاً وقع على الأرض ولا يقطعوا الزهر من الشجر ولا ينظروا في المرآة الى جانب النور ، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون انهم يخاطبون أرواحاً تسكنها الى حين ، وعندهم ان الناس درجات : بشر ، وانصاف من بشر وآلهة ، وفيثاغوراس أحد هؤلاء .

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء في اخوته ويوجب المشاركة في الأقوات والمقتنيات التي تصل الى أيدي الجماعة ، ويؤمن أتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت « فرجة » عنده وهي كذلك عند من يشبهونه . فالعالم في رأي الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية ، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين ، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك ، ويقصدها أناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعاً ، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان .

والأفكار الفلسفية نفسها هي وحي من الله ، ويردون اشتقاق الكلمة ثيوري Theory الى اسم الله ثيوس Theos باليونانية فكل حكمة عندهم فهي من الحكمة الالهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة و « الانسجام » بينه وبين موسيقى الكون . . اذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كماله عدد الأربعة ، ولعله كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التي تخلق منها جميع الأشياء .

وقيل ان لهم أغراضاً سياسية وانهم كانوا يتآمرون على الدولة في اجتماعاتهم السرية ، وقد عاش فيثاغوراس في القرن السادس من الميلاد وساح في بقاع العالم المعمور كله ، وبقيت نحلته أو اخوته في جميع الأقطار ، ولاسيما الأقطار التي أقام فيها اليونان المستشرقون .

أما الابيقورية والرواقية فقد ظهرتا في عصر واحد ، وانتشرتا بين المثقفين في

جميع أنحاء العالم المعمور ، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما في الواقع متقاربتان أو يمكن أن تتقاربا عملا على حسب التفسير والسلوك في المعيشة .

***

نشأ ابيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، وولد على القول الأشهر في جزيرة ساموس على مقربة من شواطىء آسيا الصغرى ، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هرباً من الاضطهاد ، وقد أقبل على دراسة الفلسفة وهو في نحو الرابعة عشرة ، وافتتح مدرسته في حديقته المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو في نحو الثلاثين .

واذا قيست فلسفة ابيقور على معيشته الشخصية فهي حياة نساك متقشفين ، لأنه كان يقضي معظم أيامه على الخبز والماء أو على الخبز والجبن ، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات لأنه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وأفضل السرور ما لم يعقب ألماً ولا ندماً ، ولهذا كان يتجنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور « المتحرك » وهو السرور الذي يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء ، وقد كان يقسم السرور الى نوعين : سرور متحرك ، وسرور مستقر أو ساكن ، وأفضلهما كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعني به سرور التأمل والراحة والقناعة . .

وكان ابيقور يقبل في مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجاً في طلب السرور حيث يوجد بريئاً من الألم والندم ، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم « الخير » اذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع ، ومن أعرض عن سرور يستطيعه في غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم .

وقد أنحى ابيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه لأنها محشوة بالخرافات والأكاذيب ، وعلم تلاميذه ان الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شؤون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء ، ولا فرق عنده بين الأرباب والمخلوقات الا في لطافة المادة ونقاوة التركيب ، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود . . ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها الى الأسباب الطبيعية ويرفض كل ما كان مرجعه الى الأرباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبه في السرور والألم ، فان لم يكن في الموت مسرة فهو

خلاص من آلام الحياة ، ولهذا شاع مذهب ابيقور في عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والايمان بالعناية ، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لأن الابيقورية ـ خلافاً للرواقية ـ لا تعفي أصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجباً يثقل على كواهلهم ، ولكنها مع هذا كانت تجمع قواعدها ووصاياها في أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية التي يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الايمان والعبادة .

* * *

واذا أردنا تلخيص المذهب الرواقي في كلمتين اثنتين ، فهاتان الكلمتان هما : الصبر والعفة .

الصبر على الشدائد ، والعفة عن الشهوات ، ولا سعادة للانسان من غير نفسه وضميره ، فمن راض نفسه على مغالبة الألم والحزن وقمع الشهوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لأبناء الفناء ، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون ان الكون كله نظام متناسق يجري على حسب المشيئة الالهية ، والوحي والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه ، ويلتقي الانسان بالعقل مع الآلهة وبالجسد مع الحيوان الأعجم . وفضيلته الانسانية هي أن يطيع العقل ويعصي الجسد ، وعصيانه الجسد هو مقاومة الشهوات ، وطاعته العقل هي طلب المعرفة ، وسعادة الانسان كلها هي السعادة التي تتهيأ له من الاستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم ، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فضول لا خير فيه .

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد ، ولكنهم تدرجوا في الروحانية وانتهى خلفاؤهم في عصر الميلاد وما بعده الى الايمان بحرية الروح في مواجهة المادة ، فالاله الأكبر « زيوس » لا يستطيع أن يجعل الجسد حراً من قيود المادة ولكنه يعطينا قبساً من روحه الالهية ، فنصبح بنعمته اخواناً لا يفرق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة ، وأينما يكونوا فهم مع الله ، لا حاجة بهم الى هيكل أو معبد ، فانما القداسة في النفس التي تعبد وليست القداسة في مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد .

ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التي أثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠ ـ

٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجي زيوس قائلا : « اهدني يا زيوس ، أيها القدر . خذ بيدي الى حيث أردت أن ترسلني . خذ بيدي أتبعك غير ناكص ولا وجل فان خامرني الريب فأحجمت وتريثت فمن اتباعك لا مهرب لي ولا نجاة » .

* * *

ويتبع الرواقي طريق القدر لأنه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى . فان الاله الأكبر لا يريد شراً ولا يخلقه ، وما هذه الشرور التي في الدنيا الا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها ، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة ، واذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التي تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الالهية ، وانما تكون الرحمة فضيلة اذا تبصرت كما يتبصر الاله في قضائه ، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة ، فان الحكيم يحمل في حكمته ترياق كل سر ودواء كل بلاء .

وقد أخذ الرواقيون من الهند ـ بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر ـ ان العالم ينقضي ويعود في دورات أبدية لا تعرف لها نهاية ، واعتقد بعضهم ان أرواح الحكماء تبقى في كل دورة الى نهايتها ، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الأبدية ، وهي النار التي تطهّر جميع الموجودات لتخلص من أوشابها ثم تعود دواليك في وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامة بعد قيامة .

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للأئمة الشرقيين ولاسيما القطبين الكبيرين في هذه المدرسة زينون (٣٤٠ ـ ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥ ـ ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعاً من الفينيقيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن في البلاد الشرقية ، وخلاصة مذهب الامام الرواقي الأكبر ـ زينون ـ كما لخصناه في كتابنا عن الله « ان الاله جوهر ذو مادة Soma وان الكون كله هو قوام جوهر الاله ، وان الاله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وان الناموس Nomos ـ وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthoologos أو الكلمة الحقة ـ هو والاله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة الهية ويعتقد ـ كما أسلفنا ـ ان الفلك ينتهي بالحريق وتستكن في ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها

ومقاديرها ، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام ، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلها وما شابهها من الأسماء تدل على موجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحد منفرداً لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء وأصبح الهواء ماء ، وجرت في الماء مادة الخلق Sparmathos logos كما تجري مادة التوليد في الأحياء ، فبرزت منها مبادىء الأشياء وهي النار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج ، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التي تحرك الهيولى ، وهي قوة عاقلة ؛ لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه ، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لأنه عظيم . ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات ان هي الا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية » .

وآخر الأقطاب الرواقيين قبل الميلاد ـ بوزيدون الذي أشرنا اليه ـ كان يعلم تلاميذه ان الروح لا تفنى بفناء الجسد وانها ترتقي صعداً في السماء على حسب ارتقائها في المعرفة والفضيلة . . فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الأرض ، ومنها ما يحلق بين الأفلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر اليها والاستماع الى ألحانها في مسراها الى يوم القيامة ، وقد كان هذا الحكيم معنياً بالهند في بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنياً بها في بحوثه الفكرية الدينية ، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب « الرواقيون والشكوكيون » Stoics and Sce-ptics ان المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة ، وهي مقياس يوناني يساوي نحو مائة وخمسة وسبعين متراً ، ويقال ان هذا التقدير كان في حساب كولمبس عندما قصد الى الهند من طريق البحار الغربية .

* * *

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذي أعقبته المذاهب الرواقية في العالم الروماني الى اقصى أطرافه ، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والارقاء بعد ظهور امامه الأول ـ زينون ـ بنحو أربعة قرون ، فكان من أئمته العبد الرقيق أبيكتيتس (٦٠ ـ ١٠٠ بعد الميلاد) والأمبراطور الكبير

ماركس أورليوس (١٢١ ـ ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء الى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق وأقاموا فيه . .

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الابيقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين ، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الاسرائيلية كأنهما زيان من ازياء الثقافة التي يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية ، فكان الصدوقيون يميلون الى الابيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأجانب ، ولكنْ شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التي لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها ، تمشياً مع نزعتهم الى التجديد . .

ومن المصادفات التي تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية في العالم الاسرائيلي ان عصر الميلاد أنجب أكبر فلاسفة الاسرائيليين في العصر القديم وهو يهودا فيلون ، الذي ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعده) ومزج في فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولاسيما منبت الاغريقية الاسكندرية ، وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها في الزمن القديم ، وقال انها هي واسطة الله في علاقته بهذا العالم وأخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس ، وعبادة أوزيريس سرابيس التي تأسست بالاسكندرية وتفرعت في أثينا وبومبي وروما وبعض الموانىء الآسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحاً عقلياً يخالف في كثير من المسائل شروحها التقليدية ، وقال في كلامه عن خلق العالم ان موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم في الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة التي تحيط بها الألغاز والزيادات ، وانه روى قصة الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مطابقة للنظام (أو الشريعة) وان النظام مطابق للدنيا ، وان الانسان الذي يتبع النظام ، مواطن صالح للعالم كله ، يسير في عمله وفقاً لمشيئة الطبيعة التي تسير الدنيا كلها وفقاً لمشيئتها .

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الابيقورية ، فقال في كلامه عن ابراهيم مفسراً اسم اسحاق : « ان معنى اسحاق في لغتنا الضاحك . ولكن الضحك

هنا غير الضحك الذي يأتي من سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة ، وهذا هو الفرح . هذا الفرح الذي روى لنا ان الحكيم ابراهام قدمه قرباناً الى الله مبيناً بذلك في هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده اذ الانسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة ، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله » .

ومذهب فيلون في الصلاة ان الانسان يصلي شكراً لله على ما في الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعاً رجالا ونساء ويوناناً وبرابرة ومنها ذات المصلي جسداً وروحاً ومنطقاً وعقلا وحساً ، فان الصلاة على هذا المثال جديرة أن تستجاب .

وينقسم الانسان عند فيلون الى ثلاثة أقسام : وليد الأرض ، ووليد السماء ، ووليد الله ، فوليد الأرض من يطلب متاع الجسد ، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر ، ووليد الله من تجرَّد عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة ، في زمرة الهداة والمرسلين .

* * *

وليس فيلون من دعاة العزلة في الصوامع ، لأن اختلاف المكان لا يصنع شيئاً وانما الخير كله من الله حيث كان ، وهو كائن في كل مكان ، يهدي ركاب الروح الى حيث يشاء .

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال في كلامه عن الشرائع الخاصة : « ان الله لا يفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لأنه مالك كل شيء ومعطي الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ، بل من تقدم اليه بنفسه لا يحتقب شيئاً غير الصدق وخلوص النية أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسيء الأقوال والفعال » .

وقد كان فيلون عالمياً يخاطب بني الانسان كافة . . وكان يقول : إن اسرائيل انما سمي بهذا الاسم لأنه ينظر الى الله ، فكل ناظر الى الله اسرائيل ، ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية ، ولم ينس قط في كلامه عن بني اسرائيل انهم هداة الأمم وانهم أحق عشائر الانسان باعجاب جميع العشائر

فان الأثينيين يرفضون شعائر القدمونيين كما يرفض القدمونيون شعائر الأثينيين ، ولم يعهد في المصريين انهم يأخذون بتقاليد السيثيين أو في السيثيين انهم يأخذون بتقاليد المصريين ، وأهل أوروبة يعرضون عن عادات أهل آسيا ، وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوروبة ، ولكن اليوم السابع الذي يستريح فيه اليهود مرعي الحرمة عند جميع الأقوام ، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من الشهر الحرام في عرف الاغريق ، اذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغري الناس بالافراط في الشراب والطعام وشهوات الأجسام ، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بني اسرائيل .

يقول هذا عن قومه ، في كلامه عن حياة موسى عليه السلام ، ولكنه يقول في كلامه عن الشرائع الخاصة ان اسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، لا يأخذ بناصرهم أحد اذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر ، وذنبهم عند الناس انهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون في المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض الى النفوس « ومع هذا يقول لنا موسى ان يُتْم اسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبِّر الكون الذي وقعت اسرائيل من نصيبه وفُرزت من العالم كما تُفرز بواكير الثمار هدية للخالق والأب الرحيم » .

* * *

تلك غاية الشوط الذي انتهى اليه فيلون في زمنه ولا يعتبر فيلون من الأئمة ذوي الأتباع في الديانة الموسوية ، ولكنه يعتبر نموذجاً صالحاً لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين في اوائل عصر الميلاد .

الفصل الثالث

تاريخ الميلاد

ارض الجليل

متى ولد المسيح

صورة وصفية

ارض الجليل

ولد السيد المسيح بأرض الجليل - أو جليل الأمم - كما كان يسميها الاسرائيليون ، لأنها كانت اقليما مفتوحا لجميع الأمم الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم في زمن من الأزمان .

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة ، يعنون بها الاحاطة ، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الاقامة في بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب . .

وكانت الجليل جزءا من أقاليم الشاطىء الشمالية التي عرفت في التاريخ القديم باسم كنعان ، ثم أطلق عليها اليونان اسم « فينيقية » من اللون الاحمر على ما يظهر ، وهو لون الصخور والجبال .

وقد امتازت كنعان قديما بالموانىء الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض الى خليج فارس الى أقصى المشرق واشتهرت في هذه الموانىء صيدا وصور وحيفا ، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر في صيدا وصور ، لأن الشواطىء الجنوبية خلت في الزمن القديم من الموانىء الصالحة ، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء وهي يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف .

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة في المشرق والمغرب ، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الانسانية ، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية ، ولا سيما

المعارف التي لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة ، حتى تواتر أن تجار الفينقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الأبجدية في بلاد البحر الأبيض ، ومنها انتقلت الى سائر الأمم الأوروبية . .

وقد دخل بعض بلاد الجليل ـ أو كنعان ـ في مملكة داود بعد انشائها ، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم تكن علاقة حرب وعداء ، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم في الصناعة والتجارة ، وجاء في العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان في تشييد الهياكل والقصور اليهودية ، ومن ذلك في سفر الملوك أن سليمان أرسل الى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه أن يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل ، ويقول له : « انك تعلم انه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين » .[1] ومنه وصف المهندس الذي كان أبوه من صدر وأمه من سبط نفتالي ، وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكل عمل في النحاس .

وقد جاء في الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال انهم كانوا يتجرّون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى وغيرها من منقولات الأمم الأخرى . .

واعتمد اليهود على الكنعانيين في شؤون الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة ، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات ، وحدث غير مرة انهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها الى عقائد الكنعانيين ، والى ذلك يشير العهد القديم في سفر القضاة حيث يقول : « وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا اله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر » والى ذلك أيضا يشير العهد القديم في سفر الملوك الأول حيث يقول النبي ايليا : « ان بني اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا انبياءك » الى ان يقول : « وقد ابقيت في اسرائيل سبعة لآف وهم كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله » .

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين في الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل

---

(١) الاصحاح السابع في الملوك الاول .

والسامرة ، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر اليهم أبناء اليهودية نظرتهم الى الخوارج الذين انقطعوا عن أصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم ، وكان الواقع ان أهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهي لغة أهل سورية الداخلية ، أو باليونانية ، وهي لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى ، واقتبسوا كثيرا من مأثورات الفرس والهند والعراق ، لأنهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية ، ويرجح بعض المؤرخين ان الفينيقيين الأقدمين جميعا كانوا من قبائل الخليج الفارسي التي جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطىء بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية . .

***

وبلغ من بغض أهل اليهودية لأبناء ملّتهم في الشمال ان « حنا هير كانوس » المكابي أغار على الأقاليم الشمالية ، ومنها بلاد في السامرة وبلاد في الجليل ، فأعاد من فيها من اليهود الى الجنوب وخيرّ المقيمين في الشمال بين الهجرة أو قبول الختان وشارات اليهودية ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم وأجدادهم أو من البلاد التي استوطنوها منذ زمن طويل ، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم ، ولبث أهل الجليل متهمين منظورا اليهم بعين الريبة والاستغراب .

ومما اتفقت عليه أقوال المؤرخين وتردد كثيرا في روايات التاريخ ان جمهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عربا يتكلمون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة أجنبية يلحظها أهل الجنوب ويميّزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضا على غير روية ، وكذلك عرف الحواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في كل فلسطين .

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم : « انه لا خير يأتي من الجليل » وفي انجيل يوحنا ان نثنائيل عجب حين قال له صاحبه : « اننا وجدنا الذي أنبأ عنه موسى » وانه من الناصرة في الجليل ، فأجابه مستغربا : « أمن الناصرة يجيء شيء صالح ؟ »[1] . .

---

(١) الاصحاح الاول .

وفي انجيل يوحنا أيضا يروى عن رجال الهيكل انهم كانوا يقولون متهكمين : « انه لم يقم نبي قط من الجليل »[1]

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله في نفوس أبناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ، ولكن هذا السبب بعينه هو الذي جعل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة الانسانية التي ترقبها العالم في ذلك العصر ، فما كان من اليسير أنَ تنبثق دعوة الاخاء بين الأمم في كنف الحجر والجمود .

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات ان الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير ، وانها دخلت هي والبادية المجاورة لها في نصيب ابنه هيرود انتيباس . . وربما كان عليه السلام في العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد ، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام ، ولا شك انه في نحو العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التي تقدمتها وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها ، وقد كانت مشكلة التعصب أو مشكلة السماحة الدينية حديث صباه وأول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة ، ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الروماني طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق المرائي وشهد العبث من ذوي السياسة والامارة قبل الأوان ، وأدرك ان العواصم تهدم وتبنى ، وان الدول تدول ، وان الطاغية يتزلف والمتزلف يطغى ، وان مجد الرياء زيف وخواء ، فسبحت نفسه البريئة في آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكي ملكوت السماء في صورة غير هذه الصورة ، تخالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام . .

---

(١) الاصحاح السابع .

متى ولد المسيح ؟

يفهم من رقم التقويم الميلادي أن السيد المسيح ولد في السنة الأولى للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجري العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهي السنة التي دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير Exigus الى تأريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد ، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه الى الآن

ولم يكن الرجل صغيرا في مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع في زمانه فلم يسلم من الخطأ في حساب بضع سنوات ، ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة أربع سنوات الى التقويم القديم الذي يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة ، واعتبروا أن السيد المسيح ولد في سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم . .

أما القول الراجح في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات ، وانه على أصح التقديرات لم يولد في السنة الأولى للميلاد . .

ففي انجيل متى انه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير ، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

وقد جاء في انجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة في السنة الخامسة عشرة

من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين ، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومة ، ومعنى هذا ان السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالي سنة ٧٧٩ رومانية ، وانه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أي قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

ويذكر انجيل لوقا ان القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب ـ أي الاحصاء ـ في كل المسكونة ، وان هذا الاكتتاب الأول جرى اذ كان كيرنيوس واليا على سورية « فذهب الجميع ليكتتبوا كل في مدينته ، وصعد يوسف . . من مدينة الناصرة الى اليهودية . . ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى ، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر » .

والمقصود بالاكتتاب هنا ـ على ما هو ظاهر ـ أمر الاحصاء الذي أشار اليه المؤرخ يوسفوس وأرَّخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة ، فيكون السيد المسيح اذن قد ولد في نحو السنة السابعة للميلاد ، وتكون دعوته قد بدأت وهو في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين ، فان الكاهن اللاوي عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين ، وكان الأحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والافتاء في مسائل الفقه الكبرى ، ولهذا قالوا عن السيد المسيح انه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعي انه يرى ابراهيم ويستمع اليه ، ولو انه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين .

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات ان الاحصاء المشار اليه هو الاحصاء الذي ذكره ترتليان Tertullian وقال انه جرى في عهد ساتورنينس Saturninus والي سورية الى السنة السابعة قبل الميلاد ، فاذا كان هذا هو الاحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة في السنة الأولى للميلاد . .

ومن القرائن التي لا نريد ان نهملها قرينة الكوكب الذي قيل ان كهان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا الى المكان الذي ولد فيه السيد المسيح . .

فمن المعروف ان خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم ، وانهم كانوا في عصر الميلاد يرقبون حادثا جللا في التاريخ البشري حوالي سنة الميلاد ، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المرتقب من حين الى حين ، وكان قران المشتري وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل ، وفي داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الارادة الالهية ، ويكفي أن نذكر بقايا هذه العادة في البقعة الفينيقية الى ما بعد أيام المعري لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت في الزمن القديم ، وقد كان المعري الضرير يعني نفسه بهذه الأرصاد ويقول عن قران المشتري وزحل خاصة في لزومياته :

قران المشتري زحلا يرجى
لايقاظ النواظر من كراها
وهيهات البرية في ضلال
وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رأت الفراقد والثريا
قبائل ثم أضحت في ثراها
تقضى الناس جيلا بعد جيل
وخلفت النجوم كما تراها

***

فاذا كان هذا ما تخلف من العناية بالأرصاد في البقعة الفينيقية الى أيام المعري فليس من الأمانة للبحث أن نهمل قرائن الأرصاد كل الاهمال ، لأننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه .

فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الأفلاك ، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفي ظهور الكوكب الذي رصدوه ، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات ، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات . .

وقد ذكر فردريك فرار في كتابه « حياة المسيح »[1] أن الفلكي الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشتري وزحل حوالي سنة ٧٤٧ رومانية ، ويقول فرار في وصف هذه الظاهرة : « ان قران المشتري وزحل يقع في المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة ، ولكنه يتحول الى مثلث آخر بعد مائتي سنة ، ولا يعود الى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله الا بعد انقضاء سبعمائة وأربع وتسعين سنة وأربعة أشهر واثني عشر يوما ، وقد تراجع كبلر بالحساب فتبين له ان القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية في مثلث التونين أو الحوتين وان المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية . .

ويظهر من هذا الحساب ان تاريخ الميلاد يضاهي التاريخ الذي يستخلص من التقديرات الأخرى على وجه التقريب ، وان السيد المسيح ولد في نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد .

ونعود فنقول ان اثبات الرصد لا يستلزم الايمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الأفلاك . . وكل ما يفهم ، ولا يجوز أن يهمل ، ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور ، ولعل الأناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكي من قبيل ذلك القران في حكم القيصر هادريان ، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الرباني عقيبة ليدحض دعوى المسيحيين ، وسماه ابن الكوكب « باركوكبه بالعبرية » ونقش على العملة التي سكها صورة كوكب ، فعادت الذاكرة بكتاب الأناجيل الى تلك الظاهرة الفلكية النادرة ، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة .

على ان الدراسات الأخيرة في علم المقابلة بين الأديان تسوق المؤرخ الذي يكتب عن تاريخ المسيح حتما الى مبحث عويص أدق جدا من المبحث الذي يدور حول السنة الميلادية ، فان القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق في مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب في وجود الأنبياء والمرسلين وكاد الشك يتناول كل نبي وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام : شكوا في بوذا كما شكوا في ابراهيم وموسى وعيسى . وسرى

---

(١) الجزء الاول ص ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل

الشك الى الأدب كما سرى الى الدين ، فشكوا في شخصية هوميروس وفي شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة في التاريخ انها وجدت فعلا ولكنها لم تصنع ما نسبوه اليها ، ولم تكتب ما ينشر بأسمائها . .

وقد زار فولتير ـ امام الشاكين ـ بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة في شبهاتها عن وجود السيد المسيح ، وكان نابليون يسأل العالم الالماني ويلاند : « هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخي وجد كما وصفوه ؟ » وجاء القرن التاسع عشر وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التي ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفنّدون بها أقوال المؤرخين ويرجحون ان السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال ، وليس من المستطاع في هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو مجملة في هذا الموضوع ، فان أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التي طرقوها وخلاصة البراهين التي شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتاب ، ولكننا نجتزىء بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك في وجود السيد المسيح ، وأحدهما انه عليه السلام لم يذكر في التواريخ القديمة التي فصلت أخبار عصره والآخر ان روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب الى الأساطير والفروض .

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus وتاسيتس Tacitus وسوتينوس Suctonius وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه .

نعم وردت في نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة الى « عيسى القديس » ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة اليه ، ويؤكدون انها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الاشارة الى أعظم الحوادث في ذلك العصر فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الاشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها ، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودي الذي ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول : « انه في ذلك العهد عاش عيسى ذلك الانسان القديس ـ ان جاز أن يسمى انسانا ـ بعدما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود

والاغريق ، وكان هو المسيح »

قالوا : « ان يوسفوس اليهودي الذي مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن ايمان المسيحيين ، ولو انه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم في ثلاثة سطور جاءت عرضاً بغير تعقيب أو تفصيل »

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذي ألف كتابه « مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة » وأدرك به هجمة الشكوك الأولى في سنة ١٨٣٦[1]..

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة في جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التي حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ، وان العبارة نفسها موجودة في النسخة العربية التي تحفظها الطائفة المارونية بلبنان ، وان كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والاغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وان يوسفوس قد أشار في موضع آخر الى جمس اسقف أورشليم حيث قال : « ان حنانا عقد السنهدرين اليهودي وأحضر أمامه جمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة » .

قال هورن : « ولو أن أوسبياس Eusobius أول من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلقا لها لما عدم ناقدا يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن ، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية ، بل كان من الراجح جدا أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة في تاريخهم الأشهر فيفضحوه تفنيدا له وتفنيدا للديانة التي يدعيها » .

وألمع هورن الى الشكوك التي تحيط بتلك العبارة لأنها لم تذكر قط في كلام معروف قبل أوسبياس ، فقال ان هذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا في غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح في نبوءات كتب التوراة . .

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس الى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودي مؤمنا بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر ، ولعله سماه

---

(1) Introduction to the critical study and knowledge of the holy scriptures

« المسيح » رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحا ويعرفونه بشهرته الغالبة . .

أما المؤرخ الروماني تاسيتس الذي كتب تاريخه حوالي سنة (١١٥ ميلادية) فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لايرجع الى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية ، ولم يذكره مباشرة بل أشار الى اسمه في سياق الكلام على حريق رومه حيث قال : « إن الامبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس اياه باحراق المدينة فألقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون الى المسيح الذي حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت في عهد القيصر طيبريوس » .

ولا يعرف الآن علام استند تاسيتس في رواية هذه النسبة ، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح .

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبرا مباشرا عن السيد المسيح ولكنه قال في تاريخه لقيصر كلوديس : « انه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لأن الاسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب ، وكريستس بمعنى المسيح . .

وأيا كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته الا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثاني للميلاد ، وانه كان يحسب ان الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه في ذلك التاريخ .

وقد عاش في عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذي سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبري الذي عاش في الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه من عهد موسى الى نهاية القرن الأول للميلاد ، ولم ترد في تاريخه اشارة مباشرة أو غير مباشرة الى الدعوة المسيحية

تلك خلاصة الحجة التي تقوم على خلو التواريخ المعاصرة من ذكر الدعوة المسيحية في عصرها .

أما الحجة الأخرى وهي حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الأرباب في العبادات الشرقية القديمة ، فهي تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر في ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين ، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه

الحجة من علماء المقابلة بين الأديان المطلعين على أديان المشرق في لغاتها ، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « اثني عشر » الذي يشير الى البروج ويشير الى عدد التلاميذ ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد في يوم الاعتدال الخريفي على حساب الأقدمين ، والاحتفال بيوم الأحد الذي اعتقدوا قديما انه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم في اللغات الأوروبية بهذه النسبة ، وذلك عدا المشابهة في اسم الأم والولادة في المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات .

والغريب في شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيرا مقبولا لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد . . فان التفسيرات التي فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية ، ولا يكفي أن يقال ان أخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه ، وقد توفي بولس الرسول في نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التي ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الألسنة وكان تواترها قديما أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين .

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التي كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص في الأناجيل جميعا غير ثلاث مرات ، فذكر أتباع السيد المسيح باسم المسيحيين في الاصحاح الحادي عشر من أعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لأول مرة في مدينة « انطاكية » ثم جاء في الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريباس انه قال محتجا : « أهون بما تقنعني به أن أصير مسيحيا » وجاء في الاصحاح الرابع من رسالة بطرس : « ان عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم . . . ان أحدكم لا يتألم لأنه قاتل أو سارق أو فاعل شر أو صاحب فضول ، فان تألم لأنه مسيحي فلا يخجل » .

وجملة ما يؤخذ من الكلمة في هذه المواضع الثلاثة انها كانت نسبة ازدراء وتعيير على ألسنة أعداء المسيحيين . . وليس من الصعب أن يضيع الكلام على طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن في غمار التواريخ ، وبخاصة

اذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها طائفة مغضوب عليها في مراجع الدين ومراجع الدولة ، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها ، ولم يحدث قبل ذلك ان طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين ، وهي مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخبار :

***

ويبدو لنا ان نشوة العلم الجديد ـ علم المقابلة بين الاديان ـ هي التي دفعت اصحابها في القرن الثامن عشر الى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فاننا نرى امامنا في هذا العصر ان هذه الشبهات لا تنفي ولا تثبت ، بل لعلها الى الاثبات اقرب منها الى النفي على الاجمال .

نحن نرى في هذا العصر ان اتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم الى وليه المختار كرامات جميع الاولياء الآخرين ، لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك في وقوعها ولكنه يعتقد أن ولياً واحداً هو الجدير باتيانها وهو الولي الذي اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء .

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور أن المشهور في صفة من الصفات تضاف اليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علماً لتلك الصفة في كل ما يروى عنها وينسب اليه ، فالمشهور بالكرم تنسب اليه المكارم جميعاً بغير سند ، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها ان لم تكن تفوقها وتزيد عليها في بابها . .

وينبغي أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد ، وان المسيحيين الأوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه ، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح في يوم كائناً ما كان ، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم[١]. وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد في تاريخ من التواريخ ، ثم اختلفت الكنائس . فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، ويرجح انها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التي كانت تتخذه عيداً

للشمس ، وتعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام ، لأن الاعتدال الخريفي هو الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار . .

ولا يخفى أن بولس الرسول قد ولد في طرسوس وهي مركز من مراكز الديانة المثرية ، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها ، وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيراً لاقناع أتباعها بالدعوة الجديدة ، فلم يزل من سياسة التبشير في جميع الدعوات أن تيسر في هذا الباب ما يستطاع تيسيره ، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون ، اذ نقل الراهب بيد Bede في تاريخ الكنيسة الانجليزية خطاباً لغريغوري الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوي مليتس Mellitus الذي كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ويرى الابقاء عليها « وتحويلها من عبادة الشياطين الى عبادة الاله الحق ، كي يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التي تعود ارتيادها »[1] .

ولا خلاف في تكرار العدد « اثني عشر » في كثير من الديانات ، ولكن تكرار هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به خرافة أو أسطورة غير تاريخية ، وقد كان خليقاً بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة ، اذ أقرب المؤرخين اليهم سوتنيوس صاحب تاريخ « القياصرة الاثني عشر » وكلهم من « الشخصيات التاريخية » .

وفي تاريخ الاسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية وهم يدينون بالولاء لاثني عشر اماماً معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه انه شخصية غير تاريخية . .

على ان النقاد الذين شكوا في وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك في وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا في السيد المسيح انه رمز من رموز العبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويوقفها عن مسيرها ، ولم يصل الى علم هؤلاء النقاد ان اسم يوشع بنْ نون وجد منقوشاً على حجر عند « نوميديا » بشمال افريقية حيث أقام الفينيفيون مستعمرتهم « قارة حداشة » التي عرفت فيما بعد باسم قرطاجة ، وعلى ذلك الحجر الذي كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها : « اننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع

---

(١) كتاب Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde

الطريق يوشع بن نون »[1] . . وليس كاتبو هذا الكلام عن النبي الاسرائيلي ممن يتهمون بالحرص على اثبات وجوده ونفي الشبهات عن سيرته وتاريخه . .

وقد تعب أصاب المقارنات والمقابلات كثيراً في اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهداً قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية ، فمتى حدث في تاريخ الأديان أن أشتاتاً مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج في صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى ؟ . . . ومن هو صاحب الرغبة وصاحب المصلحة في هذه الدعوة ؟ . . وأي شاهد على وجوده في تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ . . وكيف برز هذا العامل التاريخي الديني الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضي جيل واحد ؟ . . ولماذا كان يخفي مصادر الشعار والمراسم الأولى ولا يعلنها الا منسوبة للسيد المسيح ؟ . .

ان استخدام المقارنات والمقابلات في تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخي الأديان من كل ما جمعوه أو فرقوه لينتهوا به الى فرض منقطع النظير . .

***

على ان صناعة النقد التاريخي تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروي في تقرير « شخصية القائل » وتحقيق مكانه من التاريخ ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الأناجيل ينبئنا في هذه الناحية عن كثير . .

فمهما يكن من فصل القول في استقلال كل انجيل أو اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كتاب الأناجيل ، لأنها علامات نفهمها الآن وفاقاً لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل في رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين .

فان روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة الى نهايتها ، ومن التطور المعقول أن تبتدىء الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهي انسانية عالمية ، وأن تبتدىء في تحفظ ومحافظة ثم تنتهي الى الشك والمخالفة ، وأن تبتدىء بقليل من الثقة في شخصية الداعي ثم تنتهي بالثقة التي لا حد لها في نفوس الأتباع والأشياع ، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل دون أن يتعمد

---

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز Chamber's papers

كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم الي معنى تلك الأحوال .

وربما كان أوضح من هذا في الابانة عن شخصية الداعي أن أقواله تتضمن نقداً لجميع المذاهب التي كانت شائعة في عصره ، وان هذه الأقوال تشير الى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود في غير تلك الشخصية . .

فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين .

وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الاباحيين والمتحللين .

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لا تدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين . .

وتنتقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرية بتاتاً ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود .

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والأنبياء ولكنها لا تتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولا تقتدي بها اقتداء التابع للمتبوع .

واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها الى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصي مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغي أن يقع ، لأن التناسق الذي يجري مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ، ولاسيما الدعوات في عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت .

***

هذه علامات « موضوعية » لها شأنها الأكبر في الابانة عن شخصية السيد المسيح ، وأصدق تلك العلامات ، بعد هذا كله ان الدعوة جاءت في ابانها وفاقاً لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ، ولو أن مؤلفاً بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولا يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع . .

صورة وصفية

من أقدم الصور الوصفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع وزعم رواتها انها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية ، رفعها الى مجلس الشيوخ الروماني في عصر الميلاد ، وجاء فيها : « انه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معاً ، فيحبه من يراه ويخشاه . . شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول ، ولكنه في جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت ناعم ، وليس في وجهه شية ، غير انه مشرب بنضرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس في فمه ولا أنفه ما يعاب ، وعيناه زرقاوان تلمعان . . مخيف اذا لام أو أنَّب ، وديع محبب اذا دعا وعلم ، لم يره أحد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكي ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان ، وكلامه متزن رصين لا يميل الى الاطناب ، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال » .

الا ان هذه الرواية مشكوك فيها وفي اسنادها التاريخية ، ومثلها جميع الروايات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده ، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به الا انه مدسوس من أعداء المسيحية في العصور الأولى ، كقول بعضهم انه كان قميئاً أحدب دميم الصورة . فان الشريعة الموسوية كانت تشترط في الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب ، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه ، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب

والدمامة والقماءة معاً ، وأن يخلو الكلام المنسوب الى خصومه أو أنصاره من الاشارة الى ذلك في معرض المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية .

نعم ان الأنبياء في بني اسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة ، ولكن اتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى في طي الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون اليه ليشفيهم من الشوهة والآفة .

***

وليس في الأناجيل اشارة الى سمات السيد المسيح تصريحاً أو تلميحاً يفهم من بين السطور ولكن يؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لأول مرة انه رائع المنظر زكي الشارة ، اذ قال له : « انت ابن الله . انت ملك اسرائيل » . . وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته ، ولكنها على أية حال تحية لا تقال للأحدب ولا للدميم المشنوء . .

غير اننا نفهم من أثر كلامه انه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحي الثقة الى مستمعيه ، وذلك الذي قيل عنه غير مرة انهم أخذتهم كلماته ، لأنه « يتكلم بسلطان » وليس كما يتكلم الكتبة والكهان .

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر يجمع الى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند اليها في حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض أو مكابرة ، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لأن وصاياه مصوغة في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل ارسالا على غير نسق ، ويغلب عليه ايقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس في المقابلة بين الشطور .

وذوق الجمال باد في شعوره كما هو باد في تعبيره وتفكيره ، والتفاته الدائم الى الأزهار والكروم والحدائق التي يكثر من التشبيه بها في أمثاله عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والأعجاب بمحاسن الطبيعة ، وكثيراً ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة ـ بحيرة طبرية ـ منبراً يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم ، ولم يؤثر عنه انه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الخلاء الطلق حيث يقضي سويعات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع في مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء . .

وقد أطبقت روايات الأناجيل على انه كان عظيم الأثر في نفوس النساء ، يتبعنه حيث سار ويصغين اليه في محبة ووقار ، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كأنهن مأسورات مسحورات ، ومنهم من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعجون أفئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء . ولكن الرجل العظيم الذي يجتذب اليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة ويفعمها بحنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة ، أعظم في نفوسهن أثراً من كل عظيم ، وهو الذي من أجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط الظنون . .

لهذا لا نستغرب أن يقال ان قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الانسان الصالح ، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا في نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة ، ومنهن الغواني اللواتي تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع .

***

وقد وصف نفسه بأنه « وديع متواضع الفؤاد » وقال ان الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء ، وتمثلت الوداعة في كثير من أقواله وأفعاله ، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين ، وهي الرحمة التي تبلغ الغاية حين تأتي من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات .

الا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته في رسالته شيمة الرسل جميعاً حين تعلو عندهم أواصر الروح على أواصر اللحم والدم ، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والأمهات . . « من هي أمي ومن هم اخوتي ؟ . . من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي » . . «من ليس معي فهو عليّ ومن لا يجمع معي فهو يفرق » . . « وان كان أحد يأتي اليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته ، حتى نفسه ، فما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً » .

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التي كان يفرضها على مريديه هي الشروط التي لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت ومهما يكن فيها من أساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذي لا خلاف عليه ان التجرد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التي يتأدب بها الجنود في كل ملحمة : جنود الحرب في ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة ، فما بالنا بجنود الحرب في فتوح الروح ومطالب الكمال . .

***

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المخاطر في سبيل الحق والهداية ، ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الاقدام عى الموت وجوباً لا مثنوية فيه ، فالخطر على الروح أولى بالاتقاء من الخطر على الجسد ، وهان موت الجسد اذا كان موت الروح في الحسبان ، فان لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير في المخاطرة . . وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات .

وفي انجيل مرقس ان السيد المسيح نجا بنفسه الى جانب البحر حين علم ان الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لاهلاكه ، وفي سائر الأناجيل انه كان يشكو حزنه وبثه حين أحدق به الخطر ، وانه كان يدعو الله أن يجنبه الكأس التي هو وشيك أن يتجرعها ، وانه كان يقول لتلاميذه : « نفسي جد حزينة . . امكثوا ها هنا واسهروا معي » . . وانه كان يعتب عليهم حين يراهم نياماً على مقربة منه وهو يعاني برحاءه وأشجانه ويقول لهم : ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة ؟ . . ثم قال لهم آخر الأمر وقد حم القضاء : الآن ناموا واستريحوا ! . .

فليس الاقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها في وجه المخاوف والمتالف ، وليس محظوراً على النفس في سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وانما المحظور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح ، وفي غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام .

***

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان السيد المسيح خلق على فطرة أمثاله من أصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية ، وهذه الرياضة الروحية هي التي تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب في أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب أو الابتعاد من طريقهم الى الله . فهم يشرفون على النور حيناً ويحتجبون عنه حيناً ويعودون الى طواياهم في كل حين يحاسبونها على اشراقه أو احتجابه ، ويستبشرون تارة لأنهم يلمحون معالم الطريق ، وينحون على أنفسهم باللائمة تارة لأنهم يتهمونها بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء ، وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبات والاستقرار وتتخذ العدة لليقين والايمان .

لا ريب ان هذه الرياضة هي التي عناها كتّاب الأناجيل بفترة التجربة في البرية حيث تعيش الشياطين ، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس

القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الاقدام والاحجام ، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتخن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة أخرى ، ثم تعاف التجربة لأنها تسليم بالشك حيث ينبغي التسليم بالثقة ، رسالة الله حقيقة بكل فداء وأهل لكل ثمن وكل جزاء ، ولكن من لك أيها الضمير ، انك انت المختار لرسالة الله ؟ . . أو تطلب البرهان ؟ . . فمن أين لك أن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الايمان . . ؟

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر أليم ، ونحسبه بعد ذلك كان يعالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع ، وكان يستلهم الحوادث ارادة الغيب حين تحتجب عنه هذه الارادة ، فيترك الحوادث تمضي ويمضي معها وينتظر ما تحكم به المقادير ، وفي هذه المواقف يخيفه في اعماق طويته أن يطلب البرهان الالهي لأنه لا يريد ان يجرب الهه ، ويخيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالاحجام مخافة العواقب ، فذلك مسعاه الى بيت المقدس في أخريات رسالته مرتين : مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليل ، ومرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيانة الأصحاب ودسيسة الأصدقاء .

***

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذي ينطوي فيه حب الاستلهام والاستطلاع ، خيراً من طلب البرهان وخيراً من النكوص ما لم يكن هنالك برهان ، وما قال قائل في أمثال تلك المواقف ، ليفعل الله ما يشاء ، الا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجري بها مشيئة الله . .

في لحظات كهذه اللحظات يغوص الانسان كله في أعماق ضميره ، ولعل لحظة من تلك اللحظات هي التي قال فيها الناظرون اليه انه غائب عن نفسه ، أو هي التي صمت فيها لا يحير جواباً لأنه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب ، أو هي التي أقدم فيها لا يبالي بسلامته وعاقبة أمره ، ولم يكن فكره قاصراً عن استطلاع العواقب جميعاً في موقف من تلك المواقف الحاسمة ، ولكن المشكلة الكبرى كلها في استطلاع العواقب ، فهل تراه لا يقدم على العواقب الا بضمان من البرهان ؟ . .

***

أن أعمال أصحاب الرسالات لا تفهم على حقيقتها ما لم تفهم معها هذه القاعدة الأساسية في طبيعة الرسل وهي أن الشك أخوف ما يخافونه ، وان استبقاء الايمان غاية ما ستغونه وكثيراً ما يقدمون على جسام الأمور لأن التسليم

أقرب الى الايمان ، ولأن الاحجام شك أو انتظار برهــان.، والشــك وانتظـار البرهان يستويان في بعض الأحيان .

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل الى الله في أخـريات رسالتـه قائـلا : « اللهـم جنبني هذه الـكأس . لكن كما تريد أنـت لا كما أريد » . .

وفي هذا الابتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك ، أو أقدم عليه في مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجنبه اياها كما أراد ، وموضع الشبهة في نفسه الشريفة ان السلامة هي ما يريده ، وان النـكول هو طريقه الى اجتناب الكأس ، فليكن مسيره اذن في غير هذا الطـريق ، وليكن التسليم هو طريق الأمان .

الفصل الرابع

الدعوة

اختيار القبلة

شريعة الحب
الشريعة

تجارب الدعوة

آداب حياة

ملكوت السموات

الدعوة

تواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التي لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها ، ونعني بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية في الحوادث الانسانية الكبرى ، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا الا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه .

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة ، بل هي من أقوى الظواهر التي تؤيدها وتسري في مسراها ، وسنرى بعد الاحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية ان الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين ، وان العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا الى وجه العصر الجديد ، وسنرى غير مرة في هذا الكتاب ان الدعوة المسيحية جاءت في إبانها وفاقا لمطالب زمانها . .

وليس أقرب الى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله في كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدي بهذه الآفات الى علاجها الموكول الى العقيدة .

فما هي آفة العصر التي برزت في التاريخ واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟ . .

كانت له آفتان بارزتان : احداهما تحجر الأشكال والأوضاع في الدين والاجتماع ، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها الى المعيشة المشتركة في بقعة واحدة من العالم المعمور ، وعلى الخصوص تلك

الأقاليم التي نسميها اليوم بالشرق الأدنى .

تحجرت الأشكال والأوضاع وغلبت المظاهر على كل شيء ، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب ، فكل معنى الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج أو من النفس الى الجسد ، كما يحدث دائما في أعقاب الحضارات ، تبدأ في عالم الفكر والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال . .

***

تجمعت الثروة والكسل في ناحية وتجمعت الفاقة والجهد المرهق في ناحية أخرى . . فغرق السادة في الترف ، وغرق العبيد والأرقاء في الشقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء .

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين ، فلم يكن غريبا أن تنقش على حجارة وأن يرتفع ميزانها في يدي عدالة معصوبة العينين ، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لأنهما فارغتان ! . . .

وتحجرت العقائد الوثنية في الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين بني اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، وأصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة ، وغلب « المظهر » على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها ، فلا خلاف بينهم في طلب المظهر وان اختلفوا على اللفظ والتأويل .

أشكال وقشور ، ولا جوهر هناك ولا لباب .

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة ، وبلغ الحس بسوئها غايته ، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون في نطاق واحد ويخضعون لحكم واحد ، فلا فكاك منه بحال .

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء ، وضمير خواء ، فلا جَرم يكون خلاصها في عقيدة لا تؤمن بشيء كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شيء كما تعرض عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف كما

تضيق بالخلاف على النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل .

عقيدة قوامها ان الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ، وان ملكوت السماء في الضمير وليس في القصور والعروش ، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب .

هل كانت للدنيا آفة غير آفة التناحر على المظاهر ؟ . .
وهل كانت لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟ . .
وهل كانت المسيحية الا العقيدة التي تدعو الى خلاصها من حيث يرجى وهيهات لها في غيره خلاص ؟ . .

***

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسم العصر كله بالعصبية في السائد والمسود والحاكم والمحكوم .

الروماني سيد العالم بحقه ، والاسرائيلي سيد العالم بحق الهه ، واليوناني والآسيوي والمصري كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهَمجية ، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت أو يفضل الموت على الرق الذي يجمع عليه بين الذل والألم والجوع ، وأبناء الأمة الواحدة طوائف تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء .

ويأتي الى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم ان لم يقل لهم ان الله رب بني الانسان وانه هو ابن الانسان ، وان الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء ، وان الكرم أن تعطي من يسألك وأكرمه أن تعطي فوق ما تُسأل وأن تُعطي بغير سؤال ، وان ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال ، وان ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، وان المجد الذي يتنازعه طلابه لا يستحق أن يُطلب ، وان المجد الذي يستحق أن يطلب لا موضع فيه لنزاع .

ولم يأت هذا البشير فضولا على غير انتظار : أبناء قومه موعودون به في ذلك الزمن ، وأبناء الاقوام ينتظرون شيئاً لا يعرفونه ولكنهم يعرفون ان زمانهم لا يطلق ، وان حالهم لا بد لها من تحويل .

افلست العبادات ، وجاء أحد المعبودين قيصر رومة ـ فأحرق الأسفار والنبوءات ، ولم يبق منها الا ما هو في محراب ابولون إله الفنون .

أما العبادة التي لم تفلس فقد كان راس مالها كله نسيئة منتظرة . . وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يجحدها المنكر ، وانما هو خلاف على العلامات ، وعلى مصداقها من العيان والسماع .

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت في إوانها لم تتقدم ولم تتأخر ، وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ ، فقد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم ، فجاءهم الرجاء الذي يصلح لذلك البلاء : بشارة لا تبالي أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير . .

***

وهذه هي دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذي سيقت اليه ، ولو لم تكن هي طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضي عليها أربعة قرون . .

وهذه الدعوة لقيت أشد ما يلقاه دين من مقاومة . . . فلا يفهم من هذا انها شاعت في العالم الانساني على الرغم منه أو على غير حاجة منه اليها ، فانما الدين المطلوب هو الدين الذي تعلو أسباب قبوله على أسباب رفضه ، وليس هو الذي يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غني عمن يدعو اليه ، وما من دعوة قط تستغني من مبدأ الأمر عن الدعاة .

ولقد تصدى رسول الاخاء والسلام لدعوته وهو يعلم انها أخطر الدعوات وانها أخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة ، لأن الذي يدعو الى الاخاء يدعو الى اقتلاع جذور البغضاء ، والذي يدعو الى السلام يدعو الى تحطيم سلاح الأقوياء ، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهين ، وليس تحطيم سلاح الاقوياء علالة حالم وليس السبيل الى ذلك سبيل الرضى والوفاق

لهذا كان يقول : « جئت لألقي على الأرض نارا فحبذا لو تضطرم » . . وكان يسأل تلاميذه وسامعيه : « أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلاما ؟ » ثم يبادر فيقول : « كلا ! . . وانما هو الصدام والانقسام ، خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة : ينقسم الأب على ابنه والابن على أبيه ،

وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة »

***

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بني اسرائيل كما قال ميخا : « ما في الناس من مستقيم ، كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك ، لا تأتمنوا صاحبا ، لا تثقوا بصديق وأوصد فمك عن تلك التي تضطجع في حضنك ، ان الابن بأبيه مستهين ، وان البنت على أمها ثائرة . . . والكنة على الحماة ، وللانسان من أهل بيته أعداء » .

ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر في سبيل الخير ، ومن البغضاء في سبيل الاخاء ، ومن الحرب سعيا الى السلام .

وقد صحت نبوءة الرسول في بني قومه فناصبوه العداء لأنه يبسط الدعوة الى الاخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق في جميع الأرجاء . .

ومن الواضح انه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا اليه واتبعوه ، ولكنهم مدعوون الى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها ، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعي عبده في طلب ضيوفه « فقال هذا اني اشتريت حقلا ، وعلي أن أخرج فأنظره ، وقال ذاك : انى اشتريت أزواجا من البقر وسأمضي لأجربها . . . فغضب السيد وقال لعبده : « اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الي من تراه من المساكين » فعاد العبد وقال لسيده : « قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان » . قال السيد : « فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتي فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء » . .

ويمكن أن يقال في وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب النظرة التي ينظر بها القارىء الى كلام المسيح في الأناجيل .

يمكن أن يقال انها دعوة الى حين ينتهي وشيكا بانتهاء العالم كله في أمد قريب ، ويمكن أن يقال انها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء .

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله اذا وصفناها بأنها « تغيير وجهة »

وافتتاح قبلة ، ولا سبيل الى الجمع بين الوجهتين ولا الى التردد بين القبلتين ، فلن يخدم أحد سيدين .

قبلة الروح أو قبلة الجسد .

قبلة الله « مامون »[1] اله المادة والمال .

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب .

هنا أو هناك . .

فالمهم هو الاتجاه أين يكون ، والى أي أمد يدوم ، وكل ما يلي ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولا بد من خيرة بين السيدين ! . .

---

(١) كلمة ارامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية . . وتطلق الآن في اللغات الاوروبية على اله المادة والمال .

اختيار القبلة

كان الموقف ـ كما قدمنا ـ على مفترق الطريق ، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته ، ويحسب لها كل حسابها ، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها ، ويجمع قلبه كله في خدمة الرب الذي يعبده . . فليس في مقدوره أن يعبد ربّين ، وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيّدين . .

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها ، ويزول اللبس عنها ، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والأضداد ، لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم .

اذا كان الجيل مقبلا على محراب « مامون » بقلبه وقالبه ، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب .

ان عبّاد « مامون » غارقون في هموم الحطام ، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام ، فالذي يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا انقاض لأركانه وأوثانه ، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير ، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان .

أو كما قال لهم الرسول البشير : « الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس . . . وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل ، وسليمان في كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها ، فاذا كان العشب الذي يقوم اليوم في الحقل ويطرح غدا في التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلي الايمان . .

« نعم . . واذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى . . أطلبوا كنوزا لا تنفد في سماواتها حيث لا تنالها يد السارق ولا يبليها السوس » .

من استدبر قبلة « مامون » فهذه هي القبلة التي يتجه اليها ، وهذه هي غايتها القصوى ، وان لم تكن هي كل خطوة في الطريق .

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول :

« ما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وامرأته وبنيه واخوته ، بل يبغض نفسه .

« وما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعني في طريقي » .

قائل هذا هو القائل :

« أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، ادعوا لمن يسيئون اليكم ، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فأعطه : ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه ، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم ، وأي فضل لكم ان أحببتم الذين يحبونكم ؟ ان الخطاة ليحبون من يحبهم . . وأي فضل لكم ان أقرضتم من يردّون قرضكم ؟ ان الخطاة ليقرضون من يقرضهم ، بل تحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم . . . »

وقائل هذا هو القائل :

« ان أخطأ أخوك فوبِّخه ، وان تاب فاغفر له ، وان أخطأ اليك سبع مرات وتاب اليك سبع مرات فتقبل منه توبته » .

وهذا نقيض ذاك . .

هذه الرحمة التي تعمُّ الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التي تشمل بها أحب الناس الى الناس : الآباء والامهات والابناء وذوي الرحم والقربى .

انهما تتناقضان غاية التناقض الا على وجه واحد ، وهو توجيه النظر الى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة ، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التي تستدبرها . .

واذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضي هنا أو هناك ، فلا جناح عليك أن تمضي حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك . .

***

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه وأن يحبه ذووه اذا ساروا حيث سار واستقاموا معه حيث استقام ، فليس عن هذا يجري الحديث ولا فيهذا موضع للنصيحة أو التفضيل ، وانما يجري الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان .

انما يجري الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان ، وحيث تمضي هنا مع الله وتمضي هناك مع « مامون » . .

ولا تناقض فيهذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات ، فكلها على نهج واحد من أول الطريق الى غايته ، ولهذه الغاية القصوى ينبغي أن يتحول من يمها بخطاه وآثرها بهواه .

وفيمثل من الأمثلة التي تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر فيالبرج الشامخ .

« من منكم ـ وهو يريد أن يبني برجا ـ لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله ؟ »

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الأول فيأساس البناء ، والا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك ، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء .

فمن نظر الى الأرض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر الى الأفق الذي تنص اليه الركاب ، فهنالك القبلة التي يتلاقى عندها ما تشعب ، وينتهي اليها ما اعوج أو استقام من الدروب .

ولقد كان المستمعون الى السيد المسيح ، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه لأمرين : ترحيبه بالأطفال الصغار ، وخطابه للمنبوذين المحقرين ، فانتهرهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم :

« دعوا الأطفال يأتون الي ولا تمنعوهم . . فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل اليه » .

وقال لقوم أيقنوا انهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب : « صعد اثنان الى الهيكل يصليان ، فريسي وعشار » .

« فأما الفريسي فراح يقول في صلاته : حمدا لك يا الهي ! انني لست كسائر هؤلاء الخاطئين الظالمين الزناة ، ولا كمثل ذلك العشار ، أصوم في اليوم مرتين وأؤدي حق العشر عن كل ما أقتنيه .

« وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه الى السماء وقرع صدره وابتهل الى الله : ارحمني يا الهي أنا الخاطىء . . . فهبطا الى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور » .

***

وتكررت هذه الأمثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه ، ولو انهم اذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره الى بعيد ، وأن يزهد في يومه ثم يمتد بالرجاء الى غده ، فانما في الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب ، وانما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر الا أن يزول . .

وجماع القول ان الدعوة الجديدة ، كانت ككل دعوة جديدة مريبة مناقضة لما حولها ، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها اذا نظرنا الى القبلة التي تستقبلها فهنالك تلتقي الشعاب ويحسن المآب .

شريعة الحب

استوفت الدعوة تجربتها في فترة قصيرة لم تطل أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها كانت كافية . . لأنها كانت في الواقع تجربتين ودعوتين ، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة : وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى بن مريم .

وكان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذي لا يحابي ولا يتردد ، ينذر كثيرا ويبشر قليلا ، ويضع الفأس على أصل الشجرة ، ولا يبالي أن يلقي بها حطبا في الاتون .

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس ، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون : وهما زكريا واليصابات . .

***

وفي انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد في شيخوخة الأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية في نوبته فأصابته القرعة لدخول الهيكل واطلاق البخور ، فطال مكثه في المحراب ، وجمهور المصلين يترقب ويتعجب ، حتى عاد اليهم صامتا لا يتكلم ، فعلموا انه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب ، ثم روى انه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعرَتْه رجفة فقال له الملك : لا تخف يا زكريا . . ان الله قد أجاب سؤالك وستلد امرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون ، لأنه يولد من بطن أمه ممتلئا بالروح القدس ويردُّ بني اسرائيل الى الههم ، ويتقدم بروح ايليا (الياس) وقوته » .

وقد ذُكرت قصة زكريا فيسورة آل عمران من القرآن الكريم : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي فيالمحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال رب انى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ، قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار » .

وذكرت فيسورة مريم : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، اذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ، واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب.واجعله رب رضيا . يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب انى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » .

***

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك معنى وصفه فيالقرآن الكريم بالحصور ، وكان عليما بالكتب الدينية ، يسمعها من أبويه ويتلوها فيخلواته ، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه في تهجده ونسكه ، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس في ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الايام ويقتات من الجراد والعسل البري ويهيب بالناس في صوت قوي صارم : توبوا واستعدوا ، قد وضعت الفأس في رأس الشجرة وكل شجرة لا تأتي بثمر جيد تقطع وتلقى في النار : صوت صارخ في البرية كما قال الانبياء الاقدمون .

ولم يكن يتقي حرجا فيكلامه عن ذي خطيئة أو دنس ، فراح ينحى بهذا الصوت القوي الصراح على الملك هيرود لأنه تزوج من هيرودية أخته وزوجها

لا يزال بقيد الحياة، فلما اعتقله الملك وجيء به الى حضرته لم يسكت ولم يكفف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فرارا من غضب الله . .

***

وفي سهرة من سهرات اللهو التي تعود هيرود أن يحييها في قصره ، رقصت بنت أخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤلها كائنا ما كان ، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا في طبق ، وأصرت على طلبها فأعطاها ما سألت وهو كاره ، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء ، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض .

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم ، كما يفعل الدينيون « المحترفون » عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون اليهم ولا يعيشون في زمرتهم ، فكان يوحنا يصيح بهم : « يا أولاد الأفاعي ، لا يهجس بأخلادكم انكم تنتسبون الى ابراهيم . . اني أقول لكم ان الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم » .

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس ان الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية ، وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول في زمرة التائبين وطلاب الخلاص ، ولو لم يكن لهم نسب في آل يعقوب وابراهيم . .

***

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث أن اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور ، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التي لا تضلها أهواء السيادة ، وبقي اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الأدعياء أن يجترئوا عليه ، فلما أراد الكتبة والناموسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة والمعميات رد عليهم حرجهم وقال لهم : اجيبوني (اولا) هل كانت رسالة يوحنا من السماء أم من الناس ؟ . فلم يستطيعوا جوابا لأنهم اذا اعترفوا برسالته اتهموا انفسهم واذا انكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين . .

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه ، وهو شديد

الحذر من اغضاب ذوي الرأي والسلطان ، فما قال عنه : « انه كان انسانا صالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله » . وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه ، وهي شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم ، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص في عصره ، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم ان دعوة الخلاص ضائعة اذا انحصرت في قبيل واحد ، وان الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته ، ولو لم يكن من ذلك القبيل . .

* * *

وللسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا ، فلم يكن متأبدا ولا نافرا من الناس . بل كان يمشي مع الصالحين والخاطئين . وكان يشهد الولائم والأعراس ، ولم يكن يكره التحيَّة الكريمة التي تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ، ووبخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا أن تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير ، وقالوا : لماذا هذا السرف ؟ . . لقد كان أحرى بهذا الطيب أن يباع ويعطى ثمنه للفقراء ، فقال لهم عليه السلام : « ما بالكم تزعجون المرأة ؟ . . انها أحسنت بي عملا ، وان الفقراء معكم اليوم وغدا ، ولست معكم في كل حين » .

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بهما تلك الصرامة . وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال : « ان يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان ، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة » .

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخرجت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادي من يستمع اليها ، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصارمة الأبية ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية ، ولو قدر لها أن تعيش في قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه ، فلم يسمع بها العالمون .

الشريعة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهي من جانب البحث السياسي أو جانب البحث الاقتصادي أو جانب البحث الاجتماعي ، أو الديني ، أو الثقافي الى نتيجة واحدة : وهي ان ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حداً يفوق احتمال عصر واحد ، فلا يطيق ان ينتقل بها الى العصر الذي بعده دون أن يطرأ عليه طارىء ، ولن يكون ذلك الطارىء غير طارىء انقلاب شامل .

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه في عصر واحد ، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ الا ضرباً من الرياء الاجتماعي ، لأنه معلق في جميع أحواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف وولعها بالرياء .

وفي عصر كذلك العصر تلزم الرسالة .

لكنها رسالة لا تلزم لتأتي العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المصيبة كلها في تطبيق الشريعة اذا جرى على سنة الرياء ، وغلب فيه النفاق على الصدق والانصاف .

انما تلزم الرسالة في أمثال ذلك العصر لتعطي العالم ما يحتاج اليه ، وتنقذ ضحاياه . .

والآداب الانسانية هي الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة ، وضحايا الرياء هم اول من يتلقف تلك الآداب الانسانية ، ويشعر

بتلك الحاجة العظمى .

انها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور ، ولاسيا شعور الضحايا والمظلومين . .

ويوشك مع الظلم أن يكون كل منهم مظلوماً ، لأن الجريمة كلها في جانب الحاكم لا في جانب المحكوم عليه .

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ . .

وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ في أحضان الدعوه الجديدة : أحضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة .

طوبى للحزانى . طوبى للمساكين . طوبى للجياع والظماء . طوبى للمطرودين في سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : « تعالوا الي يا جميع المتعبين والمثقلين . . احملوا نيري عليكم وتعلموا مني . فتجدوا راحة لنفوسكم . لأن نيري هين وحملي خفيف » .

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون انهم جائعون ، والأغنياء الذين لا يعلمون انهم معوزون ، والمتجبرين الذين لا يعلمون انهم مساكين ، والمتكبرين الذين لا يعلمون انهم منكسرون .

* * *

واستجاب ضحايا الرياء صيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم الى العزاء ، وعلى قدر ما يحملونه من أوقار الشريعة العمياء ، والتقوى المزيفة ، وربما كان الأصح ان الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته ورحمته ، وعلم ان الشكران على قدر الغفران ، وان الأمل في التوبة على قدر الكرم في المحبة : « مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون . ليس لهما ما يوفيان ، فأجزلهما شكراً من سومح في الدين الكبير » .

وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ، ويعم الرياء في كلا الجانبين ، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها : فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الأسرة المنحلة وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة . . والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان . .

ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقاباً بعد أحقاب ، وأطبقت عليها الفتنة في ذلك العصر خاصة آكاماً فوق آكام ـ فاذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الأمل في رحمة الله بين جوانحها ، فعلّمها من دروس الحب القدسي ، ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين المقسطين ، وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرفة . . زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهي باقية عالية : صورة الغفران ماثلة في شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها .

***

والتفت السيد الى تلميذه والى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم انه نبي ويجهل انها امرأة خاطئة ، فقال : « أتنظر الى هذه المرأة ! اني دخلت بيتك فلم يكن لقدمي فيه مسحة من ماء ، ولكنها غسلتهما بالدموع ، ومسحتهما بشعر رأسها ، ولم تمنحني قبلة ، وهي منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي ، ولم تدهن رأسي بزيت ، وهي قد دهنت رجلي بالطيب . . ومن أحب كثيراً غفر له الكثير من خطاياه .

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها وويل لمن يفتح باباً للتوبة والرحمة ولا يبالي الأبواب التي فتحت للنقمة والعقاب .

منذ الخطوة الأولى التي خطاها السيد المسيح في التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل « السلطة » ويتنحى لها عن ميدانها ، فلا يتصدى لها بابطال أو بانقاذ : لا يبدلها ولا يدعي لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة في زمنه ، فانه ـ كما تقدم ـ قد نشأ في دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهي والحكام والمتحكمين : ما فاض من رومة من الشرائع تملؤه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه ، ولا حاجة الى مزيد من الاحكام مع فساد الحكام ، فاذا وجب اصلاح بعضها فالخير من اصلاحه لا يساوي جهد الحرب التي تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان ، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الادومية اليهوديه التي تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن المحقق أن الشر الذي ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من

الخير الذي يتأتى من ورائه ـ ان تأتّى ـ وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الانسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدي أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين .

الا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه ، وسرعانَ ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة ـ سلطة الدين قبل كل شيء ـ بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب ، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود .

جاؤوه في ميدانه بعد ان ترك لهم ميدانهم ، ووقع الاشتباك الذي لا بد منه بين سلطة شعارها المبالغة في الاتهام والبحث عن المخالفات والعقوبات ، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء في الغفران . .

كان التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعي الجديد ، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم ، وهي على كونها مصلحة مربحة ، باب للفخر والكبرياء . .

فجاؤوا يسوقونه الى حيث ابى ان يساق ، وكان همهم الاكبر ان يثبتوا عليه انه يبطل شريعة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة ، فأعنتوا عقولهم في البحث عن المشكلات والألغاز التي يفتى فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية ، أن يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح . .

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : « أيها المعلم ! . . مر أخي يقاسمني الميراث » . . وظن انه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : « أيها الانسان ، من أقامني عليكما قاضياً أو حسيباً ؟ » .

وتعمدوا وهو في الهيكل أن يضطروه الى موقف الحكم أو انكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : « أيها المعلم : هذه امرأة أخذت وهي تزني ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟ » .

ماذا يقول هو ؟ . . ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها الى قضاتها ؟ . . ان الشرك مكشوف على وجه الأرض . وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا . . ان قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وان قال

اطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها في قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبي الشرك ، ولو انه مكشوف معروف ؟! . .

سبق الى ظنهم كل خاطر الا انه ينتهي من القضية الى حل لا يدعي به السلطة ولا ينكرها ، ولا ينساق فيه الى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذي دفعوه اليه ، وهو يستمع اليهم ويخط باصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف قائماً ورد عليهم رياءهم في وجوههم ، وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه ، وهو يقول لهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر » .

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعي تنفيذها ولا يجامل رياءهم . . بل يدعهم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه ، فسألها سؤال العارف : « أين المشتكون منك ؟ . . أما دانك أحد ؟ » فقالت : « لا أحد أيها السيد » . فأرسلها وهو يقول : « ولا أنا أدينك . . فاذهبي ولا تخطئي »

نعم . . لا يدينها ولا يحسب عليه انه لا يدينها في تلك القضية ولو كان هو قاضيها ، لأن القاضي بغير شكوى ، وبغير شهود ، وبغير بيِّنة !. .

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتهما في ذلك العصر أن تتصدَّع الأسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة في عرف قومها ، فقال : ان الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلهما الانسان وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته الا لعلة الزنا دفعها الى الزنا . ومن تزوج مطلقة فانه زان » .

* * *

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيقهين من متخذي العلم صناعة وأحبولة الا ارتدوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيباً أحسن جواب بل أكرم جواب .

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسي » الذي نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم انهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معاً والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسدياً وروحياً على السواء . فلما قيل له ان شريعة

موسى توصي الأخ أن يبني بزوجة أخيه المتوفى حفظاً للأسرة ، وسألوه : « لمن تؤول في يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة اخوة ؟ » خيل اليهم انه لن يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال جواباً يرضي الصدوقيين أو يرضي الفريسيين ، فكان جوابه مفحماً لهؤلاء وهؤلاء ، لأن الأحياء في العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم ، ولا يتناسلون ! . .

والحق ان الأناجيل لا تروي لنا من هذه المساجلات الا ما نشهد أمثاله اليوم في كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيقهون لتعجيز المعلمين والوعاظ ، وان اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين في كل حلقة على حسب الموضع والموضوع .

والحق ان قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة لهي دليل آخر الى جانب أدلة كثيرة على « الشخصية » التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروونها ولا يفطنون الى أهم البواعث عليها في سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الابدال ، ووجهتها على الدوام انها لا تدعي سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وان مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات . . كذلك قال لكهّان الهيكل ، وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ، وعلى ذلك جرى أسلوبه في كل أمر وفي كل موعظة . فهو أسلوب الأداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التي تقلع اذا نظرت نظرة اشتهاء ، وعن خطيئة اليد التي تقطع اذا وقعت في العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس في مسلك المسيح كله في رسالته ما يجريه مجرى الالزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعاً مقصوداً بحروفه ، وقل من الرواة من فرق في فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التي ترتفع الى الأكمل فالأكمل وتنفذ الى المعاني من وراء الألفاظ ، ويرجع الأمر فيها الى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع الى قاض يسمل عينا أو يدخل في الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعاني الى سامعيها جميعاً كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل . .

تجارب الدعوة

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر . . فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص ، يخيل اليه انها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا له يمعن في تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها ، وينتهي الأمر به الى اعتبارها مسألة براعة وفطنة ، واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه ، والا كان ذلك مطعناً في براعته وفطنته وهزيمة له أمام غرمائه المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات .

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع ، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها ، ويحدث هذا لكل « شريعة » صارت الى أيدي الجامدين والحرفيين ، فقد أدركنا في مصر أناساً من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود ، اعتماداً على هذا النص أو تلك الحاشية ، وافتناناً منهم في عَصْر العبارات ونَبْش الدفائن ، واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة في ميدان الحوار ومجال اللف والدوران .

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين ، فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى ، وانما النفس البشرية هي الفريسة التي يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة في وجهها ، ويقدح في غرور العالم المحيط

بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة . . وتلك خيبة للشرائع والقوانين ، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها !

فالشارع الماهر في عرف الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا . .

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة . .

وقد تنتفخ الأوداج بهذا الفخر علانية ، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على ادانة الآخرين . .

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة في اللعب بالألفاظ وتعجيزاً للجهلاء بالحيل والفتاوى ، وحتى يزول الجوهر في سبيل العرض ، ويزول اللباب في سبيل القشور ، وتزول الاستقامة وطهارة الضمير في سبيل الكلمات والنصوص ، وتزول الحقائق في سبيل الظواهر والأشكال .

* * *

واذا صار أمر الفضائل الى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء ، فان غاية الصدق والرياء معاً شكل ظاهر باطنه خواء ، فلا فرق بين المرائي وبين الصادق في فضيلته ، ما دامت الفضيلة جموداً لا حس فيه ولا حياة ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام ووراء الأوامر والنواهي ووراء العقاب والاحتيال .

ان الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر .

وعالم الظواهر غير عالم الضمير .

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجهاً لوجه عند قيام الدعوة المسيحية :

عالم كله قيود وأشكال . .

وعالم طلق من القيود والأشكال ، في ساحة الضمير .

روى انجيل متى في الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال : « لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل » . .

وروت الأناجيل انه عمل في يوم السبت وسخر من المحرمات التي لا تدنس الانسان ، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس .

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم في كل ما أبرموه ؟

ان شئت فقل انه نقض كل شيء .

وان شئت فقل انه لم ينقض منه مثقال ذرة .

لأنه نقض شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب ، أو شريعة الضمير . .

وشريعة الحب لا تبقي حرفاً من شريعة الأشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقض حرفاً واحداً من شريعة الناموس بل تزيد عليه .

وينبغي هنا أن نصحح معنى الناموس في الأذهان ، فان معناه هو « القوام » الذي يقوم به كل شيء ، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التي يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمير وجود ، فلن يزال قائماً ـ كما قال السيد المسيح ـ ما قامت الأرض والسماوات .

* * *

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقاً لأنه جاء بشريعة الحب ، وهي زيادة عليه . .

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب . أما الحب فيزيد على الواجب ، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء .

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط ، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود ، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه ، وهو مستريح الى العطاء غير متطلع الى الجزاء .

بهذه الشريعة ـ شريعة الحب ـ نقض المسيح كل حرف في شريعة الأشكال والظواهر .

وبهذه الشريعة ـ شريعة الحب ـ رفع للناموس صرحاً يطاول السماء ، وثبت له أساساً يستقر في الأعماق .

وبهذه الشريعة ـ شريعة الحب ـ قضى على شريعة الكبرياء والرياء ، وعلم الناس ان الوصايا الالهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم

الآخرين بالتهم والذنوب ، ولكنها جُعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك ، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة ، لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب .

وفي اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخي وجلالها الأدبي بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير .

فكل كلمة قيلت في هذه الوصايا فهي الكلمة التي ينبغي أن تقال ، وكل مناسبة رويت فهي المناسبة التي تقع في الخاطر ولا تصل اليها شبهة الاختلاق . .

يلزم في شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا الى التعالي على الآخرين ، ويلزم في شريعة الحب من يقول لذلك المتعالي على غيره المتفاني بنفسه : « لماذا تنظر الى القذى في عين أخيك ولا تنظر الى الخشبة التي في عينك ؟ » . .

* * *

يلزم في شريعة الفرح بالعقاب والسعي وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة في المواكب ويخف الى مواقف الرجم كأنما يخف الى محافل الأعراس ، ويلزم في شريعة الحب من يبهت ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده الى الحياء ، وقد ارتد الى الحياء حين استمع السيد يناديه : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر » .

ويلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلي بصلاته وأن يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زياً ينمّ عليه بعبوسه وضجره . . ويلزم في شريعة الحب من ينهي الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع « ومتى صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغيرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم ، وأما أنتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم ، لا يظهر صيامكم للناس بل لأبيكم المطلع على الصدور » . .

يلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطي بالعطاء وأن يستطيل به على الفقراء ، وأن يصوت قدامه بالأبواق ويعلن صدقته في الطرقات والأسواق ، ويلزم في شريعة الحب أن تستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين . .

في شريعة الكبرياء يتقي المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لأنه يجلس مع العشّارين والخطاة ، وفي شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغي أن يقال لهم : انما يحتاج المرضى الى الطبيب وانما يكون الحب على قدر الغفران .

وقد بلغت فتنة « الظواهر والأشكال » غايتها وطغت من الهيكل الى البيت ، ومن المكتب الى السوق ، ومن المنبر الى المائدة . حتى لقمة الطعام أصبحت لا تحل أو تحرم الا بمقدار ما يتلى عليها من الأوراد والعزائم ، وما تحاط به من الشعائر والمراسم ، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم .. فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير ، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الأيدي والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة : « ان ما يدخل الفم لا يدنس الضمير ، وان الدنس انما يخرج من القلب الذي فيه الشر والزور والفسوق والكفران » .

***

ومجمل القول ان الخير كله كان في حكم شريعة الظواهر والأشكال ، شريعة الكبرياء والرياء ، مسألة « امتياز رسمي » يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الأمر فيه الى الموروثات والمأثورات .

فالفضل بين الأمم « امتياز رسمي » محتكر لاسرائيل لأنهم أبناء ابراهيم ، والفضل بين الاسرائيليين « امتياز رسمي » محتكر لأبناء هرون وأبناء لاوي أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل في الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون « وثيقة في صك مرسوم » تضمن الايثار لذلك الشعب وان هبطت به أعماله دون سائر الشعوب .. « فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم أقل من سائر الشعوب ، بل هي محبته وحفظه القسم الذي عاهد عليه آباءكم » .

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هي الكلمة التي تقال في كل ما ادعوه ، وما استأثروا به واحتكروه .

ليس الخير حكراً للنسب والسلالة « بل الذي يعمل مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي » .. « ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم

واسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة بالعراء » .

* * *

وانما الرحمة عمل ، لا نسبة ولا حرفة ، وضرب لهم مثلا : « انساناً خرج عليه اللصوص في الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت ، وعبر به كاهن فأهمله ومضى في طريقه ، وجاء لاوي فمضى ولم يلتفت اليه . . ولكن سامريا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به الى فندق وأولاه عنايته ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليه ويعنى به ومهما ينفق عليه فهو موفيه عند مرجعه » . . قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل : « أي هؤلاء الثلاثة أقرب ال ذلك الصريع الجريح ؟ » والجواب الذى لا خلاف عليه بداهة أن السامري المنبوذ أقرب اليه من أبناء هرون ومن اللاويين المصطفين ! . .

وراح يجبه فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فيه من ألغاز الفقه وأحاجي الشريعة ، فقال لهم : « ان الدين بما تعمل لا بما تعلم » . . وحذر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم في عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم . « لأنهم يحزمون الأوقار ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولا يمدون اليها أصبعا يزحزحونها ، وانما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم . . يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع ، ويبتغون التحيات في الأسواق وأن يقال لهم : « سيدي سيدي حيث يذهبون . . » . .

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين : « أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل . . انكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ـ انكم كالقبور المبيضة خارجها طلاء جميل ، وداخلها عظام نخرة » .

ولما تعالموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا ، وسألوه : أيها أعظم في الناموس ؟ . . حسبوا انه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الأسرار والألغاز ، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعاً في كلمات معدودات : « ان تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك ، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك » . .

* * *

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والأوراق ، ولا تكون العقبى انه يهدر الفرائض والأحكام وانه يستبيح ما لا يباح ، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون ، يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع في سبيل الحب ما لا يصنعه في سبيل الواجب ، وكل ما هناك أن تصبح الفضيلة وحي نفس وحساب ضمير ، ولا يصبح قصاراها وحي القانون وحساب الصكوك والشروط ، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف .

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والأشكال ، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الافعال والوقائع ، ولأنه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء . .

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب . أما أنا فأقول لكم ان من يغضب على أخيه باطلا يأثم ويجزى . . فان قدمت قربانك وذكرت حقاً لأخيك عليك ، فدع قربانك امام المذبح واذهب فصالح أخاك . .

« وقيل للقدماء لا تزن . أما أنا فأقول لكم ان من ينظر الى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها في قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تلقي بك في العثرات فاقلعها والقها عنك ، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك . .

« وقيل للقدماء لا تحنث . . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا . . وليكن كلامكم كله : نعم . . نعم . . لا . . لا . . وما زاد على ذلك فهو من الشيطان . .

« وسمعتم انه قيل عين بعين ، وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر ، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر ، ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه ميلين . .

« وسمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، واغفروا لمن يسيء اليكم ويطردكم ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات ، فانه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويرسل غيثه للأبرار والظالمين . وأي أجر لكم ان أحببتم من يحبونكم . أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وأي فضل تصنعون ان خصصتم اخوتكم بالسلام ؟ . . أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ . . فتعلقوا أنتم بالكمال ، فان الله كامل يحب الكمال » .

* * *

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم

الناموس ولا تعصف بركن من أركانه ، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفاً منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب ، لأن الانسان يحاسب نفسه اذا أحب حساباً لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء .

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ، وكان السجال بينهما هو السجال الذي تمليه شريعة الحب والضمير وشريعة الظواهر والأشكال ، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دعاة الرياء والكبرياء ، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضاً غير مقصود في وجهته أو جزافاً يقوله كل قائل ويأتي لغير مناسبة ، ومن ثم نقول ان الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وان المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شاء ، لأنه من وراء طاقة المختلق أن يخلق طبيعة الشريعتين : شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء ، ويدفع بهما حيث تندفعان ويملي عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان .

* * *

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى ، فاذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم في مواضع اللبس على ذوي النية الحسنة ، فكل ما وافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال فهو هنا ، وكل ما مشى في سبيل الظواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك ، ولن يطول اللبس في معنى من معاني السيد المسيح الا على عباد الألفاظ والنصوص ، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص في الدعوة التي تزدريها وترجع بكل شيء الى مقاصد الحب والضمير . ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة في الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة على الثوب الرديم .

آداب حياة

كان « أوريجين » فيلسوفا ملحوظ المكانة في تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية . ويرى الكثيرون انه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد ، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده في حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين في عصره ، غير مستثنى منهم أساتذتهم الأولون .

هذا الرجل قرأ في شبابه قول السيد المسيح أن أناسا يخصيهم الله وأناسا يخصيهم الناس وأناسا يخصون أنفسهم في سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفي وجب نفسه ليُقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفي لأقوال السيد المسيح . .

الا أن ثبوت هذه الرواية في سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية في عصرها الأول ، فقد كان الرجل يفقأ عينه اذا علم انها نظرت الى امرأة نظرة اشتهاء ، وكان يمسخ جسله مسخا اذا راودته الشهوات ، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فاذا كان شاب في ذكاء « أوريجين » وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه ، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه في الفطنة والدراية .

لكن « أوريجين » نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا ، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعاني ولم يقصد الحروف

حين أوصى بكفٍّ الأعضاء عن نزغات الجسد . . فلم يعن بفقء العين الا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الاسكات ، ولم يعن بقمع الجسد الا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية ، وكان « كلمنت الاسكندري » يقول بحق : إن السيد المسيح لا يعني بنبذ المال أن ترفضه بتاتا في جميع الاحوال ، والا لم يكن الاحسان فضيلة من أكبر الفضائل في الوصايا المسيحية ، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد ، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه . .

***

الا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات في أقوال الحكماء المسيحية ولا يزال هذا الخلاف قائما الى عصرنا هذا في الوصايا التي تدور على رفض الحياة خاصة ، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور « شويتزر » schweitzer الذي يرى ان السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده أن الساعة قريبة وان الدنيا التي يهجرونها مقضي عليها بالفناء في مدى سنوات ، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذي يدخره المدخرون للدنيا الزائلة . .

وفي اعتقادنا انه لا محل للخلاف على الوصايا التي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، فان كل دعوة في عصر السيد المسيح أو في عصرنا هذا ، وفي جهاد الدين أو جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى . . ونظام فرق الفداء في الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه ، وأول أحكامه أن يفكر « الجندي المجاهد » في الموت قبل تفكيره في الحياة .

انما الخلاف على الوصايا حين تتَّجه الى غير التلاميذ والرسل . . الى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم ، فهل يطلب من هؤلاء جميعا أن ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات في اعتمادهم على الغذاء والكساء ؟ . .

أقول حقا انني أفهم وصايا السيد المسيح جميعا ولا أجد في فهمها صعوبة على الاطلاق اذا أنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام ، واذا علمنا انه عليه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته

كلها في هذا المقال : « ليس الانسان للسبت ، وانما السبت للانسان » .

لقد كان هم السيد المسيح في الاصلاح النفسي تغيير البواعث لا تغيير المقادير . .

كان همه أن ينقل الآداب من محور الى محور ، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد اذا كان انتقال المحور هو المقصود .

كانت العروض هي المحور الذي تدور عليه حياة الأمم والآحاد في عصره ، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة .

* * *

كانت « الأشياء » مقدمة على النفس الانسانية ، فوجب ان تكون النفس الانسانية مقدمة على الأشياء .

وجب أن يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى ، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم .

واذا كان « الحطام » هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل . سيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم ، فكلاهما مداره خطأ وسعيه عقيم . .

اذا كانت « الشهوة » هي محور الحياة فسيان من يشتهي بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام في اللذة والغواية ، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذي يدور عليه .

ولكننا ننقل المحور ، أو ننقل القبلة كما أسلفنا في فصل سابق ، فينتقل كل شيء ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق .

اذا أصبح كسب النفس الانسانية ـ كسب المحور ـ هو غاية الحياة فالذي يملك الملايين زاهد كالذي يملك العشرات أو الذي لا يملك شيئا من الأشياء . .

اذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط .
واذا بقي المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد .
وتغيير المحور هو الذي عناه السيد المسيح .

وتغيير المحور لازم في ذلك العصر ، لازم في هذا العصر ، لازم في كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه ، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجا

للرسالات ، ولم تكن آخر الرسالات في الحياة الانسانية .

***

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو انه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال ، ورأى الناس يغرقون في تعذيب الجسد ويفرحون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة .

بل لا حاجة بنا الى الفرض هنا أو الاحتمال الذي يقبل الخلاف ، فان المسيح قد غير المحور هذا التغيير في زمانه . . غيره حين قَبِل انفاق الدنانير في عطر تمسح به قدماه ، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لأتباعه في أفراح الحياة ، وفي براءة كل فرح يأتي من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح . .

وما كان الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات . انت تنهك نفسك لتكنز مليونا فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف ، ولا تزيد .

أنت تتهالك على جميع اللذات في جميع الأوقات ، فتهالك عليها أياما في الأسبوع ، أو تهالك على بعضها دون سائرها في جميع الأيام .

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بهما قليلا ولا تجعلهما شغلا شاغلا بغير انقطاع .

كلا . . لم يكن الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات ، وانما كان على الدوام مسألة « محور » ينتقل ، أو مسألة « باعث » يتغير ، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها في مسافاتها ومقاديرها ، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها الى محورها الذي انحرفت عنه أو الى محور جديد .

اننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد انه كان يدرك ما يقول وهو يقول : « من أخذ منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء » .

أترى السيد المسيح كان يفوته الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطي هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا . . ما كان يفوته ذلك ولا ريب ، ولا أدنى ريب .

ولكن النفس الانسانية هي المقصود ، وليس المقصود هو الرداء أو القميص . .

* * *

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق أشيائها ، بمثل من الأمثلة ، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه !

فليكن العطاء حبا وطواعية ، لأن من يعطي مجبرا أو يعطي ما لا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه .

وليس كذلك من يُعطي لأنه يريد العطاء . . انه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه ، ومن كان لا يبالي أن يعطي العالم كله ليربح نفسه فأخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء .

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيداً واحداً ، ولا يعبد سيدين ، وهذا كل ما اراد .

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه .

ومن يعبد الله ويستعبد المال فلا جناح عليه .

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع ، وليس قصاراه انه غير مشكور أو غير مأجور . .

ونحسب أن النهي عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سنهلا بين ما هو مباح وما هو محظور في طلب الدنيا ومتاعها وزينتها . فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله ، ولا نجاة لانسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال .

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع في مكان مجتمع ، ولكنه قصد الى تهذيب آداب انسانية يعتصم بها ضمير الفرد وضمير الأمة ، وأقامها على أساس واضح في وصايا متعددة لا تضارب بينها . .

فالجسم أفضل من الطعام واللباس . .

والانسان أفضل من السبت . .

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم . .

ومملكة الضمير في قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان .

***

وبساطة الايمان أصلح من حذلقة العلماء والحفاظ ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها في كل زمن ، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكي تفهم ، وعندها في كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور ، وهذه الحذلقة هي التي حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية ، فليس عندها مستمع لنبي ولا لحكيم .

ان الحذلقة هي التي أبت أن تفهم حين قال القائل : ان العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره . . أفليس في هذا الكلام شيء يفهمه السامع ؟ . . بلى . . وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل . ولكن الحذلقة هي التي قالت في جواب تلك النصيحة : ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور . . !

ان الحذلقة تقول هذا لأنها لا تعمل ، فهل تراها كسبت شيئا حين خسرت العمل ؟ . . كلا فان سخريتها تستقيم اذا كان التأخير أسلم للدودة من التبكير ، ولكنهما يستويان على الأقل ، ان لم يكن التأخير خليقا أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون ، بدلا من فرد منقار وفرد عين ! . . .

كذلك يقول السيد المسيح : من طلب منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء ، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما في حوزته ؟

أفليس في قول السيد المسيح ما يفهم ؟ . . بلى . فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال ، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل ، ولا تريد الا ظهورا « على حساب » الفهم والعمل كما يقولون ، ولولا ذلك لما غاب عنها أن الجديد في الأمر هو امتحان المعطي الذي يقتدى به في الاحسان ، وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة ، وانما الخلاف الذي يحتاج الى جديد هو قيمة الاعطاء من فضيلة السماحة والايثار .

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضاء والنفاق ، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور ، واذا انتقلت منه الى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة في قياس المسافات ولا تقدير المقادير . .

بل نقول ان الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال الا الى حين وفي حيز محدود ، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة الى حساب الانسانية ، وشأن الانسانية بعد ذلك وما تستطيع ، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان الى محور جديد .

ملكوت السماوات

« انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »
« قرآن كريم »

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولا سيما الدعوات الدينية الكبرى ، وما من شيء هو أدعى الى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التي تنتهي اليها دعواتهم على غير قصد منهم ، بل على خلاف ما قصدوا اليه ، ثم يمضي الزمن وتنطوي المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها ، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية ، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لهم الى أين تسير ، والى أين يسيرون . .

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا الى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين ؟ . .

ان الهجرة من مكة الى المدينة كانت فاتحة الفتوح الاسلامية . . فلو أنها ارتفعت من تاريخ الاسلام لتغير ذلك التاريخ ، ولكنه لا يستفيد فيما نعتقد بزوال ذلك الحادث الذي كان محسوبا من العقبات ، بل أكبر العقبات في صدر الاسلام .

وماذا لو أن بني اسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟ . .

كان غاية الأمر أن نبياً من الأنبياء يضاف اسمه الى أسماء الأنبياء في كتاب العهد القديم . وتبقى اسرائيل في عزلتها كما كانت ، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت في التاريخ ، منسيَّةً لا تذكر ، أو تُذكر كما تُذكر أصغر القرى التي تحكمها رومة الخالدة . . رومة القياصرة والجبَّارين المتألهين . .

فمما لا ريب فيه ان السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الأولى ، ومن البديهة أن يريدهم قبل أن يريد أحدا غيرهم ، لأنهم عشيرته الأقربون ، ولأنهم أصحاب الكتب التي تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب .

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم : ماذا تركتم للأمم ؟ لأنهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع الى الحق من أبناء الأمم كافة ، وهم غير مختارين .

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلىء تحت أقدام الخنازير .

وعلى رفقه في الخطاب ، كان ينتهر المرأة الفينيقية التي أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التي يخص بها أبناء يعقوب ، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقى به الى الكلاب .

وكان هذا الايثار بديها كما قلنا من وحي الفطرة ووحي الكتب والدراسة ، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التي يراد لها النجاح ، فان المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصي الأقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن تدني اليه أحدا من أولئك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام .

فماذا لو استجاب المدعوون الى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال ؟ . . ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد ! . .

ان استجابوا جميعا الى الدعوة فقد دخلت الدعوة في نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها شيء في غير ذلك النطاق المحدود .

وان لم يستجيبوا جميعا ، واستجابت منهم فئة من فئات شتى ، فغاية الأمر انها فرقة تضاف الى فرق الفريسيين والصدوقيين والآسين والغلاة ، بل قد

حدث فعلا أن فئة من بني اسرائيل قبلت المسيحية على أنها « طائفة يهودية » سميت بالطائفة « الأبيونية » أي طائفة الفقراء والدراويش ، ثم ذهبت هذه الطائفة في الغمار فلا هي الى اليمين ولا الى اليسار ، ولم يبق لها نصيب في تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب في تاريخ المسيحيين !

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس الى شرق الأردن ، واعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقا حيث تحرّم الاقامة على سائر اسرائيل ، وظلت ردحا من الزمن لا هي اسرائيلية خالصة ولا هي مسيحية خالصة ، ثم ذهبت في الغمار كما ذهب الأبيونيون .

لقد مر بنا المثل الذي ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين : مثل الأمير الذي أولم الولائم ، وأرسل الى الصفوة المختارين من الأقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه في طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد ، وتعلل كل منهم بعلة تؤخره الى ما بعد يوم الوليمة ، فأقسم لا يحضرنها أحد بلغته الدعوة ، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر ، ومن تزويه الأزقة أو تقذف به الطريق ، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف ، وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة ، وهكذا تعمر وليمة السماء التي يتأخر المدعوون اليها ، ويتقدم اليها من هم أحق بها ، لأنهم يشتهون ما يعافه المدعوون المتبطرون . .

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف في دعواهم فأنكروه وألحفوا في انكاره : « ان الحجر الذي رفضه البناؤون صار على رأس الزاوية ، ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لأمة تؤتيه ثماره ، من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، هناك يُدعى الكثيرون ولا يُنتخب الا القليلون »

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلّت وصاياه التي يخص بها « الأمة ».ويفردها بين الأمم ، وكثرت في وصاياه الآداب الانسانية التي يستحق بها الانسان ملكوت السماوات . فردا فردا كائنا ما كان شأن الأمة التي ينتمي اليها ، وفهم السامعون من الملكوت انه حق لمن يقصده من بني الانسان أجمعين .

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة ، بل لا يذكر بلفظ واحد في جميع الأناجيل ، فان مرقس ولوقا يذكرانه

باسم ملكوت الله ، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات ، ويتفق أحيانا أن يذكر في جميع الأناجيل باسم ملكوت ابن الانسان

كذلك يبدو من بعض الأقوال انه حاضر على الأبواب ، وان من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتيا في ملكوته (١٦ متى) .

ويبدو من أقوال أخرى أن المدى بعيد وأن الضلال في دعواه طويل الأمد « لا يضلنّكم أحد . . فان كثيرين سيأتون باسمي فيضلّ بهم كثير . وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد ، بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن شتى ، وهذه كلها بوادر الأوجاع ، ويسلمونكم يومئذ الى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الأمم في سبيلي ، ثم يأتي أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ، وتفتر محبة كثيرين ، ولكن الصابرين الى المنتهى ينجون ، وينادى ببشارة الملكوت هذه في أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم (٢٤ متى) .

وأحيانا يأتي الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجىء مجهول الموعد : « اسهروا اذن لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم ، ولو عرف رب البيت في أي هزيع يأتي السارق ما سرق ، فاستعدّوا أنتم كذلك . . لأنه في ساعة لا تخطر لكم يأتي ابن الانسان » .

ومن النبوءات ما يقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر في هذا الجيل .

ويشار الى الملكوت أحيانا بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه : « اطلبوا أولا ملكوت الله وبره » - (٦ متى) - « وقد أعطي لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات » - (١٣ متى) .

وأحيانا يطلق على الرسالة التي يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح : « اجعل لكم ملكوتا كما جعل لي أبي » ، ويقول لوقا : « ان التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح ذاهب الى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال » - (١٩ لوقا) .

وقد رأينا في كتب التعليقات والتفسيرات ان هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوي الآراء ، كأنها أمر غير منتظر في تقديرهم ، وهي في

اعتقادنا أقرب شيء الى البداهة وطبائع الأمور .

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما الى الملكوت الذي يفهم كل سامع انه هو العالم الآخر ، وانه يأتي في نهاية هذا العالم ، وانه اذا أشار الى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة الى النبوءات التي جعلت له علامات ، والى كلام المفسرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة ، واختلفوا ، هل يأتي المسيح المرتقب ثم يعود ، أو ينتهي العالم الأرضي بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك في هذا العالم الأرضي المعهود .

وطبيعي جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون الى تلك النبوءات ، ولا موضع للاستغراب في هذا الصدد ، بل الغريب أن يخلو كلام السيد المسيح من هذا النذير ، سواء ظهر في ذلك الوقت أو ظهر بعده في زمن تتطلع فيه الأنظار الى النهاية والى تحقيق النذر والبشائر والعلامات .

فاذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى في تقديرنا فليكن في الحساب انه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى ، ولا سيما الملكوت الذي تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة . كما هو الواقع في جميع الرسالات . .

ففي رسالات الأنبياء الداعين الى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق في السماء ، وملكوت يعمل له الناس في هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها في هذا العالم فيستحقون بها الملكوت في العالم الآخر .

هذا الملكوت أيضا ـ ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الانسان ـ يقع في البال حتما ان السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه .

ولا بد من لبس هنا مع اللبس الذي يحدث من توجيه المعنى حينا الى ملكوت القيامة ، وتوجيهه حينا الى الملكوت يوم القيامة .

أما اللبس في فهم الملكوت الذي يدور على الرسالة المسيحية ـ أو رسالة ابن الانسان ـ فمرجعه من جهة الى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها ، فالملكوت في الدعوة التي يخص بها الاسرائيليون غير الملكوت في الدعوة التي لا يخصون بها ، بل لعلهم يطردون منها ، وتعمّ الأمم أجمعين . .

ومرجع اللبس من جهة أخرى الى سمو الرسالة على مدارك السامعين ، ولا مناص من هذا اللبس اذا دعي السامعون الى رسالة أسمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا اليه واستطاعوا أن يفهموه .

ولا نرى أن المسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والأتباع قد برزت في موضع من المواضيع بروزها في الأسئلة التي توالت منهم عليه ، وفي الحيرة التي دلت عليها هذه الأسئلة ، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذي يستدعي من الانسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه انسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليد الى هذا العالم ، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها ظل التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتي بدولة بني اسرائيل : « فسألوه قائلين : يا رب ! . . هل في هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل ؟ . . فقال لهم : « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي أودعها الأب سلطانه ، لكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح القدس ، وستكونون شهداء لي في أورشليم وفي اليهودية جميعا ، وفي السامرة ، والى أقصى المسكونة » . .

ونعود فنقول ان اللبس طبيعي جدا في هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين ، وان هذا التفاوت البعيد هو الذي يؤدي بنا الى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح ، لأنه ملكوت لم يكن في طاقة التلاميذ أن يخلقوه ويصوروه ، وكل ما في استطاعتهم أن يذكروا له اوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظا من لغة لا يفهمها ، فاذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الألفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هي الآية على صحة تلك الصورة ، وانها هي الوصف المقصود .

والأناجيل قد ذكرت وصفا متناسقا للملكوت في مواضع شتى : ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ، وذكرت مملكة قائمة في ضمير الانسان في كل زمان : اذا ربحها فهو الغانم واذا خسرها فالعالم كله لا يجديه ، وذكرت مملكة لا يدخلها الانسان الا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البريء ، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف لأن ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع . « ولما سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله ؟ . . أجابهم انه لا يأتي بمراقبة . ولا يقول قائل هو ذا ها هنا وهو ذا هناك ، لأنه هو الآن في داخلكم » (١٧ لوقا) .

فالذين استغربوا الأوصاف ، ولم يروا فيها الا التناقض والشكوك . . ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة ؟ . . وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتي غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ ، ومع حضور الملكوت في أذهان السامعين بمعنى القيامة ووروده أحيانا في كلام السيدالمسيح بهذا المعنى ؟ . . بل كيف كانوا ينتظرون أن تأتي على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورا لا بد منه بين كلام موجه الى أمة خاصة وكلام موجه الى جميع الأمم ؟ . .

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب ، ولكن العيب في الغربال الذي لا يعمل عمله وفي حامل الغربال الذي ينسى أن الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص .

اذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية ، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا ، وتسنى لنا أن نخرج من تلك الخطوط والأشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة ، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة ، وتلك الصورة اذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذي يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه ، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه .

* * *

تحولت الدعوة من خاصة الى عامة ، ومن أمة واحدة الى سائر الأمم ، بل الى « الانسان » فردا كان ، أو عنوانا يشمل كل انسان .

وحدث هذا التحول والعالم الانساني متهيىء للدعوة الجديدة من أعماق وجدانه ، وان لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها ، أو يسبر أغوارها . .

والعالم الانساني يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها ، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها أو الى شيء من قبيلها . .

مثله في ذلك مثل التربة التي ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة اليه ، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الأغوار .

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الانسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام ، ولكنها قد وجدت في بقاع من الأرض ولم توجد في سرائر الضمير ،

ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبة ، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها الى الأخوة والصفاء .

بل تحطمت اسوار الامم والاقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء ، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لاناس من جميع العصب والسلالات ، لا يشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، اما في ربقة الرق الصراح أو في ربقة أخرى لا تقل عنها في القسوة والنقمة ، وهي ربقة الحرمان والقنوط .

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثني عن رسول يجمع الأقوام الى دين واحد ، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم ، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد ، وكل ما يحدث في الأديان الوثنية أن تتغلب الدولة التي تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها ، وتفرض عليها العبادات التي تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعبده من الأرباب والأصنام .

أما الحماسة الروحية التي كانت لازمة لتوحيد العقيدة في العالم الانساني فلم تعهد قط في غير الأديان الكتابية أو الأديان الالهية ، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين باله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول في تلك الفترة .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا في قومه ، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عليهم ، فوجد فيه العالم بغيته في ساعة الحاجة اليه ، وانها لآية من الآيات التي يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين ، لأنها من التوفيقات التي يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير .

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدي الوثنية في صولتها وسلطانها ، فان الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة ، أما هذه الرسالة -

رسالة الملكوت السماوي ـ فقد نشأت في عشيرة قبيلة ذليلة ، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية ، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية ، فلم يمض غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين ، وصح ما رووه عن جوليان ـ سواء قاله أو لم يقله ـ فانتصر « الجليلي » بملكوته السماوي على ممالك القياصر ، وضم القياصر الى حاشيته ، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر وما أخذوه باسم الله ! . .

الفصل الخامس

ادوات الدعوة

قدرة المعلم
اخلاص التلاميذ

قدرة المعلم

اذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل ، وهما ان العالم كان عند انتشارها محتاجاً اليها ، ومستعداً لسماعها ، وهما شيئان مختلفان لا يذكران في معرض الترادف والتماثل ، لأن الحاجة الى الدعوة كالعلة ، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء ، وقد يتفقان في وقت واحد ، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله اذا عرض على العليل .

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التي لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجاً الى الدعوة المسيحية ، مستعداً لسماعها ، سواء قصرنا الكلام على عالم اسرائيل أو عممنا به العالم أجمع .

فعالم اسرائيل كان يؤمن بالمسيح وبموعده في تلك الحقبة من الزمن ، والعالم المعمور كان يؤمن ايماناً « سلبياً » بافلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء ، وكان عامته في بؤس ويأس ، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف ، من كان منهم يفكر دان بالأبيقورية أو دان بالرواقية ، ومن كان مطبوعاً على التدين والبحث في شؤون الغيب ، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات .

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والرواقية والنحل السرية ، فهم اذن في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء ، وأسلم ما يقال عنه في

صدد العقيدة المقبلة انه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها ، وانه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها . .

كان العالم في عصر الميلاد محتاجاً للعقيدة مستعداً لسماعها ما في ذلك ريب ، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقاً أن يظفر بتلك العقيدة عفواً صفواً بغير جهاد من رسلها ودعاتها ، وبغير كفاية عالية في أولئك الرسل والدعاة .

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنياً للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح ، وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس واجتذاب الأسماع والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد .

وقد كانت هذه القدرة موفورة في معلم المسيحية ، وبحقٍّ سميّ المعلم ونودي به في مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحي حيوي من طريق التعليم .

* * *

نودي المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل مرات : ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين . .

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون في كلامه علماً واسعاً بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها والتعقيب عليها ، ويكفي ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب أرميا واشعيا وحزقيال فضلا عن الكتب الخمسة التي نسبت الى موسى عليه السلام ، وفضلا عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والأحكام .

ويرجح بعض المؤرخين انه كان يعرف اليونانية وان الحديث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأن اليونانية كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل ، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون الى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهم من كان يحج الى بيت المقدس في الأعياد ، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون الى الاسكندرية وبلاد الاغريق ولا يتفاهمون بغير اليونانية مع أبناء جلدتهم هناك ، فلا غرابة في معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من

أبناء الجليل ، ولكن المحقق انه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء ، وانه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء فيها ، وانه اذا عرف اليونانية فانما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة ، لأن أقواله خلت من الاشارة الى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة ، ولأن العبارات التي جاءت في الأناجيل اليونانية منسوبة اليه تشف عن أصلها الآرامي بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الألفاظ .

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريداً بين أحبار اليهود في تلك الأونة ، فربما كان في بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح ، واقتدروا على الاستشهاد بها والتعقيب عليها بعارضة قوية وبديهة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذي يبث الحياة الروحانية في النفوس وينفث في الخواطر تلك الراحة التي تشبه راحة السريرة ، حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ .

لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة في القوة والنفاذ .

كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة في بلاغتها وتصريف معانيها ، فذة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب . . . ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب .

كانت في تركيبها نمطاً بين النثر المرسل والشعر المنظوم ، فكانت فناً خاصاً ملائماً لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال ، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية ، لأن هذا النمط من النظم غير معروف في اللغة الآرامية ولا في اللغة العبرية ، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التي ينتظرها السامع انتظاره للقافية ، وان كانت لا تتكرر بلفظها المعاد . .

كان أسلوبه في ايقاع الكلام أسلوباً يكثر فيه الترديد والتقرير وليس في الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب ، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد ، كما في

هذا المثال :

« اسألوا تعطوا .

« اطلبوا تجدوا .

« اقرعوا يفتح لكم .

« لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب.

« من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟

« أو يسأله سمكة فيعطيه حية ؟

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً ؟

« فاذا كنتم ـ وأنتم أشرار ـ تحسنون العطاء للأبناء ، فكيف بالأب الذي في السماء يعطي الروح القدس لمن يسألون » .

أو كما في هذا المثال :

« كما في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن الانسان .

« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، الى اليوم الذي دخل الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع .

« كذلك في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن اليوم الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطرت ناراً وكبريتاً من السماء فأهلك الجميع .

« هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الانسان .

« في ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته في البيت فلا يهبط اليها ليأخذها . .

« ومن كان في الحقل فلا يرجع الى الوراء . ألا تذكرون امرأة لوط ؟

« ومن طلب الخلاص لنفسه يهلكها ، ومن أهلكها يحييها .

« أقول لكم فاستمعوا : في تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه .

« وتكون اثنتان تطحنان ، تؤخذ احداهما وتترك الأخرى .

« ويكون اثنان في الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك .

« .. حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور » .

***

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم :

« يا أورشليم ، يا أورشليم !..

« يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين .

« كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ..

« ولم تريدوا ..

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب » .

« وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :

« يا بنات أورشليم ..

« لا تبكين علي .. وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين ..

« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم ترضع ..

« أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم ، والآكام أن تكون غطاء لهم ..

« ان كان بالغض الرطب يصنع هذا ، فباليابس ماذا يصنعون ؟ » .

***

هذه النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه في تركيب اللفظ وسياق النذير والتذكير ..

أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب الأمثال ، ومنه القالب الذي يعول على الرمز ، والقالب الذي يعول على الحكمة ، والقالب الذي يعول على القياس ، والقالب الذي يعول على التشبيهات ، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذي انفرد بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير ، وان كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال ..

فمن نماذج المثل الذي يعول على الرمز مثل الزارع والبذور . « زارع خرج ليزرع وفيما هو في الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء وأكلته ، وسقط بعضها في مكان محجر خفيف التربة فنبت على الاثر ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق ، واذ لم يكن له عمق في جوف الارض جف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها في الارض الجيدة فأعطى ثمراً يصعد وينمو ، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة . من له اذنان للسمع فليسمع » .

ومن نماذجه مثل فتيات العرس : « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس : خمس منهن فطنات وخمس غافلات . أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتاً ، وأما الفطنات فأخذن الزيت في آنيتهن مع المصابيح ، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعاً ، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل : ها هو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه . . فالتفتت الغافلات الى مصابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فأجبنهن : لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيث يباع . وفيما هن ذاهبات قدم العريس . . وصحبته الحاضرات المستعدات الى محفل الزفاف ، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين : افتح لنا يا سيد . . افتح لنا يا سيد . . فأجابهن : من أنتن ؟ . . اني لا أعرفكن ! . . » .

ومنه قوله : « أنا خبز الحياة ، من يقبل علي لا يجوع » .

ومن نماذج المثل الذي يعول على الحكمة : « لا تطرحوا الدر أمام الخنازير » . . « بالكيل الذي تكيلون يكال لكم » . . « أيها المداوي داو نفسك » . . « خمر جديدة في زقاق قديمة » . . « لا تدع يسارك تعلم بما تصنع يمينك » . . « من ثمارهم تعرفونهم » . . « لا كرامة لنبي في وطنه » . .

ومن نماذج المثل الذي يعول على القياس : « ان كنتم تحبون من يحبونكم فأي فضل لكم ؟ . . أليس ذلك شأن العشارين ؟ » .

ومنه في تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين : « لا حاجة بالأصحاء الى طبيب ، وانما المرضى يحتاجون الى الأطباء » ، ومنه : « ان كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون ! . . » .

ومن نماذج المثل الذي يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه : «أنتم ملح الأرض ، فان فسد الملح فبماذا يملح ؟ . . انه لا يصلح اذن الا لأن يلقى على التراب ويداس . أنتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضيء به جميع من في الدار » .

***

ومن نماذجه : « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص وحيث يكون الكنز يكون القلب » . .

وقد أثر عن السيد المسيح في جميع الأمثال حب المقابلة بين الأضداد لجلاء المعاني وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة : « يرون القذى في أعين غيرهم ولا يرون الخشبة في عينهم » . . « يحاسبون على البعوضة ، ويبلعون الجمل » . . « في الظاهر جدران مبيضة ، وفي الباطن عظام نخرة » . . « غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل في سم الخياط » .

ومعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر ، جواباً عن سؤال ، أو تعقيباً على حادث عارض ، أو تقريعاً لمكابر ، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير الى غير المناسبة التي توحيها ، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة واحدة ، وان الخطبة على الجبل - وهي أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات - جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب الموضوعات في أوقاتها ومناسباتها .

واذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه في أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعاني المنسوقة فى البديهة الملهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه في غير هذه الأحوال ، فتجري كلماته في مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لأنه منتظم غير مرسل ، ولكنه في الواقع لم يكن محضراً قبل ساعته ، وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذي يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وانه تعود التفكير في المواقف المتشابهة فانسكبت قوالب التعبير في بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة ، وهي عادة يعرفها من تعودوا

التفكير ، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير ، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية في لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين ، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبل غيرهم انهم يسمعون كلاماً معهوداً ، ويوشك أن يتساءلوا : أين يا ترى سمعوه قبل الآن ؟ . . والواقع انهم نقلوه من وعيهم الخفي الى وعيهم الظاهر فكان شأنهم كشأن سامعيه في استغرابه ، والواقع أيضاً أن الناس حين يستمعون اليه يرونه غريباً وقريباً في وقت واحد : غريباً لأنه كان يساورهم ولا يدركونه ، وقريباً لأنهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك .

***

ومن كان كالسيد المسيح تربّى منذ طفولته على التلاوة في كتب الأنبياء وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة ، والأمثال المرددة ، واستقامت فطرته على الوحي والايحاء فليس أقرب اليه من أن ينطلق بكلام يحيك في الأسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته . . وهذه هي البديهة التي كان يعنيها حين يوصي تلاميذه بالاعتماد على الطبع ، وترك الاهتمام بالتزويق والتنميق قبل الساعة التي تدعوهم دواعيها للخطاب . .

ولعل سامعي العظات الدينية في عصر المسيح قد سمعوا الأمثال في قوالبها مرات كثيرة . . ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبداً أو استمعوا الى خطيب في غير المعابد ، فان نقاد البيان العبري والآرامي يردّون هذه الصيغ البيانية الى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين . فلم يكن المسيح مبدعاً للأمثال ولا لقوالبها التي تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس ، ولكن الأمر المحقق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التي كانت تشيع في أطوائهم ، وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم الى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة ، لفرطما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولي عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور . .

***

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل الى سامعه انه يبتعد من مصدره كلما أصغى

اليه ، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل الى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزاً أو تدنى مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسامع . . من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد ، وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح في أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين الأضداد فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبساً وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذي يسترد بصره مشدوهاً بالرؤية لأول مرة ، أو شعور المدلج الذي يصحب الليل من السحر الى الفجر الى الصباح : هداية في رفق ورحمة ، واقتراب في غير عناء ولا اقتحام .

في وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة .

وفي وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول في الرسالة . فلا رسالة في الحق بغير رسول ، ولا سبيل الى قيام المسيحية بغير مسيح ، فان مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفاذها ، وكل ما عداه فروع وزيادات .

* * *

لقد كان لبُّ الرسالة المسيحية في لبِّ رسولها المسيح : هداية انسان لا صولة له على أحد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والأفهام ، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولى بالسبق في الميدان لأنه صاحب السبق في الدعوة وصاحب السبق في الشهادة ، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها ، وصاحبها هو المسيح . . وكانت حاجة العالم كله الى الدعوة المطلوبة لا تكفي بغير صاحبها القادر عليها . . والصالح لاقامتها ، لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج اليه . .

اخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول في كل دعوة انهم دعاة ، أي انهم شركاء للمعلم في نشر الدعوة . .

أما الفضل الأول للتلاميذ في الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون ، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم الى صفوفهم بل كانوا في الواقع هم الصف الأول السابق الى الاستجابة ثم تلته صفوف أخرى من أمثاله ، ليس فيهم قائد ولا مقود ، وكلهم في قبول الدعوة سواء .

كان فضل التلاميذ في الديانة المسيحية انهم أول القابلين ، ولا بد أن نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين .

فالتلاميذ بالنسبة الى السيد المسيح هم أمته الصغرى ، كبرت مع الزمن على هذا المثال ، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدي بتلك الأمة الصغيرة في الاستجابة ، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلهم وهم الصف الأول في الجيش الواحد ، وليسوا هم جيشاً يقابل جيشاً آخر بالدعوة فيلبيه وينضوي اليه . .

كانوا نموذج الأمة المسيحية في أول الرسالة ، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهي لا تخالف هذا النموذج في التكوين ولا في الطراز ، ومن هنا نقول ان التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أناس غيرهم ، ولكنهم وغيرهم جميعاً مستجيبون للدعوة فوجاً بعد فوج ورعيلا وراء رعيل . .

في الدعوات قادة ومقودون . .

ولكن التلاميذ في الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم ، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت ، لا فرق في بنيتها بين أولين وآخرين . .

وليس في سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة ، فهم جميعاً من بيئة واحدة ، وربما كانوا جميعاً من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة ، كأنهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين ، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدي السيد المسيح .

وكان السيد المسيح ينظر الى بعضهم فيقول له : اتبعني . . فيتبعه ولا يظهر عليه انه أفضل من غيره بمزية عقلية أو نفسية الا أن تكون المزية التي يتوسمها فيه السيد فيدعوه من أجلها ، وهي مزية الاصغاء والاتباع .

ولم يبد منهم أنهم أقدر على فهمه من الآخرين ، فلو أصابت القرعة اثني عشر آخرين لكانوا في مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول ، لأن كفاءتهم ولا شك هي الكفاءة الوسطى في كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة . . فلم يكن منهم علم بارز لا يتكرر بهذه النسبة في اية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الاولى ، فلا يقال في واحد منهم انه واحد من مائة او واحد من ألف لا يتكرر ، أو أن واحداً منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير . بل كل ما يقال انه مجند يشبه غيره من المجندين ، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب . .

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء في الأناجيل .

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار انه كان اختياراً نادراً أو مستعصياً على القائد الحكيم الحصيف ، ولعل العامل الأكبر فيهم انهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة ، وان اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بددا من بيئات متباعدة ، فان المتآلفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضاً من المتباعدين . .

ونحسب أن التشبيه بالتجنيد هنا خليق أن يقرب الى الأذهان هذا المعنى الذي نرى له المكان الأول في فهم الدعوة وأسباب سريانها .

فالمجندون يقترعون ، وكلهم متماثلون في شروط التجنيد ، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه ، وكل الفئات الأخرى

تضارعها على الجملة في شروط التجنيد .

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التي نفثتها فيهم روح المعلم القدير .

كان يعرف عيوبهم ، وكانوا في أمانتهم واخلاصهم لا يغالطون أنفسهم في تلك العيوب . .

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسألونه مزيداً من التوضيح ، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه ، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه أن يزيدهم ايماناً ، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه الشكوك . .

ولم يحسب قط انهم طود لا يتزعزع وانهم عزيمة لا تتضعضع وانهم يواجهون المحنة في كل حال ، ولا يدركهم ضعف النفس يوماً أمام هول من الأهوال . .

فقد أنبأهم انهم سيتخلون عنه ، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه ، وقد لامهم غير مرة لأنهم يتنافسون على السبق أو لأنهم يستبطئون جزاءهم على الايمان ، أو لأنهم - بعد وعظهم وتذكيرهم - لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شرعية الحب والغفران ، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر مما نظر ، أو تفوته منهم في أوائلهم حالة ظهرت له في أواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية على انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم ، وليس مطلوباً من الناس في العالم الواسع أن يدركوا مقاماً من الايمان فوق مقام الاخلاص وحسن الاستعداد لاصلاح العيوب ، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل اليهم أن يسيحوا في أرض الله ويجعلوا من أنفسهم مثلا يقتدي به المخلصون . .

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازاً معصوماً لا عيب فيه ولا مأخذ فيه ، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم ، ويستقبل معهم قبلتهم ، ويكلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون ، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوا .

***

ومن العبارات ذات المغزى الكبير في الانجيل ان المسيح مضى شوطاً بعيداً في دعوته ولم يقل لهم انه هو المسيح المنتظر ، فشاع ذكره في القرى وتساءل الناس

عنه : من يكون ؟ . . فمنهم من يقول : انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى ، ومنهم من يقول : انه الياس ، ومنهم من يقول : انه نبي مبعوث ، والمسيح لا يقول للتلاميذ انه المسيح . بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساؤل الناس عنه : وأنتم من تقولون اني أنا هو ؟ . . فأجابه بطرس : أنت المسيح . فانتهره وأوصاهم ألا يذكروا ذلك لأحد في رواية انجيل مرقس . أما في انجيل متى فقد روى ان بطرس قال : « انت هو المسيح بن الله الحي » ، فأجاب يسوع وقال : طوبى لك يا سمعان بن يونا . ان مخلوقاً من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبي الذي في السماوات ، وأنا أقول لك انك أنت بطرس[1] وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد انه هو يسوع المسيح » .

أما انجيل لوقا فالرواية فيه أقرب الى رواية انجيل مرقس : « ففيما هو يصلي على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا : ماذا تقول الجموع عني ؟ . . فأجابوا : انهم يقولون : يوحنا المعمدان ، وآخرون يقولون : الياس ، وآخرون يقولون : ان نبياً من القدماء قام . ثم سألهم : وأنتم من تقولون ؟ . . فقال بطرس : مسيح الله . . فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد » . .

والرواية في يوحنا أقرب الى تصوير ما قدمناه ، فان السيد المسيح أحس ان الناس يتراجعون عنه « وان كثيراً من تلاميذه رجعوا الى الوراء ولم يمشوا معه ، فقال للاثني عشر : ألعلكم أنتم تريدون أيضاً أن تذهبوا ؟ . . فأجاب سمعان بطرس : يا رب ! . . الى أين نذهب ؟ . . كلام الحياة الأبدية عندك ؟ . . ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح بن الله الحي ، فأجابهم : ألست أنا اخترتكم . . وواحد منكم شيطان ! . . » .

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء في انجيل يوحنا : « قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم في كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذي ، وتعرفون الحق والحق يحرركم . فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيداً لأحد ، فكيف تقول انكم ستصيرون أحراراً ؟ . قال : الحق الحق أقول لكم ان كل

---

(١) الكلمة الارامية صفا بمعنى حجر كما في العربية وبطرس « بيتر » هي ترجمة الكلمة باليونانية .

من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى في البيت أبداً . انما يبقى فيه الابن الى الأبد . فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً . . أنا عالم انكم ذرية ابراهيم ، لكنكم تريدون قتلي لأن كلامي لا يقع منكم موقعاً ، أنا أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم ، فأجابوه : ان أبانا ابراهيم . قال : لو كان أباكم لعملتم عمله ، ولكنكم الآن تطلبون دمي وأنا انسان كلمكم بالحق الذي سمعه من الله . هذا لم يعمله ابراهيم وأنتم تعملون أعمال أبيكم ، فقالوا له : اننا لم نولد من سفاح لنا أب واحد هو الله . قال : لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قبل الله وأتيت اليكم . انني لم آت من نفسي بل هو أرسلني . . أنتم من أب هو ابليس . . » .

فأجابه اليهود : « ألا نقول حسناً انك سامري وبك شيطان » . وبعد أن قال لهم : ان من يحفظ كلامي لن يرى الموت غادوا يقولون : « الآن تبين لنا أن بك شيطاناً . قد مات ابراهيم وأنت تقول : ان حفظ أحد كلامي لن يذوق الموت . من تجعل نفسك ؟ . . ألعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذي مات » . .

والعبرة من هذه القصة ان السيد المسيح مضى في دعوته زمناً ولم يذكر لتلاميذه انه هو المسيح الموعود ، وانه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه انهم لا يدركون ما يقول ، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح أو لغة المجاز ، وانه أشفق يوماً أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ ، وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم : « انما بنوة الله بالأعمال وانما أنتم بأعمالكم أبناء ابليس » .

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه الى الأبد ، وانه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والايمان تلك الغاية المثلى التي ليس فوقها غاية ، فان صمد معه أناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون الأمل في الخلاص من هذا الطريق ، فأولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه .

* * *

والشائع ان التلاميذ كانوا طائفة من صيادي السمك في بحر الجليل ، والمفهوم من هذا عند اناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع انهم طبقة عمال الصيد

الأميين ، ولكنه فهم متعجل مبني على قياس غير صائب . اذ الواقع انهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات ، لم يبلغوا في العلم مبلغ الفقهاء في زمانهم ، وهو خير لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكابرة ، ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلية في الغباء ، وكان منهم من نسميه في عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه ، وقدرته على كتابة انجيل « باللغة اليونانية كما هو الأرجح » قدرة لا تتأتى لغير المثقفين ، ومنهم يوحنا الذي ينسب اليه الانجيل الرابع ، وهو ابن خالة المسيح أو من بني خؤولته ، وكان صاحب عمل ناجح في تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من انجيل مرقس حيث يقول : « انهما تركا أباهما في السفينة مع الأجراء وذهبا وراء السيد المسيح » .

ومنهم جيمس[1] قريب المسيح ويوحنا أو « ابن الرعد » كما سماه المسيح لقوته في الانذار وتشديد النكير ، ومنهم بطرس وهو متكلم جريء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الانجيل ، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس في أمر الدعوة ، وأكثرهم واجه الموت في عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوي البأس والسلطان .

وقد استمالت الدعوة اليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى ، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول ، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو أستاذ في فقه الدين عالم بالتواريخ ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا الى الدعوة عطفاً على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة ، لأنهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل الحماسة الروحية في تقويضه أو الاجهاز عليه .

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعياً الى الفوضى السياسية متحللا من النظام ، لشدة انحائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها ، وفاتهم ان الشريعة الفاسدة في أيدي الجامدين أو المنافقين هي

---

(١) ورد في بعض المراجع ان « جيمس » تصحيف يوناني لكلمة يعقوب ، ولكن اسم يعقوب وارد في التراجم اليونانية فالمفهوم على الارجح أن المترجم اليوناني سمع اسم جيمس من افواه الناطقين بالارامية فلم يتصرف فيه .

الفوضى في صورة أخرى ، ومن يدحضها وينحي عليها لن يكون من الفوضويين ولا أعداء النظام .

أما البينة في الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات ، وتقسيمه للأعمال في مجتمعه الصغير ـ مجتمع التلاميذ ـ بين أمين للصندوق ، ومباشر لمطالب الجماعة ، وراع يرعى القطيع في غيبة السيد ، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين .

وأدخل من هذا في باب التنظيم انه اختار أولا اثني عشر تلميذاً ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين في كل اتجاه . . وانهم حين عادوا من رحلتهم ، أخذهم ناحية في الجبل ليستمع منهم ويراجع أعمالهم ، ويزيدهم من الوصية والارشاد .

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين ، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التي يتحطم عليها نظام كل جماعة . . وهي فتنة التنافس على الرئاسة ، فعلمهم ان الأول فيهم هو خادمهم الأول ، وضرب لهم مثلا فذاً في تاريخ الدعوات ليقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه ، فجمعهم في محفل ليغسل أقدامهم بيديه ، ونفر بعضهم أول الأمر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التي عناها بهذه القدوة ، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد انهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه في غسل الأيدي والرؤوس .

وحصر جهده كله في تعويدهم « انكار الذات » وهو فضيلة الفضائل في الأعمال العامة ، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التي يدخلونها لدعوة أهلها ، ولكنه قال لهم : « لا تحملوا كيساً ولا مزوداً ولا أحذية . . وأي بيت دخلتموه فقولوا سلام . . وأي مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم » .

وكرر لهم الوصية بالبساطة في العمل والكلام فأمرهم « ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون في تلك الساعة ما يقولون ، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم » .

ولم يخف عنهم انهم ملاقون ويلا من النـاس ، فليكونـوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . أما اذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسـد وليخافـن من يهلك الروح . .

وقد أثمرت رياضة الحب في تدريب هذا الجند الروحاني ما لا تثمره رياضة القسوة والصرامة في تدريب جنود القتال ، فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الوناء في أداء الأمانة يصغرهم أمام أنفسهم ، ويصغرهم أمام الله ، وليس أقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار .

وما هو الا أن حان موعدهم ليعملوا وينتشروا في الارض حتى خرجوا الى كل وجهة وأبعدوا الرحلة في كل مكان معمور ، فمنهم من وصل الى جزر الهنـد الشرقية كالرسول توما ، ومنهم من وصل الى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول اندراوس ، ومنهم من شغل بنفسـه في البـلاد الاوربية فأرسـل صحابتـه الى افريقية الشمالية ، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعـراق ، فضـلا عن الدعوة في فلسطين .

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلـوا بخطـاب « الأمـم » في الجليل وآسيا الصغـرى والاسكنـدرية ، وأفادهـم التمهيد الـذي سبقهـم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السرية في تنظيم الدعـوة ، فعملـوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون ، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا في كل بقعة ، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة ، وهنـا يصـح أن يقال ان الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التي سبقتها في العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر النجاح الذي أصابوه ملحوظاً في آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ .

كذلك يبدو أثر «الحالة العالمية » في انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعـة تكررت في كل أمة . فقد كان المدعوون الى الدين الجديد من جماهير النـاس سراعاً الى القبول ، حراصاً على المعاونة والتأييد ، ولم يصب الرسل خطر الا من قبل « السلطة » الغالبة ، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله . .

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ الى المجاملة رجاء أن تكسبـه هذه المجاملـة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة اذا واجهتهم الصراحة بغـير تقية ، فكان بطرس في انطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله

بقوم من « آل يعقوب » فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة في سبيل مرضاة الناس .

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة ، وكان كما قال في سفر كورنثوس الأول : « . . . استعبدت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين ، وصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود وللناموسيين كالناموسيين ، ولغيرهم كأنني بغير ناموس . . صرت لكل كلّ شيء ، لعليّ أستخلص من كل حال قوماً . . » .

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول أناس ممن تحولوا الى المسيحية من الوثنية ، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها ، وشملهم الاغضاء حيناً لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد .

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظروا في تواريخ الأقدمين فوجدوا في كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها ، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان ، أو أعاجيب النقل والرواية ، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح أبى هذا الاتهام لأنه أصعب تصديقاً من القول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق ، فشتان عمل المؤمن الذي لا يبالي الموت تصديقاً لعقيدته ، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم انه يكذب وانه يدعو الناس الى الأكاذيب ، مثل هذا لا يقدم على الموت في سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها ، وهيات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون . فاذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين الى التصديق فأقرب القولين الى التصديق ان الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا انهم رأوه أو سمعوا ممن رآه ، وليس بالمخالف للمعهود في كل زمن أن يصدق الانسان عياناً ما يصدقه في قرارة نفسه ، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل . .

وليذكر أدعياء التمحيص في عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل في القرن الأول للميلاد أن يكذب انساناً لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق . . ومن التكذيب لغير سبب في ذلك العصر أن يبادر السامعون الى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات ، فذلك شبيه في عصرنا هذا بمن

يكذب انساناً لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ، ولا سيما اذا كان المتكلم غير معهودٍ فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق . .

* * *

ان أسخف السخف أن يقال ان ديناً من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق . ان تصديق الخوارق والاعاجيب هو نفسه ايمان كأقوى الايمان ، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل . . ولكن لم يحدث قط اقبال كذلك الاقبال الجارف الذي تلقى به الناس رسل المسيحية ، لأنهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة ، ونظروا أمامهم فرأوا قوماً مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين في مقاصدهم ، فأصغوا اليهم وآمنوا كايمانهم ، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصدود والنفور . .

الفصل السادس

الأناجيل

شراح الاناجيل

الاناجيل

الأنجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة ، وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع - أي بكثرة الأصوات - وهي إنجيل مرقس ، وانجيل متى ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا ، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة في العهد الجديد .

ويرجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون اليها بحرف « ك » مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل ، ومنهم من يسمي هذه النسخة « لوجيا » Logia بمعنى الأقوال ، ويريدون بها الأقوال الشفوية التي سمعت ثم كتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية ، ويعللون اتفاق متى ولوقا في بعض النصوص باعتمادهما معا على تلك النسخة المفقودة .

أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ في ترجمتها انها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعاني والمفردات ، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحتوي كل ما فاه به السيد المسيح ، اذ جاءت في أعمال الرسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة الى السيد المسيح لم ترد في الأناجيل وهي : « تذكروا كلمات المسيح . ان العطاء مغبوط أكثر من الأخذ » . . . وجاءت في الأناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع الى منتصف

القرن الثاني لا تشبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها .

وتتفق الآراء أيضا على أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه ، وهما نسخة مرقس التي دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع في كتاب ، وقد كتبها في رومة بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتي سبع وستين وسبعين .

والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول ، دون فيها ما سمعه منه ، ولعله أضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه ، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين .

أما انجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة ، وأكثر النقاد يجمعون على انه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح ، وآخرون يعتقدون أنه بقلم يوحنا آخر كان في افسس ولم ير السيد المسيح . . لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال في سنة ست وتسعين ، ولا يظن أن مؤلفا واحدا يكتب في وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين في المنهج والفحوى .

على ان الأب فرار فنتون مترجم الانجيل « طبعة اكسفورد » يعن له ان انجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل ، وانه كتبه أولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله الى اليونانية ، ولكن تأخر الزمن الذي كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل ، وزيادته في التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول ، ولا يظن أنه كتب قبل سنة ست وتسعين .

والترتيب المفضل عند المؤرخين أن انجيل مرقس هو أقدم الأناجيل ، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا ، وهي الأناجيل الثلاثة التي اشتهرت باسم أناجيل المقابلة ، لامكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب ، مع العلم بأنها كتبت في الأصل مرسلة بغير أقسام وبغير مواضع للوقف والالحاق ، ولم تُقسَّم الى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد .

وليس من الصواب أن يقال ان الأناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها في تاريخ السيد المسيح ، لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب في الزمن والمكان ، ولأنها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولأنها روت من

أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين ، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال .

وانما الصواب انها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك التاريخ ، اذ هي قد تضمنت أقوالا في مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع الى أسباب هذا وأسباب ذاك .

فانجيل متى مثلا ملحوظ فيه انه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدي عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد .

وانجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه انه يخاطب « الأمم » ولا يتحفظ في سرد الأخبار الالهية التي كانت تحول بين بني اسرائيل « المحافظين » والايمان بالاهية المسيح .

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه الى سري كبير ، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الانسانية ، ويحضر في ذهنه ثقافة السري الذي أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية .

وانجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن « الكلمة Logos» ووصف فيه التجسد الالهي على النحو الذي يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة .

وسواء رجعت هذه الاناجيل الى مصدر واحد أو أكثر من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان انها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس الى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد .

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعا أوفى منها لدرس حياة الرسول والاحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع في مراجعتها طريقة غير التي درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار فلا نراجعها من حيث هي وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التي أرادها كتابها ورواتها ، ولكننا نجمع الوقائع والأخبار ونسأل عما وراءها من الابانة عن شخصية الرسول . وفي هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الأغراض

المقصودة وغير المقصودة . . . فهل وراء هذه الأخبار « شخصية متناسقة » مفهومة ؟ . . ان كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار . . وعلينا أن نفهم هنا أن النقائض في هذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق ، ولا تكون من أسباب الشك والانكار ، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية ، فما خرج من السواء فهو فضول .

ومن الامثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها ان الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه ان لم نجده ماثلا بين أيدينا ، فان خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذي يستغرب وليس هو المألوف الذي يدعو الى الترجيح أو اليقين . وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون في وجودها ؟ . .

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت في تواريخ الأديان ، فنحن نسأل : هل هذه المعجزة لازمة في تفسير مسألة من المسائل ؟ . . فان كان تفسير المسألة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا الى الجدل في امكانها أو استحالتها ، لأن التفسير الذي يقبله كل انسان يغني عن التفسير الذي يضطرنا الى امتحان الممكنات وامتحان الرواة .

أما رأينا نحن في امكان المعجزات فهو رأينا في امكان جميع الأسباب . فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها ،.وليس من العقل أن يقال ان هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هي العوامل الفعالة في ايجاد الأشياء ، وأصح ما يقال فيها قول الغزالي رحمة الله ، ان الأسباب والمسببات تحدث معا ، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق في الأوقات ، والا لزم أن تكون المادة ألوفا من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقل سليم .

فاذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها .

***

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب : هل هي لازمة لتفسير هذه المسألة ؟ . . وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا : هل هذه المعجزة

لازمة للفهم والتفسير؟ . . وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الأديان . . .

ونحن لم نتعرض للمعجزات التي وردت في الأناجيل لأن تفسير الحوادث منساق لنا بغيرها ، فليس في الأناجيل ان معجزات الميلاد حملت أحدا على الايمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة . . وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ، وان الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ، وان المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحيانا ولكنهم كانوا يزعمون انه من فعل الشيطان ، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح انه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات .

وبعد . . فمن الحق أن نقول ان معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة التاريخية التي بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها في عصر الميلاد : رجل ينشأ في بيت نجار في قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولا تضيع في أطوائها دولة الرومان ولا ينقضي عليه من الزمن في انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة في ضم اقليم واحد ، قد يخضع الى حين ثم يتمرد ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام . .

شراح الاناجيل

عني الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث في سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل ، ولكنهم لم يصلوا الى ترتيب متفق عليه ، لأن سياق الحوادث مختلف في الأناجيل الأربعة ، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها في أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التي وقعت فيها الحوادث ، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث .

على ان حوادث السيرة فيها ما يظهر منه انه مقدمات وما يظهر منه انه نتائج لاحقة لتلك المقدمات ، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث ، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى ، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التي يمكن أن تضاف الى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه .

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية .

ولم تذكر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين : احداهما ، حادثة السفر الى مصر وهو رضيع ، والأخرى حادثة السفر الى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره .

روى الحادثة الأولى انجيل متى فقال : « ان ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم قائلا : قم وخذ الصبي وأمه واهرب الى مصر . . لأن هيرود مزمع أن يطلب

الصبي ليهلكه ، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف الى مصر ، وبقي فيها الى وفاة هيرود » ثم قال : « وقتل هيرود جميع الصبيان الذين في بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونها » .

ولم يذكر خبر هذه المذبحة في غير انجيل متى ، ولا يعرف الآن سبب وجود الأسرة في بيت لحم ـ وهي في الناصرة ـ لأن الاحصاء الذي أشار اليه انجيل لوقا وقال انه سبب انتقال كل اسرة الى منبتها قد تقرر في السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والي سورية كرينيوس . .

أما الانجيل الذي توسع في وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذي روى اخبار ختانه وتسميته والسفر به الى بيت المقدس : « فلما تمت ثمانية ايام ليختنوا الصبي سمي يسوع . . . » وتمت ايام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به الى أورشليم ليقدموه للرب . . . ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخي حمام » وهي القربان المقبول من الفقراء . . .

قال انجيل لوقا : « وكان أبواه يذهبان كل سنة الى أورشليم في عيد الفصح ، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا الى أورشليم كعادة العيد ، وبقي الصبي عند رجوعهما في أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان . واذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا الى أورشليم يطلبانه ، فوجداه بعد ثلاثة ايام في الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته ، فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه : يا بني . لماذا فعلت بنا هكذا ؟ . . . فقال لها : « لماذا كنتما تطلبانني ؟ . . . ألم تعلما حيث ينبغي ان اكون فيما لأبي » . فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما ، ثم نزل معهما وجاء الى الناصرة وكان خاضعا لهما . . . وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » . . .

ولا يذكر الانجيل شيئا عن نشأة الصبي بعد ذلك الى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل الى الأردن ليعتمد منه ـ كما ورد في انجيل متى ـ فمنعه يوحنا قائلا : أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي اليَّ ؟ . . . فأجابه يسوع تسمح الآن ، لأنه هكذا يجمل بنا أن نستوفي كل بر . فسمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء . . . واذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصوتا من السماوات يقول : هذا هو ابني الحبيب » . . . .

وفي انجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة ـ وهو انجيل العبريين ـ رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها ان أمه واخوته قالوا له ان يوحنا المعمدان يوالي التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا . . فقال لهم : « أي خطيئة جنيت حتى أذهب اليه لتعميدي ! . . اللهم الا أن يكون هذا القول الذي قلت » .

وليس في الأناجيل ولا في غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح في طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها ، ولكنه بالقياس الى نظام التربية في ذلك العصر يبدأ في مكتب ملحق بالبيعة في كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها « حزان » أو « خزان » بمعنى الخازن والحارس ، ويندر في المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها في الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار .

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى في ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر ، وقد سمي الطفل يسوع أو « يهوشع » على هدا الأمل ، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعي « يهوا » أو نجدة « يهوا » أو خلاص « يهوا » فتربى الطفل تربية دينية خالصة ، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة الى بيت لحم عند مولده ، لأنها تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد في أسفار من النبوءات أن بيت لحم هي مولد المسيح الموعود ، لأنها موطن داود . .

ولا يبعد أن الصبي المبارك ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، قد وعى جميع الدروس التي يتعلمها الصغار في مدارس القرى واستمع الى شيء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره ، فتاقت نفسه الى استيعابه ونسي أهله وموعد عودتهم الى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأحبار .

ويغلب على الظن انه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وان يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه في الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهي بطبيعتها رسالة اعداد وتمهيد . .

ومن البديهي أن كلمات يوحنا مع الفتى ابن الثلاثين في ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها في نفسه الواعية ، فمن أيسر آثارها في مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمل وتدعم فيها اليقين وتبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجوه

ويرجى منها من البشائر والنذر التي ترددت يومئذ في كل مكان ، وعلى كل لسان .

وخلوة البرية هي احدى نتائج تلك التحية النبوية ، وهي خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التي عالجها كل نبي قبل أن يصدع بما أمر به ، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله .

ونعتمد في وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول : « انه عليه السلام بعد أن صام في البرية أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم اليه المجرب وقال له : ان كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا . فأجابه : مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله . ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من عل ، لأنك موعود أن يوصي ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رجلك بحجر . قال يسوع : ومكتوب أيضاً : لا تجرب الرب الهك . ثم أخذه ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها ان سجدت لي . . قال يسوع : أغرب عني أيها الشيطان ، فانه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد »

قال انجيل متى بعد ذلك : ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهيرود انصرف الى الجليل وترك الناصرة وسكن في كفر ناحوم ، وابتدأ رسالته داعيا الى التوبة ، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات .

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية كما أسلفنا ، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهبا واستعدادا وأملا ، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحانا وعزيمة ، وردّته كلمات النبي النذير الى طويته يسبر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه الى كنه رسالته ومصدر بعثته ، وتوسوس التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل ، وكل تجربة من هذه التجارب التي مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها في كتب القدامى من البشائر والمواعيد : ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذي ينتظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء في طلب الأرزاق ويصبح الخبز لقى لمن يطلبه كحجارة الطريق ؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقبل على السحاب محمولا على أجنحة الملائكة ؟ . . ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان ؟ . . كل تجربة من هذه التجارب كانت هي التجربة

التي تساور ضميرا مشغولا بالرسالات المسيحية ، واقفا على قمة الايمان وشفا الهاوية في لحظة واحدة ، تغريه من هنا رسالة جسد وسلطان ومساومة على البراهين والآيات ، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان .

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحي نبوي بالرسالة المسيحية ؟ . .

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه الا وقد فتحت في نفسه الصافية بابا للتأمل والتساؤل ، وان فترة الخلوة في البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير ، والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للاقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الابهام والاحجام .

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الايمان في نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة في البرية ، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعا قبل الاقدام على خطواته الحاسمة ، أو يفسر لنا منهاج الايمان بدواعي العمل في ضميره السليم .

انه اذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أطال التفكير فيه ، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من ارادة الله ، وعندئذ يبادر الى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة ، لأن العامل الذي يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الايمان ، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الايمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون ايمانه معتمدا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده ، وبخاصة حين يبدو للنفس أن الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الأمان الذي لا يأتي الا بضمان من البرهان . .

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق . . . ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطا للوقاية ، وليفعل الله ما يشاء ، فما يجري بعد ذلك كله هو ارادة الله .

خرج السيد المسيح من العزلة الى الرسالة ، ولم يقل لأحد انها رسالة مسيح ، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذا يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه .

واصطبغت رسالته الأولى في الجليل بصبغة مميزة وهي صبغة الرسالة القومية الى اسرائيل ، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع ، حتى بلغ الكتاب أجله وآن أن يمضي في خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التي انتقل بها من العزلة الى الدعوة بين بني اسرائيل ، فهذه الخطوة التالية هي الدعوة الانسانية العامة وهي استخارة للحوادث واستلهام للغيب في ميدان أوسع وأبقى ، وعلى الصفة التي ثبتت له في طوية ضميره وهداه اليها وحي الله ، ولم يبق الا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء . .

أما الصفة التي ثبتت له عليه السلام في طوية ضميره فقد تكررت في كلامه عن نفسه على صور شتى ، فهو نور العالم وخبز الحياة ، والكرمة الحقيقية ، وهو ابن الله وابن الانسان .

والأبوة الالهية قد وردت في مواضع متعددة من كتب الأنبياء فجاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله « وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات » (٦ تكوين) .

وورد في كلام موسى عليه السلام أن بني اسرائيل جميعا أبناء الله حين قال لفرعون : « دع ابني يخرج » ووردت بهذا المعنى في كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه : « أنتم أبناء الله » (تثنية ١٤) وأشير الى الشعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية) . . . ووردت كذلك غير مرة في المزامير حيث قيل : « قدموا للرب يا أبناء الله » (٢٩) و« من يشبه الرب بين أبناء الله » (٨٩) .

وكذلك وردت في هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب : « أنتم أبناء الله الحي » .

أما العهد الجديد فمخاطبة الله فيه باسم الأب وردت في الصلاة التي تبتدىء بدعاء الله « أبانا الذي في السماوات » وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ : « ان أباكم واحد هو الذي في السماوات » وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهي بنوة الله .

أما ابن الانسان فقد وردت في كتب العهد القديم باللغة الآرامية ، وباللغة العبرية ، وهي بالآرامية « بارناشا » من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انسان ، وهي بالعبرية « ابن آدم » وتطلق في كلتا اللغتين على الانسان الخالص أو على الانسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء .

وقد وردت تسعين مرة في سفر حزقيال حيث يخاطب « يهوا » ذلك الرسول فيناديه بابن الانسان .

ووردت مرة في سفر دنيال بلسان جبريل وهو يخاطب النبي باسم ابن الانسان (٨) .

ووردت في هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات ثم ينبيء عن رسول يأتي في صورة انسان رآه النبي في رؤى الليل « على سحاب كابن انسان » جاء بسلطان لن يزول .

أما كتب العهد الجديد فقد وردت في مواضع منها بمعنى « الانسان » ومنها قول السيد المسيح في انجيل متى « كل خطيئة وتجديف يُغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في العالم الآتي » (١٢) .

وقد جاءت أحيانا مرادفة لضمير المتكلم « أنا » حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه ، فجاء في لوقا ١٢ : « كل من اعترف بي قدام الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله » وجاء في متى ١٠ : « كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبي الذي في السموات »

وورد في متى ١٦ : « انه لما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس اني أنا ابن الانسان » .

وورد في مرقس ٨ : « ثم خرج يسوع وتلاميذه الى قرى قيصرية فيلبس وفي الطريق سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس اني أنا ؟ »

فهي في بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه ، ولا بد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدامها في هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الانسان .

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها في نبوءة دنيال حيث قال : « كما يجمع الزؤان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء العالم ، يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين » متى (١٣) .

وهي اشارة كاشارة دنيال الى يوم الدينونة ، وصيغتها بالآرامية واحدة في الموضعين . .

هذه هي الأسماء التي تسمى بها السيد المسيح في ابان دعوته الأولى أو عند نهايتها ، وفي أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحيانا فيقول : « لماذا تدعونني صالحا ؟ . . ليس أحد صالحا الا واحدا ، وهو الله »

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه ، فلما قال له بطرس انك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان .

وغني عن القول ان هذه الأسماء انما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها في ذلك الحين ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الانسان » .

لو جرت الأمور في مجراها الذي استقامت عليه الدعوة في الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة في طريقها سنوات دون أن تشتبك في حرب صراح مع دولة الكهانة في بيت المقدس .

ولكن الحوادث حكمت حكمها في السنة التي تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد ، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الأسر اليهودية ، ومنها أسرة السيد المسيح : أمه واخوته وذوو قرباه .

وكان عليه السلام يجاري أسرته في هذه الشعائر التي لا ضير فيها ،.ولم يكن يضيِّق على الناس في المحافظة على المأثورات التي تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات ، وانما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر أو.مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشوف ، وفيما عدا هذا كان يشارك أسرته في أفراحها القومية ويذهب الى الهيكل ويأمر بشراء القربان ، بل يأمر بسداد الفرصة التي كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بني اسرائيل .

وفي سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط انه تخلف عنه في احدى السنوات منذ بشر برسالته في الجليل ، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود الى الجليل دون أن يحس زيارتهم سدنة الهيكل وذوو الشأن في العاصمة الدينية ، ودون أن يشتبك الفريقان في نضال .

لكن كيف يكون الذهاب الى بيت المقدس في هذه السنة ؟ . .

انه لا يذهب الى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون في السنوات الماضية . .

انهم يعدون الآن بالألوف في أنحاء الجليل ، واذا قدرنا أن نيفا وثمانين

مسيحيا يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون .

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم الى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذي يحج معهم الى المدينة ؟ . . ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء ؟ .

هنا موقف من المواقف التي نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث . .

أيذهب الى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأتباع منكرا لرسالته حذرا من اعلانها مع هذا الجمع الذي لا يسهل معه التخفي والاستتار ؟

وماذا يقع من أثر التخفي والاستتار في نفوس المؤمنين برسالته الروحية ان لم نقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم ان رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم في الخفاء ، وتستتر لسبب من الأسباب ، فضلا عن السبب الذي يسبق الى الأذهان لأول مرحلة ، وهو الحذر والاتقاء ؟

وجب الذهاب الى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين ، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين .

وأدل شيء على أن الموقف الأخير في الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح في أمثال هذه المواقف ـ موقف استخارة الحوادث ـ انه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصلي ويناجي ربه قائلا : « اعبر عني هذه الكأس يا أبتاه . . كما تريد أنت لا كما أريد » . . . ثم أيقظ تلاميذه النيام وقال لهم : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة . أما الروح فنشط وأما الجسد فضعيف » .

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لا بد أن يواجهوه ، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه ، فطفق يهيىء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء ، وصرف عن أذهانهم انها غزوة فتح تنجلي عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية ، فليوطنوا أنفسهم اذن على أسوأ ما يكون ، بل لا ييأسوا اذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه ، ولا يخامرهم الظن أنهم اذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة الضياع ، فهذا الضعف مقدور يتبعه نصر قريب .

وتروي الأناجيل انه عليه السلام دخل الى بيت المقدس على ظهر اتان كما جاء في بعض النبوءات عن موكب المسيح الموعود ، وانهم كانوا يحملون السعف أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته ، ويهتفون بهتاف النصر الذي يحفظه اليهود منذ الطفولة ، ويتغنون به في المواكب والمحافل لذكرى داود ، وذكرى مجده المستعاد الى آخر الزمان .

ويفهم من وصايا السيد المسيح انه ظل في بيت المقدس يرعى للكهان والفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها ، ففي احدى هذه الوصايا يقول مخاطباً الجموع والتلاميذ : « على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ماقالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » . .

ولم تسمع منه في رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه في حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله ، فكل ما سمع منه في بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذي يدعو اليه ، وانه من غير هذا العالم ، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش .

الا انه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مكامن الاشراك التي ترصد له في كل خطوة ، وعرف من الأسئلة التي كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به لاهلاكه . . اذ كانت هذه الأسئلة جميعاً تنزع الى هدف واحد وهو استدراجه الى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والاحراج تستند الى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول احراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء ، ولا يبعد انه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة ، لأن أحدهم وهو ـ نيقوديموس ـ كان يزوره ليلا ، ولعله واحد من كثيرين .

ثم حدث ما لا بد أن يحدث في عيد كذلك العيد ، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت الى معركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم انهم في بيت الله ، وانهم نقلوه من معبد صلاة

وطهارة الى مغارة لصوص .

وكانت هذه هي الواقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريراً للموقف على وجه من الوجوه . فامتلأت الصدور الموغرة واتخذت من درء الفتنة ذريعة الى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذي تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة

وهنا ينتهي دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة .

فليس للتاريخ كلمة راسخة في خبر من الأخبار التي أعقبت حادثة الهيكل وحركت كهانه للبطش والنكاية . .

ففي حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه ، وهل كان معروفاً من زياراته للهيكل أو كان مجهولا لا يهتدى اليه بغير دليل . .

وفي حادثة المحاكمة يجري الخبر على انه حوكم بالليل وصدر الحكم في يوم واحد ، ويجري نظام القضاء الموسوي على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر في قضايا الدم بعد جلسة واحدة في يوم واحد ، ولا ينفذ الحكم في هذه القضايا الا اذا صدر بالاجماع .

وفي حادثة التنفيذ يجري الخبر على انه قد تمّ على الرغم من اعلان الحاكم الروماني براءة المحكوم عليه ، ويقول انجيل يوحنا ان تسليمه للتنفيذ كان في نحو الساعة السادسة ، ويقول انجيل مرقس انها كانت الساعة الثالثة فصلبوه .

وقد بحث الأستاذ ريشارد هزباند Husband في كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح في خمس سنوات من سنة سبع وعشرين الى سنة ثلاث وثلاثين ، فتبين انه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين ، والأخبار تجري على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وان تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر ابريل . أما السنوات الأخرى غير سنتي ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين .

ومن الأخبار عن يوم التنفيذ أن الأرض زلزلت وان القبور تفتحت وخرج منها

القديسون يمشون بين الناس .

وروى نقلة الأخبار أن القبر فُتح في اليوم التالي فلم توجد فيه جثة ، وان السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا انه طيف : « جسوني وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظام » . . « وسألهم أعندكم هنا طعام ؟ . . فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل فأخذ وأكل » ٢٤ لوقا .

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلي Cheyne والأستاذ هنريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية في مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجوتول Toll السويدي وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا الى التفرقة في أخبار هذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد .

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله في هذا الصدد ، لأنه محل نظر كبير ، وهو خبر الضريح الذي يوجد في طريق « خان يار » بعاصمة كشمير ويسمونه هناك ضريح النبي أو ضريح عيسى ، وروى تاريخ الأعظمي الذي دون قبل مائتي سنة ان الضريح لنبي اسمه « عوس آصاف » ويتناقل أهل كشمير عن آبائهم انه قدم الى هذه البلاد قبل ألفي سنة ، وينقل المولوي محمد علي في ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربي يسمى « اكمال الدين » محفوظ من ألف سنة ان اسم « عوس آصاف » مذكور فيه وانه قال عنه انه رحالة ساح في بلاد كثيرة وان كتاب « برلام ديوشافاط » في صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف انه صاحب « بشرى » وانهم يحفظون مثلا من أمثاله في تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والبذور .

ولقد أورد المولوي محمد علي هذا التعليق في تفسير الآية الكريمة : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » وأورد تعليقاً يقرب منه في تفسير قوله تعالى : « اني متوفيك ورافعك اليَّ » وغيرهما من الآيات القرآنية التي تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام . . .

* * *

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورة عصرية ، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد

قل فيها نظير هذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعاً للتوفية والتجلية من نواح عدة ، فان كتب لنا أن نوفق لزيادة شيء الى هذه الذخيرة القدسية ، فذلك حسبنا وكفى ، ولا حاجة بنا في هذه الصفحات الى اثارة الجدل في مسائل لا ترتبط بالمقصد الذي قصدناه وقصرنا الرسالة عليه .

ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق انها انتهت في موعدها حيث أسلمها التاريخ الينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء ، وأول جيل عمت فيه الدعوة الى هداية الهية تحيط بكل من يهتدي من بني الانسان ، فلم تنقض أربعون سنة حتى تداعت ديانة الاثرة العصبية وتداعى الهيكل الذي اعتصمت به وتجددت فيه . . ثم قامت للضمير الانساني دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ، والحكمة ما ألهم داعيها أن يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان .

في الختام : لو عاد المسيح

في احدى روايات الكاتب الروسي العظيم ـ دستيفسكي ـ بطل من ابطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى الأرض في طوفة عابرة ونزل بأشبيلية في ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة . .

وانه ليمضي بين الشعب يضفي عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش ـ المفتش الأعظم ـ يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء في انتظار التحقيق .

ويأتي المساء فيذهب المفتش الأعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : « انني أعرفك ولا أجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ . . لماذا تعوقنا وتلقي العثرات والعقبات في سبيلنا ؟ . . » .

ثم يقول له فيما يقول : « انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير، كلفتهم مؤونة التمييز ، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم . . والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكليف ، وأعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

« ليس أثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخف عند محملها وينقاد طائعاً لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه انه قد أطلقها له وفوض اليه الأمر في اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع الى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

« انك منحتنا السلطان قديماً وليس لك أن تسترده ، وليس في عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث أتيت ، والا أسلمناك لهذا الانسان غداً وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غداً هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا أن نخلصه وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين » .

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار : « أن السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم الى المفتش الأعظم ـ وهو شيخ فان في التسعين ـ فلثم شفتيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار » .

* * *

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه . .

كلا . . ان الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شيء الى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم في نقمته على الرسول الكريم .

وأقرب شيء أن يكون ، لو عاد السيد المسيح الى الأرض ، أن ينكر الكثير مما يُعمل اليوم باسمه ، وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وأن العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه ، وان الوحي الحي في طوية الانسان لا في طوايا الكتب والأوراق .

أقرب شيء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة . وأن يجد انسان اليوم كانسان الأمس في شروره وعداوته ، وفي نفاقه وشقاقه ، وفي اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقي ، ولجاجه في الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدي ، خمراً جديدة في زق قديم .

ذلك أقرب شيء أن يكون . .

وأقرب شيء أن يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يرددُ اللسان قول أبي العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد

لا يؤدي الى غناء اجتهاد

***

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ . . وفيم يأتي الأنبياء ويذهبون ؟ . . وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ . . فيم كل هذا ؟ . . فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ . . وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان .

جاؤوا وعادوا . .

وانصرفوا والبلاء باق

ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب مايقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال . .

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون .

ليست حرية الضمير مطلباً محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ، ثم يصل اليه ويقعد عنه ، ويكف بعده عن كل عناء .

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطاً بعد

شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوماً الا لينظر بعده الى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في مرحلة من مراحله الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه في سلام .

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القياس الصحيح في هذه المشكلة ، وهي أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تعتلج بالضمير وتبتعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات . .

***

من ذا يقول ان عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في الخامسة ، ورآه يحمله وهو في العاشرة ، ورآه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغني عن علم ولا يقضي على الجهل كل القضاء . .

من ذا يقول ان عناء الطب باطل اذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم في الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء .

من ذا يقول ان الغاية عبث لأن الطريق اليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟ . .

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر الأسرار في حياة الانسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست الغبرة أن الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه .

واذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح اليه مستزيد منه ، كالذي وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

انما الانسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وانما يقاس ضمير الانسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها ، والمطالب التي يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الانسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلا أعلى يتسامى اليه . . فهم عاملون ، وعملهم لازم ،

ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء . .

واذا قلنا يوماً ان الانسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين انه أفضل من الانسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه وان عمله غير مطلوب وغير معروف ، كما يعمل الحيوان البهيم .

* * *

انما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الأديان كثيراً ولا تزال قادرة عى العمل الكثير ، ولكنها لن تغني الانسان يوماً عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم اذا اعتقدوا أن ديناً من الأديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لأن الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغي ، باق فيها الكفران . .

اي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الألفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟ . .

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون « الألفية » . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

* * *

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيراً يصنعه ، ويعيد صنعه ، ولصنع كثيراً بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعاً كثيراً خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

وسيعلم الناس في العصر الحديث ـ ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم ـ ان عقيدة الانسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو ممتناً عليه ، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى انه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الانسان ، لا شأن للأنبياء بها الا لأنها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءاً من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة الى آخر الزمان . .

عباس محمود
العقاد

عقائد المفكرين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

كلمة تقديم

تجدد البحث في الحضارة الأوربية الحديثة في مسألة العقيدة الدينية ، وشعر كثير من المفكرين أبناء القرن العشرين بخواء النفس من جراء مبادىء الانكار والتعطيل التي شاعت خلال القرن التاسع عشر ، واجتهد بعضهم في التوفيق بين أصول العلم وأصول الايمان ، وحاول آخرون أن يتخذوا لهم ديانة خاصة يطمئنون إليها بعقولهم وضمائرهم ويجدون عندها راحة القلب والبصيرة ، وأسفرت هذه البحوث عن اتجاه جديد لا يزال في مفتتح الطريق ، فما هو هذا الاتجاه الجديد ؟ وإلى أين تنتهي هذه الطريق ؟

هل لها مرحلة أخرى ينتظرها الباحثون والمفكرون ؟ وهل تستقيم الخطى بعد هذه الخطوة المترددة على منهاج واضح المعالم والغايات ؟

في الصفحات التالية جواب هذا السؤال . ونرجو ان يكون جواباً شاملاً لوجهات النظر المختلفة ، بما يستطاع من الإيجاز في هذا الحيز المحدود .

وظاهرٌ مما تقدم ، ومن عنوان الكتاب ، أننا نقصر القول على القرن العشرين ، فلا نعرض لآراء المفكرين التي سلمت قبل شيوع المباحث الأخيرة في العلوم ومذاهب الأخلاق ، ولا نتحدث عن العقائد الموروثة التي يتساوى فيها حكم القرن العشرين وما تقدمه من القرون ، فليس للتفكير الخاص بالقرن العشرين علاقة بهذا الموضوع .

كذلك لا نتعرض لأقوال المنكرين الذين جزموا بالإنكار وأوهموا أنفسهم أنه هو الحل الأخير لمسألة الدين ومسألة الحياة والوجود على العموم ، فان الاعتقاد

هو الذي نعنيه وهو الذي تجددت له أسباب في القرن العشرين لم تكن ظاهرة في القرون القريبة التي سبقته . . أما الانكار فلا جديد عليه من علوم القرن العشرين أو من حوادثه وكشوفه أو من تقديراته وفروضه ، فمن كان منكراً قبل هذا القرن فأسباب الانكار فيا مضى هي أسباب الانكار فيما حضر ، وليس عليها من طارىء جديد يتعلل به المنكرون .

ان الإنكار نفي ، والنفي لا يزداد ولا ينتظر الزيادة ، وإنما تكون الزيادة في جانب الإثبات والتقرير ، فما كان محاولة غامضة في زمن من الأزمان يصبح محاولة واضحة في زمن آخر ، ثم يصبح محاولة ناجحة أو متفائلة بالنجاح في زمن يليه ، ثم ينتقل من المحاولة الضعيفة إلى محاولة قوية ، ومن المحاولة المتفرقة إلى المحاولة المجتمعة ، ومن المحاولة جملةً إلى الثبوت والقرار على وجه من الوجوه .

فقد انتهى انكار المنكرين عند النفي الحاسم ووقف عنده فلا مزيد عليه .

اما العقيدة فهي التي تحاول وتجتهد ، وهي التي تفتح الأبواب الجديدة بابا بعد باب ، وهي التي تلتمس الطريق ولا تقف عند الغاية التي لا طريق بعدها ، كما فعل المنكرون .

ومما لاشك فيه أن الحضارة الغربية ألجأت مفكريها إلى محاولات جديدة في مسألة العقيدة الدينية ، ولا تزال تدفعهم في هذا الطريق وتستحدث لهم في كل فترة من الزمن وجهة يتابعونها ويترقبون ما وراءها . وقد تختلف الوجهات غاية الاختلاف بين فترة وفترة أو بين مفكر ومفكر ، ولكنه اختلاف كاختلاف الابرة المغناطيسية في السفن التي تعبر المحيط المجهول : هذه إلى اليمين وهذه إلى الشمال ، وهذه مترددة وهذه عائدة بعد التردد ، وكل إبرة في كل سفينة لها حركاتها ولها رجعاتها ، ولكنها لا تختلف إلا لأنها تحاول جميعاً أن تصل إلى قطب واحد : هو قطب الشمال ، وان تباعدت مواقع السفن وانعزل بعضها عن بعض في آفاق البحار .

مثل المفكرين الذين تختلف وجهاتهم في مسألة العقيدة الدينية ، هو مثل الابر المغناطيسية التي تختلف حركاتها في السفن السابحة لأنها تسبح في المشرق والمغرب وفي الشمال والجنوب وتتحول من جانب على الكرة الأرضية إلى جانب يقابله أو يوازيه ، والمهم في هذه الحركات جميعاً أن كل سفينة من السفن تحمل إبرتها وأن كل إبرة منها تنجذب إلى قطبها . ولو لم تكن هنالك إبرة ولم يكن هنالك قطب لما اختلفت الوجهة ولا اختلفت الدلالة على الطريق .

والفرق بين السفن التي تحمل الابرة والسفن التي لا تحملها ، هو كالفرق بين الضمير الذي يطلب الايمان والضمير الذي تعطل وانتهى إلى التعطيل ، فليست السفن التي خلت من الابرة أهدى من السفن التي تتردد فيها الابرة ذات اليمين وذات الشمال ، وليس الدليل الذي يتردد وهو يتجه إلى القطب أضل من الدليل الذي لا يتردد ولا يشعر للقطب بوجود . بل الواقع أن عكس ذلك هو الصحيح .

كذلك طلاب العقيدة حين يحومون في بحر الظلمات حول قطب واحد : تختلف الوجهات لأنها على وفاق نحو الغاية القصوى ، ولو لم تختلف لما كانت هناك حركة ولا كان هنالك اتجاه .

ذلك هو أقرب الأمثلة إلى تصوير الوجهات المختلفة في طلب العقيدة الدينية ، ولعلنا نتابع هذه الوجهات على بصيرة من أمرها حين نعرف معنى العقيدة الدينية كما يطلبها أولئك المفكرون ، فاننا إذا عرفنا معنى هذه العقيدة عندهم عرفنا ما يطلبونه وعرفنا من أين يطلبونه ، وقد نعرف من ثمة ما هي العقبات التي وقفت لهم في الطريق فلم يجدوا كل ما طلبوه .

ما هي العقيدة الدينية ؟

نعم . ما هي العقيدة الدينية التي يعنيها المفكرون الغربيون حين يطلبونها أو يحسبونها مطلباً صالحاً للمحاولة والاتباع من طريق إلى طريق ؟

إن مفكري القرن العشرين في الحضارة الغربية هم أحق الناس بالرجوع إليهم في جواب هذا السؤال ، لأننا نعرف من الطالب نفسه ما يطلبه ولا نعرفه ممن طلبوه قبله ، وان ظهر أنهم متحدون في الغاية والاتجاه .

وقد بحث المشتغلون بالدراسات الدينية زمناً طويلا في أصول الأديان والمقابلة بين العقائد والعبادات منذ أقدم العصور إلى هذه الأيام ، وفسروا معنى العقيدة الدينية كما وضحت لهم من هذه البحوث الطوال .

ولكننا لا نعني عقيدة البحث في هذه الدراسات .

إنما نعني بالعقيدة الدينية ما يشتمل عليه وجدان المفكر في العصر الحديث ، ولا نعني بها ما تشتمل عليه أوراقه ومجلداته أو متاحفه ومحفوراته . . .

إنما نعني بالعقيدة الدينية طريقة حياة لا طريقة فكر ولا طريقة دراسة .

إنما نعني بها حاجة النفس كما يحسها من أحاط بتلك الدراسات ومن فرغ من العلم والمراجعة ليترقب مكان العقيدة من قرارة ضميره .

إنما نعني بها ما يملأ النفس لا ما يملأ الرؤوس أو يملأ الصفحات .

وبهذا المعنى عُرِّفت العقيدة الدينية أكثر من تعريف واحد في أقوال المفكرين العصريين ، سواء منهم من وصل إلى اعتقاد واضح يطمئن إليه ومن لم يزل في

الطريق ، على أمل في الوصول أو على يقين بأن الطريق غير موصد في وجوه الساعين والمتطلعين .

***

بدأ القرن العشرون وعلماء النفس يستحسنون في تلخيص جوهر الديانة مذهب وليام جيمس الفيلسوف الأمريكي المخضرم بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وفحوى مذهبه أن جوهر الديانة هو الايمان بالبقاء ، وأن هذا البقاء مرهون بوجود قوة صديقة للإنسان وراء الظواهر الكونية أو المادة العمياء

ومما هو جدير بالنظر أن هذا التلخيص من رأي فيلسوف متخصص للدراسات النفسية ، وليس من رأي العلماء المتخصصين للبحث في تواريخ الأديان .

ويستحسن اليوم رأي جوليان هكسلي - عالم الاحياء المشهور - في كلامه عن الوحدة بين العقائد الدينية المترقية أو الهابطة على اختلاف طبقاتها ، وقد اجمله في تقديمه لمجموعة الآراء التي اذاعها طائفة من علماء العصر ونشروها باسم « العلم والدين » . . . فقال بعد تمهيد موجز عن أثر العلم في العقيدة :

« لكن هل هناك في الحق روح دينية واحدة ؟ هل هناك في الحق عناصر مشتركة توجد مثلا في نحلة الصحابيين[1] (Quakerism) ووثنية أبناء الكنغو ، أو توجد في زهادة البوذية ونزعاتها الصوفية وفي شناعات الدين المكسيكي القديم ؟ . هنا أيضاً يساعدنا النظر في الديانات المقارنة ، فنعلم أن الروح الدينية لا تكون واحدة على اختلاف العصور واختلاف طبقات الثقافة ، ولكنها على الدوام تحتوي بعض العناصر المشتركة ، فلا يزال الشعور « بالقداسة » كامناً في قرارة كل عقيدة دينية ، ولا يزال كامناً فيها كذلك شعور بالتسليم والاتكال ، لان الانسان محوط بقوى لا يستطيع فهمها ولا يستطيع السيطرة عليها ، ويدخل أخيراً في كل ديانة نزوع الى التوضيح والتفسير والادراك ، إذ يعلم الانسان أنه محوط بالخفايا ويطلب منها على الدوام أن تكون ذات معنى .

---

(١) هم جماعة أصدقاء أو « اخوة » في العقيدة البروتستانتية

« إلا أن شعور القداسة هو أعمق الأسس في عناصر كل ديانة ، وهو لباب كل حاسة جديرة أن توصف بالصفة الدينية ، ولولاها لما كانت للإنسان ديانة على الاطلاق . . »

وقد اعتمد جوليان هكسلي في الواقع على الشعور النفساني في رأيه هذا أكثر من اعتماده على تواريخ الأديان ، فانه شعر بقداسة الدين قبل أن ينشدها ويتحقق وجودها في عقائد الأولين والآخرين .

***

والأستاذ « جوردون آلبورت » أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد يتكلم في كتابه « الفرد وديانته »[1] عن طبيعة الاعتقاد فيقول انه ينطوي على ثلاثة أطوار « الأول فترة التصديق الساذج وهو أوضح ما يرى في الطفل الذي يصدق حواسه وخياله وما يسمعه بغير تمييز ، فعقائده الدينية الأولى مستمدة على الأكثر مما يسمع أي من الواقعية الكلامية ، فان الكلمات عنده والوقائع بمثابة واحدة ، وبقاء هذا التصديق الساذج معه مدى الحياة أمر ظاهر ولكنه في الغالب ملازم للعقول التي توقف بها النمو دون التمام أو مقصور على المسائل التي يحيط بها الجهل المطبق او تتسلط فيها قدوة قوية الأثر ، وبعض العقائد الدينية بين الكبار مؤلف من هذا الخليط : أي من التصديق الصبياني والقدوة وما لم يمحصه التفكير .

« ومن المعتاد على كل حال أن تأتي بعد هذه المرحلة مرحلة تزعزع قرارها ، فان الشكوك تطرق عقل الانسان من جميع الأبواب المتقدمة ، وهي جزء متصل من كل تفكير مفهوم ، وليس في وسع الانسان أن ينشيء له عقيدة مستقلة قائمة على الملاحظة والتفكير المفيد ما لم يواجه النقائض التي يشتمل عليها كل عرف مسموع .

« والمرحلة الثالثة هي مرحلة الاعتقاد الناضج ، وهي تتطور ـ مع المشقة ـ من تراوح الشكوك والتوكيدات التي يتسم بها كل تفكير مفيد . . . »

ثم يسأل الأستاذ : هل الايمان والاعتقاد شيء واحد ؟ فيقول ان الكلمتين تستخدمان أحياناً بمعنى واحد وهما في بعض المواطن تعبران عن معنيين

The Individual and his Religion by Professor Gordon Al-lport. (1)

مختلفين ، لأن التسليم غالب على الايمان . أما الاعتقاد فيقترن أحياناً بمعرفة بعض الأسباب ، ولو من قبيل التقدير والترجيح .

قال : « ويبدو أن الايمان أحر شعوراً من الاعتقاد ، فهو يجازف على علم بالمجازفة ، لأنه يشعر بأن الثقة أقوى ونتيجة الرهان أنفس وأغلى » .

ثم استطرد إلى التفرقة بين الشعور الديني الخالص وبين الشعور الذي يمتزج بالخوالج النفسية الأخرى فقال إن أبسط وسيلة نبتدىء بها هي الرجوع إلى تعبيرات المتدينين ، وضرب مثلا لذلك عبارتين من كلام القديس توماس كمبس (Kempis) حيث يقول عقب الدعاء « ان أشواقي كلها تتنهد إليك » وحيث يقول من عظة قصيرة : « لو كان الله هو صفوة المقاصد التي نتشوق اليها لما خامرنا القلق بهذه السهولة » .

قال الأستاذ في التعقيب على العبارة الأولى ما فحواه ان الشمول الواضح في قول القديس « أشواقي كلها » هو آية الاعتماد الديني في طبيعته ، وأن النفس لا تقبل التجزؤ والتفرق وهي تتجه بأشواقها إلى معبودها ، ثم قال في التعقيب على العبارة التالية :

« أتراني على خطأ حين ألمح في هذه العبارة دليلا على طبيعة الاستطلاع او الاستقراء في العقيدة الدينية ؟ أليس معناها أن العقيدة إذا كانت قويمة سديدة وجد المؤمن مشكلاته محلولة مفسرة ووجد قلاقله ومخاوفه مهدأة مستقرة ؟ . . . انه لخليق إذن أن يهتدي الى كشوف من المعرفة والفضيلة . . »

يريد الأستاذ أن الانسان يطلب المعرفة من وراء العقيدة والايمان ، وأنه ينظر إلى الايمان كأنه برهان على أنه قد وثق بالله فاستحق أن يهديه في طريق المعرفة ، ويتجلى عليه بما هو أكبر من قدرته لو اعتمد على عقله وفهمه .

فموقف المؤمن من الله كموقف التلميذ الذي يطمئن إلى علم أستاذه فلا يمتحنه ولا يتردد في قبول دروسه ومعارفه ، فيكون هذا الاطمئنان برهاناً على أنه تلميذ صالح للتعلم مستحق للمكافأة وحسن الجزاء .

* * *

ولا يظهر في هذه السنوات معهد مشتغل بالبحث في قضايا العصر الحاضر إلا كان البحث في مسألة العقيدة من أوائل بحوثه الهامة التي ينشر فيها الرسائل

ويذيع فيها المحاضرات والأحاديث ، ومن ذلك مكتب المسائل الجارية بلندن (The Bureau of Current Affairs) فانه عهد إلى الأستاذ جيسوب (Jessops) أستاذ الفلسفة وعلم النفس بجامعة هل(Hull) أن يكتب رسالة في موضوع الحاجة إلى الدين فكتبها بعنوان « لم الدين ؟ » وعرض في الفصل الثاني منها لمقوّمات العقيدة الدينية فقال : « ان الفكرة الأساسية فيها تقوم على حقيقة فوق الطبيعة تخضع لها كل حقائق الطبيعة ، ولا بد ان تكون أفضل من الطبيعة وأن يكون الانسان قادراً على أن يتصل بها صلة شخصية ، وواضحٌ أن هذه الفكرة هي فكرة الاله . ولا بد أن نلاحظ أنها تشتمل على عناصر ثلاثة ، وأن غياب عنصر منها يخرج بها في نظر العقل العصري من عداد العقائد الدينية فلا ينطبق عليها وصف الربانية ، فاذا كان هناك قوة فوق الطبيعة لا سلطان لها على الطبيعة فقد يروقنا أن نراقبها وأن نعقد الجلسات لمناجاتها والتحدث عنها وننظم الأناشيد في وصفها وأن نجعلها موضوعاً من موضوعات الاستطلاع والفن لا من موضوعات الديانة ، إذ هي لا تعيننا على الحياة ونحن مركبون بحياتنا في وسط الطبيعة ... وان كان هناك من الجهة الأخرى قوة فوق الطبيعة ليس فيها إلا أنها قوة فقد نرهبها ونفزع منها ولكننا لا نعظمها ولا نتعبد لها ولا نكون دينيين في اتصالنا بها ، وإنما قصاراها أنها العصا الكونية الكبرى أو العلة الأولى ، ونحن نأبى أن نصف شيئاً بوصف الربانية ما لم يكن أسمى وأقدر من كل شيء نعرفه في نطاق المكان والزمان ، وإذا بحثنا فيه انتهى بنا البحث إلى أننا نقصد به روحاً كاملا أو عقلا كاملا ، فلا ننحني ساجدين لشيء دون ذلك ، وجملة القول ان الديانة تلتمس كائناً نستطيع أن نتجاوب معه تجاوب الفهم ، فلا يتحقق هذا الشرط في غير كائن عاقل . ومن ثم تفيد كلمة الله في العقل العصري معنى الروح الأعلى الأكمل الذي يستجيب لقربان الانسان ، فالسمو والكمال والاستجابة هي العناصر الثلاثة التي يتم بها قوام الفكرة الدينية ، والكائن الذي تجتمع له هذه الصفات أهل منا للعبادة وله أن يفرض علينا أرفع الفضائل وأن يعيننا على بلوغها ، وصلاتنا له ذات معنى . . »

ثم قال بعد الكلام عن استجابة المطالب الإنسانية : « إن للدين في العقل الإنساني جذرين آخرين هما الحزن والفرح . إذ هناك حالات من العذاب النفسي نحار فيها ونعجز عن احتمالها فتدفعنا النوازع التي لا سلطان للتعليم عليها إلى ملجأ وراء الجماعة الأنسانية ، بل وراء الأكوان الطبيعية ، نبغي فيه نوراً يضيء لنا ظلمات الحيرة وعزاء أه قوة على احتمال آلامنا . . نبغي ذلك في

ملاذ فوق هذا الكون كله قد يكون هنالك أولا يكون ، وربما كانت طبيعتنا عابثة بنا في هذه الحالة عبثاً قاسياً ، ولكننا هكذا نحن في طبيعتنا ، وهكذا يكمن فينا باعث آخر من بواعث التدين والعبادة .

« أما الفرح فمن أنواعه ودرجاته أيضاً ما يرتفع بنا صعداً ولا يقف بنا عند المتعة به وحسب ، بل يرفع العقل كله علواً إلى طباق أعلى بكثير من موضوع الفرح نفسه ، وباعث هذا أن الفرح العظيم يولد في نفوسنا عرفان الجميل ، فنود أن نشكر أحداً ولا نرى إنساناً جديراً بمثل هذا الشكر ، فنرتفع بالشكر إلى النجم البعيد !

« ذلك شعور طبيعي هو كما لا يخفى أحد الأجنحة التي تعلو بالعقل إلى ما فوق الطبيعة ، فان كان وهماً فانه لوهم سعيد .

« ولن تستطيع التعليلات النفسانية أن تقيم الديانة على أساس مطالبنا وحاجاتنا دون غيرها ، فاننا لا نستطيع أن نفسر ظواهر الكون ولا أن نستخرج طبيعة التدين من مجرد التنقيب عن المطالب والحاجات في نفوسنا ، إذ لا ريب أن الديانة تأتي إلينا من الخارج كما تنجم في نفوسنا من داخلها ، ونحن نستجيب كما نطلب الجواب ، وعندنا إلى جانب التجارب التي تعتلج في باطن النفس تجارب أخرى تنتزع منا وتفرض علينا من خارجنا ، منها الروعة التي لا منجاة منها لأحد منا في طوال أيامه ، ولا حيلة لإنسان في تلك المواقف التي تروعه وتتعاظمه حيث يواجه أطوار الطبيعة وأزمات البشرية فرديةً كانت أو جماعية ، وتلك العوارض التي نسميها تارة بالخفية وتارة بالغيبية . كذلك تطل علينا الروعة حين نفكر في الكمال أو نحسه في نفاذ وقوة ، وليست الروعة هي الخوف وإن كانت لا تخلو منه ، إذ هنالك فرق بين مجرد الخوف من جلالة الطبيعة أو سر الموت وبين الشعور أمامها بالروعة . وكأنها خوف محلول في مزيج آخر من العناصر والأخلاط ، ففيها خوف ودهشة وإعجاب وإحساس بضآلة وجودنا ، فان يكن ثمة شعور له سمة خاصة من سمات التدين فهو هذا الشعور لا مراء ، وقد ساور الانسان من قديم ويساوره اليوم ولن يزال للإنسان دين على نحو من الأنحاء ما دام له شعور من هذا القبيل ، فما كان غاية الأمر في هذا الشعور أنه جواب من طبائعنا للعالم المجهول ، فقد يوجد هذا الجواب الشعوري في نفس الفلكي كما يوجد في سائر النفوس ، ولكنما هو محور العبادة في الصميم .

« إن الدنيا فيها من العظم الكفاية بغير ما فوق الطبيعة ، فاذا أضيف إليها فوق الطبيعة بدا الانسان أصغر وأصغر ، وإن الزمان لمن الطول بحيث يرينا التاريخ كله مسافة جد قصيرة ، فما هي حياة الانسان إذن حين تقاس بمقياس الأبدية ؟ وان الانسان إذا قيس بروائع الطبيعة لا يتراءى صغيراً وحسب بل حقيراً مع صغره . فما أخس ما يبدو لنفسه إذن حين يعقد المقارنة بينه وبين الكمال المطلق ! . . إن اضافة الآفاق الربانية إلى وجودنا تهبط بالانسان إلى منزلة مزرية ، ولهذا كان اتضاع النفس وتهوين شأنها حالة من الحالات الدينية المأثورة ، فلا مناص مع الإيمان بالله من القضاء على الكبرياء .

« بيد أن الديانة لم تكن قط مقصورة على التمرغ والاستكانة ، بل هي ـ مع هذا التهوين من شأن النفس ـ قد نفخت روح الكرامة حتى في النفوس التي لا يخولها أبناء نوعها حظاً من الكرامة . إذ كان المخلوق الذي يقدر على معرفة الخالق قميناً أن يتصل به ويفقه مشيئته ويظفر بقبس من كماله ويصبح محلا لعنايته ، ولا جرم يتعالى مخلوقٌ كهذا أن يكون هملا في نظام الطبيعة ، فانه لروح على أوفى وأرفع حظ من الصلات الروحانية ، ولن يكون من أجل هذا خاضعاً كل الخضوع لطغيان الطبيعة ، ولا تموت روحه مع الجسد حين ينقضي امده ، بل تنطلق في حياة لا عائق لها ، أو كما قال افلاطون : إن العقل الذي يسمو إلى معرفة الحقائق الأبدية لا يفنى حيث يتداعى الجسد ، وفي معظم الديانات ـ ولا سيما المترقي منها ـ إيمان بخلود الانسان . . . »

❊ ❊ ❊

ومن علماء النفس الذين وضحوا الشعور بالعقيدة الدينية من الوجهة السيكولوجية أستاذ في جامعة « كلارك » مارس العلاج بالوسائل النفسية ومنها وسائل الايمان ، وهو الأستاذ رايموند كاتل (Cattell) صاحب كتاب « علم النفس ومسألة الدين »[1] وفيه يقول عند الكلام على التحليل النفساني والخواطر الدينية : « ان الصلاة تتراجع ـ بازدياد ـ إلى الاكتفاء بتحسين الشخصية والمحافظة على الروح المعنوي في الفرد أو الجماعة ، وبهذه المثابة لا يستطيع علم النفس أن ينكر جدواها على اعتبارها من الايحاء الذاتي ، ولكنها على هذا قد تنتحل لنفسها مزية لا ضرر فيها : وهي مزية الارشاد إلى مزاولات عملية تزيد

(١) Psychology and the Religious Quest, by Raymond Cattell, Clark University, New England.

من قابلية النفس للاستيحاء والاستجماع ومما تقدم القول فيه عن خلود النفس نلخص اصولها النفسانية ـ أي أصول الصلاة ـ في هذه المراجع الثلاثة : العودة إلى عادة الاسترسال مع التفكير الذي يسر ويرضي ، والاستمرار في تجارب الانسان البدائي في الأحلام والخيالات ، وضرورة الاحتفاظ بالوازع الأخلاقي لمجازاة الذين عجز العدل الانساني عن جزائهم في هذه الحياة . . . »

ثم يقول في تعليل النزوع الديني المفاجىء في بعض أطوار النفس الانسانية : « يبدو على العموم أن هذا النزوع يعلل بأن الفورات الجنسية في طور المراهقة يقابلها في هذا السن زواجر كابحة من الآداب التي تربط بالأهواء الجنسية كثيراً من احساس الجريمة أو الخطيئة ، وكلما اشتد التدافع بين التعبيرات الجنسية والأهواء الكامنة وبين الزواجر الأدبية أحاط بالنفس القلق والندم وتخلصت منهما فحلت المشكلة بالاعراض عن الشهوات والاعتزاز بالذات تسامياً إلى حب بني الانسان جميعاً ، بديلا من الحب الجنسي وإلى مقاربة العزة الإلهية بديلا من الاعتزاز بالذات . . »

ويقول الأستاذ كاتل بعد ذلك ان الدراسات النفسية لم تستلزم وجود حاسة دينية خاصة ، فان هذه الحاسة الدينية مجتمعة من خوالج الخوف وأهواء الجنس وروح الجماعة وتوكيد الذات والتطلع والتسليم .

ومن جملة آراء الأستاذ في هذا الكتاب يظهر جلياً أنه يقفو آثار العالم النمسوي المشهور « فرويد » أشد علماء العصر إغراقاً في تكبير شأن الغرائز الجنسية وإدخالها في تفسير كل قوة نفسية تحتاج إلى تفسير . وخلاصة فلسفة فرويد هذه أن هواجس العصبيين هي بالنسبة إليهم ديانة فردية خاصة ، وأن الديانات العامة هي الهواجس العصبية بالنسبة إلى نوع الانسان ، وأن الضمير هو مناط الانانية النوعية في طوية كل فرد ، كأنه الذات العليا فوق ذوات الآحاد .

على أن صاحب هذا الكتاب يقرر في أول الفصل الثالث من كتابه أن العلماء والأتقياء معاً يعلمون بعد بحث يسير أن وجود دواعي الوهم مركبة في طبائع البشر لا يستلزم القول بأن وجود الاله وهم من هذه الأوهام .

* * *

ومن الفلاسفة وعلماء النفس من يؤمن « بالعقيدة الروحية » ويفهم من « الروح » أنها قوام حياة الانسان الأدبية والوجدانية ولا يرجع بها إلى مصدر

وراء الطبيعة .

من هؤلاء الفيلسوف الألماني ماكس أوتو الذي عاش في الولايات المتحدة وكان رئيساً لمجمع الفلاسفة في الأقاليم الغربية ، ومن كلامه الذي يلخص مذهبه ومذاهب أمثاله في الرأي فصل عن « الأشياء والأمثلة العليا » يقول فيه :

« ليكن في قرارة قلوبنا أن الروح ليست اسما لشيء ولكنها اسم لحياة ، وأن خلاص الروح ليس بالسلعة أو المنحة التي تشترى او تستعطى ، ولكنه تطور نبلغه ونترقى إليه ، وأن تخليص روح الانسان ليس بالعمل الموقوت الذي يتم في ساعته ولكنه سعي طويل يستغرق مدى العمر كله ، وليس هو إنقاذاً لكيان مبهم لا تعريف له في سبيل التأهب لحياة مقبلة ، ولكنه خلقٌ لنموذج من الشخصية من طريق الاعتراف بالقيم البينة التي تدور عليها تجارب كل يوم . انه نضج باطني ويقظة لمعاني الحق والجمال وكرامة الحياة . . . » .

***

وتكلم ماكس شوين (Schoen) أحد مؤلفي المكتبة الفلسفية[1] عن العلاقة بين العقيدة الدينية والعقل في كتابه « تفكير في الدين » فقال من فصل عن الحاجة إلى التفكير في الذين :

« إن الايمان لا يعرف الهوادة ولا يقبل الاستثناء ، ولكن الاعتقاد (Belief) هوادة وتسوية عملية يتطلع صاحبها إلى ما يغنمه الداعي إليها والمستجيب لها . انه وسيلة في الديانات للاشتراك بين الناس في معيشة واحدة وشغل واحد باسم الله . وهذا الاعتقاد الديني يتبع الخلاف بينه وبين العقل لأن العقل لا يساوم ولا يذعن ، ومن دأبه أن يتغلغل في بواطن كل شيء يعرض عليه باسم الحقيقة ، وان الذين يضعون الاعتقاد موضع المناقضة للعقل ليفعلون ذلك عن خطأ منهم في فهم الاعتقاد والديانة ، والعقل يبطل الخطأ .

« إن منطقهم يجري على هذا القياس : ما نريد تصديقه مخالف للعقل ، ولكن الأمر الذي نصدقه لا يجوز أن يكون باطلا ، ولهذا ينبغي أن يصبح اعتقاداً ولا يتقيد بموافقة العقل .

« وعلى هذا النحو يصبح الاعتقاد مسوغاً لكل هاجسة أو استحالة تحيك في

(١) Philosophical library, New York.

نفس المعتقد .

« أما الذين يرون أن الأصول الدينية تجري مع العقل ولكنها أرفع منه وأسمى فهؤلاء يتكلمون عن الصواب او التصويب (Rationalization) ولا يتكلمون عن العقل . فان الفكر إنما يعمل ليكون شيئاً من شيئين ، فاما أن يعمل للامتحان والنقد وإما أن يعمل للتسويغ والقبول ، فاذا عمل للامتحان فهو العقل ، وإذا عمل للتسويغ فهو الصواب أو الحكمة . . »

ثم ينتهي المؤلف من بحثه في هذا الفصل إلى أن العقائد الشائعة كثيراً ما تخل بمعنى الدين ، أو أن الديانات التي تناقض العقل هي تطبيق غير صحيح للدين الصحيح ، فهناك دين واحد في الجوهر ولكنه يصبح ديانات شتى في حيز التطبيق .

***

وقد نشر الكاتب الانجليزي ارنست مارتن (Martin) مجموعة من الآراء لأساطين المفكرين سماها البحث عن عقيدة[1] قال في تقديمها عن معنى العقيدة العصرية :

« ليس من الخير أن نقول ـ كما يقول كثير من الشكوكيين الأذكياء ـ إن الديانة نبعت من الخوف ، أو ان الايمان بما فوق الطبيعة إنما هو مجرد تعويض لما في دنيا الواقع من الجهامة والعبوس ، فاذا كان هذا ولا ريب صحيحاً في حالات الديانة الهمجية فليس هو بصحيح في موقف الانسان المتحضر من المسيحية ، وقد كان الهمجي يعبد أربابه وأرواحه لانه يشعر بالرعب من الحياة والموت ، ولكن المخاوف الصبيانية والخرافات المضللة قد زالت اليوم مع اتساع نصيب الانسان من الفهم ، وبقيت العقيدة ولم يكن للجماعات البدائية غنى عن السحر حيثما دعتها الحاجة إلى تنظيم مراسم العبادة ، وليست كذلك جماعات الانسان في الحضارة العصرية ، فان الانسان العصري لا حاجة به إلى السحر وفي وسعه أن يتأمل الخير ويسعد بالسعي فيه وهو يعلم أنه ينبوع السعادة . . ان العقيدة لهي اسم آخر للشجاعة . وقد قيل بحق ان الديانة الصحيحة هي خطار ـ أو رهان ـ على الحياة كلها معلقٌ على وجود الله . . »

***

(١) In Search of Faith.

وقد تكلم اثنان من رجال العمل والسياسة عن العقيدة من حيث القيمة العملية في حياة الآحاد والجماعات .

فالمؤرخ المشهور هربرت فيشر الذي تولى وزارة التعليم زمناً في الحكومة الانجليزية يكتب عن السيدة التي أسست جماعة العلم المسيحي التي تعالج أمراض الروح والجسم بقوة الايمان فيقول في كتابه (ديانتنا الجديدة) :

« دلت التجربة على أن الدقة في تصوير ما فوق الطبيعة قليلة الأثر في اجتذاب الناس إلى الديانة ، وأن شيوع ديانة من الديانات يرجع على الأرجح إلى مبلغ ما تلبيه من مطالب النفس البشرية قبل رجوعه إلى مطابقتها لوقائع الحياة ، وما كانت أسخَف السخافات لتصد أناساً عن قبول دعوة تملأ في قلوبهم فراغاً من حاجاتهم الروحانية ، فهم يأخذون ما يطلبون وينبذون ما لا يدركون ، وثمة قيمة محققة للدعوات الجريئة . وقد قال رينان ان الانسان يولد وسطاً ولا طاقة له بعمل ذي بال حتى يتعلق بحلم من الأحلام » .

هذا واحد من المفكرين الذين اشتغلوا بالسياسة والادارة ونظروا إلى الديانة من ناحية القيمة العملية . أما الآخر فهو الشاعر الناقد اللورد فانسترت (Vans-ittart) الذي قام بمهام السياسة الخارجية زمناً طويلا في الوزارة البريطانية ، وقد سئل أن يقدم المجموعة التي كتبها طائفة من المفكرين عن مستقبل العقيدة فقال ان فقدان الثقة بما فوق الطبيعة على صلة بفقدان الثقة بأنفسنا ، وكلاهما لم يسعد احداً ، بل أعقب بعده خللا في ميزان الحياة ، لم تصلحه مذاهب الشك واللذة .

ثم أشار إلى فقدان العقيدة في فرنسا فقال انه ساقها إلى المسالمة والاستسلام قبل الأوان ، وإلى فقدان العقيدة في ألمانيا فقال انه ساقها إلى بديل لها من العصبية والنازية ، ولولا البحر حول الجزر البريطانية لساقها فقدان العقيدة إلى مصير كهذا أو ذاك ، وختم مقدمته قائلا :

« لقد آن الأوان « أولا » لتعديل التشبث ببعض الأفكار والمراسم التي لا توافق المطالب العصرية و « ثانياً » للعلم بأن العقيدة قد عرضت نفسها بعمل يديها لعوائق شتى و « ثالثا » ان السلطان الروحاني تزداد صعوبات التوفيق بينه وبين المساوىء السياسية ، مما قد بينت في غير هذا الموضع وسائل اجتنابه و « رابعاً » ان الأمل في التجديد والبقاء ينمو كلما فصلناه من الأدعياء ، وقد يحسن أن نحلم ونحن مفتوحو الأعين فانما نحن وأعمالنا مصنوعون من مادة

الأحلام ، ولكن لا شيء يمكن أن يقام على أساس من الهواء و « خامساً » ان فصائلنا لا ينبغي أن تضر بوطننا . ومن ثم لا غنى لنا عن مزيد من الحيطة ومزيد من المعرفة و « سادساً » انه في الخيار بين الحيطة والمعرفة ستظل العقيدة قوام ما نرجوه وان لم تكن على الدوام برهاناً على ما نجهله . . »

***

تلك نماذج متفرقة من أطراف متعددة ، نحسبها كافية للتعريف بمعنى العقيدة كما يفهمها مفكرو هذا العصر في الحضارة الأوربية ، وقد لاحظنا في جمعها التعويل على التجارب النفسية أو التجارب المنقولة من الحياة ، ولم نعول كثيراً على روايات التاريخ ودراسات المقارنين بين الديانات كما تحفظها السجلات والمأثورات ، لأننا في هذه العجالة إنما ننظر إلى العقيدة الحية كما يعيش بها الأحياء المثقفون في العصر الحاضر .

ويتبين من جملة الآراء المتقدمة أن العقيدة التي يصح أن توصف بالدينية هي العقيدة التي تعتمد على سند فوق الطبيعة ، وأن العقيدة على أية حال قوة مطلوبة لا يستغني عنها من وجدها ولا يطيق الفراغ منها من فقدها ، ولا يرفضها من اعتصم منها بمعتصم واستقر فيها على قرار .

سمة العصر

في مفتتح القرن التاسع عشر وجه نابليون بونابرت سؤالا إلى علامة الفلك في زمانه « لابلاس » عن عمل القدرة الالهية في تنظيم الأفلاك السماوية ، وكان لتوجيه هذا السؤال الى « لابلاس » سبب خاص : وهو ظهور كتابه عن علم الحركة العلوية « أو الميكانيكا السماوية » وفيه يشرح حركة الفلك ويعللها بالقوانين الآلية كما يدل اسم الكتاب ، فقال علامة الفلك مجيباً سائله الكبير الذي كان يقول في الدين بمثل قوله : انني لم أجد في نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إله !

ومضى القرن التاسع عشر إلى نهايته والرأي الغالب فيه بين المشتغلين بالعلم والمؤمنين به هو هذا الرأي الذي تحدث به لابلاس إلى نابليون : إن العلم كاف كل الكفاية لتفسير جميع الأسرار !

كتب السير جيمس فتز جيمس ستيفن في سنة ١٨٨٤ فصلا يعتبر يومئذ مثالا للآراء العلمية في تلك الفترة فقال : « إذا كانت الحياة الانسانية في نشأتها قد استوفى العلم وصفها فلست أرى بعد ذلك مادة باقية للدين ، إذ ما هي فائدته وما هي الحاجة إليه ؟ إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بغيره ، وإن تكن وجهة النظر التي يفتحها العلم لنا لا تعطينا ما نعبده فهي كفيلة أن تعطينا كثيراً مما نستمتع به ونتملاه .

« ان بعضهم يظن ـ أو يقول انه يظن ـ ان الحياة كما يصورها العلم لا تستحق أن نحياها ، وهو في رأيي ظن باطل ، فنحن في هذه الحالة خلقاء أن

نحيا على أصول غير التي تعودوا أن يعتقدوها ، ومن حقق النظر إلى موقفه الصحيح وكان على حظ وسط من موارد العيش فالحياة ستظل عنده جد رضية ، وان الدنيا في نظري لموطن مستطاب جداً لو أنه يدوم ، وفيها ملؤها من الناس الظرفاء والأشياء العجيبة ، بحيث يسع الأكثرين ـ على ما أحسب ـ أن يغضوا أبصارهم عن ادمان النظر إلى طبيعتها الزائلة ، وسيبقى الحب والاخاء والطموح والمعرفة والأدب والفن وأمور السياسة والتجارة والصناعات والحرف وألوف غيرها سارية في مسراها كما كانت من قبل دون حاجة إلى إله أو حياة مقبلة ، ومن كان من الناس عاجزاً عن تصريف كل لحظة من لحظات يقظته في شاغل من هذه الشواغل فهو لا محالة على حظ سيء بالغ السوء في تكوينه أو مرافق عيشه ، أو هو لا محالة مخلوق جد هزيل .

« ولا ننكر أن قضايا اللاهوت الكبرى نبيلة فخمة ، وأننا إذ نتخيل أن الدنيا من صنع خالق على الغاية من الحكمة والغاية من القوة ، وانه على نحو خفي لا نحيط به هو كذلك على الغاية من الطيبة ، وان الاخلاق انما هي شريعة صادرة إلى الناس من قبل هذا الخالق العظيم ، وأن هذه العوالم الظاهرة ان هي إلا جزء يسير من هذه الشريعة التي يوصف بها خالقها ـ كل أولئك إذ نتخيله شيء عظيم .

« نعم . وان الذين يقدرون مخلصين أن ينظروا إلى الدنيا هذه النظرة لتسمو بهم عقيدتهم وترفعهم فوق صغائر الحياة ، ويحق لهم أن يسوغوا هذه العقيدة أمام غيرهم حيث يرجع تسويغ العقيدة إلى جمالها وجدواها ولا يرجع إلى صحتها ودلائل ثبوتها .

« أما إذا وجب أن نطرح هذه العقيدة جانباً فلا أخال أن الحياة تخسر قيمتها وأن الأخلاق على الخصوص تنقطع وتزول ، وسوف تموت الديانة مع اللاهوت ولكننا كما أسلفتم قادرون على ان نعيش عيشة حسنة بغير الديانة ، وان أقمناها على أصول غير هذه الأصول قلما تخالف في لبابها أصول العيش التي يدين بها نفسه كل ذي خلاق . . »

* * *

انقضى القرن التاسع عشر وهذا هو الرأي الغالب على أصحاب الرأي فيه ممن يؤمنون بالعلم الحديث ويتوقعون له القدرة على الاحاطة في المستقبل بمجهولات

الغيب التي لم يحط بها في ذلك الحين .

ونقول الرأي الغالب ولا نقول الرأي الجميع الشامل ، لأننا لا نعلم أن عصر من العصور قد اتفق فيه أصحاب الرأي على وجهة واحدة في مسائل العقيدة الدينية ، ولكن العصور مع ذلك تختلف وتتباعد في التفكير ، ويحمل كل منها طابعه وسماته في شؤون العقيدة الدينية ، وفي غيرها من الشؤون العامة التي تتسع فيها مطارح الآراء والأهواء .

فلم يكن عصر من العصور مؤمنا كله ولا منكراً كله ، ولابد في كل عصر من مؤمنين ومنكرين ، ولكنهم مع هذا يختلفون بين عصر وعصر في معنى الايمان والانكار وفي أسباب هذا وذاك ، وفي الموضوع الذي يتناوله المؤمنون والمنكرون .

فليس القرن السابع عشر مثلا كالقرن العشرين ، وليس القرن الثامن عشر كالقرن التاسع عشر ، وليست القرون الحديثة كالقرون الوسطى أو القرون الأولى ، وإن كان في كل منها إيمان وإنكار وشك ونفاق .

فاذا حسبنا لهذه المشابهات ، او هذه المفارقات ، حسابها على جملتها ، جاز ان يقال ان الحضارة الغربية تحولت منذ القرن السابع عشر من الشك في الدين ، إلى الشك في العقل ، إلى الشك في العلم الحديث ، وانها الان تدخل في أبواب جديدة من الشكوك .

وربما كان الأصح أن يقال ان الحضارة الغربية بدأت بالشك في السلطة الدينية لا في الدين نفسه ، وان الدين الذي شكت فيه أو أنكرته كان هو الدين كما تشبث به الجامدون المتحجرون على التقاليد أو على العرف المقرر في عهود الجهل والطغيان .

وقد تزعزعت سلطة رجال الدين يوم تزعزعت كل سلطة ، فشك الناس وأنكروا وثاروا على التقاليد وعلى العرف المحفوظ ، ثم أذنوا لعقولهم أن تفكر وتقدر ، واعتمدوا على العقل وحده في فهم جميع الأمور ، وبخاصة ما كان فهمه مقصوراً على دعوى ذوي السلطان من أصحاب الدنيا والدين .

انتقل ذوو الرأي من الايمان بالدين إلى الايمان بالعقل حتى انتهى بهم العقل عند حدوده ، فتحولوا من الايمان بالعقل إلى الايمان بالعلم الحديث .

وليس الايمان بالعقل والايمان بالعلم شيئاً واحداً كما يلوح من النظرة العاجلة . لأن الناس آمنوا بالعقل وحسبوا أنهم يفهمون به كل شيء من طريق المنطق والقياس ، ومن طريق القضايا والبراهين . . فلما اختلطت عليهم الأمور وقصر بهم العقل دون العلم بالمحسوسات فضلا عن المغيبات ـ تحولوا إلى التجربة الحسية ووقفوا عليها جهود العلم الحديث ، فلا علم بغير سند من الحس والتجريب .

فاليوم - في القرن العشرين ـ أين تسير الحضارة الغربية بين هذه الشكوك التي بدأت بالشك في الدين ثم مضت أشواطاً بعد اشواط تارة مع العقل وتارة مع العلم الحديث ؟

ما هو الشك الذي يغلب على ذوي الرأي في القرن العشرين ؟

نحسب أننا نجمل سمة القرن العشرين أصدق إجمال حين نقول إنها هي سمة الشك في الانكار .

إن الأسباب التي كانت كافية للانكار قبل ثلاثة قرون أصبحت لا تكفي للانكار بتلك القوة الواثقة المتهجمة ، بل أصبحت لا تكفي لانكار ما كائناً ما كان سبب الانكار من العلم المعترف به بين العلماء .

تواضعت دعوى العقل في أوائل القرن التاسع عشر ، وتواضعت دعوى العلم في أوائل القرن العشرين ، وكاد العلماء أن يتفقوا على أن التفسير والتعليل فوق طاقة العلم ولا سيما تفسير الغايات والأصول ، وحسبه من الدعوى أنه يصف ويجمع ويقابل ويعادل ، ثم يترك العلل الأولى بعد ذلك لمن يستطيعها ، أو يقول انها حتى اليوم غاية لا تستطاع .

كان من العلماء من يخال أنه قادر على الاثبات ، فليس من العلماء اليوم من يزعم أنه قادر على الانكار بسند من العلم الصحيح .

ومن قال منهم انه ينكر على سبيل الظن والترجيح فحكمه في ذلك حكم القائل انه يؤمن على سبيل الظن والترجيح : كلاهما على مسافة واحدة من دعوى العلم بالتجربة ، أو دعوى التعلل بالبرهان .

وبديهٌ أن الشك في الانكار غير الجزم بالايمان . فليس من صحة الحكم ولا من صدق النظر أن يقال ان سمة الايمان غالبة على القرن العشرين أو بينة الأثر فيه ، ولكنه صحيح ولا ريب أن يقال ان المنكر في القرن العشرين لا يستطيع

أن يستند إلى أسباب من العلم يسلم بها المفكرون ، كما كانوا يسلمون باسباب الانكار في القرن السابع عشر ، أو القرن الذي يليه إلى أوائل هذا القرن الذي نحن فيه .

***

ونحن متتبعون أكبر الأسباب التي اقترنت بمسألة العقيدة منذ القرن السادس عشر وكان لها شأن قوي في إضعاف العقائد الموروثة على تقدير الباحثين بالاجماع ، وقد نرى من تتبعها كيف قويت على إضعاف العقائد التقليدية ثم نرى كيف آل الأمر بها أخيراً حتى فقدت قوتها الأولى على زعزعة الإيمان وإثارة الشكوك ، ونرى من أين طرأ عليها الضعف حتى انتقل بعضها من ترجيح التعطيل والإلحاد الى ترجيح الاعتقاد وإعادة النظر في الموضوع .

هذه الأسباب على الاجمال خمسة ليس في أسباب التعطيل ما هو أقوى منها وأعظم فعلا في عقول المفكرين الأوربيين ، وفي عقول غيرهم ممن نظروا الى دلالتها مثل نظرتهم ، وحكموا بها على الأديان مثل حكمهم . وهم غير قليلين بين المفكرين في مختلف الأقوام .

وهذه الأسباب الخمسة هي :

« اولا » كشف كوبرنيكس لمركز الأرض من المنظومة الشمسية ومن الاجرام السماوية على العموم .

و « ثانيا » ظهور القوانين الطبيعية التي سميت بالقوانين المادية أو الآلية .

و « ثالثا » مذهب النشوء والارتقاء .

و « رابعاً » علم المقارنة بين الأديان والعبادات .

و « خامساً » مشكلة الشر ، وهي ليست من مشكلات القرن العشرين خاصة ، ولكنها تخصَّص بالقرن العشرين لما تفاقم فيه من الحروب العالمية الجائحة وبما نشأ فيه من الآراء عن السلطان المحدود في الحكومات وإمكان المشابهة بينه وبين السلطان المحدود او المطلق في حكومة الكون على أوسع نطاق .

فقد كان كشف كوبرنيكس لمركز الأرض من المنظومة الشمسية صدمة عنيفة

للذين اعتقدوا أن الأرض هي مركز الكون وأن السماوات العليا وما فيها من الكواكب والشموس تبع للأرض ـ مركز الكون كله ومقر الانسان ، فلما عرفوا أن الأرض لا تعدو أن تكون نجما صغيراً تابعاً للشمس بين ألوف من الشموس التي تحوم في أجواز السماء فزعوا من هوان الأرض كلها وهوان الانسان كله ، وخامرهم الشك في حكمة القصد والاختيار ورجحت عندهم ظنون المصادفة والاتقان .

ثم جاء العلماء الطبيعيون فكشفوا ما سموه قوانين المادة وزعموا أنهم يفسرون بها كل شيء حتى الحياة ، فكل ما في الطبيعة آلات خاضعة لتلك القوانين ، تجري في حركاتها على السنن المطردة في حركات الآلات .

ثم جاء مذهب النشوء والارتقاء فألحق الانسان بسائر الحيوان في نشأته وتطوره ، وفهم بعض النشوئيين أن تطوره من المادة الحية الأولى يبطل القول بالخلق وتمييز الانسان بين عامة المخلوقات .

أما علم المقارنة بين الأديان والعبادات فقد جمع المشابهات بين العبادات البدائية والعبادات المقررة في الديانات العليا ، فاتخذ اصحاب المذاهب المادية من ذلك دليلا على تسلسل العبادات من أطوارها الأولى بين البدائيين ، بغير حاجة إلى الوحي والتنزيل .

وقد أسلفنا أن المشكلة العظمى ـ وهي مشكلة الشر ـ لم تكن من مشكلات القرن العشرين خاصة لأنها أقدم المشكلات التي ساورت عقول المفكرين وعقائد المتدينين ، ولكنها قويت جداً في القرن العشرين لتفاقم الشرور من الحروب والفتن وتنبه الناس إلى المحاسبة وتقرير التبعات ، فحق لمن يشاء أن يحسبها إحدى المشكلات الخاصة بهذا الزمن الأخير .

وسنرى فيما يلي عند عرض هذه الأسباب ، كل منها على حدة ، كيف تبدل النظر إليها حديثاً حتى ابتعدت الشقة بينها وبين دواعي التعطيل والانكار واقتربت على الأقل من دواعي الشك في الانكار ، إن لم نقل من دواعي الايمان والبحث عن مسوغات التدين والاعتقاد .

مركز الكون

نشر كوبرنيكس كتابه قبل وفاته بسنة (١٥٤٢ م) وتردد طويلا قبل نشره كأنه قدّر بحق أنه سيغضب عليه الملأ جميعاً ويعرضه للسخط والنقمة .

وثبتت آراؤه مع الزمن فآمن بها الفلكيون وأخذوا في تصحيح ما يحتاج سهـا إلى التصحيح ، وهو كلامه عن دوائر الفلك ونظام الحركة في كل دائرة منها ، ويومئذ بدأ العلماء والمفكرون ومعهم رجال الدين يتساءلون : ترى أي شيء في هذا الكشف الكوبرنيكي خالف قواعد الدين وخرج على سنن الايمان ؟ ولأي شيء صودر الكتاب وأجمعت شعاب الكنيسة من رومانية إلى لوثرية على تحريمه ومنع تعليمه ؟

يصور الفيلسوف الأمريكي (جون ألوف بودين) دواعي هذه الثورة في كتابه ديانة المستقبل[١] فيقول : « كانت الأرض مسرح درامة التاريخ والانسان فيها ذروة الخليقة وغايتها ، وجاءت الكوميدية الالهية من نظم دانتي ختاماً لعهد مدبر ، كان نظام الكون فيه كأنه عملية إخراج مسرحي لقصة الأنسان . ففي ناحية من الأرض كهف مطبق على دوائر جهنم ، وعلى جبل في ناحية أخرى ترتفع دوائر الاعراف ، وفوق هذا الجبل على مسافة منه وردة الفردوس التي يستوى على ورقاتها القديسون والأبرار ، وكان من اليسير في ذلك العهد أن يبني الخيال أساس رموزه غير منقوضة بحقائق الواقع المقرر ، ولم يكن عليه شبهة من عنت التوفيق بين مدى الأيام الستة وآماد التطور الكوني على حسب المعلومات الأخيرة . وقد كافح الناس كفاح الأبطال لملاقاة مشكلة الشر ليصبروا

(١) Religion of To-morrow by John Elof Boodin

عليها لا ليصرفوها ويفسروها التفسير الذي يمحوها ، وأحسوا الظلمات من حولهم فالتمسوا العزاء فيها باعتمادهم على قدرة الله أن يبدل النواميس الطبيعية بنعمته ويحيلها روحانية علوية ، ولم تزل قوى الطبيعة تلوح لهم طيعة خاضعة لعالم الروح جارية في خدمة الأقدار التي تتلقاها مما وراء الطبيعة . كانت دنيا مكنونة في حيز ملموم تطلع الشمس لتنيرها بالنهار ثم تطلع النجوم لتنيرها بالليل . . .

« ثم هبت ثورة كوبرنيكس وفتحت الأعين على نظرة علمية إلى الوجود كله ، فليست الأرض مركز الكون بل ذرة لا يؤبه لها في إحدى المنظومات الصغيرة . وسأل السائلون : ما هو هذا الانسان الذي تتولاه بعنايتك ؟ وما هو ابن الانسان الذي تخصه بزورتك ؟ . . إن الأرض وعليها الانسان ضائعة في آفاق ليس لها نهاية ، وهذه الآفاق الكونية بما وسعت محكومة كلها بالقوانين الآلية . ولم يقل « لابلاس » غير المقال الذي يردده الجميع حين قال لنابليون انه لم يجد ضرورة لفرض إله في نظام المكنة العلوية . وإذا كانت كشوف كوبرنيكس قد أبدت لنا هذا الانسان ضائعاً في المكان لقد جاءت آراء داروين فأبدته لنا ضائعاً في الزمان ، فتراءى كأنه حلقة في سلسلة الحياة ، أولها وآخرها محتجبان في غياهب الخفاء بدلا من قيامه على أوج الخليقة الأولى .

« في دنيا العلم هذه يُرى أنه لا محل للديانة المشبهة ولا للإله المشبه ، ويرى أن القلب الانساني قد ضيع نفسه مستسلماً للعقل كفاحه بين يدي الله . . . »

هذه صورة صادقة للعالم كما بدا في أعين الناس بعد أن جاء كوبرنيكس فأخرج الأرض من مركز الكون وأطلقها مع الشمس في اجواز الفضاء !

لكنها في أساسها صورة كاذبة لا أصل لها على الاطلاق في المعتقدات الدينية ، فليس في الأديان الكتابية عقيدة توجب على الانسان أن يؤمن بجمود الأرض في مكانها ودوران الأفلاك من حولها ، وليس في الأديان الكبرى قاطبة حكم من الأحكام يعلق مقاصد الخلق على وضع من أوضاع الفلك ، وما كان لغير العادة المألوفة والفهم الخاطئ دخل في تصوير العالم على تلك الصورة .

لقد كانت صورة الأرض في وسط العالم من عمل ارسطو وبطليموس ، ولم يتفقا على وضعها في ذلك الموضع ولا على تقدير الحركات الفلكية التي تحيط بموضعها ، مما حير كوبرنيكس وأحزنه . فحكمت العادة أيضاً حكمها عليه وخيل إليه أنه يقتحم على الفلك هيكله الأقدس ، وهو يبحث فيه عن مستقر

يوفق بين دورة ارسطو ودورة بطليموس . . وقال للبابا إنه طرق هذا الباب وهو جد حزين .

ولم يكن المتدينون يبحثون كبحث كوبرنيكس في هذا الموضوع ولم يكن كوبرنيكس نفسه ـ في وسط هاتيك الأضواء جميعاً ـ على هدى من أمره كل الهدى فيما يدع وفيما يختار . . لقد كان أمامه مذهب فيثاغوراس الذي قال ان الأرض كرة تسبح في الفضاء ، فتركه ناحية ووقف مع أرسطو وبطليموس حيث سكن به المطاف ، وأدار على الأرض تلك الدوائر التي تشبه دوائر شاعرنا ابن الرومي :

. . . بمقدار ما تنداح دائرة

في صفحة الماء يلقى فيه بالحجر !

غير أنهم جميعاً ناموا على وساد الأرض كما هي في مركز الكون ! فاضطربوا حين هبوا من رقدتهم تلك على غير وساد .

وان موقف المتهجمين على الحقائق باسم الدين في ذلك الزمن لهو العبرة الخالدة لمن يعتبر ، لو كان العلم عبرة صالحة لمن يجهله في زمن من الأزمان .

لقد كانوا يحتمون على العلم أن يجزم بمقام الأرض في مركز الفلك ، وكانوا يحتمون أن تجمد الأرض هنالك لتحق الحكمة من خلق الأحياء على التعميم ، وخلق الانسان على التخصيص .

فلو عادوا اليوم إلى الحياة لرأوا عجباً من فعل الزمن في التباعد بين الأفكار والآراء ، بل بين الدعائم والأساس ، حتى لتنقلب من النقيض إلى النقيض ، وحتى ليقال اليوم عن حكمة الخلق ما كان كفراً بالخلق والخالق قبل بضعة قرون .

إن القائلين بحكمة الخلق في القرن العشرين لا يجدون لذلك دليلا علمياً ولا فلسفياً أدل من مكان الأرض في ركنها الذي هي فيه من المنظومة الشمسية .

لم يكن لازماً عندهم أن تقر الأرض في مركز الكون كله ولا في مركز المنظومة الشمسية كلها ، بل اللازم عندهم أن تكون حيث هي سيارة من سيارات ، يعدون منها الآن عشراً ويتركون المئات والألوف منها بغير عداد .

ويكاد الباحثون في هذا الموضوع أن يجعلوا الأرض نمطاً فريداً بين كواكب الفضاء بموقعها هذا من المنظومة الشمسية ، فلولاه لما كانت اصلح كوكب لظهور الحياة عليه .

ذلك أن أسباب الحياة تتوافر في الكوكب على حجم ملائم وبعد معتدل ، وتركيب تتلاقى فيه عناصر المادة على النسبة التي تنشط فيها حركة الحياة .

لابد من الحجم الملائم لأن بقاء الجو الهوائي حول الكوكب يتوقف على ما فيه من قوة الجاذبية .

ولابد من البعد المعتدل لأن الجرم القريب من الشمس حار لا تتماسك فيه الأجسام والجرم البعيد من الشمس بارد لا تتخلخل فيه تلك الأجسام .

ولا بد من التركيب الذي تتوافق فيه العناصر على النسبة التي تنشط بها حركة الحياة ، لأن هذه النسبة لازمة لنشأة النبات ونشأة الحياة التي تعتمد عليه في تمثيل الغذاء .

وموقع الأرض حيث هي أصلح المواقع لتوفير هذه الشروط التي لا غنى عنها للحياة ، في الصورة التي نعرفها ولا نعرف لها صورة غيرها حتى الآن .

* * *

لقد كان الأقدمون يشرطون للايمان بالقصد والتدبير في خلق الحياة على الأرض أن تكون الأرض مميزة بين العوالم العلوية والسفلية ، وكانوا يحسبون أنها لا تكون مميزة على هذا الشرط إلا إذا قامت في مركز الكون كله وقامت الكواكب والشموس دائرة أو ثابتة من حولها ، فلما تقدم علم الفلك وتقدمت علوم الكيمياء والطبيعة أصبح القائلون بالخلق والتدبير اليوم يميزونها من العوالم جميعاً لأنها في موضعها هذا من المنظومة الشمسية ، ويحسبونها على هذا ـ بل لهذا ـ مميزة بالخصائص التي تنفرد بها ولا يشاركها فيها كوكب آخر في آفاق السموات التي أحاطت بها وسائل الكشف والرصد ، وهذه الوسائل في العصر الحاضر اقوى وأنفذ مما عرف في جميع العصور .

وأول هذه الخصائص المنفردة أنها سيارة في منظومة شمسية ، وليست المنظومات الشمسية في الكون بالكثرة التي يتوهمها من يتطلعون إلى السماء ، ويخطر لهم أنهم يرون على آمادها الواسعة شموساً كهذه الشمس ، تحيط بها

سيارات كهذه الغبراء .

فالمنظومة الشمسية ظاهرة فلكية لم يتفق العلماء على تعليلها ، وكل ما عللوها به يدل على ندرتها وصعوبة تكرارها .

وقد عللوا وجودها حتى اليوم بكثير من الفروض المقبولة وغير المقبولة . أشهرها فروض ثلاثة يعدل بعضها بعضاً ، ولا تزال على افتقار إلى التعديل الأخير .

أول هذه الفروض فرض بوفون (Buffon) العالم الفرنسي (١٧٠٨ - ١٧٨٨) الذي تخيل أن المنظومة الشمسية نشأت من اصطدام الشمس بأحد المذنبات السابحة في الفضاء ، وأن الصدمة أطارت منها السيارات فطفقت تدور حولها بحكم الحركة المركزية والجاذبية ، ولكن العلماء الذين تبعوه عرفوا من تركيب المذنبات ما لم يكن يعلمه في عصره ، فاستبدلوا بالمذنب نجماً عظيماً يقارب الشمس في العظم ، لأن قوام المذنبات أخف من أن يحدث ذلك الاصطدام العنيف الذي فرضه بوفون .

ثم جاء « لابلاس » فأظهر خطأ آخر في نظرية بوفون ، وقال ان الأجسام التي تتطاير من الشمس عند المصادمة المزعومة ينبغي أن تدور في فلك بيضاوي ، خلافاً لأفلاك السيارات التي تستدير وتقرب من شكل الدائرة التامة . ووضع فرضه الثاني الذي رجحه العلماء إلى زمن قريب ، وخلاصته أن السيارات طارت من الشمس على أثر انفجار شديد في باطنها ، وأن هذه السيارات كانت في مبدأ الأمر حلقات غازية تجمعت على طول الزمن وتكورت على شكلها الذي نعهده اليوم ، وقد ناقض العالم الانجليزي كلارك مكسويل هذه النظرية فقال ان الغازات في هذه الحالة لا تتجمع على شكل كرة بل ينبغي أن تتحلق حلقات متفرقات .

وانتهى التعديل في الفرضين إلى فرض ثالث ، خلاصته أن انشقاق السيارات إنما نشأ من مرور نجم آخر على بعد من الشمس لم يبلغ من قربه أن يصطدم بها ولم يكن من البعد بحيث يعبرها في طريقه ، فبرز من الشمس نتوء منجذب إلى ناحية النجم الآخر ، ثم انفصل على شكل مخروط تتقطع رؤسه على التوالي وتدركها الجاذبية وفعل الحركة المركزية ، فتنجم منها هذه السيارات . وإحداها هذه الكرة الأرضية .

قال جورج جامو (Gamow) العالم الروسي في كتابه سيرة الأرض[1] وهو واحد من كتب كثيرة بحث فيها موضوع المنظومة الشمسية بحثاً علمياً على أسلوب الأدب والقصة :

« ولما كان المفروض أن النجم العابر كالشمس في تكوينه فالموجة التي تبرز على الشمس عند عبوره لابد أن تبرز موجة مثلها على سطحه ، لعلها لم تنفصل وعادت إلى مكانها لسرعة مسيره في وجهته ، ويتوقف مقدار البروز على حجم الكوكب ، فينفصل الجزء البارز من النجم الأصغر قبل انفصاله من النجم الكبير ، وإذ كنا نعلم أن اجزاء الشمس هي التي انفصلت فالذي يفهم من ذلك لزاماً أن والد سيارتنا يكبر الشمس جرما ، ويستبعد أن يكون قد حمل معه أحداً من أطفاله لسرعة العبور - كما تقدم - فلا حرج من القول بأن الأم - الشمس - ضمت اليها كل ذريتها ما خلا آحادا قلائل خرجوا بدادا على النظام . . . » .

***

والأستاذ جامو مختص بهذه المباحث عاون في نشأته أكبر العلماء أمثال بوهر الدنمركي وروذرفورد الانجليزي ، واستقل بعد ذلك بدراسة الشمس والظواهر الفلكية ، وترجيحه لهذا الفرض الأخير له قيمته الراجحة ولا ريب ، ولكنه لا يعني أنه أكثر من فرض يقبل التعديل كرة أخرى كغيره من الفروض .

***

وكيفما كان مقطع الظن في هذه الفروض فالواضح من تعددها واختلافها أن المنظومات الشمسية ظاهرة نادرة في السماوات لم يبلغ من تكرارها أن تتفق الأفكار على تعليلها .

وهذا هو المميز الأول للكرة الأرضية بين الاجرام السماوية .

ثم يأتي مميز آخر يميزها بين سيارات المنظومة الشمسية نفسها في موقعها وفي حجمها .

وكلما تقدم علم الكيمياء على الخصوص ، وتقدم معه فهم العناصر وعوامل تركيبها ، تبين للباحثين في مواطن الحياة أن الخصائص التي تلائم ظهور الحياة

(١) The Biography of the Earth

قد توافرت في الكرة الأرضية على نحو لم يتكرر في سيارة أخرى .

فالمريخ فيه الماء ، ولكن الأودية الواسعة والأقنية المنسقة التي تبدو على سطحه لم تمتلىء بالماء ، ويظن أن تلك الأقنية خطوط تفصل بين المناطق المختلفة فيه . ومنها ما يختفي عند تحقيق النظر إليه بالمكبرات الحديثة ، ولا يصلح جوه للحياة كما نعهدها لشدة البرد وتقلب الأجواء عليه .

والزهرة قد يوجد فيها ثاني أكسيد الكربون ، ولكن الأكسجين فيها نادر . ولم تظهر على سطح الزهرة تفصيلات تدل على بيئاتها الاقليمية مع تعاقب الأرصاد بمختلف الأضواء . إما لاحاطته بالظلام او لخلوه من التفصيلات . وفي كلتا الحالتين لا يصلح الكوكب للحياة[١] .

ومن الاعتراضات السهلة ان يقال ان شروط الحياة تختلف ، أو ان الحياة قد توجد على تركيب يخالف تركيبها في الكرة الأرضية ، وقيل كثيراً ان عنصر السليكون قد يحل محل الكربون في الكائنات الحية وأن عملية الفلورة (Fluo - -rination)[٢] قد تعمل عمل الأكسدة في توليد الطاقة ، وهو قول لا يتفق عليه المختصون ولا يزال منهم من يستبعد تكوين الحيوان الكبير من هذا التركيب ، ولكنه على فرض صحته يثبت القصد والتدبير في خلق الحياة ولا ينفيها . لأن السليكون والفلور عنصران موجودان في الكرة الأرضية ، فاذا كانت المصادفة لم تعمل هنا مرة واحدة في تجربة عرضية من تجارب الحياة الأولى فالمصادفة لا محل لها إذن في هذه الفروض ، ولا حاجة بنا إلى الظنون عن الكواكب الأخرى التي يوجد فيها هذان العنصران ، الا اذا كان الأمر مجرد تخمين واحتمال ، ولا ضابط للتخمين والاحتمال على كل حال .

ومن أشهر القائلين بامكان وجود الحياة على المريخ العالم الفلكي سبنسر جونس صاحب كتاب الحياة على العوالم الأخرى[٣] ، وهو على ترجيحه وجود النبات في المريخ يقول : « ان لون سطح المريخ يزودنا بدليل قاطع على وجود الأكسجين الطلق في الماضي على الأقل ، ويكاد وجود الأكسجين الطلق يستلزم

---

(١) Our Neighbour Worlds by Firsoff
الدنياوات جاراتنا بقلم فيرسوف

(٢) The Universe Plan or accident by Clark
الكون : تدبير أو مصادفة (بقلم روبرت كلارك)

(٣) Life on other Worlds

وجود النبات ، فاذا قرنا هذا الاستدلال بالأدلة التي تجتمع لدينا من التغيرات التي تطرأ على سطحه ـ حسب اختلاف الزرع موسما بعد موسم ـ أمكننا أن نفهم من ذلك أن وجود نوع من النبات في المريخ محقق أو يكاد . وليس في وسعنا أن نقول ان الحياة الحيوانية ـ وبخاصة أشكالها العليا ـ يمكن أن توجد في المريخ ، لأن قلة الأكسجين فيه تجعل وجودها هناك بعيد الاحتمال ، وإن كان رفض هذا الاحتمال رفضاً قاطعاً غير مستطاع لنزارة ما نعلمه عن حقيقة الحياة . غير أن مسألة وجود هذه الأشكال العليا في الوقت الحاضر على سطح المريخ قليلة الخطر بالقياس إلى المسألة الأخرى التي تكاد تتحقق بالدليل القوي ، وهي وجود حياة كائنة ما كانت هناك » .

وقائل هذا ـ سبنسر جونس ـ فلكي ملحوظ المكانة مسموع الرأي في هذه المسائل ، ولكن جزمه بوجود النبات في المريخ يخالف تقديرات الكثيرين من نظرائه في المكانة العلمية ، فان العالم ارهنيوس (Arrhenius) يقول ان التغييرات التي استدل بها سبنسر على مواسم النبات يمكن ان تفسر بتغيير ألوان الأملاح الماصة (Hygroscopic) في الأجواء الممطرة ، والعالم المشهور سير جيمس جينس لا يرفض هذا التفسير ويضيف إليه تفسير ليوت (Lyot) تغييرات تلك الألوان بانعكاسها من رماد البراكين ، ويقول : « اننا ولا ريب نشط كثيراً حين نقرر أن تغييرات اللون على سطح المريخ دليل قاطع على وجود الأكسجين الطلق ولو في الماضي ، وأن الأكسجين الطلق يستلزم وجود النبات ، وأبسط من هذا على التحقيق ان يقال إن الأكسجين الطلق الذي جاء من الشمس قد استوعبته الصخور كله أو معظمه ، ولا موجب هنا لفرض وجود النبات » .

ونحن لا نريد في هذه العجالة أن نستغرق كثيراً من الصفحات في هذه الخلافات التي لا نهاية لها ، فما من شرط من شروط الحياة على كوكب آخر قد خلا من خلافات كهذه بين أكبر المختصين بالبحث في هذه الأمور ، ولهذا نكتفي بسرد أمثلة من الخصائص التي تلائم ظهور الحياة ولم يثبت وجودها على كوكب آخر كما ثبت وجودها على الكرة الأرضية ، فهي إما معدومة في الكواكب الأخرى او موجودة بالمقدار الذي لا يكفي ولا يفيد ، او هي متفرقة لم يتم لها التوافق والتركيب الذي هو أهم من مجرد وجودها هنا وهناك بالنسبة إلى البنية الحية .

فمن هذه الخصائص وجود الماء الغزير ، وانحلال الملح الصالح فيه دون

الأملاح السامة ، ووجود النبات الذي يمثل الطعام للاحياء على اليابسة ، ووجود الكربون وأكسيده الثاني على حالة لا يمحوها الجو المحيط بالكوكب ، وقيام هذا الجو على حالة من الكثافة والانجذاب إلى الكوكب بحيث لا يكظم ما تحته ولا يطير شعاعاً في الفضاء ، وليس يتحقق ذلك إذا كان الكوكب عظيما كالمشتري وزحل ، فان الكربون في هذه الحالة يوجد على شكل غاز الميثان (Me - thane) فلا يصلح مصدراً للكربون الذي يلائم المادة الحية ، وليس يتحقق كذلك إذا كان الكوكب صغيراً كعطارد والقمر فان ثاني أكسيد الكربون لا يوجد في هذه الحالة وقد ينعدم الجو على الاطلاق[1] .

وينبغي أن تبدأ الملاءمة للحياة من الأدوار الأولى حيث تتكون الخلية التي تدخل في بنية الأحياء العليا أو كما جاء في كتاب سيرة الأرض[2] لمؤلفه جورج جامو إذ يقول : « من النقط الهامة التي ينبغي أن تدخل في الحساب عند كل بحث في طبيعة الحياة والنبات ان الخلية الأولى تتألف مما يسمى بالمحلول الغروي (Colloidal Solution) أي من مواد عضوية مختلفة في الماء . وهذه المحلولات الغروية ـ عضوية أو غير عضوية ـ مستحلب دقيق جداً من ذريرات مشحونة بالكهرباء تتماسك على بعد بفعل تلك الشحنة ، وتبقى في الماء طويلا لأن الماء الصرف موصل رديء ، فاذا أخذنا محلولا غروياً من الذهب مثلا وأضفنا إليه بعض الملح حتى تزيد قابلية الماء للتوصيل فقدت الذريرات شحنتها وأسرعت إلى التلاصق والانضمام . . . ويمكننا أن نحدث هذا التلاصق أيضاً بضم محلولين كل منهما له شحنة مضادة لشحنة الآخر . . أما المحلول الغروي من المواد العضوية فمن خاصته أن خلايا الكربون المركب على ألفة كيماوية مع الماء . . وأن نتيجة قيامه في الماء على الأبعاد المطلوبة . . تحول دون فقدان الشحنة الكهربية . . . »

ان كل خاصة من هذه الخواص متوافرة في الكرة الأرضية بالمقدار اللازم على النحو اللازم ، والذين ينكرون القصد والتدبير في خلق الحياة لم يثبتوا وجود كوكب واحد تتوافر فيه هذه الخواص كتوافرها في الكرة الأرضية ، ومن قال منهم ان الحياة غير مقصورة على الأرض حتما إنما يذهب إلى هذا القول على سبيل الاحتمال وامتناع الاستحالة بغير دليل قاطع عليها ، فيجوز عندهم أن توجد الحياة في كوكب آخر متى اجتمعت فيه أسبابها وخصائصها ، ومن العجيب أن

---

(١) الكون : تدبير أو مصادفة (بقلم روبرت كلارك)

(٢) Biography of the Earth تأليف Gamow

يتوسع هؤلاء الباحثون في احتمال وجود الحياة ويرفضون القول باستحالتها في صورة غير الصورة الأرضية ، ثم يضيق بهم مجال الاحتمال عن الحياة الروحية دون غيرها . . فلماذا يتسع الفرض لكل حياة وافقت حياة الأرض او لم توافقها ثم يستحيل وجود الحياة في صورة روحية . . . ؟

ان الذي يأبى حصر الحياة في الأرض ليس من حقه ، ولا من مقتضى رأيه وحكمه ، أن يحصرها في صورتها الحاضرة حيثما كان موضعها من عالم الوجود الفسيح .

بيد أننا كتبنا هذا الفصل عن مركز الكون لغرض واحد لا يتسع المقام لغيره في هذا السياق .

كتبناه لنبين الفرق بين النظر إلى كشوف كوبرنيكس في القرن السادس عشر والنظر اليها في القرن العشرين .

ففي القرن السادس عشر كان قيام الأرض في مركز الكون على ظنهم هو الدليل الوحيد على حكمة القصد والتدبير .

وفي القرن العشرين يتحول النظر من النقيض إلى النقيض فيلتمس المفكرون حكمة القصد والتدبير في موضعها هذا الذي هي فيه ، أو في اعتبارها سيارة من سيارات شتى في المنظومة الشمسية .

ومن الحجر على الغيب أن نحسب أن هؤلاء المفكرين في القرن العشرين قد جاؤوا اليوم بفصل الخطاب وقد أوصدوا الباب غداً على التعقيب والتعديل ، فانما يعنينا هنا أن مذهب كوبرنيكس قد أصبح في القرن العشرين وهو أقرب المذاهب إلى براهين المؤمنين .

قوانين المادة

نشأت المذاهب المادية قبل العلوم التجريبية الحديثة ، وكانت فضيلة المذاهب المادية عند الماديين أنها تقوم على الوقائع والحقائق ولا تقوم على الظنون والأوهام ، وكانت المادة عندهم حقيقة الحقائق الثابتة التي لا يعتريها الشك ولا يلم بها الباطل ، لأنها محسوسة ملموسة محصورة في مكان محدود : يخبط أحدهم على المائدة بيده او يضرب على الأرض بقدمه ويقول لمن يجادله : هذه هي الحقيقة التي ألمسها بيدي وقدمي أو أراها بعيني وأسمعها بأذني ، وليست ما تخبطون فيه من الظنون والأوهام .

ثم شاعت العلوم التجريبية في القرون الأخيرة ، وشاعت معها قوانين الحركة والحرارة والضوء وسائر القوانين التي سميت بالقوانين الطبيعية : هذه هي قوانين الكون التي تسيطر على حركاته وسكناته وتفسر كل ظاهرة من ظواهره ، وتسري على الافلاك العلوية كما تسري على المعادن الأرضية ، ولا يشذ عنها حكم واحد من الأحكام التي تشمل المادة في جميع صورها وأشكالها ، ومنها مادة الأجسام الحية أو مادة الحياة .

حقائق ملموسة محسوسة ، وليست فروضاً نخوض بها أو تخوض بنا فيما وراء المادة . . حيث لا يوجد شيء من الأشياء يقوم عليه دليل .

وحدثت في السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث « علمية » غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمون .

فقد عرف الكيميون قبل ذلك أن عناصر المادة أكثر من أربعة ، وأنها ليست

محصورة في النار والتراب والهواء والماء .

وعرفوا أن ذرة « الهيدروجين » أخف العناصر ليست هي أصغر جسم من أجسام المادة ينتهي إليه التقدير .

عرفوا الكهرب الذي تحسب ذرة الهيدروجين جبلا ضخماً بالقياس إليه ، ثم تقدموا في معرفة الكهرب والذرة حتى أفلتت المادة كلها من بين ايديهم ، ولم يبق منها غير حسبة رياضية !

حسبة رياضية كانوا « يحسبونها » مثلا في الدقة والضبط والعصمة من الخلل ، فاذا هي في النهاية حسبة لا يضبطها الحساب إلا على وجه التقريب .

أفلت من المادة كل شيء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل في الثبوت و « الحقيقة » !

فاللون من الشعاع والشعاع هزات في الأثير .

والوزن جاذبية ، والجاذبية فرض من الفروض .

والجرم نفسه متوقف على الشحنة الكهربية وعلى سرعة الجسم في الحركة ونصيبه من الحرارة .

والحرارة ما هي ؟ حركة !

والحركة في أي شيء ؟ في الأثير !

والأثير ما هو ؟ فضاء أو كالفضاء ، وكل وصف أطلقته على الفضاء فهو بعد ذلك مطابق لأوصاف الأثير .

حتى الصلابة التي تصدم الحس أصبحت درجة من درجات القوة تقاس بالحساب ، ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختلال .

فهذه الصخرة القوية صلبة جامدة ، يضربها الضارب بيده فترده فيقول : نعم . هذه هي الحقيقة التي لا مزاء فيها !

فماذا لو كانت يده أقوى ألف مرة أو ألف ألف مرة من يد الإنسان القوي بالعضل والعصب ؟

ان حقيقة الصخرة تفقد تحت يده برهانها فلا يحسه ، او يحسه ولا يتحدث عنه كما يتحدث عن الحقائق التي تصدم المنكرين !

وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة أخرى ، فاذا المادة كلها كهارب وذرات ، واذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعاً كشعاع النور .

هل هذا الشعاع موجات ؟ هل هو جزيئات ؟

قل هذا أو قل ذاك ، فهذا وذاك في ميزان « التجربة » سواء .

وعاد العلماء التجريبيون إلى القوانين الطبيعية التي تحكم الحرارة والحركة والضوء وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات ، فوجدوا لها قانوناً واحداً وهو الخطأ والاحتمال .

أما القائمون بهذه التجربة فقد كانوا ثلاثة من أقطاب العلوم الطبيعية في مطلع القرن العشرين .

كانوا ثلاثة من الأقطاب العالميين بأكثر من معنى واحد من معاني العالمية ، لأن أحدهم ماكس بلانك[1] بولوني ، والثاني ورنر هيزنبرج[2] الماني ، والثالث اروين شرودنجر نمسوي[3] ، والأولان منهم صاحبا جائزة نوبل في العلوم الطبيعية عن سنة ١٩١٨ وعن سنة ١٩٣٢ ، والثالث مكمل النظريات التي اشتهر بها الأولان ، وحجةٌ لا تعلو عليه حجة في مسائل الذرة والاشعاع ومسائل الطبيعيات على العموم .

فالأستاذ بلانك هو صاحب نظرية المقدار أو الكوانتم .

وخلاصتها أن الإشعاع قفزات لا تعرف القفزة التالية من القفزة الأولى إلا بالتقدير والترجيح ، وأن صحة التقدير لا تتفق إلا لأن أجزاء الكهارب تحسب بملايين الملايين ، فلا يظهر الخطأ فيها إلا بمقدار يسير .

والأستاذ هيزنبرج هو صاحب نظرية الخطأ أو الاحتمال في قوانين الطبيعة ، وخلاصة براهينه الكثيرة في هذا الباب أن الموضع والسرعة لكهرب معين لا يمكن تحقيقهما في لحظة معينة على وجه اليقين ، وأن موقع الكهرب بعد ثانية

---

(١) Max Plank

(٢) Werner Heisenberg

(٣) Erwin Schrodinger

يتراوح اختلافه إلى مدى أربعة سنتيمترات[1] ، ثم يقل مدى هذا الخطأ في الثانية التي تليها وأن التجربتين في اية قاعدة من قواعد العلم الطبيعي لا تأتيان بنتيجة واحدة بالغا ما بلغ المجرب من الدقة وبالغا ما بلغ المسبار من الاتقان .

والأستاذ شرودنجر هو المجرب المحقق الذي أسفرت تجاربه كلها عن نتيجة واحدة تؤيد نظرية اكسنر (Exner) ، وهي ان تقدير ما سيحدث تطبيقاً للقوانين المادية ممكن ، ولكنه غير محتوم ، وإذا دققنا في التعبير فليس هو بالاحتمال الذي يوصف بأنه جد قريب ، ومن مقررات شرودنجر في محاضراته عن الحياة[2] ومحاضراته عن العلم ومزاج الانسان أن القوانين التي تنطبق على الذرات في الطبيعة لا تنطبق على الذرات في البنية الحية ، وأن الصورة (Form) وهي قوام المادة ، فلا يصح أن يقال ان هذه الذرة الصغيرة من المادة هي نفسها التي رصدناها قبل لحظة ونرصدها بعد لحظة تالية . إذ ليس لهذه الذرات ذاتية ثابتة تبقى في جميع هذه الأرصاد ، وكل ما يثبت منها هو الشكل أو الصورة التي تتكرر في رصد بعد رصد بغير ذاتية ثابتة (Sameness)[3] .

هذه النظريات لم يشتهر بها العلماء الثلاثة ، بلانك وهيزبرج وشرودنجر لأنهم ينفردون بتقريرها وتأييدها ، فانها نظريات عامة يقررها معهم علماء الطبيعة جميعاً ولا يخالفونهم في مبادئها ، ولكنهم اشتهروا بالنظريات التي تدور على نقص القوانين الطبيعية لأنهم استطردوا في مباحثها حتى شملوا بها المباحث العقلية والدينية كالقضاء والقدر وحرية الارادة ، وورد ذكرهم كثيراً في مساجلات العلماء والفلاسفة الذين يطبقون العلوم الطبيعية على الفلسفة والأخلاق .

فلا اختلاف على نقص القوانين الطبيعية ، أي على أخذها بالتقريب دون الضبط المحكم الذي يمتنع فيه الخطأ كل الامتناع ، وإنما الاختلاف على النتائج التي يرتبونها على هذه النظريات والملاحظات . فما هي نتيجة العلم بأن القوانين الطبيعية لا تفسر لنا حركات الكون وسكناته إلا على وجه التقريب ؟

هل نتيجة ذلك أن نسقط حساب الأسباب والعلل ونلغي القوانين الطبيعية ؟

---

(١) فلسفة العلم الطبيعي تأليف ادنجتون في الكلام عن نظرية الكوانتم .

(٢) Science and Human Temperament

(٣) الطبيعيات في زماننا Physics in our time

ان بلانك نفسه لا يقول بذلك ويقرر في كتابه (إلى أين يذهب العلم[1]) أن الأسباب الطبيعية عاملة في كل حال وأنا لو حققنا موضع كل كهرب وسرعته ووزنه أمكننا أن نعرف حركته التالية بغير خلل في الحساب ، فاذا كانت مراقبة الملايين من الكهارب تعطينا نتيجة تقريبية فالنقص ناشيء من جهلنا بحالة كل كهرب على صدق لا من خلل القوانين الطبيعية .

ولا يرى المعقبون على رأي بلانك في هذه المسألة أنه قد حسم بها خلافا ذا بال . إذ لا خلاف على أن المقدمات جميعها تؤدي إلى جميع نتائجها ، وانما الخلاف في إمكان الحصر والاستقصاء ، ويتساوى بعد ذلك عالم المادة وعالم الروح ، فان العلم بكل المقدمات في عالم الروح يؤدي كذلك إلى العلم بجميع النتائج على وجه التحقيق .

ولم يفت بلانك أن يستدرك ذلك في كتابه المتقدم ذكره فقال معقباً على الآراء الحديثة في السببية وحرية الارادة : « الواقع أنه في هذا العالم الواسع الذي لا يحده القياس ـ ونعني به عالم العقل والمادة ـ توجد نقطة واحدة ، نقطة لا ينطبق عليها العلم ولا ينطبق عليها اسلوب من أساليب البحث ، وستظل كذلك لا من الوجهة العملية وحسب بل من الوجهة المنطقية كذلك : تلك النقطة هي الذات الفردية ، فانها لصغيرة في رحاب الوجود ، ولكنها في ذاتها عالم كامل يحيط بحياتنا العاطفية كما يحيط بمشيئتنا وفكرتنا ، وهذا الكون الذاتي هو مصدر لأعمق أحزاننا وأرفع أفراحنا ، ولا سبيل عليه للقوى الخارجية ، ولا نحن قادرون على إطراح سلطاننا عليه وتبعاتنا نحوه إلا حين نطرح الحياة نفسها » .

ثم قال : « وتذكر أن لابلاس كان يرى أنه لو وجد عقل سام بمعزل عن جميع العوامل في هذا الكون أمكنه أن يتبع العلاقات السببية في جميع حوادث الانسان والطبيعة إلى أدقها وأخفاها . وإنما بمثل هذا السمو يتسنى للانسان أن يصل إلى العزلة والاستقلال وأن ينفصل الباحث من موضوع بحثه عند البحث في سريرة نفسه ، ولابد من هذا الفصل كما رأينا لتطبيق مقاييس السببية والاستقرار . وكلما اقتربنا من الحوادث تعذر النفاذ إلى أسبابها ، وكذلك كلما اقتربنا من الحوادث التي تدور عليها تجاربنا الشخصية زادت صعوبة الدرس في ضوء تلك الحوادث ، إذ كان الذي يتولى الملاحظة هو نفسه موضوع الملاحظة ، ومن المستحيل في هذه الحالة تمييز العلاقات السببية لأن الأسباب والمسببات هنا لا

---

(١) Where is science going.

فاصل بينها . . وما من عين تستطيع أن ترى نفسها ، ولكنه بمقدار ما يختلف الانسان اليوم عما كان عليه منذ سنوات يستطاع بعض الاستطاعة أن توضع تجاربه امامه موضع التعليل والتفسير ، وإنما أذكر هذا كأنه تمثيل للمبدأ في عمومه .

« ولقد يخطر لكثير من القراء أن يسألوا : ان صح هذا أفلا تكون حرية الفرد وهما ظاهراً مرجعه إلى عيب في أساليب فهمنا ؟

« فنقول ان عرض المسألة على هذا النحو خطأ فيما أراه . وقد نصور هذا الخطأ حين نقول انه يشبه الظن بأن الانسان يعجز عن اللحاق بظله لنقص في سرعته . ! إذ ان الحقيقة التي ترينا أن الانسان في بعض حالاته الراهنة لن يخضع لقانون السببية هي حقيقة قائمة على أساس من المنطق كالقضية التي تقول لنا ان الجزء أصغر من كله ، وان استحالة حكم المرء على تأملاته طبقاً لعلاقات السببية لهي استحالة مؤكدة ولو على فرض العقل السامي الذي ذكره « لابلاس » ، فان ذلك العقل السامي ، على استطاعته أن يرقب البواعث والنتائج في عقول أعظم العباقرة ، لا مناص له من التخلي عن هذه المراقبة حين ينظر في تأملات ذاته » .

أما « شرودنجر » فرأيه كهذا الرأي في التفرقة بين عوامل المادة الحية وغير الحية ، وهو يقول في ختام رسالته « ما هي الحياة » :

« أود أن أوضح في هذا الفصل الأخير بالايجاز أن كل ما علمناه من بناء المادة الحية يوجب علينا أن نكون على استعداد لأن نراها عاملة على مثال لا يمكن إخضاعه لقوانين الطبيعة العادية ، وليس ذلك على اعتبار أن التركيب هنا يخالف كل تركيب درسناه في معامل العلوم الطبيعية » .

وختم « شرودنجر » رسالته بالتساؤل عن الشخصية والروح ، فقرر أن « الوعي » ظاهرة مفردة لا تقبل الجمع ، وأن كل ما يمكن الجزم به هو أن الشخصية لا تتكرر وأنها قوام مستقل عن كل قوام .

* * *

ونعود هنا فنقول ـ كما قلنا في ختام الفصل السابق ـ إننا لا نسرد هذه الآراء لأننا نحسبها مقطع القول في القوانين الطبيعية ، فان العلماء لا يقطعون بقول فيها اليوم إلا قطعوا بغيره غداً ، وقلما يقطعون بالقول حيث يلتزمون أمانة العلم

ويقفون عند حدوده .

ولكننا نسرد تلك الآراء لغرض واحد ، وهو أن القوانين الطبيعية لا تتخذ في القرن العشرين حجة للتعطيل والانكار ، بل هي أقرب إلى التشكيك في التعطيل والانكار ، ان لم نقل انها أقرب إلى مباحث العقيدة والايمان .

إن المادة اليوم لا تصد المفكرين عن عالم الحقائق المجردة ولا هم يتخذون من صلابتها وجسامتها شرطاً للحقيقة الثابتة ، فان الحقيقة المادية نفسها لا تثبت أليوم بمجرد الصلابة والجسامة ، ولا تزال ترتد إلى أصولها حتى تؤ ول إلى عدد من الهزات في ميدان مجهول هو ميدان الأثير وميدان الفضاء .

فالمادة في القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرد بل دخلته وأصبحت في تقدير الثقات « عملية رياضية » أو نسبة من النسب التي تقاس بمعادلات الحساب .

وقد جاز لعالم كبير كالسير جيمس جينس (Jeans) أن يعتبرها كذلك وأن يقول كما قال في ختام كتابه الكون العجيب :

« إن المعرفة الجديدة تضطرنا إلى تنقيح خواطرنا العجلى التي أوحت إلينا أننا وقعنا في كون لا يحفل بالحياة أو لعله يعمل على مناصبتها العداء . ويلوح لنا أن الثنائية العتيقة التي تقول بالعقل والمادة ويرجع إليها افتراض العداوة المزعومة آخذة في الزوال ، لا لأن المادة تدخل بأية حال من الأحوال في ظلال وأشباح ، أو لأن العقل تحول إلى وظيفة مادية ، بل لأن المادة الجوهرية تحيل نفسها إلى شيء من خلق العقل ومظهر من مظاهره ، ونحن نستكشف أن الكون يبدي الدليل على قدرة مدبرة أو مسيطرة لديها العقل الذي يماثل ما نفهمه بعقولنا . . »

وجاز كذلك لعالم آخر كبير كالسير آرثر ادنجتون (Eddington) أن يقول في ختام كتابه عن كيان الدنيا الطبيعية إن نظرات المتصوفة لا تهمل وإن ملكات الإنسان التي يمازجها الشعور الديني هي من وقائع الكون إذا كان الانسان قد استبقاها بفعل الانتخاب الطبيعي ، وهو من أهم العوامل الكونية .

وفي ختام كتابه فلسفة العلم الطبيعي يقول : نحن حتى في العلم ندرك ان المعرفة ليست بالأمر الوحيد الذي نعتد به ، ونسمح لأنفسنا أن نتحدث عن روح العلم . . . وان أعمق من كل قضية من قضايا النكران لهي العقيدة التي هي قوة خالقة أهم مما تخلقه . . . وفي عصر العقل تظل العقيدة راجحة لأن العقل بعض مادة العقيدة » .

وتقابل التفكير الديني والتفكير العلمي في الغرب في مجال التقريب بين القوانين الطبيعية والأفكار الدينية ، فاذا كان علماء الطبيعة قد أدخلوا المادة في عداد المعادلات الرياضية فالعلماء اللاهوتيون قد عبروا تلك الفجوة الواسعة التي فصلت بين الطبيعة والروح مئات السنين ، ولم تزل إلى زمن قريب تفصل بينهما كأنهما عدوان لدودان لا يتصالحان . وقد عرض الدكتور ماثيو مطران كنيسة سان بول لهذا البحث في كتابه « مقالات في البناء »[1] فقال :

« إذا كنا نفهم من الطبيعة أنها تعني الكون كله في اشتماله على نظام الوجود قاطبة فلست إخال أحداً يزعم أن هناك شيئاً مناقضا أو خارجاً عن ذلك النظام ، ومتى نظرنا إلى الطبيعة تلك النظرة فليس بعث سيدنا نفسه ـ أي السيد المسيح ـ بالخارق للنظم ، وبدلا من المناقضة يعد هذا البحث ـ كما قال القديس بطرس ـ احدى الموافقات لسنن الوجود » .

ولم يعهد مثل هذا التقارب بين الطبيعيين واللاهوتيين في القرن التاسع عشر ، فكأنما انقضى ذلك القرن وبين العقيدة وقوانين الطبيعة والمادة حاجز قاطع أو حصن رادع . فلما أقبل القرن العشرون هبط الحاجز وانفتح باب الحصن ، وقامت في مكانهما قنطرة تتصل من ناحية وتنفصل من ناحية ، ولكنها صالحة لأن يعبر عليها ، مع الجهد ، كل من يشاء العبور .

Essays in Construction by Dr. W. R. Matthews (١)

مذهب التطور

اقترن مذهب التطور في النصف الأخير من القرن التاسع عشر باسمين عظيمين ، هما اسم الفرد رسل ولاس واسم شارل داروين ، وذاعت شهرة داروين بالمذهب حتى كاد أن ينسب إليه ويعرف به ، فيقال مذهب داروين كما يقال مذهب التطور أو مذهب النشوء والارتقاء ، وقد عدل أخيراً عن تسمية المذهب بالنشوء والارتقاء وبقيت الداروينية غالبة عليه .

ولقد هوجم المذهب كثيراً باسم الدين ، وجعله بعضهم مرادفاً للإلحاد والمادية ، ومع هذا لم يكن والاس ولا داروين ملحدين معطلين ، وكان والاس شديد الايمان بالله ، خامرته الشكوك في الديانة التقليدية ولم تخامره في الايمان بالله وبحكمته ، ومن كلامه ما يستدل به على تصديق المعجزات وخلود الانسان .

أما داروين فلم يزعم قط أن ثبوت التطور ينفي وجود الله ، ولم يقل قط إن التطور يفسر خلق الحياة ، وغاية ما ذهب إليه أن التطور يفسر تعدد الأنواع الحيوانية والنباتية ، وفي ختام كتابه عن اصل الأنواع يقول إن الأنواع ترجع في أصولها إلى بضعة أنواع تفرعت على جرثومة الحياة التي أنشأها الخلاق .

وقد قال والاس في كتابه عالم الحياة (The World of Life) متحدثاً عن عقيدة داروين « انه على ما يظهر قد صار إلى نتيجة واحدة . وهي أن الكون لا يمكن أن يكون قد وجد بغير علة عاقلة ، ولكن إدراك هذه العلة عني أي وجه

كامل يعلو على إدراك العقل البشري .

ثم عقب والاس قائلا : « وانني لأولي هذه النظرة كل عطفي وشعوري ، ولكنني مع هذا أرى أننا مستطيعون أن نلمح قبساً من القدرة التي تعمل في الطبيعة ، يساعدنا على تذليل الصعوبة البالغة التي تحول دون العلم بحقيقة الخالق الأبدي الذي لا اول له ولا آخر » .

ولما سئل داروين عن عقيدته الدينية (سنة ١٨٧٩) قال في خطاب إلى مستر فوردايس (Fordyce) صاحب كتاب ملامح من الشكوكية :

« ان آرائي الخاصة مسألة لا خطر لها ولا تعني أحداً غيري ، ولكنك سألتني فأسمح لنفسي أن أقول انني متردد ، ولكنني في أقصى خطرات هذا التردد لم أكن قط ملحداً بالمعنى الذي يفهم فيه الالحاد على أنه انكار لوجود الله ، وأحسب أن وصف اللاأدري يصدق علي في أكثر الأوقات - لا في جميعها - كلما تقدمت بي الأيام » .

وقد كتب قبل ذلك (سنة ١٨٧٣) إلى طالب هولندي سأله السؤال نفسه فقال : « . . . ان استحالة تصور هذا الكون العظيم العجيب وفيه نفوسنا الشاعرة قائماً على مجرد المصادفة - هي في نظري أقوى البراهين على وجود الله ، ولكنني لم أستطع قط أن أقرر قيمة هذا البرهان » .

وسأله طالب ألماني (سنة ١٨٧٩) : هل يتفق مذهب التطور والايمان بوجود الله ، فأوصى أحد أعوانه أن يكتب إليه ما فحواه أنهما يتفقان ، ولكن الناس يختلفون في فهم المقصود بالاله .

وعاد الطالب يسأل ويطلب التفصيل ، فكتب إليه داروين نفسه في هذه المرة وقال له إنه لا يرى دليلا على الوحي وإن الايمان بالبعث متروك لكل من يشاء أن يتخذ له فيه معتقداً بين المحتملات المتضاربة » .

وآخر ما عندنا من آرائه في هذا الموضوع خطاب أرسله إلى جراهام صاحب كتاب عقيدة العلم[1] كتبه سنة ١٨٨١ وقال فيه : « انك عبرت عن عقيدتي الباطنة . . . ان الكون لم ينجم عن مصادفة ؛ ثم عاد يتساءل : ما قيمة هذه

---

(١) Creed of Science

العقيدة في إثبات حقيقتها ؟

***

والمهم في هذا الصدد أن صاحبي مذهب التطور كما ذاع في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم يستندا إليه في انكار العقيدة الدينية ، ولم يزعما أنه يفسر سر الحياة أو سر الكون ، وأحدهما ـ وهو والاس ـ كان مؤمناً بالله وبحكمته في مخلوقاته ، والآخر ـ وهو داروين ـ كان يأبى أن يوصف بالإلحاد ، ويحسب نفسه أحياناً « ربانياً » أي منكراً للمصادفة ومرجحاً لعقيدة الربوبية ، ويؤكد إلى آخر أيامه أن الاستدلال بمذهب التطور على إنكار الاله خطأ كبير وادعاء لا سند له من العلم ولا من التفكير الأمين .

وقد مضى على آخر ما كتبه داروين في مسألة العقيدة ثلاث وخمسون سنة وشاع مذهب التطور في كل بيئة علمية ، وأراد العالم اللاهوتي درووبرج (Drawb ـ ridge ـ) سنة ١٩٣٢ أن يعيد الأسئلة التي وجهت إلى داروين في حياته ويوجهها هذه المرة إلى علماء الجمعية الملكية ، وهم أكبر العلماء المشهود لهم بالمكانة الملحوظة في بلادهم وغير بلادهم ، ومنهم مختصون بالكيميا ومختصون بالطبيعيات ومختصون بالرياضيات ومختصون بعلم الحياة أو بعلم الحيوان ، فسألهم : هل ترون أن تصديق مذهب التطور يوافق التصديق بوجود الله ؟

فأجاب بالايجاب مائة واثنان وأربعون من المائتين الذين أرسلوا ردودهم ، وأجاب اثنان وخمسون مترددين ، وأجاب ستة بالنفي قائلين إن الاعتقادين لا يتفقان .

وإذا قوبلت وجهة النظر العلمية بوجهة النظر الدينية في القرن العشرين لم تختلف الوجهتان في هذا المعنى .

ولا نريد بذلك أن المتدينين يقررون صحة مذهب التطور على علاته ، ولكننا نريد أنهم يقررون أن تصديقه لا يناقض التصديق بوجود الله ، فلا يلزم عندهم أن يكفر بالدين كل من قال بتسلسل الأنواع الحية من أصل واحد أو بضعة أصول ، ومنهم من يعتبر العوامل الطبيعية التي فعلت فعلها في هذا التسلسل آية من آيات التدبير والتنظيم .

وقد جاء في الموسوعة الكاثوليكية في مادة الخلـق (Creation) أن حقائـق العلم وحقائق الوحي في هذا الموضوع لا تتناقضان .

وقال اللاهوتيون أصحاب كتاب العلم وما فوق الطبيعة (Science and the Super Natural) إن العلل الثانوية التي تبدو في أعمال الطبيعة لا تبطل العلة الأولى التي تنتهي إليها جميع العلل وتقف عندها جميع المقاصد والغايات .

وقال اللاهوتي اليسوعي الأب نابرباور (Knaberbauer) فيما روته عنه الموسوعة الكاثوليكية : « إن اصول الاعتقاد التي اشتمل عليها سفر التكوين تبقى ثابتة غير ممسوسة ولو فسرنا الأحوال التي نشأت فيها الأنواع المختلفة وفاقاً لقواعد التطور » .

ونخلص مما تقدم إلى بيان الفرق بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين في موقف العلـم من الديـن حول مذهـب التطـور او مذهـب دارويـن والآراء الداروينية على اختلافها .

فالنشوئيون في القرن العشرين لا يستندون إلى التطور في إنكار الدين وإثبات التعطيل والالحاد ، ومن كان منهم معطلا منكراً فليس له سند مسلم من مذهب داروين ، ولا من كلام داروين نفسه عن عقائده وترجيحاته .

والدينيون في القرن العشرين لا يقيمـون أصول الديـن حجـة على بطـلان مذهب التطور ، ولا يقولون بالتناقض بين الايمان والعلم في هذا الباب .

وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علما قاطعاً مفروغاً من أصوله وفروعه ،وأكبر انصاره لا يدعي له أكثر من انه صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته ، ويجوز بعد ذلك أن يكون التطور قد حصـل في جهات متعددة لا في جهة واحدة وأن يكون ملازماً للارتقاء حيناً ومقارناً للنكسة حيناً آخر ، وإن كانت شواهد الارتقاء أكثر من ظواهر النكسات .

وخفت اليوم تلك الدفعة الأولى من جانب النشوئيـين وجانـب الدينيـين ، فتقاربت شقة العلم وشقة العقيـدة في أمـر الخلـق والتطـور ، وجـاء القـرن العشرون بعد القرن التاسع عشر بنظرة جديدة في هذه المسألة التي اوشكت أن تغطي على مسألة دوران الأرض ومسألة القوانين الطبيعية في دعواها الأولى حيال العقائد الدينية ، فان لم يكن مذهب التطور آية من آيات العقيدة فليس هو على التحقيق برهاناً على بطلانها ، وثبت اليوم أن الذين حاربوا الدين باسم التطور

والذين حاربوا التطور باسم الدين كلهم في الخطأ والادعاء سواء .

وربما كان لسخف الكبرياء نصيب كنصيب الجهل في مقاومة القول بالتطور ، فان الأكثرين أنفوا ان يكون آباؤهم واجدادهم قردة ، وظنوا أن تصديق التطور يوجب هذا النسب لا محالة على كل فرد من أفراد السلالة الآدمية .

ولا مسوغ لهذا السخف اليوم ان كان للسخف مسوغ في حين من الأحيان ، فليس باللازم في مذهب التطور أن ينتمي كل إنسان حديث إلى قرد عريق ، وما من نشوئي إلا وهو يلتمس حلقة بين النوعين ، ويجعل للانسان نسباً مستقلا في أصله عن غيره من الأنواع العليا بين الحيوان .

المقارنة بين الأديان

لما كشفت أمريكا الوسطى ووجد الأسبان فيها أقواماً يتعبدون على أديان لا يعرفونها ـ خف القساوسة والمبشرون إلى البلاد المكشوفة ليبحثوا في أديانهم ويحولوا أقوامها إلى العقيدة المسيحية ، فأدهشهم بعد قليل أن يروا لهم شعائر كشعائر الأديان المعهودة في الدنيا القديمة ، وأنهم سمعوا منهم كلاماً عن التكفير والخلاص ومناسك الايمان على شيء من الشبه بنظائره في الديانة المسيحية ، وحاروا في تعليل تلك المشابهة ، فخطر لبعضهم أنها بقية من بشارة قديمة نسيت واندثرت وتخلفت منها موروثاتها الممسوخة ، وخطر لغيرهم أن الشيطان يزيف لهم الباطل بالحق والحق بالباطل ليخدعهم عن الدين القيم ويمزج لهم الخبيث بالطيب فيصرفهم عن الطيب كله .

وكان هذا التفسير كافياً لفهم أسرار المشابهة بين الأديان في الدنيا القديمة والأديان في الدنيا الحديثة التي رجح عندهم أنها كشفت لأول مرة ، وظل هذا التفسير كافياً من أوائل القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم اتسعت كشوف الرحالين وتتابعت أخبار القبائل والسلالات التي تتشابه بينها شعائر الأديان والعبادات ، وتقدم علم الأجناس البشرية ومعه علم المقارنة بين أديانها وعقائدها فثبت أن التشابه بينها في هذه الأطوار الدينية أعم وأوسع مما خطر لرجال الدين من الأسبان عند كشف القارة الأمريكية ، بل ثبت هذا التشابه بين السلالات التي لا صلة بينها ولم يعرف أنها اتصلت قبل القرن الثامن عشر بأزمنة متطاولة ، فاحتاج الأمر إلى تفسير غير ذلك التفسير عند المتدينين والمعتقدين . اما المنكرون الذين كانوا قد برزوا وتكاثروا في أواخر

القرن الثامن عشر فقد كانوا يقررون أن الأديان كلها من وضع البشر فاتخذوا من هذه المشابهات دليلا على صحة ما قرروه .

وقد كانت الصدمة قوية لأنصار الدين ، لأن القرن الثامن عشر على الخصوص قيض لهم مشاكل كثيرة لم يفرغوا منها وأثار في نفوس الأجيال الجديدة شكوكاً تعالجها الكنائس واحدة بعد واحدة ، ولا تنتهي من علاجها . فلما اسفرت المقابلة بين الأديان والعبادات عن تلك المشابهة المتكررة كانت ضربة قوية محرجة بعد ضربات مثلها في القوة والاحراج ، كادت أن تخذل عوامل الايمان والاعتقاد أمام عوامل الشك والانكار .

ولم يحرج بهذه الشكوك جميع المعتقدين والمؤمنين ، فان الأوزبيين الذين خرجوا على سلطان الكنيسة الرومانية قد ظهر منهم أناس يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالكتب ولا بالشعائر الكنسية ، وتسمت منهم طائفة بالربانيين (De-ists) من كلمة ديوس بمعنى الرب أو الاله ، وسموا دينهم بدين الطبيعة تمييزاً له من دين الكنيسة ، واشتهر من هؤلاء في البلاد الانجليزية لورد هربرت شربري (Cherbury) المتوفى قبيل منتصف القرن السابع عشر فدعا إلى دين (طبيعي) يقوم على أركان خمسة : هي الايمان بالله والعبادة والفضيلة والتوبة واليوم الآخر ، ثم تلاه أنتوني كولنس (Collins) الذي يعتبره الكثيرون استاذا لفولتير وبنيامين فرنكلين في حرية الفكر ويحسبون كتابه « محاضرة في الحرية الفكرية » (Discourse on Freethinking) انجيل هذه النحلة ، ثم تلاه تندال (Tindal) فألف كتابه الذي جعل عنوانه أن « المسيحية قديمة كقدم الخليقة » ليثبت به أن الايمان سابق للكنائس والمذاهب (١٧٣٠) .

وبعد ظهور الربانيين بقليل ظهرت طائفة أخرى تسمت باسم الإلهيين (Th-eists) ولا خلاف بين الاسمين في اللغة لأن كلمة ثيوس (Theos) مرادفة لكلمة ديوس (Deus) بمعنى الاله ، وإنما الخلاف بينهما في الايمان بعلاقة الانسان بالله . فالآخرون يقولون بعمل الله المتواصل في تدبير الكون ، والأولون يقولون بأن الله قد أحكم خلق الكون ووكله إلى شريعته وقدره ، ومنهم من يؤمن باله كإله أرسطو يتحرك الكون نحوه بباعث الشوق إلى الكمال ولا يقبل كمال الله أن يتصل بالكون غير هذا الاتصال .

وظهر غير هاتين الطائفتين دعاة ومفكرون لا ينتمون إلى طائفة ولا يعترفون

بالأديان ولكنهم يدينون بالاله والفضيلة ويسمون انفسهم أحرار الفكر او احرار العقيدة .

فهؤلاء الربانيون والالهيون لم تحرجهم المشابهة بين الأديان والعبادات لأنهم آمنوا بأن الله يوحي هدايته إلى الانسان من كل طريق وأن الناس يتشابهون في التعقل وطلب الهداية وان تفاوتوا في ارتقاء العقول .

وتبين بعد الأخذ والرد في مقارنات الأديان أنها لم تحرج من رجال الكنيسة أنفسهم غير المتحرجين المتشددين في تحرجهم ، لأن الفقهاء المتبصرين منهم سلموا أن الانسان يهتدي إلى الله بالوحي وبغير الوحي ، وإن كان الوحي أهدى وأفضل . وكثر فيهم من يقول كما قال صاحب « مقالات في البناء » المتقدم ذكره ان الشعور الديني قد يكون طبيعياً وقد يرجع إلى ما فوق الطبيعة ، ومناط الفرق بينهما هو الايمان باله خالق مخلص ، وهو الله .

وانجلى النزاع الذي اثارته المقارنة بين الأديان عن هذا الموقف في اوائل القرن العشرين .

فالمتدينون المتحرجون يقبلونه على أنه أثبت وجود أديان لم تكن متلقاة من طريق الوحي الالهي ، ولكنه لم ينف وجود أديان اخرى موحاة من الله .

بل ذهب أناس من المتدينين المتحرجين إلى القول بأن العبادات جميعاً وحي من الله ، ولكنه وحي قديم شابته الخرافات من فعل السحرة والكهان ، فانحرفت الأمم البدائية في جهالاتها عن طريق ذلك الوحي القديم .

أما غير هؤلاء المتدينين المتحرجين فالمقارنة بين الأديان والعبادات قد زودت فئة كبيرة منهم بالحجة القوية على ضرورة التدين وأنه بديهة مركبة في طبيعة البشر ، ولولا ذلك لما أجمعوا على التدين متفرقين في أرجاء الأرض مع اختلاف الأزمان وتفاوت الحضارات وتباعد الثقافات وطبقات التفكير .

ويصدق على المقارنة بين الأديان ما صدق على دوران الأرض والقوانين الطبيعية ومذهب التطور في مسألة العقيدة ، وقد رأينا أنها شككت العقول زمناً في أصول الاعتقاد ثم أصبحت في القرن العشرين سنداً لمن يؤثرون الاعتقاد ويشككون في الانكار .

مشكلة الشر

وهي مشكلة المشاكل في جميع العصور ، وليس البحث فيها مقصوراً على القرن العشرين ، ولا نظن أن عصراً من العصور يأتي غداً دون أن تعرض فيه هذه المشكلة على وجه من الوجوه ، وأن يدور فيه السؤال والجواب على محور قديم جديد .

والقرن العشرون لم يطرأ فيه طارىء من الشر لم يكن معروفاً قبلا إلى أبعد العصور التي تعيها ذاكرة الانسان ، إلا أن يكون ذلك الطارىء من قبل الضخامة والكثرة لا من قبل الشر في جوهره وطبيعته . فالناس قد عرفوا الحروب والفتن ، وعرفوا الأوبئة والعوارض المتكررة ، وعرفوا المظالم وضروب العدوان ، وقد ثقل منها ما ثقل في القرن العشرين وخف منها ما خف ، ان كان هناك اختلاف في أثقال الشر وجرائره . أما أن القرن العشرين قد عرف نوعاً من الشر لم يكن معهوداً فيما مضى فذلك ما لم يزعمه أحد ممن يتحدثون عن شروره ، ومنها الحروب العالمية والأسلحة الجائحة ، وهي جديدة في قوة فتكها ، ولكن الفتك في ذاته ليس بالشيء الجديد .

إن القرن العشرين قد أضاف إلى هذه المشكلة أسبابه وأساليبه ، ولم يضف إليها شراً جديداً بل أضاف إليها أسباباً للسؤال وأساليب للجواب ، ولا يزال الباب مفتوحاً للسائل والمجيب .

ومن آفات القرن العشرين أن أسباب الشكوى فيه أكثر وأعظم من جهتين لا من جهة واحدة .

فهي أكثر وأعظم لأن حروبه الطاحنة شملت الكرة الأرضية وعمت أقوياءها وضعفاءها ، وكادت أن تتلاحق من أوله إلى ما بعد منتصفه ، ويخشى في كل سنة أن تستأنف الحروب العالمية طغيانها وفتكها ، بغير أمل في السلام والأمان .

وهي أكثر وأعظم لأن النفوس فيه تدعي الحقوق وتلح في المحاسبة ، فلم يكن مستغرباً فيما مضى أن يداس حق إنسان أو جماعات من الناس ، ولم يكن هنالك محاسبة لأصحاب السلطان على الشرور والمظالم ، فلما علم الناس في القرن العشرين أن لهم حقوقاً وأن لهم أن يحاسبوا المعتدين على تلك الحقوق ـ تعاظمت شكواهم من كل كبيرة وصغيرة ، وتعودوا الشكوى من شرور الحياة كما تعودوا الشكوى من شرور ذوي السلطان .

ولقد كان الناس قديماً يسألون : من أين يأتي الشر إلى العالم والله خالقه رحيم قدير ؟

وكانوا يسلمون الجواب ولا يلحون في الحساب ، وكان هذا دأبهم في محاسبة الحاكمين من بني آدم ، فلا جرم يقبلون من الحاكم الخالق ما يقبلونه من الحاكم المخلوق .

فلما أقبل القرن العشرون بحروبه وأسلحته ، أقبل بدعاواه وحقوقه ولجاجته في المحاسبة والاعتراض . فاذا بمشكلة الشر تتفاقم فيه من جانبين كما أسلفنا : جانب الضخامة في الشرور ، وجانب اللجاجة في المحاسبة والادعاء .

وهذا هو الجديد على المشكلة في القرن العشرين ، فالسائلون فيه أكثر سؤالا والمجيبون فيه ليسوا بأقدر على الجواب من سابقيهم في القرون الغابرة ، سواء بين الأوربيين او غير الأوربيين .

وقد أجيب السؤال كثيراً على ألسنة المفكرين من أمم الغرب منذ نهضوا للسؤال واستشرفوا للجواب ، أو منذ استقلوا بالفهم والبحث ولم يقنعوا بالتقليد والترديد .

فمن الحلول التي اختارها بعض المفكرين لعلاج مشكلة الشر أن الشر وهم يزول ، ولا بقاء له مع الخير .

ومنها أن الشر لا وجود له بذاته ، وإنما هو غياب الخير أو نقصه . فليس الظلام شيئاً غير احتجاب النور ، وليس الشر شيئاً غير انقطاع الخير .

ومنها أن الشر تربية نافعة لبني آدم ، وأن تجارب الأيام قد بينت للناس أن الشدة انفع لهم من الرخاء في كثير من الأحيان .

ومنها أن الشر ضرورة ناجمة من التقاء الخيرات الكثيرة ، فوجود النور مثلا ممكن ، ولكنه لابد من النور والظلام والشروق والغروب حين توجد الكواكب وتوجد معها المدارات والأفلاك ، ويوجد الليل والنهار والشتاء والصيف ، والجدب والخصب ، أو توجد مع النور خيرات غير النور .

ومنها أن الشر خير يوضع في غير موضعه . ومن يعترض على أسباب الشر كمن يعترض على خلق الماء اعتراضاً على فيضان الأنهار ، أو كمن يعترض على خلق الجرثومة الحية التي تتألف منها الأجسام اعتراضاً على جراثيم الوباء .

ومنها أن حرية الارادة نعمة إلهية ، وأن حرية الارادة لا تكون إلا في عالم يحدث فيه الخير والشر ، وينقاد فيه الانسان إلى العمل الصالح غير مكره عليه .

ومنها أن الشر هو تمام الخير الذي يوجد معه وينعدم بانعدامه ، فلا معنى للرحمة بغير الألم ، ولا معنى للشجاعة بغير الخطر ، ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصفح بغير الاساءة ، ولا معنى للنجدة بغير الظلم ، ولا معنى للهمة والسعي بغير الحذر من مكروه والشوق إلى مأمول .

ومنها أن الفروق بين الأشياء لازمة ، ولولاها لم يوجد شيء مستقل عن شيء ، ومع وجود الفروق لا مناص من الشكوى ، ومن الطلب والفوات .

* * *

هل جرى في القرن العشرين من جديد في هذه الحلول أو هذه المعاذير ؟

كلا من حيث الجوهر ، ونعم من حيث التطبيقات والتفصيلات .

فالحروب الكبرى في عصر الدراسات والمقارنات قد نبهت أذهان المفكرين إلى البحث في عواقبها وما فيها من المنفعة والضرر ، وقد وسعت ميادين بحوثهم حتى شملت كل ما وعاه التاريخ من الحروب الغابرة والحاضرة ، ورصدت كل ما يعزى إليها من المضار والمنافع ، سواء منها ما يجمع عليه الباحثون وما يختلفون فيه .

وزبدة هذه الدراسات والمقارنات أن الحروب أفادت كما أضرت ووصلت كما

قطعت ، وقد يكون النفع فيها أكبر من الضرر والصلة فيها أبقى من القطيعة .

فأنفع المخترعات والمعارف العلمية قد جاء عرضاً في طريق التنافس على صنع السلاح الفعال ، ولولا حروب القرن العشرين لما بلغت الطيارة مبلغها من الاتقان ، ولما تضافرت الجهود على فلق الذرة واستكناه أسرار المادة وخفايا الطبيعة .

وقد تعاقبت شكوى الحكماء وأنصار السلم من حروب الفرس واليونان وحروب الصليبيين وحروب العثمانيين وحروب الاستعمار ، ولولاها لبقيت كل أمة في عزلتها أو لبقيت القارة الأمريكية كلها حيث كانت مجهولة على سطح الكرة الأرضية .

وإذا كانت للحروب فائدة تقترن بالضرر ، وهو كثرة الموت فيها ، فهذا الضرر مفروغ منه ، لأن حياة الكائن المحدود تنتهي بالموت لا محالة ، ولا فرق بين موت الألوف معاً وموت الآحاد متفرقين ، فهو ضرر واقع على كل حال . ولكن منافع الحروب ليست بالمنافع الواقعة في جميع الأحوال .

في هذه المعاذير شيء من الجدة ينسب إلى القرن العشرين .

وقد ينسب إلى القرن العشرين أيضاً شيء من الجدة في فهم المسؤولية المطلقة والمسؤولية المقيدة ، يمتزج أحياناً بفهم القضاء والقدر وحرية الارادة ، وهما في الصميم من مشكلة الشر كما تعرض للعقول في العصر الحديث .

فالناس في هذا العصر قد تعودوا الكلام على مسؤولية المحكومين كما تعودوا الكلام على مسؤولية الحاكمين ، فالحكومة مسؤولة والأمة مسؤولة ، والراعي مسؤول والرعايا مسؤولون .

هذا خاطر أوشك أن يزحف من الوعي الظاهر إلى الوعي الباطن ، فعوّد العقول أن تحمل على المخلوقات بعض المسؤولية ولا تلقي المسؤولية المطلقة على القدر .

وهذا الخاطر من شأنه كذلك أن يكفكف من شهوة المحاسبة ولجاجة الشكوى ، فلا تجري المحاسبة في مجرى واحد ، ولا يزال العقل الحائر يبحث عن المحكومين المسؤولين كما يبحث عن الحكومة المسؤولة .

وكل أولئك خليق أن يحسب من جديد القرن العشرين في التفصيلات

والتطبيقات ، وليس هو بالجديد كل الجدة في جوهره الأصيل ، وهو كالشر قديم .

ومن التفصيلات الجديدة ـ غير ما تقدم ـ أسلوب المفكرين العشرينيين في عرض القضايا العقلية على نمط علمي يخاطب الناس خطاب إنسان لانسان ، ويجتنب غاية الاجتناب خطاب السلطة والكهانة .

وتوضيح هذا النمط بالنماذج المنقولة أقرب من توضيحه بالوصف والإشارة ، فان النماذج تحيط بنمط الفكر وانماط المفكرين في وقت واحد ، والمضاهاة هي أوجز السبل إلى التفرقة بينها وبين انماط التفكير قبل القرن العشرين .

قال الأستاذ لويس (Lewis) صاحب كتاب مشكلة الألم (The Problem of Pain) .

« إن القدرة على كل شيء معناها القدرة على ما هو في أساسه ممكن وليس معناها القدرة على ما هو في أساسه مستحيل . انك تستطيع أن تنسب المعجزات إلى القادر على كل شيء ولكنك لا تستطيع أن تنسب إليه الهراء . . . فاذا بدا لك أن تقول إن الله قادر على أن يمنح الانسان حرية الارادة ويحرمه إياها في وقت واحد فانك لم تفلح في إسناد صفة قط إلى الله ، ووحي الكلمات التي لا معنى لها لن يصبح له معنى لمجرد قولك معه : هل يستطيع الاله ؟ ويبقى صحيحاً أن كل شيء ممكن في قدرة الله ، لأن الاستحالات معدومات وليست بالأشياء الموجودة أو التي تقبل الوجود » .

وقال الأستاذ سيدني دارك من كتابه : الدين في انجلترا الغد (Religion in the England of To-morrow) .

« نحن نعيش بين العجائب والخفايا ، وبغير العجائب والخفايا تصبح الحياة ثقيلة جد مملولة ، الحق أن قيمة الدين العليا في عصر لا يفرط في المغالاة بعلمه المكتسب هي انه قائم على العجائب والخفايا . . . » وقد كتب جورج سانتسبري (Saintabury) ان حر الفكر المعهود لا يسوّد كتاباً واحداً ولا صفحة واحدة دون أن يقرر ـ أو يبدو أنه يقرر ـ أن ما فوق الطبيعة ينبغي أن يخضع لمقاييس الطبيعة ، وهذا هو التناقض الذي يرفضه كل ذي عقيدة » .

وقال الأستاذ مالكولم جرانت في كتابه « حجة جديدة في الكلام عن الله والخلود A New Argument for God and Survival » .

« نبدأ بفكرة الاله الرحيم فيتحدانا الكون الناقص ، ولدينا أمام هذا التحدي ثلاثة مسالك مفتوحة : إنكار وجود الله كما فعل المغلظون في الانكار ، أو ننكر قدرته المطلقة على أحوال الطبيعة كما فعل ميل ، أو ننكر صحة الشر كما فعلت مسز إدي .

« هذه المسالك الثلاثة لا تقنع ، فليس أمامنا إذن إلا أن نقول مع هيوم إن الله بمعزل عن سعادة الانسان وشقائه ، أو نعرف أسباباً مقنعة للايمان بأن الشقاء الذي في الكون واعتقاد وجود الله لا يتناقضان .

« والآن نرى أن الآلام والنقائص والشرور بعض السمات الملازمة للوجود ولكن جوابنا للذين يحسبونها مانعة لوجود إله كامل أنهم يتجاهلون قيمة الشر ، ويبالغون في قيمة السعادة التي تخلو من الألم ، ومذهبهم هو مذهب القائلين بأن الرضى هو المثل الأعلى .

« . . . . . ومن الخطأ أن نعلق كل قيمة الوجود على مقدار المتعة فيه . . . فان إنساناً لا خلاق له . . . قد يجد من المتعة مالا يجده نيوتن أو فنيلون ، وما كانت المتعة تأتي على الدوام في قطار الصفات المتفق بين الناس على أنها قيم غالية . أما دواعي الشقاء فنحن نضعها في مقدارها حين نقول إنها غير قابلة للزيادة . فاذا وقع مليون إنسان وأصيبوا من الوقعة فذاك من حيث شأن الشقاء كوقوع إنسان واحد ، وربما هالنا اتساع مدى الكارثة ولكننا لا ينبغي أن ننسى أن في الانسان قوةً تعمل على محوها كقوة الرغبة البالغة في الحياة وتلبية أحكام الحاضر الراهن ، ولا حاجة إلى أكثر من رضى لحظة حاضرة لصد الطوفانات التي تتجمع من الأحزان السابقة ، وان عارضاً طفيفاً كيوم ربيع مشرق لينحي المأساة إلى الوراء بعيداً عنا ، ولا يكلفنا أكثر مما فيها من المناقضة الساخرة .

« ولست أريد أن أهوّن من شرور الوجود ، وإنما اريد ان أقول إن الطبيعة تعمل لمحوها ومسحها ، تاركة للإنسان من بعدها موازنة من الرضى والقناعة . . .

« إن تقدير قيمة الوجود إنما يقوم على قيمة الإنسان ، وإذا كانت وطأة الحياة وما فيها من الشر تنزعان إلى تنمية الفكر والخلق ، فالشر والألم لا يغضان من صفة الكرم في الله . ان القسطاس هنا هو القيمة المعنوية وليس المنفعة . وعلينا أن نتبين كرم الله من التدبير الذي نتبعه وراء الشر والألم ، لا من الشرور والآلام في ذواتها .

« . . . ولقد يكون سهلا ـ ومن ثم لا يساوي شيئاً كثيراً ـ أن يخلق كون سعيد يحوي أناساً على ارفع حظ من الذكاء ، وفي الشطرنج يدور اللعب على أخذ الملك وهو محاولة تتعب اللاعب الماهر ، ولكنني أنا وأنت نستطيع أن نأخذ الملك ـ ولو كنا نلعب أمام (كبابلنكا) نفسه ـ إذا أغضينا عن قواعد اللعب وخطفنا الملك خطفة واحدة .

« . . . . ويلزمنا أن ننتهي إلى أن الكون ـ بالنظر إلى الله وإلينا ـ يشتمل على قيم تستند كثيراً إلى وجود المصاعب ، ولا توجد هذه المصاعب إلا إذا أجرى الله عمله على قوانين تتحقق بها مشيئته .

« ويلزم بعد هذا أنّ نعرض لمسألة هامة في هذا الصدد ، وهي علاقة خلود الإنسان بالموضوع كله ، فان لم تكن للانسان حياة اخرى فقد يتعذر الايمان باله يعنى بسعادة خلائقه ، وما أكثر الذين يعفون من الشقاء المرهق ولكنهم يقصرون في الذكاء او الخلق أو الخلقة أو الأغراض التي كانوا يحرصون على تحصيلها لو كانت حياتهم مقصورة على أمدها القصير في الدنيا . . . »

***

وقال ايونج (Ewing) مدرس الأخلاق بكامبردج في كتابه عن « مسائل الفلسفة الأساسية Fundamental Questions of Philosophy » :

« يعترض علينا بأن وجود إله قادر كريم يناقض وجود الشر في العالم ، ولكن هذا الاعتراض على أسوأ احتمالاته لا يمكن أن يبطل وجود الله ، لأننا قد نتصور الله محدوداً تحده العقبات التي تحول دون القضاء على الشرور ، غير أن تصور الله كذلك على جميع الصور التي عرضت حتى الآن ليس بالمقبول في العقول المتدينة ولا تسلمه تلك العقول إلا إذا استحال القول بغيره ، بل هو في الواقع يصطدم بالبديهة الدينية ، فلا غرابة إذا اشتدت المحاولات في سبيل حل يوافق الايمان بقدرة الله على كل شيء ، ومن هذه المحاولات أن يعتبر الشر وهماً غير صحيح ، ولكنها محاولة لا تطاق إذا اعتمد أصحابها الجد فيما يقولون . لأنها تناقض أحكامنا على ما نحسه ونتفقده من شعورنا أو تناقض أحكامنا في الأخلاق ، فاذا نحن قلنا إننا في الحقيقة لا نحس الألم الذي ندعي أننا نحسه ولا نقترف الاثم الذي نظن أننا اقترفناه فنحن ننقض أحكام الوجدان والذاكرة ، وإذا نحن قلنا إننا أحسسنا الألم واقترفنا الاثم ولكنهما ليسا من الشر

في الواقع فنحن ننقض أوثق مقررات الأخلاق .

« وأشيع من ذلك وأقل نكراً حل القائلين إنه لابد من شر كثير ليتحقق خير كثير ، وربما لاح أن هذا القول يستتبع الحد من قدرة الله ، لولا أننا نعلم أن الفلاسفة حين وصفوا الله بالقدرة المطلقة لم يقصدوا أن قدرته تتعلق بالنقائض أو تجعل مجموع الاثنين خمسة أو تخلق كائناً هو إنسان وليس بانسان في وقت واحد . ولا ريب أننا إذا عنينا بقدرة الله المطلقة هذا المثال من القدرة وجب أن نسلم أن مشكلة الشر لا تحل على صورة من الصور ، إذ لا يسعنا في هذه الحالة أن ندعي أن خلق الشر سائغ لتحصيل الخير الأعظم ، وفي وسع الله على هذا الفهم أن يمحو الشر ولو كان وجوب الخير متوقفاً عليه . إلا أنه واضح أن هذا الفهم ينقض بعضه بعضاً ، وأن ما يفهم من قدرة الله لا يعني هذا . وانما يعني أنه قادر على غير المتناقضات وأنه لا يحده شيء من غير إرادته .

« وقد قيل إن الانسان إذا وجب أن يكون كائناً ذا فضيلة فهذه الفضيلة تستلزم ألا يكون مسخراً . . . فاذا كان الله لا يمنع الناس أن يذنبوا إلا بسلب إرادتهم فقد بطل خير ما فيهم .

« . . . . وعلينا إذ نتناول الكلام على الشرور أن نرجع إلى القول بأن وقوع الشرور ـ لا مجرد إنكارها ـ يسوغه أنه ضرورة لا محيد عنها لوجود الخيرات ، وهذا القول بالنسبة إلى القدري هو الحل الوحيد لجميع الشرور .

« وانها لحقيقة واقعة أن ثمة خيرات . . . لا تأتي بغير محصول الشر ، فكيف تتسنى الفضيلة مثلا بغير المغريات والعوائق ومن ثم بغير الشر ولو في صورة الألم والعرقلة ؟ وكيف توجد شجاعة بغير ألم أو مشقة أوخطر ؟ وكيف يوجد الحب في أرفع حالاته التي نعرفها ما لم يكن هنالك داعية للعطف والاشفاق والتضحية . . . لابد من شر نغلبه كي نحصل على فضيلة الغلبة عليه ، وربما كان هناك ضروب أخرى من الحب والفضيلة كالتي نتخيل أن الكائنات العليا التي تعلو على طوق الانسان متصفة بها ولا تنطوي على شر من الشرور ، ولكنها ـ إذا صح تخيلنا ـ نوع آخر غير حبنا وفضيلتنا ، وكلما تعددت أنواع الفضائل كان ذلك أفضل وأجمل .

« . . . . ومن اللازم أن نضيف إلى ما تقدم ـ نظراً لتفاقم الشر وانتشاره في العالم ـ أن حلا كهذا لمشكلة الشر لا يمكن أن يقبل أقل قبول مالم يكن للإنسان بقاء بعد موت جسده ، واننا إذا وقفنا عند هذه الحياة وحدها فمن غير المعقول

أن تكون الدنيا خلقة إله كامل قادر على كل شيء . وان هذا لحجةٌ قوية تؤيد الحياة الأخرى إذا سلمنا مذهب الربانيين ، ولست ارى وجهاً ما للاعتراض من الوجهة المنطقية على تقدير تلك الحياة الأخرى ، وحجة تضاف إلى هذه الحجة أننا متى تصورنا الله لطيفاً رحيماً تصورناه لا محالة محباً (للشخصيات) التي يخلقها ، وإذا أحبها فكيف يسمح بفنائها ؟

« إن الشرور التي في هذا العالم لا ريب مفزعة بفرط كثرتها وانتشارها ، ولكننا لا نستطيع أن نعزف حقاً مقدار الشرور التي لا بد منها لتحصيل الخير الأعظم ، فان أعظم فضائل الأخلاق إنما تتحقق عند مناضلة أعظم الآفات .

« . . . وهناك قضايا غير قضية الشر تتصل بالبحث عن الله مما قد تصدى الالهيون والفلاسفة قديماً للنظر فيه ، فينبغي لهذا النظر أن نشجعه ونحض عليه لا أن نبخسه ونصد عنه . إذ ليس من أعمال الانسان ما هو أنبل من تحصيل العلم بحقيقة الحقائق جهد المستطاع ، إلا أن الالهي الذي ينظر هذا النظر مطلوب منه أن يذكر على الدوام أن الله أعظم كثيراً جداً من كل صورة نحن قادرون على إدراكها . . »

* * *

وعلى هذا النحو معظم الحلول التي يرجحها أوساط المفكرين في القرن العشرين ، ونريد بأوساط المفكرين أولئك الذين يدرسون ويتأملون ويقابلون بين الآراء ثم يجتهدون في تنسيق حل يستريحون إليه بتفكيرهم وشعورهم ، فهم آحاد مستقلون يتخيرون الآراء ولا ينخرطون في سلك مذهب يتشيعون له مقلدين أو متعصبين .

وليس في هذه النماذج التي أجملناها شيء مبتكر لم يسمع قبل القرن العشرين ، وما كان لنا أن نترقب شيئاً مبتكراً كل الابتكار في مشكلة عريقة كمشكلة الشر التي خامرت كل فكر وساورت كل نفس وتعلقت بكل معتقد ، فغاية ما يستحدثه المفكرون في أمثال هذه المشكلات أن يعرضوها على مناهج عصورهم وأن يصبغوها بصبغة عقولهم ، وهذا الذي صنعه مفكرو القرن العشرين إذ عرضوا لها من ناحيتها الفلسفية ، فانهم أطلقوها من صبغة الأوامر الحتمية (Dogma) التي اتسمت بها فلسفة الدين في القرون الماضية ، وانهم تخاطبوا بها كما يتخاطب الانسان والانسان بمعزل عن البيعة والصومعة ،

وانهم راجعوا من سبقهم فانتفعوا بفرصة المراجعة والانتقاء .

وجديد المسألة من الوجهة الشعورية في هذا العصر هو كما أسلفنا يدور على وجهة الشعور لا على أصل الشعور . فقد كانت شرور الحروب العالمية أوسع الشرور ميداناً وأشدها إثارة للسخط والتساؤل ، مع تعود الناس في هذا العصر أن يتساءلوا عن كل أمر جلل وأن يطلبوا الاقناع الذي لا تحكم فيه .

ولم ينصرف هذا السخط دفعة واحدة إلى التمرد والانكار ، فليس من طبيعة العالم الانساني أن يصرفه السخط إلى ناحية واحدة ، وبخاصة حين يحيط السخط بأعماق الضمير وآفاق النظر ، وتراث العصور الماضية ورجاء العصور المقبلة . وقد استخلص الباحثون من استقراء أحوال الحروب انها تضر وتنفع وتقطع وتصل ، وأن أضرارها لا تزيد شيئاً على طبيعة الشر وأن منافعها تأتي بأشياء لم تأت من غيرها .

هذا « رد فعل » الحروب في بحث العقول .

أما « رد فعلها » في جانب الشعور فلم يذهب في وجهة واحدة فيما هو من شؤون العقيدة ، إلا أن تكون تلك الوجهة الواحدة هي الاجماع - أو ما يقرب من الاجماع - على الشعور بالحاجة إلى ثقة الايمان .

فمن المجمع عليه بين الناس أن ثقة الايمان مطلوبة ، وأن أشد الطلب لها إنما يكون عند تفاقم الشعور بالمصيبة .

وقد اتفق أبناء القرن العشرين على القلق الذي يلجيء النفس البشرية إلى طلب الايمان .

لكنهم افترقوا في امكان الايمان في هذا الزمان .

فمنهم من يرى أنه مطلوب غير ممكن ، ثم يعوض العقيدة الدينية بما يشبهها من العقائد الشاملة ، فيهبط بها إلى الأرض غير متطلع إلى السماء .

ومنهم من يرى أن الايمان ممكن لانه مطلوب ، وما دام مطلوباً فلا منصرف عنه ولا بد من الوصول إليه ، وبرهانه على صدق الايمان أنه حاجة من حاجات الطبيعة ، وأن الطبيعة لا تعطيه خالصاً قوياً إلا إذا ارتفع إلى ما فوق الطبيعة ، وجاوز الأرض إلى السماء ، أو جاوز الواقع المشهود إلى الغيب المحجوب .

وإخالنا نجمل مشكلة الشر في القرن العشرين إجمالا كافياً حين نقول إن

القرن العشرين قد تركها حيث هي من الوجهة الفكرية الفلسفية . أما من الوجهة الشعورية فقد كان الشعور بأن شرور العالم لا تطاق صدمة من جانب ودفعة من جانب آخر . ولم تضطرب النفس الإنسانية قط بالشعور الذي لا يطاق إلا التمست لها ملاذاً فوق طاقتها وقاربت بذلك ملاذ الايمان .

وبعد ، فليفرض من شاء ان مشكلة الشر عقدة باقية ، فماذا نريد ؟ أنريد كونا كهذا الكون الهائل لا عقدة فيه ولا ينطوي على سر مجهول وراء حجاب .

ان كان هذا مرادنا فليس بالعجيب ألا نجاب اليه . . .

محصل وتمهيد

محصل الفصول المتقدمة أن أسباب الانكار في القرون الماضية فقدت قوتها في القرن العشرين .

وأسباب الانكار الكبرى منذ القرن السادس عشر أو السابع عشر هي مسألة دوران الأرض ، ومسألة القوانين المادية ، ومسألة التطور ، ومسألة الأديان المقارنة ، ومسألة الشر وعلاقتها بالقدرة الالهية .

فهذه المسائل كانت في نشأتها حجة على بطلان العقائد التي واجهتها .

ولكنها قد صارت في القرن العشرين إلى موقف غير موقفها في القرون الماضية ، فليس الانكار الذي يقوم عليها اليوم حاسم الحجة ولا موصداً لأبواب المناقشة والسؤال .

بل تنقلت هذه الأسباب بين مباحث العلم والعقل حتى صلحت للشك في الانكار ، بعد أن كانت فيما غبر مصوبة كل قوتها إلى الشك في الايمان .

من دلائل التدبير الالهي اليوم أن الأرض سيارة حول الشمس ، وليست مركزاً تدور حوله السيارات والشموس .

ومن القول الجزاف اليوم أن يقال إن محسوسات المادة هي وحدها الوجود الحقيقي وأن المتكلمين عن أصول المادة يأتون بشيء أثبت من الكلام عن الأرواح والمجردات .

ويعود النشوئيون اليوم فلا يجدون في مذهب النشوء ما يعطل الإيمان ، ولا

ينسبون أن المذهب كله ينسب إلى عالم مؤمن وعالم آخر يرفض الاعتماد على المصادفة التي لا تعقل في تفسير ظواهر الكون والحياة .

أما المقارنة بين الأديان فالذين اتخذوها دليلا على أصالة الدين أكثر عدداً وأقوى حجة ممن يبطلون بها الأديان .

وأما مشكلة الشر ففيها اليوم ما يحفز النفوس إلى الايمان ويزعجها كلما ركنت إلى التعطيل والانكار ، والمنكرون الذين أغلقوا الباب من جرائها أقل من المنكرين الذين تركوه مفتوحا ولم يروا من أمانة العلم والبحث أن يغلقوه ويصروا على إغلاقه ، وهم لايعلمون ما يأتي به الغيب .

هذا هو محصل الأسباب التي شككت العقول في القرون الماضية ، وخلاصة ما آلت إليه في القرن العشرين .

وهذا المحصل هو التمهيد الواجب لبيان العقائد التي اختارها لانفسهم أناس من مفكري القرن العشرين في مختلف مذاهب التفكير ، منهم علماء وأدباء وفلاسفة وأخلاقيون ، وكلهم من المطلعين على زبدة المعلومات التي اوجبت الشك قديماً أو توجبه في العصر الحديث .

وغني عن القول ان عقائدهم التي اختاروها لأنفسهم غير العقائد التي اصطدمت بالشكوك في العصور الماضية ، وهم لا يريدون أن تصطدم بالشكوك التي يعرفونها حيث كانت ، وليس يفهم من ذلك أنها عقائد أقوى وأمتن في نفوس أصحابها ، إذ لا ننسى أن العقيدة التي يخلقها الانسان لا تبلغ من القوة في نفسه مبلغ العقيدة التي تستولي عليه وتهيمن على وجدانه ، ولكنها في غيبة العقيدة المهيمنة هي حيلته التي لا حيلة له غيرها حيث يرفض الانكار والتعطيل .

أو هي على التحقيق أرجح في عقولهم وضمائرهم من الانكار والتعطيل .

عقائد العلماء

من العلماء من عقيدته تقرير وتوكيد ، ومنهم من عقيدته ترجيح ورغبة ، ومنهم من عقيدته استعداد وانتظار ، وحصة هؤلاء في تأييد العقيدة غير قليلة ، لأنها بمثابة « فتوى علمية » بأن العلوم التي تفرغوا لها وبلغوا مبلغ الثقة فيها لا تعارض الايمان في أساسه ، ولا تمنع صاحبها أن يفتح صدره وضميره لعالم الغيب ، فليس عالم الشهادة عندهم بالعالم الوحيد .

ولا نعرف من علماء القرن العشرين من هو أبعد شوطاً في الاعتقاد من الدكتور ألكسس كاريل (Alexis Carrel) الطبيب المتخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء ، والمشتغل بالطب علماً وجراحة واشرافا على معاهد العلاج والنظريات العلاجية ، وصاحب جائزة نوبل سنة ١٩١٢ ومدير معهد الدراسات الانسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية .

وإذا عدت بواعث القلق النفساني في القرن العشرين لم يكن كاريل غريباً عن واحد منها . بل صح أن يقال إنه عاش حياته كلها في حومتها سواء في القارة الأوربية أو القارة الأمريكية ، فقد تولى علاج الجرحى والمرضى في الحرب العالمية الأولى وتولى الاشراف على معهد روكفلر للتجارب العلمية ، وتولى الاشراف على معهد الدراسات الانسانية خلال الحرب العالمية الثانية ، ولم ينقطع قط عن الاهتمام بالحياة في خلايا الجسد وفي أعماق الروح ، وولد بفرنسا سنة ١٨٧٣ ومات فيها بعد رحلات كثيرة سنة ١٩٤٤ ، فكان مولده في غبار حرب السبعين ، وكانت وفاته في غبار الحرب العالمية .

وليس في العلماء المعتقدين من هو أبعد منه شوطاً في الايمان بالله ، وخلاصة إيمانه أن الله لازم للإنسان لزوم الماء والأكسجين ، وأنه راقب آثار المادية في تجاربه بالولايات المتحدة فعزا إليها كثيراً مما يعرض للشباب من الخلل العقلي والحطة الخلقية ، فضلا عن تعويد الفكر أن يتشبث بالآراء الحتمية ، حتى يفقد القدرة على صحة الحكم والتبصر في الأمور .

ويؤمن كاريل بأن كل خلية في الجسم تتهدى بالعقل الأبدي إلى موضعها من البنية المرسومة ، وتعمل في كل خطوة من خطواتها كأنها ترى تكوين الجسم كله ماثلا أمامها ، ولهذا يعن له أن وجود الخلية الحية أبدي غير زمني ، لأنها تحتوي الوجود المقبل قبل وجود الزمان ، ويعن له كذلك أن الكون على رحبه مملوء بعقول فعالة غير عقولنا ، وأن العقل الانساني هاد قاصر بين دروب التيه التي حوله إذا كان معوله كله على هدايته ، وأن الصلاة من وسائل الاتصال بالعقول التي حولنا وبالعقل الأبدي المسيطر على مقادير الأكوان قاطبة فيما هو ظاهر لنا وما هو محتجب عنا في طي الخفاء ، وليست قوة الصلاة عنده مقصورة على صاحبها ، ولا هي من قبيل الايحاء النفسي الذي ينفع الانسان لاقتناعه به في صميم وجدانه ، بل هي قوة تسري من المصلي إلى غيره ، ويستطيع أن ينفع بها غيره إذا توجه إلى الغيب داعياً له ملتمساً له الهداية والفلاح .

قال في رسالته الصغيرة عن الصلاة : « وليس من الضروري لحدوث هذه الظاهرة أن يصلي الانسان لأجل نفسه . فقد شفي أطفال صغار لم يتكلموا بعد كما يشفي أناس لا يؤمنون في لورد (Lourdes) لأن بجوارهم أناساً يصلون لهم . وكثيراً ما كانت الصلاة لغير صاحبها أنفع من صلاته لنفسه ، وإنما تستمد الصلاة فعلها من عمقها وخلوصها .

وقال قبل ذلك في تعريف الصلاة : « . . . إن الصلاة على ما نرى تسام من النفس إلى أوج اللامادية من الدنيا . وهي على أكثر ما تكون شكاية أو ابتهال أو صرخة أو استغاثة ، وهي في بعض الأحايين تأمل خالص في أصول الوجود ومصادره ، ويصح أن يقال انها ارتفاع بالروح إلى المقام الالهي عنواناً للتوجه بالحب والعبادة إلى الذي منه صدرت الأعجوبة التي هي الحياة . . . » .

والشعور بالجانب « المقدس » من هذا الوجود حالة لا تنفصل من حالة الخشوع الذي يلازم الصلاة . فلا صلاة مع الابتذال والجشع والتهافت على اللبانات ، وإنما الصلاة تطلع مع الحب وفزع مع الثقة ، وهي بهذا نوعان :

مناجاة وابتهال ، ومن الجهل بها أن يقال إنها أشبه شيء بأن يطلب الانسان من الله أن يخل بنظام الكون ويغير الأسباب والمسببات ، لأن المصلي وعقائده وملهماته جزء من نظام الكون وسبب من الأسباب التي يحيط بها علم الله . ثم ختم الرسالة قائلا :

« والخلاصة أن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحاني له شأن خاص في الحياة . لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح . وبالصلاة يسمو الإنسان إلى الله ويداخل الله سريرته . وهي على ما نرى ضرورة لا غنى عنها لنمو الإنسان في أرفع حالاته ، ولا ينبغي أن ننظر إليها كأنها عمل لا يلجأ إليه غير الضعاف والمتسولين والجبناء كما قال نيتشه : انها شيء مخجل . فما الصلاة بأدعى إلى الخجل من شرب الماء والتنفس ، وان الانسان ليحتاج إلى الله حاجته إلى الماء والأكسجين ، وهذا الشعور بالقداسة إلى قرائنه من الشعور بالبصيرة والحاسة الخلقية وذوق الجمال وضياء الفهم - هو تمام الازدهار والنضج للشخصية الانسانية ، ومما لا جدال فيه أن استيفاء حياتنا يتطلب منا أن ننمي كل نشاط فينا يشمل الجسد والذهن والعطف والروح ، وما الروح خلو من العقل ولا من العاطفة . فمن واجبنا إذن أن نحب جمال العلم وجمال الله . . . »

وقد كانت رسالة الصلاة زبدة آراء العالم الطبيب في مسائل العقيدة ، وأجمع منها لآرائه كتابه عن « الانسان المجهول » (Man the Unknown) وهو في بابه أجرأ كتاب كتبه عالم باسم الطب والعلم في مسائل العقيدة والروح ، لأنه أعلن فيه أن النظر إلى الانسان كأنه آلة جسدية هو « خطأ طبي » أو خطأ علمي تثبت للباحث جرائره الحسية كما يثبت كل محسوس يعتمده أصحاب التجارب الطبية والعلمية ، وختمه بنداء إلى ذوي الرأي والبصيرة كأنه توسل في محراب ، ناشدهم فيه أن يعتقوا ضمائرهم من ربقة الكون المادي الذي بناه لهم الطبيعيون والفلكيون ، وقال فيه إن الوقت قد حان لأن نعمل خلاصنا بأنفسنا ، ثم قال : « اننا لا نضع للخلاص برنامجاً ، لأن البرنامج يخنق الحقيقة الحية تحت غشاء متحجر ، ويمنع تفتق المجهول عن وارد الغيب الذي لا ينتظر ولا يسبقه خبر ، ويحبس المستقبل في حيز العقل المحدود . وإنما علينا أن ننهض ونتحرك ، وأن نطلق أنفسنا من المصطلحات العمياء ونقبل على طبائعنا بما أودعته من الغنى والذخيرة المركبة ، وقد أشارت علوم الحياة إلى بني الانسان نحو قبلتهم ووضعت تحت أيديهم الوسائل التي تبلغهم غايتها ، ولكننا لا نزال غائصين في

الدنيا التي خلقتها علوم المادة الميتة غير ملتفتين إلى عوامل النمو والكمال التي في نفوسنا ، بين جدران دنيا لم تخلق لنا لأنها من صنع الخطأ في تفكيرنا والذهول عن حقيقتنا ، ومثل هذه الدنيا لا يمكن أن تلائمنا ونلائمها ، فلا مناص لنا من الخروج عليها وأن نبدل قيمها ونعيد نشأتها وفاقاً لمطالبنا الصادقة ، وان هذه العلوم الانسانية اليوم لتخولنا أن ننمي كل قوة كامنة في أجسامنا ، فنحن نعلم الأسرار الآلية في وظائفها وفي ملكاتها القليلة ونعلم من ثم مواطن ضعفها ، كما نعلم كيف تخطينا أوامر الطبيعة ولماذا عوقبنا وضللنا في الظلمات ، ولكننا على هذا نبصر خلال الضباب قبساً من الفجر خليقاً أن يهدينا سبيلنا إلى النجاة . . . » .

وقد جاء كتاب الانسان المجهول في ابانه فتجاوبت به الأندية العلمية والدينية سنوات ، وقيل ان وطأته على مذاهب الانكار قد حملت دعاتها على تطويقه بسد خفي من المصادرة ، فوقفت نشره عند حد محدود .

* * *

ويشبه كاريل في اطمئنانه إلى عقيدته المختارة طبيب آخر من الفرنسيين اشتغل مثله بمباحث التشريح والعلم الطبيعي وعمل مع الأستاذ كوري وقرينته ، ثم تسامعت المعاهد بتقريراته العلمية والطبية فاستدعاه معهد روكفلر لمواصلة بحث مع أعضائه في خصائص وعلاج الجراح ، ثم عاد إلى فرنسا بعد سبع سنوات فتولى رئاسة معهد باستور للمباحث البيولوجية الطبية واختير بعد عشر سنوات (١٩٣٧) مديراً لمعهد الدراسات العليا بجامعة السربون ، ونال في سنة ١٩٤٤ جائزة جامعة لوزان بفلسفة العلوم .

هذا الطبيب العالم الذي قلنا إنه يضارع كاريل في اطمئنانه إلى عقيدته هو ليكونت دي نوي (De Noüy) صاحب كتاب القدر الانساني أو قدر الانسان (Human Destiny) وفحوى رسالته فيه أن العقيدة لا تقاس بالمنطق والحساب ولا يقال عن الضمير الانساني انه يؤمن بجدول الضرب أو التجربة الكيمية ، وإنما طبيعة الايمان من طبيعة الحياة وهي سر لم توضحه حتى اليوم نظرية من نظريات العلوم ، ومدار الايمان عند دي نوي هو شعار الفيلسوف الأسباني (انامونو) (Unamuno) وهو : « ان اعتقادك في الله هو أن ترغب في وجوده ، وتزيد على هذا أن تبني عملك على انه موجود » .

قال : « كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الايمان بالله لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه . على أن الانسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب ، فان التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل ، وليس الكهرب قابلا للتصور في كيانه المادي . وإنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب ، ولو أننا استطعنا أن نتصور الله لما استطعنا أن نؤمن به لأن تمثيلنا إياه ـ لاصطباغه بالصبغة الانسانية ـ يخامرنا بالشكوك

« . . وليست الصورة التي تتمثلها للإله هي التي تثبت وجوده ، وإنما يثبت وجوده ذلك الجهد الروحاني الذي نبذله لمعرفته ، وكذلك الفضائل إنما بعول فيها على شعورنا بها لا على نتائجها » .

وبعد أن أشار إلى فضل التدين العميق ـ حتى التعصب ـ في وقاية المسلم والبرهمي من غوائل الجحود مضى يطبق قوانين التطور على الضرورات الروحانية والخلقية فقال : إن إنشاء بيئة جديدة لازم لوقاية الأنواع المهددة من عواقب الانحلال والانقراض وان النوع الانساني يواجه حالة كهذه الحالة في أمر العقيدة فلا بد له من بيئة روحانية جديدة .

قال : « على الانسان أن يفهم أن التطورات الآلية التي أدخلها في بيئته وراح يلائم بينه وبينها لن تكون لها إلا نتيجة من نتيجتين ، وهما التقدم أو الدمار حسب نجاحه في شفاعتهما بالتطور في بيئته الخلقية . فواجب الانسان إذن أن يزيح جانباً معالم حضارته الباطلة ويقيم في مكانها معالمه الصادقة ، وهي الكمال الذي يوافق كرامة الانسانية ، وليس المطلوب منه أن يحارب التقدم الآلي ـ ولا طاقة له بمحاربته لما يرجى من المزيد في تقدم العلم والطب ـ بل بتهذيب النفس والارتفاع بأمثلتها العليا » .

* * *

ومن العلماء المؤمنين روبرت بروم (Broom) عضو الجمعية الملكية الانجليزية ، ووليام براون (Brown) أستاذ علم النفس بجامعة أكسفورد وصاحب التجارب المشهورة في العلاج النفساني ، وسير آرثر تومسون (Tho- mson) أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة ابردين ، والأستاذ جوردون عضو جماعة الأطباء الملكية بأدنبرة ، وهم يتناولون مسألة العقيدة من نواح متفرقة ولا

تجتمع منهم مدرسة خاصة كمدرسة العلماء الباحثين في الذرة وأصل المادة من الأقطار الأوربية المتعددة .

سئل الأستاذ بروم عن عقيدته الدينية باعتباره رجلا من رجال العلم الحديث فأجاب في فصل خاص كتبه لمجموعة (الروح العصري نحو فلسفة الايمان) (Modern Spirit towards a Philosophy of Faith) وقد نشرت هذه المجموعة سنة ١٩٥١ .

قال الأستاذ بروم : « من نحو عشرين سنة اهتم بعضهم بأن يبحث عن الآراء المادية التي شاعت بين الدوائر العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ! هل لا تزال على شيوعها؟ أو أن الآراء الأخيرة عن بناء المادة ومذهب النسبية وعلوم الحيوان قد عدلت على صورة من الصور فلسفة رجال العلم في القرن العشرين ؟

« فتبين أن فئة مدهشة ـ بنسبة عددها إلى سائر أعضاء الجمعية الملكية ـ قد قررت بأسلوب واضح أنها تؤمن بعالم روحاني وعناية ربانية مهيمنة ، وأن كثيراً منهم يعتقدون بقاء الشخصية بعد موت الجسد ، وظهر في امتحان الأسئلة أن عدداً كبيراً من الأعضاء لم يحفل بالإفصاح عن رأيه ، مما قد يفهم منه أن بعضهم على شك وتردد ، وقد يكون الشك والتردد خطوة في طريق الايمان .

« ولقد كانت مباحثي في الخمسين السنة الاخيرة مفرغة على الاكثر لدراسة الحفريات الفقارية ، ولم تقنعني هذه المباحث بان انواع الحياة الاخيرة قد جاءت من طريق التطور وكفى ، بل اقنعتني كذلك بان هذا التطور لم يحدث جزافاً ولا عرضاً ، ولكنه حدث بهداية او هدايات روحانية .

« إن داروين سيظل في مكانه الرفيع من تاريخ علوم الأحياء والنباتات ، إلا أن مذهبه في الانتخاب الطبيعي كما يلوح لي جد قاصر عن الاقناع والكفاية ، وقد عدل عنه رسل والاس نفسه شريك داروين الذي أعلن المذهب معه في سنة ١٨٥٨ .

« فأما أن التطور قد حدث فأمر لاشك فيه ، ولا بد من مذهب صحيح للتطور ، وإن كنا حتى اليوم لم نستقر على مذهب مقنع ، وربما كان مذهب لامارك أقرب جداً إلى الحقيقة من مذهب داروين ، ولكنه غير واف على الحالة

التي تركه بها لامارك .

« وقد ذكر رسل والاس أن كثيراً من الخلط والصعوبة قد نجم من القول بأن الاحتمال لا يقبل غير فرضين اثنين لا ثالث لهما ، وهما الاله الحكيم القادر على كل شيء أو المصادفة العرضية ، وانتهى في أواخر أيامه إلى إيمانه بعدة عوامل روحانية لا تسمو إلى القدرة الكاملة ولا إلى الحكمة الكاملة .

وأمران يبدو أنهما محققان : أحدهما أن التطور الذي أفضى إلى خلق الانسان من تدبير قدرة روحانية عظيمة ، والأمر الآخر أن هذا التدبير تتولاه عوامل ثانوية تخطىء في انجازه ، ولكن الغاية المطلوبة تتحقق في النهاية على الرغم من هذه الأخطاء .

« والظاهر أن التوفيق بين الحيوانات وبيئاتها من عمل روح أو ملكة شبيهة بالواعية في الحيوان ، ويتفق أحياناً أن يكون التوفيق غير سديد . وهذه الأرواح أو الملكات الثانوية لا تطلع على المستقبل ، وقد فضل كثيرون من علماء الحيوان نظرية مؤداها أن قدرة مدبرة تدفع التطور إلى غاية معينة وتتولى الأرواح الأخرى أمر مطالبه العاجلة ، وقد كان الرائد الايقوسي العظيم في ميدان التطور روبرت شامبرز (Chambers) يلمح ما لعله الرؤيا الواضحة لما هو قريب من الحقيقة . ومن النشوئيين من هو كبرجسون أدنى إلى التأثر بالبينات التي تدل على قوة دافعة وراء التطور ، ومنهم من هو كصمويل بتلر وبرنارد شو تؤثر فيهم على نحو قوي بينات تنم على وجود عامل أو عوامل موشجة في الحيوان ، يتسنى لها أن تلائم بينه وبين أحواله .

وكان رسل والاس في شيخوخته يعتقد أن الكون المادي إنما هو مظهر للكون الروحاني ، وأن في الكون الروحاني انماطاً من العوامل الفعالة من القوى العليا إلى الأرواح الكامنة في الخلايا الحية ، وربما تعذر اثبات هذه التقديرات بالبرهان القاطع ، ولكنها فيما نراه أصلح لتوضيح الوقائع من أي تقدير يأخذ به الماديون » .

ثم قال : « ومتى سوغ الباحث لنفسه أن يقتنع بصدور التطور عن قوة أو قوى توجهه إلى خلق الانسان ـ فمن النتائج التي تنساق اليه مع هذا الاقتناع طواعية أن ظهور كائنات كبيرة الدماغ قائمة على قدمين لا يعقل أن يكون هو غاية القصد من تمهيد ملايين السنين ، وأحرى أن يكون القصد من هذا التدبير

إنشاء وحدات روحية تبقى بعد موت الجسد . . . » .

***

وقال الأستاذ براون من جوابه المنشور في هذه المجموعة :

« هناك صورتان للتطور : إحداهما صورة التطور في الكون أو بعبارة أخرى تطور الأحياء التي يصارع بعضها بعضاً ويبقى الأصلح منها وما شابه هذه العوامل . والأخرى تطور الكون نفسه .

« وانهما لصورتان متميزتان . وهذه الصورة الثانية ـ وهي الصورة التي تنمى إلى ما وراء الطبيعة ـ مخالفة جداً لصور الأحياء المنفردين في تطورهم وفاقاً لبيئة معينة . اذ ليس للكون بيئة معينة ، وكل بيئة معينة فهي مطوية فيه ، وليس هو من الزمان بل الزمان والمكان منه .

« . . . هذه التطورات إذا استقصيناها إلى مداها ترينا أن العلم حري أن يقودنا إلى معرفة غير العلم ، إذا نحن تمشينا معه على منهاجه وطبقاً لقواعده ، وتلك المعرفة الأخرى هي فلسفة ما وراء الطبيعة » .

ثم قال بعد استطراد : « فاذا رجعنا إلى علم النفس الفينا مسألة الروح او العقل على صلة بالدماغ أو منفصلة عنه بعض الانفصال ، واضطررنا إلى أن نتساءل : هل العقل مستقل عن الدماغ ؟ ونعود فنذكر أن العلوم الطبيعية عزلت نفسها من مسألة الوعي ولم تزودنا بوسيلة ما للوصل بين العقل والتغيرات المادية ، وكل ما نلاحظه أن للعقل نشاطاً مقترناً بالتغيرات المادية في أجزاء مركبة من البدن ، ولكننا لا نعلم شيئاً عن حقيقة هذا الاقتران .

« وليس ثمة ما يمنعنا أن نفهم أن العقل الواعي ـ وإن تطور من صور أبسط في الوظائف الحيوية ـ يتدرج شيئاً فشيئاً إلى حال من الاستقلال ، ويتمكن من التأثير في البدن بقسط متزايد من الحرية ويصبح كياناً له وحدة تبقى بعد الجسد ، وليس في وسعنا أن نقطع بأن نقيض هذا التقدير قد ثبت بأدلة العلم الحديث ، ونعني بالنقيض أن العقل يستحيل أن يعيش بعد الجسد » .

ثم ربط بين القول بالعقل الباقي وبين العقيدة الدينية فقال « إن للدين تعريفات شتى ، ومن تعريفاته أنه الموقف الذي يتخذه العقل حيال الوجود في شموله ، ومن تعريفاته أنه الشعور بالاعتماد التام على الكون ، وهذا هو تعريف

سكليرماكر (Schleirmacher) .

« غير أنه لا هذا التعريف ولا ذاك ولا كلاهما معا يوفي الدين كل صفاته . فان الرجل المعطل قد يتخذ له موقف سخرية واحتقار أمام الوجود في شموله أو موقف حيدة وقلة اكتراث . أما الشعور بالاعتماد على الكون فليس كافياً على حدة . فاننا حين نرقب المتدينين الذين يعلمون أنهم متدينون ويرى من أحوالهم أنهم كذلك ـ نبصر على الدوام عنصر العبادة قائما هنالك . نبصر العبادة والايمان بالقيم والايمان بقيمة عليا يتصل بها العقل الانساني ويستجيب لها : قيمة عليا توحي الى النفس التقديس والعبادة لأنها خير .

« فكيف نقرب بين هذا المعبود وبين القيم التي أشرت إليها ؟ ان هذه القرابة على ما أرى هي تلك الصلة التي توجد بين المجسمات والمعاني المجردة . إذ كانت معاني الحق والجمال والخير كلها مجردة ، وكلها صور من الوجود الصادق ، وكلها تمضي معاً ولا رجحان لواحدة منها على الأخرى ، إذ كلها بمرتبة واحدة . ومن السخف مثلا أن يقال عن آية قيمة انها جميلة ولكنها مناقضة للخلق الفاضل أو خالية منه ، فهذه القيم مستقلة لأنها صفات متعددة لكائن واحد هو الله .

« ولا يوصف هذا الاعتقاد بأنه من قبيل الاعتقاد بوحدة الوجود . بل هو اعتقاد بأن الله محيط بكل شيء ، ولكن الأشياء درجات ، ولكل قيمة درجتها في الكائن المحدود ، وتعلو بعض القيم حتى تعم ولا تتوقف على ذوات الكائنات المحدودة . ومن التجربة والمزاولة يزداد المرء تعمقاً في إدراك القيم كلما بلغ القدرة على تحصيلها . فالخير قيمة صحيحة والشر قصور عنه أقل وأنقص . والحق قيمة صحيحة والباطل قصور عنه أقل وأنقص ، والجمال قيمة صحيحة والقبح قصور عن الجمال » .

وصفوة كلام العالم النفساني بعد ذلك أن تصحيح النفس هو ردها إلى الشعور بهذه القيم والقدرة على تملّيها ، وأنه ما من نفس تمرض وفيها ثقة بالجمال والحق والخير ، وأن الديانة المثلى هي قوام هذه الصحة النفسية ، وأن وظائف العقل تترقى وتسمو لتتهيأ لادراك هذه المعاني ، ولا يعقل أن يتهيأ العقل لها كي يعود فينغمس في المادية والجسدية .

ويفرق الدكتور براون بين الفردية والشخصية ، أي بين كون الانسان فرداً (Individual) وكونه شخصاً (Person) أو (Personality) . وعنده أن

لشخصية هي الفردية وزيادة ، وأن الشخصية روحانية أقرب إلى الاتصال بالروحانية العليا أو إلى ذلك الهيام الصوفي الذي يجمع بينها وبين الروحانية الشاملة ، وهذه الصوفية هي التي يعبر عنها السيد المسيح حين يقول إن من يفقد نفسه من أجلي يجدها .

***

أما السير آرثر ثومسون فهو يعول كثيراً على تخفف الكثافة المادية واقترابها من « اللاموزونات » أي المعاني التي لا توزن كالفكر والعاطفة والعناية (Impo-nderables) ، ويقول إننا في زمن شفت فيه الأرض الصلب وفقد فيه الأثير كيانه المادي ، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغلو في التأويلات المادية .

وفي جوابه للسائلين عن عقيدته قال في مجموعة اخرى هي مجموعة العلم والدين (Science and Religion) :

« . . . إذا كان العلم صيغاً وصفية وكان الدين في جانبه العقلي تفسيراً علوياً أو خفيا فلا موجب للتعارض الحاسم بينهما »

وقد مهد لهذا التقابل بين العلم والدين بقوله إن الانسان قد احس لزوم الدين كلما انتهى إلى قصاراه من العمل أو الحس أو التفكير . ثم قال :

« ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعي لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة . إذ ليست هذه وجهته . وقد تكون النتيجة أكبر جداً من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . إلا أننا خلقاء أن نغتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للنزعة الدينية أن تتنفس في جو العلم حيث لم يكن ذلك يسيراً في أيام آبائنا واجدادنا . . . فاذا لم يكن عمل الطبيعيين ان يبحثوا في الله كما زعم مستر لانجدون دافيز خطأ في كتابه البديع عن الانسان وعالمه ـ فنحن نقرر عن روية وعن أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الانسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى ، ولا نجاوز المعنى الحرفي حين نقول إن العلم أنشأ للانسان سماء جديدة وأرضاً جديدة وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلي فاذا به في كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم ، وذاك في اليقين والاطمئنان إلى الله .

ومضى يقول إن العقائد القديمة أحرى أن تعبر عن أصولها اليوم تعبيراً جديداً على هذا المثال :

« في البدء كان العقل

« وكان العقل مع الله

« وكان العقل هو الله

« وكل شيء صنع من العقل

« وبغيره لم يصنع شيء مما صنع

« منه الحياة

« ومن الحياة نور الانسان » .

ثم تساءل : ألا يمكن أن يستعين العلم بالدين ؟ فقال إنه يوشك ان يسمع جواب هذا السؤال من زملائه بالنفي القاطع ، ولكننا ينبغي أن نفهم أن العلم للحياة وليست الحياة للعلم ، وإذا كان عمل العلم المباشر أن يفهم فعمله غير المباشر أن يزيل الشرور ويزيد الطيبات ، ومن الشعور الديني يستمد العالم ثروة حية هي نعم المدد للبصيرة في الكشف عن المجهول .

ثم ختم كلمته قائلا ما معناه أن الانسان يجهل حاجته إذا وضع الدين أمام العلم موضع المناجزه وقال لنفسه : إما هذا وإما ذاك . . . « فالذي نحن على يقين منه أننا بحاجة إلى مزيد من العلم ومزيد من الدين » .

والدكتور جوردون يقول في كتابه « فلسفة عالم » (The Philosophy of a Scientist) من فصل بعنوان (على الانسان أن يوجد ديانته) :

« إذا تم للإنسان هذا تمت له عفواً إطاعته أعظم الأوامر الالهية وهي : أحبب إلهك . لأنه سيحب إذن تلك القيمة العليا أو الصفة العليا التي هي المعبود ، وذاك هو أساس كل دين .

« والمعبود كائن نوجده ونخدمه ونحبه بأرفع معاني الخدمة والحب . إذ بفضل الحب ينال هذا التقدم ، وقوة الحب الصحيح هي التي تنظم أو تجند كل طاقات الشخصية الإنسانية إلى وجهة أعلى وأرفع : وجهة أفضل من أنفسنا ، نستطيع أن نستقبلها بالإجلال الحق ونسعى إليها في شوق لا يهدأ . وقد تنفعنا الروح الجماعية متسامية إلى المعونة المتبادلة كما شرحها كروبتكين ، ولكنها لا تغني فتيلا بغير دفعة الحب ، وقل إن شئت إنه من الحب الجنسي أو من الحنان الأبوي . . . فان شوق المحبوب وحنان الأبوة القريب منه هما أساس الحب

الشامل ، وحيث نصدق في حب المحبوب نحس فوق كل شيء أننا نطمح إلى القداسة والأمانة والحق والجمال .

« . . . ويلاحظ أننا حين نرتقي هذا المرتقى لا نظل مشغولين بالشيء نفسه ، بل بالقيمة التي يحتويها . فليس همنا المعبود او المحبوب ، وانما همنا القيمة التي يجلوها لنا . . . ويومئذ نحب الله ، وحيث نحب الله في كماله نرى أن الكمال هو المهم ، ويصبح كل شيء وكل أحد حقاً ، ويصبح كل شيء وكل أحد جميلا ، ويصبح كل شيء وكل أحد خيراً . إذ ليس واحد او اثنان أو فئة مختارة منتقاة هم الذين يدركون ذلك الكمال المنشود . بل كلٌ في هذه الحالة يشارف كمال المعبود » .

من الأمثلة المتقدمة مثال للعالم الذي يؤمن وإيمانه قائم على حقيقة خارجية ، ومثال للعالم الذي يؤمن وإيمانه قائم على حقيقة باطنية .

ومن العلماء « الايمانيين » غير هؤلاء فئة ذات صبغة خاصة تجمعها شعبة واحدة من شعب العلم الطبيعي ، أو مدرسة واحدة كما أسلفنا في مقدمة هذا الفصل عن عقائد العلماء ، وهي مدرسة الذرة والبحث في بناء المادة ، ومنها أقطاب هذا البحث من طبقة بلانك وهيزنبرج وأدنجتون وجينس ، ومذهبهم فيما وراء المادة مجمل فيما أشرنا إليه آنفاً عند الكلام على قوانين الطبيعة ، ومحصّله أن المادة تحولت إلى ضياء وأن الضياء تحول إلى معنى كمعاني المعادلات الرياضية الذهنية ، وأنه لا محل بعد اليوم للاعتراض باسم العلم على المعاني المجردة لأنها مخالفة لما تصوره الأقدمون من شرائط الوجود الثابت في الحس والعيان ، ومعظم علماء هذه المدرسة يجاوزون الناحية « النافية » التي تكتفي بنفي الموانع ويذهبون شوطاً بعيداً في الاثبات الموجب كما فعل جينس في قوله بالعقل المدبر ، وكما فعل ادنجتون في قوله إن العالم غير المنظور في صميمه يوحي بهيمنة « الذات » الإلهية عليه ، تمييزاً للإله أن يكون مجرد معنى كما تصفه بعض النحل البرهمية القديمة ، وإقراراً لعقيدة « الذات الالهية » كما يؤمن بها المتدينون .

ولا يقف بلانك وهيزنبرج دون هذا الشوط في الاثبات الموجب ، ولكنهم يقنعون بفتح أبواب الالهام الديني على اوسعها من قبل التفكير .

❋ ❋ ❋

ولم تستوعب هذه النظرات مواقف العلماء جميعاً من العقيدة والايمان . ففي العلماء كثيرون لا يذهبون إلى هذا المدى ولكنهم لا يقفون موقف العداء أو قلة الاكتراث لما يحاوله زملاؤهم في هذا المجال . ومنهم من يود لو يعتقد ولكنه لم يجد عقيدته . ومنهم من يعتقد ولكنه حين يسأل عن معتقده لا يتضح من كلامه معتقد محدود .

يمثل هؤلاء العلماء اثنان يختص كل منهما بشعبة من البحث العلمي كادت أن تكون من خصائص القرن العشرين : أحدهما مالنوسكي البولوني (١٨٨٤ - ١٩٤٢) . أشهر الباحثين في الأجناس البشرية ، والاخر البرت اينشتين العالم الألماني الاسرائيلي صاحب مذهب النسبية المشهور .

فالعالم البولوني يقول حين سئل عن عقيدته[١] :

« أما عني أنا فانني لا أدري . ليس في وسعي أن أنفي وجود الله ، ولست أميل إلى نفيه ، فضلا عن القول بأن الايمان بالله غير لازم .

« كذلك أتمنى لو يكون هناك بقاء بعد الموت وأود لو أنتهي إلى يقين في هذا الأمر . ولكنني على كل أتمنى وأود لا أجدني قادراً على قبول عقيدة موجبة في العناية الالهية سواء مسيحية أو غير مسيحية . . .

ثم قال بعد استطراد : « ترى هل للعلم دخل في هذه اللاأدرية وفيما يشبهها عند أمثالي ؟ أظن ذلك ، ولهذا لا أحب العلم وإن لم يكن لي بد من الولاء في خدمته »

أما إينشتين فهو يحسب أن الايمان بالله على أنه « ذات » هو بقية من تشبيهات الأديان الأولى . ولكنه يؤمن بعالم غير عالم الشهادة ويقول « إن الانسان الذي لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم ولم يشعر نحوه بالروعة هو حي حكمه حكم الميت . ولب الديانة عنده ان يعلم أن الذي لا ننفذ إليه بمداركنا هو موجود حقاً متجل حقاً . يطالعنا بالحكمة العليا والجمال الرائع ولا تحيط عقولنا الكليلة منه إلا باشكال بدائية كالظلال »

وقد شرح إينشتين عقيدته في كتاب الدنيا كما أراها (The World as I See) وكتاب من سنواتي الأخيرة (Out of my later years) وناقش آراء المعلقين على معتقده في الكتاب الخاص به من سلسلة الفلاسفة الأحياء ،

(١) مجموعة العلم والدين التي سبقت الاشارة إليها .

ولم يخرج إجمال تلك الشروح عما قدمناه .

***

وليس استقصاء المعتقدات التي يدين بها جميع العلماء ميسوراً في هذه العجالة ، ولكننا نحسب أننا مثلنا لها تمثيلا يجزىء في الابانة عن مناحيها ، وقد تلاقى الجازمون والمترددون منهم في تبرئة العلم من عداء الدين ، فمن لم يكن صديقاً خالصاً فليس بالعدو المبين ، بل وجد من هؤلاء المعارضين للدين من يثبت القصد في الخليقة مع تصريحه بأنه مادي آلي يعزز التطور بالانتخاب الطبيعي ، ومنهم من يرى دلائل القصد في المادة غير العضوية فضلا عن الأجسام الحية ، وقد أشار إلى هؤلاء العلماء الدكتور فردريك وود جونس عضو الجمعية الانجليزية الملكية في كتابه عن التدبير والقصد ، فذكر لورنس هندرسون أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة هارفارد ، وروى عنه أن تقلب الليل والنهار على الأرض له معناه في تركيب ثاني أكسيد الكربون (لارتباط صلاحيته بالنور والظلام) وأن تقلب الفصول وموقع الأرض من المنظومة الشمسية لهما معناهما في خصائص الماء بين حالتي التجمد والذوبان ، وأن هندرسون قد اضطر إلى الاعتراف بأن مجرى التطور في مظاهره الكونية والحيوية يماثل مجرى الأعمال التي نقول حين نرقبها في الناس إنها مقصودة . ثم ذكر توماس دوايت (Dwight) أستاذ التشريح بجامعة هارفارد فروى عنه أنه كتب قبيل وفاته يقول ان صدور الرسم الواحد عن المصادفة قد يفهم ، ولكن نسبة الرسوم في عدد كبير من الظواهر إلى مجرد الاتفاق سخف وهراء(١) .

فاذا جاء هذا الاعتراف من العلماء المصرحين بالمادية فلا حاجة بالذين لا يصرحون بها إلى أكثر من هذا الاعتراف .

---

(1) Design and Purpose, by Frederic Wood Jones

عقائد الأدباء

يستشهد بأقوال الأدباء في العقيدة لأنهم دارسون ، ولأنهم موضوع دراسة .

هم دارسون لأنهم يفكرون في عقائدهم ويمحصونها ويقبلون منها ما يقبل ويرفضون منها ما يرفض ، او ينشئون لأنفسهم عقائدهم المختارة حين يرفضون كل ما ورثوه من المعتقدات .

وهم موضوع دراسة لأنهم يمثلون شعور عصرهم ويعبرون عنه . فمن أراد أن يدرس المعتقدات في عصر من العصور فمن أقرب وسائله أن يراجع أقوال أدبائه عن أنفسهم وعن أبناء عصرهم ، فيعرف منها أنماطاً صالحة لتصوير تلك المعتقدات .

ومن المتفق عليه أن العقيدة حاجة إنسانية في ضمائر المعتقدين ، فهي من هذه الناحية شعور نلتمسه ـ أقرب ملتمس ـ في أقوال الأدباء ، أي في أقوال الذين يشعرون ويعبرون عن الشعور ، وهذه هي وظيفة الأدب في كل زمن . فلا أدب لمن لا يشعر ولا يحسن التعبير عن شعوره وعن كل شعور يحكيه .

فاذا كانت العقيدة موضوع امتحان ودراسة في نظر العلم فهي في ميدان الأدب موضوع تجربة وتصوير .

وتنتهي وظيفة العالم حين يقول : علمي يقبل هذه العقيدة او يرفضها ، فاذا تحدث بعد ذلك عن العقيدة كما يشعر بها أو يفكر فيها فهو والأدب سواء في هذا الحق : حق الشعور والتفكير .

***

ومن أدباء القرن العشرين في الغرب من نروي كلامه عن العقيدة لأنه صاحب رأي فيها .

ومنهم من نروي كلامه لأنه صورة معبرة تدل على مجرى الشعور بين أمثاله ، وكلهم يضيفون إلى صفتهم الأدبية صفة المطلع المستفيد من علوم عصره ومباحث علمائه ، فهم مثال صادق لزمانهم على كلتا الحالتين .

***

في مقدمة الأدباء العالميين الممثلين لزمانهم في القرن العشرين (برنارد شو) الكاتب الأيرلندي العالمي الذي عاش من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين ، وصاحب التطور في مذهب التطور نفسه خلال هذه المدة ، فخرج من تجاربه ومطالعاته بمذهبه عن القوة الحيوية ، وهي في مذهبه تحل محل الاله في الأديان .

ومذهبه كما لخصناه في رسالتنا عنه أنه لا يؤمن بالمادية المطلقة ولا يقول بأن الوجود كله مادة مسيطرة على الفكر والحياة .

« بل يؤمن بقوة غير مادية يسميها القوة الحيوية ويقول إنها تتطور بارادتها ، وإن المادة عدو لها في تطورها ، وإن ارتقاء هذه القوة في معارج الفكر إنما يأتي من طريق واحد : وهو طريق الخطأ والتصحيح والتكرار والمثابرة ، ولا نهاية للارتقاء الذي تبلغه الحياة من هذا الطريق . فانها تسلكه وتتطلع في كل مرحلة من مراحله الى القدرة المطلقة والعلم المطلق ، وقد تبلغهما في زمن من الأزمان بعد الملايين التي لا تحصى من السنين . . .

« . . . وأول خطوة من خطوات التطور عنده أن القوة الحية تلبست بالأجساد المادية لتعمل وتستفيد من معاركة المادة وإملاء إرادتها عليها ، فأصبحت القوة الحيوية أفراداً متفرقة بعد أن كانت جملة مجتمعة لا تفرق بين أجزائها .

« وظهر الفكر وتقدم من علاج الارادة الحية للمادة التي تقاومها وتعاديها .

« فكل معالجة تتقرر فيها تجربة ثابتة ، وكل تجربة ثابتة تجري مجرى العادة ، وكل عادة تتجمع مع العادات الأخرى فتهتدي بها الحياة وتتعود التفكير .

« ولكن المادة من طبعها أن تعوق الفكر وتصده عن الانطلاق بغير قيد ولا

حائل ، وينتهي هذا التعويق بتنبيه إرادة الحياة إلى طلب الخلاص من هذه العوائق واعتماد الحياة على الفكر المجرد مستقلا من الأجسام . فلا تزال تطلب وتكرر الطلب ، وتخطىء وتصحح الخطأ ، وتثابر على الطلب والتصحيح حتى تبلغ ما تريد .

« ويومئذ لا يبقى من هذه الأجساد الحية غير الفكر الحي المجرد المطلق من جميع القيود .

« . . . وليس في مذهب شو مطلب بعيد على الارادة ، فسوف تتحقق الحياة بالفكر المجرد كما تحقق الفكر نفسه ، وكما تحقق الحس والنظر والسمع وسائر الحواس بالمحاولة بعد المحاولة والتصحيح بعد التصحيح .

« . . . ويزعم شو أن التطور الخلاق صالح لأن يصبح ديانة جديدة لأبناء القرن العشرين ، وكما قيل عن المعري إنه سئل عن قرآنه فقال : اتركوه حتى تصقله الألسنة في المحاريب ، كذلك يقول شو عن ديانته هذه إنها لا تشيع بين جمهرة الناس حتى تنشأ حولها أساطيرها وأماثيلها ومعجزاتها ، ولكنها مع هذا خير من الديانات العتيقة وخير من الشكوكية وخير من المادية العمياء ، وخير من مذهب داروين العتيق والحديث . . . ولا يصلح الانسان على كل حال بغير إيمان » .

***

وبين نوابغ الكتاب الانجليز في العصر الحاضر الدوس هكسلي صاحب المشاركات المعروفة في الشعر والقصة والفلسفة ، وهو صاحب نزعة صوفية واضحة في جميع كتبه ، وديانته الصوفية عامة في غير عقيدة محدودة يجمعها مسلك عملي في الحياة قائم على القناعة والاقلال جهد الطاقة من علاقات المرء بالدنيا وهمومها ، قطعاً للشواغل السفلى وتوسيعاً لمنادح النفس في التماس مطالبها العليا وتوفير حظها من المتعة بالحق والجمال .

ومن كتاب القصة العالميين الأديب النمسوي فرانز ويرفل (Werfel) (١٨٩٠ ـ ١٩٤٥) صاحب رواية أغنية برناديت ورواية الأيام الأربعين وكتاب بين السماء والأرض ، وفيه خلاصة فلسفته الدينية والخلقية ، ولا تخلو هذه

الفلسفة من بقايا الصوفية الاسرائيلية القديمة ، لأنه نشأ من سلالة اسرائيلية ، ولكنه يورد المصطلحات مورد المجاز فلا تؤخذ على ظواهرها الحرفية .

يقول ويرفل في كتاب ما بين السماء والأرض إن تفسير الكون بالقياس والتعقيب هو أنجح أحابيل الشيطان . لأن حجته التي تقوم عليها جميع المذاهب الوضعية المادية هي أن الشيء يساوي نفسه (س = س ، والأمة وليدة الاقليم الجغرافي ، والفرد محكوم بظروفه ومطالب الشعب السياسية تتوقف على حاجاته الاقتصادية ، والفيل له جلد فيل لأنه ضروري له في اجتياز اشجار الغاب بغير ضرر يصيبه الخ الخ) ومثل هذا التفسير لغايات الطبيعة هو عند الأحمق مفتاح كل باب بغير استثناء سر من الأسرار .

« وقد نجح الشيطان في تزويغ الأصول الأولى من المسألة كلها وهي أصول الخلق ، والكينونة ووجود الله ، وإنما تتحقق الروحانية بالالحاح كل الالحاح على المسألة من جانبها هذا » .

وقال في الكتاب نفسه : « إن الانسان ـ وهو لفة قصيرة بين العالم العلوي والعالم السفلي ـ لا يفلح في شيء فلاحه في توليد الشرارة التي تنقدح من هذا الالتقاء بين العالمين : شرارة الفكر التي تصهر جميع الأخلاط » .

وقال فيه « كل تقدم فهو انفصال قد تتابع من النشأة الأولى ، فالنبات يبقى مغروساً في البقعة الصغيرة من تربته ، والحيوان يتجول في صقع محدود ، والانسان هو الذي يفارق ويعود .

« وهذه الهجرة ـ وإن حسبناها مجازاً من مجازات الروح ـ إنما هي حالة لا مرجع منها ، وليس على معالم الطريق إلا كلمة واحدة تقودنا من أعلى إلى أعلى : نحو الوطن » .

وقال فيه : « ويل للإنسان ـ شك أو آمن ـ إذا فقد القدرة على جيشان الروح . فكل من جمد على يقين قانع فهو فريسة الشيطان ، أو هو شر من فريسة الشيطان : هو ممزق سياسة .

« ولقد تكون ثورة اليائس حيناً من الأحيان أقرب إلى القداسة من صلاة الجمود » .

وقال : « إن التجربة الصوفية التي لا معدى للإنسان عنها ساعة احتضاره تنم عن وحشة غير مفهومة لا مهرب للروح من عبورها ، لعلها في انتظار تحصين يعززها مما فوق الطبيعة » .

وقال : « إن الله أعظم جداً من أن يحتوي كلام الانسان برهاناً على وجوده .

وأن صفته العامة ـ وهي الخير الذي لا نهاية له ـ لتثبتها بالبرهان الواقع حياة مخلوقاته ، إذ هي تؤثر أن تكون على ألا تكون ، كيفما كانت محنتها بالخوف والمرض والعذاب والموت » .

وقال : « القانون هو حماية للانسان من الانسان ، وضعها الانسان في سبيل الله »

وقال : « إن الله هو الزمن كله : هو الأبدية .

ومن هنا تتمثل الشيطانية في تمزيق الزمن : فالشيطانية الرجعية تثني على الماضي ، والشيطانية الثورية تثني على المستقبل » .

وقال : « كيف كنا قادرين على أن نموت لو لم نكن خالدين ؟ »

وقال : « ان الدين هو الحوار الخالد بين الانسان والله . والفن هو المناجاة الأحادية (Soliloquy) » .

وقد احتوى كتاب ويرفل « بين السماء والأرض » نتفاً من هذا القبيل عن العقائد الروحية والخلقية ، تفارق المراسم التقليدية في بعض تعبيراتها ولكنها تعود فتلاقيها حول محيطها وعند غايتها ، مما يجعلها مزيجاً عجيباً من التجديد والمحافظة ، ومن الصبغة العالمية والصبغة القومية في أضيق حدود العصبية .

ومن المفيد ـ وقد لوحظ أن عقائد الأدباء هي في ذاتها موضوع دراسة ـ أن نستخرج من أقوال ويرفل دلالتها على مصادر الاعتقاد في طائفة من الملل والمذاهب .

فقد تواتر أن العقيدة عند الاسرائيلي تصاحب روح القبيلة أو تستمد العصبية منها ، وربما فارق المفكر الاسرائيلي تراثه القديم من باب واحد ليعود إليه آخر الأمر من أبواب شتى ، ولو كانت في ظاهرها أبواب الحاد ومروق . ويصدق هذا كثيراً على ويرفل كما يصدق أحياناً على سائر المفكرين من بني إسرائيل ،

وقد عبر عن ذلك في كلماته التي يفسر بها معنى شعب الله المختار ، وقال في إحدى تلك الكلمات : « إن إسرائيل أكثر من أمة : انها دروشة تاريخية وبيولوجية من شذاذ متفرقين على الرغم من الآحاد الموسرين هنا وهناك ، ومن دخل هذه الدروشة بالميلاد طوعاً لأمر الله لن يفك من عقالها إلا في اليوم الأخير قبل ختام الزمان » .

وعقيدة الرجل أن هذه الهجرة الدائمة هي رسالة القوم ، وأنه « من خفايا الأسرار التي لا تدرك في التاريخ الانساني أن حب الاستقرار هو الخدعة التي يؤتى اليهود من قبلها كلما حاولوا أن يؤسسوا لهم وطناً . وقد حاولوا في القدم ، قبل عصر المسيح - أن يحسبوا مصريين أو بابليين أو يونانيين كما يرى من كل صفحة من صفحات العهد القديم ، فمزقت عنهم ستورهم وبرزت جلودهم المعذبة عارية من تحتها كرة بعد كرة ، وهذه محاولاتهم في العصر الحديث تسمى تارة بحركة الاستنارة او حركة العالمية أو التحرر أو الاشتراكية او القومية وتنتهي إلى المذابح الأوربية والبولونية . ولم يبق أمامهم الساعة إلا مقر من مقرين تتزاحم عليهما جموع إسرائيل في إصرار وإلحاح كما يتزاحم النمل في طلب النجاة ، ولا بد للإنسان على كل حال من أن يعيش .

« هذان المقران هما الديمقراطية الأمريكية أو الصعلكة الروسية ، وان قشعريرة الروح من أن تصير إسرائيل إلى أي مصير غير أن تظل إسرائيل - لن تستطيع الوقوف أمام هاتين القوتين .

ومهما يستكثر المؤرخ من أمثلة العقائد التي يدين بها المفكرون الاسرائيليون في العصر الحديث فلن يجد في كل مائة مثال إلا مثلا أو مثلين يشذان عن هذه القاعدة ، وتطرد الأمثلة دائماً على أن « الجامعة العصبية » لا تلبث أن تملأ فراغ العقيدة من جوانح الاسرائيليين كلما انطلقوا من شعائر دينهم الموروث ، فالتعب الذي يحتمله المفكر الأوربي كي يستعيض عقيدته باسم الانسانية أو الحضارة أو الروح الكونية - يحل محله تعب واحد سريع إلى نفس المفكر الاسرائيلي ، وهو الجامعة الاسرائيلية أو رسالة إسرائيل كما يترسمها في مستقبل قريب أو بعيد .

وهذه الظاهرة المتكررة هي إحدى الظواهر التي يرقبها الباحثون المخصصون لشؤون العقيدة ، ليقرنوا بينها وبين عوامل الاعتقاد في عقول المحدثين والأقدمين .

ولهذه القاعدة شذوذها كما تقدم ، ولكنه شذوذ ضخم يكاد أن يلغيها لو كان

الشذوذ يلغي قاعدته ، فقد تمثل في أديب واحد أوشك أن يحلق وحده في سماء الأدب الصوفي بين قومه من مطلع القرن العشرين إلى منتصفه إذ توفي (سنة ١٩٤٩) .

هذا الأديب هو موريس مترلنك (Maeterlinck) الشاعر البلجيكي الاسرائيلي الذي لقبوه بالحبر ولم يبالغوا ، وإن كانوا يتهكمون ، وقد أنفق حياته باحثاً عن أسرار الطبيعة وأسرار ما بعد الطبيعة ، فدرس غرائز النحل والنمل ودرس الديانات الشرقية التي تواترت الروايات عن قدرة أحبارها على تسخير الطبيعة ، وفحص هذه الروايات في كتابه عن السر الأعظم فلم يخف على القارىء غمه لتحققه من بطلانها ، وظل بعد ذلك مؤمناً بعالم الأسرار يراها ويلمسها في كل مكان بين ظواهر المادة والحياة ، ومن مؤلفاته غير القصص المسرحية وغير كتاب السر الأعظم كتاب عن « أبديتنا » (Our Eternity) وكتاب عن موقفنا أمام الصمت العظيم (Before the great silence) وشذرات مجموعة في هذا المعنى لا تخلو صفحة منها جميعاً من شواهد قوية على شعوره بأسرار الكون ووجوب التسليم بما لها من الأثر في الحياة ، وهو يقول في كتاب « أبديتنا » ان المجهول سيظل مجهولا ولو رزقنا ألف نصيب كنصيبنا من الفطنة والذكاء ، ولكن « فكرتنا » عن هذا المجهول هي أهم وأنبل ما تحتويه بصيرة الانسان . إذ ليس المجهول منفصلا عن الكون لأنه مجهول ، بل هو فينا ومحيط بنا وعامل بأيدينا ولا حيلة لنا في تقصير المسافة بيننا وبينه إلا أن نصاب بالقصور من تجاهل هذا المجهول ، فالبصيرة الانسانية تكبر بمقدار ما تتسع أمامها حدود ذلك المجهول ، وهي تصغر بمقدار ما تصغره وتعرض عنه وتعيش معه كأنه غير موجود .

***

وننتقل من هذا الشاعر الروائي « الحبر » كما وصفوه إلى كاتب روائي عاش زمناً بين أسرار الشرق ثم قنع بأن يعيش في عالم معطل الأسرار ، وهو إدوارد مورجان فورستر مؤلف كتاب (مجاز إلى الهند) وصاحب المقالات النقدية عن أدب الهند وأدب اليونان الحديثين .

ويعد « فورستر » بين أعلام القصة والنقد الفني في اللغة الانجليزية ، ويمتاز على نظرائه بذلك الاطلاع على الأدب الحديث في اليونان والهند ، حيث ساح وعمل أثناء الحرب العالمية الثانية ، وقد لخص عقيدته في مجموعة مقالاته فصرح

في اول مقالة بأنه لا يعتقد في الاعتقاد . ولكنه في عصر الاعتقاد حيث تحيط به العقائد المناضلة مدفوع بحكم الوقاية إلى صوغ عقيدة له تغنيه حيث لا تغني السماحة وطيب الطوية والعطف باحسان .

وبعد أن أشار إلى الايمان بالبطولة بديلا من العقائد المتداعية قال إنه ضعيف الثقة بالأبطال لأنهم يمسحون ما حولهم وينكسون جميع الرؤوس إلى جانبهم ويحفون أنفسهم أحيانا ببحر من الدماء إن لم يكن صحراء من الخلاء .

ثم ترجى أن ينبغ من الغيب محل مرموق ، فقال « إنه حين يجيء - إن جاء - لا يعظ الناس بكتاب جديد ، ولكنه يستغني عن ذلك بتوجيه العلية من ذوي المزايا الخلقية . وأن يعمد إلى ما هو موجود من العزائم الصالحة والشمائل الطيبة فيجندها للعمل الناجز ، أو هو بعبارة اخرى سيأتي بترتيب جديد . وقد قيل لنا في شؤون الاقتصاد إنها لو وضع لها ترتيب جديد لما كان هناك محل للفاقة ولما هلك الناس جوعاً في مكان ونبذوا الفاضل من الغلات في مكان آخر ، فمثل هذا التغيير مطلوب في ميادين الأخلاق السياسية ، وليس هذا بالمطلب الجديد . فانه قد طلب بالأسلوب اللاهوتي على لسان جاكوبون داتودي قبل ستمائة سنة حيث يقول : « يا من تحبونني . رتبوا حبكم على وفاق ! » . . . ولكنه طلب لم يستجب ، ولا إخاله سيجاب غداً ، ومع هذا أرى أن الخلاص إنما يأتي من هذا الطريق لا من طريق تغيير طبائع القلوب . فليس الأمل أن يصبح الانسان أحسن من هذا الانسان ، بل الأمل أن يرتب ما فيه من الخلق الصالح وأن يحسن توزيعه فيغلق على العنف صندوقه ويفسح الوقت لكشف أسرار الكون وطبعه منه بطابع كريم . أما الآن فانه يكشف أسراره اتفاقاً على اوقات متفرقات كأنه يغتنم الفرصة من التفات القوة العنيفة إلى ناحية أخرى ، وتبدو ملكاته الالهية المبدعة كأنها محصول عرضي يقتلع ساعة تدق الطبول وتطن القاذفات »

ثم قال إنه ضعيف الرجاء في تحقيق هذه النبوة بالوسائل الدينية الحاضرة ، وإلى أن يفلح علماء النفس وعلماء الحياة في خلق لحام جديد يربط بين الناس سيظل كل إنسان فرداً راضياً بما قسم له قانعاً بصفوة ما يتأتى له من مؤونة قليلة الصفاء .

وأحدث المجاميع التي عني واضعوها بنقل كلام الأدباء والمفكرين عن

عقائدهم كتاب (ما اعتقد)[1] لواضعه السير جيمس مارشانت (Marchant) وفيه فصل مسهب كتبه الأديب الشاعر المؤرخ للأدب والنقد ألفرد نويس (Al-fred Noyes) وهو من المؤمنين بعد دراسة واطلاع على الفلسفة ، وقد استخف فيه بالدراسات التي تقف عند حل التأمل والاستطلاع في مسائل العقيدة وقال إن العالم لن يحل مشاكله بالوقوف عند هذه الدراسات ، وان مشكلات العالم ناجمة من عجزه عن إشباع روحه لا من عجزه عن إشباع جوفه ، وسخر من قول القائلين إن الله قد نشأ في عقل الانسان فعقب عليه قائلا : وأين نشأ زعم الزاعمين أن الكون مكنة كبيرة ؟ ألم ينشأ في عقل الانسان ؟ ثم استشهد بقول لوتز (Lotze) إن المكنات حولنا في كل مكان ولكنها في كل مكان مسخرة تابعة ، فلم تشاهد قط مكنة إلا كان وراءها عقل يديرها ويسخرها ، وهذا الذي ينساه الماديون الآليون الذين يزعمون أن عمل الطبيعة في أنظمتها وقوانينها شبيه بعمل الآلات .

***

والأديب الفرنسي جول رومان (Romains) من اجدر ادباء امته بتمثيل المدرسة الايمانية وسطاً بين المقلدين وطلاب المظاهر والحذلقة من المنكرين وأدعياء الانكار ، وهو في رأي النقاد ضريب زولا وبلزاك في الاعراب عن المزاج اللاتيني الفرنسي الأصيل ، وقد سئل عن عقيدته فكتب جوابه في فصل موجز قال فيه : إنه ليس بالشكوكي ، ولا بالمتشائم ، ولا يحسب العقل قادراً على استطلاع الحقيقة المطلقة ، وانه قد يقترب منها ثم ينحرف عنها هنيهة ، ولكنه يرجو من تقدم الزمن أن يضطلع العلم النفساني بحكمة يعترف بها العلم الطبيعي قسراً ولا يتسنى له أن يغفلها او يحيلها مزدرياً بها إلى مجال البحث فيما بعد الطبيعة ، ويدهش الأديب لأن أقطاب العلم والفلسفة المعاصرين قانعون بأن يعيروا (نصف إذن) لما يقال عن كشف الحجب واستشفاف الغيوب .

قال : « إنني أحسبني من بعض الجوانب من العقليين الذين يقبلون ما فوق العقل (Sur-rationalist) وأعني أنني مستعد أن اعترف للروح عند بعض الأفذاذ في حالات مميزة بالقدرة على بلوغ الحقيقة بالالهام المباشر ، وأؤمن بأن هذا الالهام قد تكرر حدوثه في تاريخ الروح الانسانية ، ولكني ـ وأحب أن أؤكد هذا لأنه مبعث كثير من الخلط والاضطراب ـ أرى أن هذه اللمحات إنما

---

(١) صدر بالانجليزية في أواخر سنة ١٩٥٢ What I believe

تطرأ عرضاً بين ركام من حالات الوعي التي قد تشبهها ولكنها لا تعدو أن تكون حلماً أو وهماً ، وليس عمل العقل في هذه الحالات أن يدفع الروح إلى رفضها جميعاً بل عليه أن يعينها على التمييز بينها بمضاهاتها على الحقيقة .

« وقد ذكرت كلمة الروح مرات ، والواقع أنني أرى للقوة الروحية والنفسية مكاناً هاماً في الكون . . وأعتقد بصفة خاصة أن المقاربة بين الروحي والمادي تصدق في تجارب الجماعات كما تصدق في تجارب الآحاد . . »

ثم ختم رسالته قائلا : « وإلى هنا لم أقل شيئاً عن الله بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، لأنني أجد من العسير علي أن أقرر معنى يقينيا او مقارباً لليقين في هذا الموضوع » .

ومضى يناقش الفلاسفة في صفات الله ، ولا يرى كيف يكون التوفيق بين القدرة الكاملة وما يعتري الكون من الآفات والعيوب ، ويرجح أن المادة عائقة للمقاصد الالهية ، وأن الانسان مطالب بأن يجتهد اجتهاده لتغليب تلك المقاصد على ما عداها .

وجملة ما يفهم من فلسفة رومان ـ وهو فيلسوف درس الفلسفة زمناً ـ أن روح الانسان وروح الأمة ملاذ صالح للمقاربة بين المقاصد الالهية والمقاصد الدنيوية ، وأن الاجماع اللدني الذي يهتدي إليه الناس بداهة وارتجالا غير مصطنع ولا مدبر هو أصدق ما يشعر به الانسان من وحي الله .

***

ومن النادر جداً أن يشتهر في أمم الشمال (السكندنافية) أديب معطل كل التعطيل ، ولكنك تلمح في كتابات المفكرين منهم لواعج القلق التي تشبه لواعج العاطفة السوارة : فهي شوق غير مستقر وغير ضعيف وغير مفارق ، ولا حيلة فيه لصاحبه إلا كحيلة المحب الذي يقنع بما في أعماق وجدانه من الشوق ، ثم لا يحاول أن يسلط عليه أنوار النهار ، وكأنما عودتهم أجواء بلادهم أن يعيشوا تحت السحاب ويسكنوا إلى الليل الطويل ، فليس من اللازم عندهم جو الوضوح والاشراف .

وقد تردد منذ سنتين اسم كاتبهم السويدي « لاجر كفيت » صاحب رواية « باراباس » ذلك اللص الذي اختاره الأحبار والشعب للعفو عنه بديلا من

السيد المسيح ، وليس إيمان « لاجر كفيت » كإيمان البسطاء في الرواية ، ولكنه يستلهم الايمـان من تلك البساطـة ويروض حيرتـه الـذهنية البـادية من خلل السطور على الاقتداء بهؤلاء البسطاء ، فان كان ذهنه يعجز عن حل مشكلاته فاللوم عليه ، ولعله لا يضيره أن يعيش بذلك الذهـن الحائـر ما دام يحس في الأعماق تلك الذخيرة المحتجبة المضطربة ، وما دام له ذلك العطف على بساطة الايمان .

***

وفي الشعر تكثر شواهد الاعتقاد الشخصي ويسهل على القارىء أن يلمح من تصفح ديوان الشاعر قبلته في العقيدة الدينية .

وقد أردنا أن نختار من الشعر الانجليزي ثلاث مراحل على حسب السن ، وأن نختار من كل مرحلة شاعراً ممتازاً بحـكم الشهـرة العامـة ، فاخترنـا من المرحلة الأولى جون ماسفيلد الشاعر المتوج ، ومن المرحلة الثانية توماس اليوت صاحب جائزة نوبل منذ سنوات ، ومن المرحلة الثالثة ديلان تومـاس (Dy- llan) أوفى الشعراء الشبان نصيباً من تقدير النقاد الجديين .

أما ماسفيلد فهو مؤمن بالله يتجاوب شعـره في الأزمـات العـالمية بمـا يشبـه الصلاة ، وفي إحدى قصائده (عوناً للإنسان) يناجي الأمل الذي يتطلع إليه ابن آدم كما يتطلع إلى فلق الصبح لا إلى نجم عابر ، أوكما ينظر إلى نهار صاح يعيش فيه لا كما ينظر إلى علامة متنقلة ، ويقول ان كل مخلوق آدمي يولد هو روح يلبس الجسد في حجته بـين ظلماتنـا ، ويقبـل من الغيب مزوداً بالجمال والحكمة والفرح ، فيجمع بيننا الحزن والحماقة والشطط ، فان لم يقض بعد ذلك قتيلا مات وهو مجلل بأخطاء الزمان .

ثم يتساءل : أما كان الأحرى بكل مولد أن نستقبله كأنـه طالـع إلهـي يؤم بالناس قبلة الإخاء الذي هم في حاجة إليه ؟ أما كان الأحرى به أن يكون دعوة لقادم جديد يقبل إليهم بعد عناء ؟ أليس هذا التقديس للحياة جديراً أن يمهد لعيش أكرم وأسلم ، وأن يكون من إيمانه أنه عالم يعمه الاخاء ، ومن خيره أنه جنة على الأرض ، ومن رجائه أنه صدى للغناء ـ هناك ! »

وهو يومىء « بهناك » إلى عالم لا يسميه ولا يشير إلى مكانه ، ولكنه هناك . . مأنوس محسوس .

أما اليوت فقد مضى عليه سنوات وهو يطرق باباً من أبـواب المجهـول ثم يوصده أو يولي عنه إلى غيره ، أو هو يشك لسبب ثم يشك لسبب آخر ثم يوازن بين الأسباب ، حتى انتهى به المطاف إلى التمذهب بمذهب الكنيسة الكاثوليكية الانجليزية ، إيثاراً للاعتقاد في الجماعة ، وإيماناً بواجب كل فرد أن يتصل ولا ينفصل في مسائل الديانة حيثما استطاع .

وأما ديلان توماس فقد ظهر ديوانه الأخير قبل نهاية السنة الماضية (١٩٥٢) وقال عن سبب جمعه من كلمة موجزة في تصديره :

« قرأت مرة عن راعي غنم سئل : لماذا صنع من تمائم السحـر تعـويذة إلى القمر عسى أن يحرس له قطيعه ؟ فقال : لو لم أفعل لحقت علي لعنة الحماقة .

« وهذه القصائد بكل ما فيها من الخشونة والشك والخلط قد نظمت في حب الانسان والثناء على الله ، ولو لم أنظمها لحقت علي لعنة الحماقة ! »

وفي هذا السطر الأخير من التصدير كل ما استطاعه الشاعر من البيان : هكذا وإلا فهو أحمق (damn fool)

ويخرج القارىء من الديوان كله على إيمان بالله غـير محـدود ، أو هو إيمـان حدوده أن الله عنوان لخـير ما يرجـى في الحياة الانسـانية ، ومـاذا بعـد الحياة الانسانية ؟ حب لا يحاسب ولا يدين (Unjudging love) . وذلك غاية ما يقال ـ في شعر الديوان ـ عما بعد الموت من حياة .

وقد اخترنا هؤلاء الشعراء الثلاثة لأنهم جميعاً شعراء معبرون عما يحسونه في أنفسهم وما يحسونه حولهم ، وأعرضنا عن أدعياء الأفانين ممـن يهيمـون بكل أفنونة معتسفة لا حياة لها في أنفسهم ولا في العالم ، ولا معنى لها غير أنها فقاعة في رغوة طافية ، تلمع ثم تنفجر بعد قليل .

***

والاهتمام بعقائد الفنانين من المصورين والموسيقيين والممثلين مطلب لا يقل في دلالته وقيمته عن عقائد الشعـراء والأدبـاء والفلاسفـة ، ويزيده دلالـة أنهـم يصدرون عن البداهة الصامتة في فنونهم ، ويباشرون دقائق الخلق والانشـاء عملا لا يلتبس بأخطاء اللفظ وتعبيراته .

إلا أن هذه البداهة الصامتة هي موضع الصعوبة في استقراء عقائدهـم من

أعمالهم ، وهم لا يكتبون عن العقيدة ولا يسجلون آراءهم كثيراً بالقلم والكلمة ، ولهذا نعول على أقوال الذين كتبوا منهم في المسائل الدينية ، ولا نرى بين أيدينا من أقطاب الفن في القرن العشرين من هو أجدر بالتعويل عليه من جون كولير (Collier) (١٨٥٠ - ١٩٣٤) الذي يحسب مع الكتاب والنقاد كما يحسب مع المصورين في الذروة العليا ، وله في المسألة الدينية كتاب سماه « ديانة فنان » كتبه بعد الحرب العالميه الأولى وتناول فيه هذه المسألة من جميع اطرافها ، وفيما يلي تلخيص كلامه على العقيدة والفضيلة ورجاء بني الانسان ، وقد ختم كتابه ختاماً موجزاً قال فيه ان الديانة ليست هي الوسيلة الوحيدة للسعي في طريق الأمثلة العليا ، وانه يترقب مع الزمن يوماً تغني فيه الأخلاق غناء الديانة ، وتستقيم فيه الحماسة الدينية إلى طريق غير طريقها فيما مضى ، وقد كانت طريقها العراك والخلاف ، فلعل طريقها المقبل وحدة بني الانسان .

رأى كولير في الديانة أن مذهب الموحدين (Unitarianism) هو المذهب الذي يرتضيه الرجل العصري إذا فارق عقائده الموروثة وأحب أن يحتفظ بنسبته إلى المسيحية .

ويفضل في أمر الاله أن يؤمن بالاله الذي وصفه الكاتب الكبير (ويلز) على لسان أحد أبطاله[١] وهو إله قادر على كل شيء ولكنه يوزع تدبير الكون على الملائكة وأكبرهم الملك المحجوب (The Invisible King) فاذا حدث النقص والشر في الوجود فذاك من عمل الملك المحجوب لأنه طيب رحيم ولكنه ليس بالقادر على كل شيء ، فهذه الصفة أقرب إلى تفسير الواقع لولا أنه - أي كولير - عاجز عن تخيل الكائنات التي فوق الطبيعة .

أما الأخلاق فرأيه فيها أن المتدينين يسندون أعمالهم خطأ إلى الارادة الالهية ، فانهم لا يعلمون هذه الارادة ويضطرون إلى استجلائها بالصلاة والدعاء إذا عم عليهم أمرها ، وخير للفضيلة وللناس أن يبنوا عملهم الخلقي على أساس من حب بني الانسان . فان الله غني عن حبنا ، وأما بنو الانسان فلا يستغني بعضهم عن حب بعض ، ولا تزال العداوة بينهم مفسدة للأخلاق والضمائر ، ولا يصدق كولير بالعذاب الأبدي لأن الأبد ديمومة ليس لها نهاية ، وعمر الانسان محدود فلا يجزى عن الخطأ المحدود بعقاب دائم سرمدي لا يعرف

---

(١) رواية برتلنج ينفذ خلالها Mr. Britling sees it through

الحدود ، وهو يقول عن الحياة بعد الموت : « انني لا أعني أنني أنكر إمكان الحياة الأبدية خارج الزمان والمكان ، وإنما الذي أعنيه أنني لا أفهمها وانها لا تشبه الوجود كما أفهمه » .

وبعد استطراد قصير قال : « إن العلاقة بين العقل والمادة لمن الخفاء بحيث يحسن الوقوف منها موقف اللاأدرية . فقد يحتمل أن يوجد العقل مستقلا من المادة ويحتمل أن يكون للحياة بعد الموت صلة مادية ، وحقيقة الأمر أننا لا نعرف عن ذلك شيئاً ، ولعل هناك موضعاً للرجاء » .

ولا ننسى أن هذا الكتاب ظهر في غاشية الحرب العالمية الأولى ، وأنه مشوب بالكثير من دواخينها ونيرانها ، وليس في مؤلفات اقطاب الفنون ما يبسط القول في العقيدة الدينية ، وليس لدينا أيضاً ما يدل على شيوع هذه النظرة التي شرحها كولير في كتابه بين أولئك الأقطاب .

أما الأدباء والفنانون المتدينون بديانة الآباء والأجداد فهم غير قليلين ، ولكننا نقصر القول في هذه الرسالة على الجديد الذي تمخضت عنه أحوال القرن العشرين باجتهاد المجتهدين ومحاولة الباحثين ، ومما اجملناه آنفاً ـ وهو نموذج صالح للقياس عليه ـ يتبين لنا أن المؤمنين منهم بقوة غير القوة المادية يزيدون على غيرهم ، وأن القرن العشرين قد أبرز من ذوي العقائد المجتهدة طائفة لم يكن لها وجود محسوس في القرن التاسع عشر ، إذ لم يكن فيه صوت لغير الالحاد أو الايمان الموروث .

عقائد الفلاسفة

تتقابل في مذاهب الفلاسفة مدرستان خالدتان ، لا تزال كل منهما تتجددا عصراً بعد عصر باسم جديد ، وهما المدرسة المادية والمدرسة العقلية أو الروحانية أو المثالية ، وكلها أسماء لمسمى واحد في النهاية .

فمدرسة الماديين ـ كما يدل عليها اسمها ـ ترجع بالمعرفة الى التجربة المحسوسة ، وغيرها من المذاهب العقلية أو الروحانية أو المثالية ترجع بها إلى شيء غير التجربة المحسوسة ، وقد تستعين بهذه التجربة ولا تبطل عملها في المعرفة ، ولكنها لا تسلم القول بأنها هي المصدر الوحيد .

وفي القرن العشرين تقابلت هاتان المدرستان ، واتسمت كل منهما بالتطرف في دعواها ، كما يحدث كثيراً في موقف التحدي والمناجزة العنيفة .

فقامت مدرسة المنطق الوضعي (Positive Logic) من جانب ، وقامت بإزائها مدرسة التجريد من جانب آخر ، وهي في الواقع مذاهب شتى يجمعها النظر فيما وراء الطبيعة .

فمدرسة المنطق الوضعي لا ترى محلا للبحث فيما وراء الطبيعة ، لأنها ترجع بالمعرفة كلها إلى الحس ، وكل كلمة لا نرى مصداقها في شيء محسوس فهي لغو فارغ وقرقعة أشبه بقرقعة الأصوات المادية .

اما المذاهب الفلسفية الأخرى التي لا تقبل دعوى المنطقيين الوضعيين فتجمعها جامعة واحدة في النهاية ، وهي الرجوع بالمعرفة إلى غير المادة ، أو الرجوع بها إلى ما وراء الطبيعة .

ومن هؤلاء الفلاسفة الذين ينظرون فيا وراء الطبيعة من يقابلون الغلو الوضعي بغلو مثله أو أبعد منه مدى في الناحية الأخرى ، فينفون وجود معرفة قط تستغني عن النظر فيا وراء الطبيعة ، ولا يستثنون من ذلك معارف الحسيين والواقعيين في أضيق حدودها .

تناول سدني هوك دعوى القائلين ان الفكر نفسه هو آلة العمل فقال ان هذه الدعوى نفسها غير ممكنة ما لم يسلم أصحابها أن هناك مقررات غير حسية ، لأنهم يقررون وجود عالم لم تخلقه قوة عاقلة ، كما يقررون وجود فكر فيه يعمل ، ووجود تغييرات يحدث بعضها بمشاركة الفكر وبعضها بغير مشاركته ، وأن التغييرات التي يشترك فيها الفكر ليست مثالية أو عقلية في جوهرها[1]

غير أن المذاهب الوسطى من مذاهب ما وراء الطبيعة تضيف ولا تحذف .

تضيف وسائل البحث الفكري إلى وسائل التجربة الحسية ، ولا تحذف من برنامجها وسيلة علمية أو واقعية يستعان بها على المعرفة .

فبدلا من شعار « هذا او ذاك » تتخذ لها شعاراً جامعاً لهذا وذاك وزيادة ، ومن هذه الزيادة حسبان الالهام والبداهة من وسائل المعرفة عند طائفة من فلاسفة « ما وراء الطبيعة » في العصر الحديث .

فمعظم المدارس العقلية في القرن العشرين تدخل العلم في تقديرها وترجع إلى شعبة من شعبه في تأسيس دعائمها ، ومنها علم النفس وعلم الطبيعة ومذهب النشوء والارتقاء في حدوده العلمية .

فمن المذاهب التي ترجع إلى علم النفس مذهب « الظواهرية » نسبة إلى ظواهر الطبيعة (Phenomenology) .

ومن المذاهب التي ترجع إلى علم الطبيعة مذهب الزمانية المكانية (Space-time reality) .

ومن المذاهب التي ترجع إلى مذهب النشوء والارتقاء مذهب التطور والانبثاق (Emergent Evolution) .

---

(١) سدني هوك Sidney Hook في كتابه ما وراء الطبيعة في مذهب البرجمية Metaphysics of Pragmatism

ونحن مجتزئون في هذا الفصل بتلخيص فكرة الايمان كما يدين بها كل مذهب من هذه المذاهب .

فالظواهرية ـ وأشهر فلاسفتها هسيرل (Husserl) الألماني ترد كل معرفة إلى الوقع (Experience) وهو أعم من التجربة الحسية والتفكير العقلي ، لأن المعرفة ـ على حسب هذا المذهب ـ تتم بما يقع في الوعي من طريق الحس والتفكير والكلام .

فالحس لا يعطينا كل المعرفة ، والتفكير كذلك لا يعطينا المعرفة كلها ولو كانت مستمدة من الحس والتفكير ، والكلمات تعطي المعنى ولكن المعنى غير المعرفة التي تقع في وعي العارف .

اما المعرفة بالله خاصة فهي « وقع » مباشر لا يعتمد على الحس لأن الله لا يقع تحت الحس ، ولا يعتمد على الفكر لأن الفكر لا يحده ، ولا يعتمد على الكلمات لأن الكلمات تنقل معناها ولا تزيد عليه ، وإنما تستقر المعرفة بالله في الوعي مباشرة بما يقع فيه من جملة المعارف الحسية والفكرية والمعنوية وزيادة عليها ، وكونك لا تستطيع حصرها في اللفظ لا ينفي وجودها ، فانك لو جربت حصر معنى واحد في المعاني الحسية في لفظ جامع مانع لاستعصى عليك أن تحصره وتقنع بحصره ، فكيف بالمعرفة التي لا تدانيها معرفة في الشمول والكمال ؟

وأما مذهب الزمانية المكانية فرأس القائلين به هو صمويل الكسندر الذي نشأ في استراليا وعاش في انجلترا ، وصفوة الرأي فيه أن الوجود حركة وأن الحركة الأولى نشأت من اتصال الزمان بالمكان ، وأن صفات الموجودات هي جملة حركات منوعة ، وان الله هو غاية هذه الحركات ، فهو الكمال التالي لكل مرحلة ينتهي إليها الكون ، ولا يزال الكون يحقق بالحركة كمالا بعد كمال .

وقد يبدو هذا المذهب ، لأول وهلة ، ممعناً جد الامعان في غوامض ما بعد الطبيعة ، ولكنه في دعائمه لا يعدو أن يكون تفسيراً خاصاً لمعنى الجسم المادي في علم الطبيعة الحديث .

فالأجسام كلها تتألف من الذرة ، والذرة تنشق وتنطلق فتصبح شعاعاً والشعاع هو حركة في الأثير او الفضاء ، لأن اوصاف الأثير في علم الطبيعة مطابقة لأوصاف الفضاء .

وكأنما يقول الفيلسوف إن الحركة هي الزمان ، وإن الأثير هو المكان ، وان المادة وجدت حين وجد الشعاع ، أي حين اتصل الزمان بالمكان ، وان تنوع الموجودات إنما جاء من تلاقي الحركات واتحادها في الجهة ، ثم يزيد على ذلك نتيجة مذهبه وهي تقدم الحركة مع تقدم الزمان .

أما مذاهب التطور الانبثاقي أو التطور المنبثق وسائر المذاهب التي تمت إلى النشوء والارتقاء فلها شراح كثيرون ، وهي مذاهب واسعة الآفاق يدخل فيها حتى مذهب الزمانة والمكانية الذي يذكر باسم صمويل الكسندر ، وكل شراحه من أقطاب الفلسفة في اللغة الانجليزية أمثال ويتهيد ومورجان وسمطس ، وكلهم يؤمنون بوجود القوة الالهية على اختلاف في تصوير علاقتها بالكون والانسان ومنهم من يؤمن بقدم الأشياء جميعاً وحدوث تراكيبها وأطوارها ، ويكل إلى الله تدبير الخلق وإخراج الأطوار والتراكيب من بسائطها الأولى ، ومنهم من يعتبر كل موجود مركب كائناً عضوياً لأنه كالجسد الحي في ضرورة تركيبه وتماسك أجزائه ، ويعتبر الحياة تركيبة مميزة بين هذه الكائنات العضوية ، والمهم في هذه الفلسفات بالنظر إلى موضوع رسالتنا عن عقائد المفكرين أن وجود الله لازم فيها لتفسير كل موجود ، وأن أصحابها مؤمنون فلسفيون ، وان لم يكونوا مؤمنين بالديانة « الرسمية » .

وقد أجمل كولنجود (Collingwood) موقف الفلسفة من العلم في البلاد الانجليزية فقال في كتابه « فكرة الطبيعة » (The Idea of Nature) إن العلماء الطبيعيين « بعد أن تتبعوا نظرياتهم عن المادة إلى حيث تنكشف حدود العالم الطبيعي وتنكشف حاجته إلى الاعتماد على غيره أطلقوا الاسم القديم - اسم الله - على ذلك السند الذي يعتمد عليه ، وان اللجوء إلى هذا الاسم يقابل بالترحاب - لأنه يظهر مدى تحرر الفكر الحديث من أوهاق المثالية الذهنية . لا لأنه يبشر برتق الطبيعة بين الدين والفلسفة ولا لأنه يومىء إلى إحياء التقاليد الفلسفية القديمة على سنن أفلاطون وأرسطو وديكارت وكفى »

ومن رأي كولنجود في هذا البحث أن المادية لم تزل منذ ظهرت في القرن السابع عشر محاولة لم تصل إلى محصل ، ولم يزل ربها - أي الكون المادي - إله خوارق وأعاجيب تخفى على العقول ، وانها تعلق رجاءها على الغيب عسى أن يجلو الزمن أسراره مع تقدم العلوم ، وانها بمثابة من يكتب صكوكاً ضخاماً على

رصيد غير موجود ، وان زعمها أن الفكر إفراز من الدماغ كافراز الصفراء من المرارة قد يحسب من تصديقات المتدينين ولكنه في نظر العلم إنما هو تمويه وتهويش ، ويتهكم كولنجود ببعض دعاة المادية الأسبقين فيقول إنك لو بدلت كلمة هنا وكلمة هناك من كلامه عن المادة لسلكتها في عداد الصلوات .

وفي عالم الفلسفة الانجليزية أناس مثل كولنجود يسمع حكمهم في المسائل الفلسفية ولا يسلكون بين أصحاب المذاهب والمدارس ، وقيمة آرائهم انها آراء مستقلين لا يعنيهم ترويج هذا المذهب او ذاك ولا يحاسبون على أفكارهم المتفرقة بحجج المؤمنين ولا بحجج المنكرين ، وهؤلاء النقدة الفلسفيون هم ميزان الآراء بين المدارس الفلسفية والعلمية ، ومن هذا الميزان يتبين أن الفلسفة المادية في هذا العصر أضعف من أن تهاجم العقيدة في معقل أو في مقتل ، وأنها قد تراجعت من الهجوم المتلاحق إلى الدفاع الذي لا يعززه دليل مقبول .

من هؤلاء النقدة الفلسفيين غير كولنجود أستاذان لا يقلان عن أقطاب المذاهب ، ولا يعيبهما أنهما لا يشتركان في مباحث الفلسفة بمذهب ينسب إليهما . بل لعل هذا مما يشهد لهما بأمانة العلم والحيدة بين البراهين والأسانيد التي تتساوى عندهم في القوة والاقناع .

هذان الناقدان هما الأستاذ برود (Broad) والأستاذ جود (Joad) وكلاهما من أساتذة الفلسفة والأخلاق وعلم النفس وأصحاب التواليف المحترمة في هذه الموضوعات .

فالأستاذ برود يعرض براهين الايمان وبراهين الانكار في محاضراته عن الدين والفلسفة والمباحث النفسية(١) ويبين ما فيها جميعاً من مواطن القوة والضعف ، ويقول ما مؤداه إن الأدلة على العالم الآخر قد توجد من التجارب النفسية ومن القضايا المنطقية ولكنها لا تلزم المعارض ، وإن الفلاسفة الأقدمين الذين اعتبروا الحقيقة الالهية مقنعة بذاتها إنما سلكوا هذا المسلك لأنهم نشأوا في الجو العقلي الذي كان يتقبل قضايا اقليدس بغير برهان ، فاذا تحرج المنطقي العصري من قبول تلك البراهين الفلسفية فقد يتحرج الرياضي العصري مثل هذا التحرج من قبول أحكام اقليدس بعد أن كانت غنية عن كل برهان في رأي الرياضيين الأقدمين ، ومثل هذا التغير قد عرض للبراهين المادية فسقطمنها في

(١) Religion, Philosophy, and Psychical Research.

جو العقل الحديث ما كان معدوداً من المفحمات .

ويوازن برود في محاضرته عن وجود الله بين الكفتين المملوءتين بحجج المعتقدين والمتشككين ثم يختمها بهذه المعادلة التي استقر عليها رأيه فيقول : « ان النوع الانساني إذا استمر على اعتقاده وبحثه في التجارب الدينية فسوف يأتي الزمن الذي تختلف فيه عقائده حتى لا يعرفها من عرفها كما هي الآن ، ولكن هذا الحكم يسري بقضه وقضيضه على مدركات العلم ونظرياته ، ومن الهزل أن يدعى لنحلة من النحل أنها فرغت من تقرير الحقائق جميعاً في هذه المسائل كافة . . . ولكن الطرف المقابل لهذا الطرف يهزل كهذا الهزل ـ وإن لم يكن مثله تماماً ـ حين يزعم أن تجارب الدين كلها وهم وخداع . . . » .

ويوازن مثل هذه الموازنة في ختام كلامه على ديانات الفاشية والشيوعية فيذكر قصة الطفل الذي هرب من مرضعته في حديقة الحيوان فأكله الأسد . . ويتمثل بنصيحة مستر بلوك « Belloc » مؤلف القصة إذ يستخلص عبرتها قائلا : « صبراً على المرضعة حذراً مما هو أمر وأدهى » .

***

أما الأستاذ جود فقوة المعارضة أدل على فلسفته من قوة التأييد ، ومعارضته للمادية أشد من معارضته للبراهين الالهية ، وصفوة كلامه كما أجمله في كتابه عن معنى الحياة (The meaning of life) « أن الكون لا يمكن تفسيره بمبدأ أساسي واحد دون غيره ، ولا بد لتفسيره الوافي من مبدأين على الأقل . . . فالمادة ـ على كونها حقيقة واقعة ـ ليست كذلك على وجه مطلق ، لأن وقائع علم الحياة تأبى أن تفسر بمصطلحات المادية البحتة »

وخير ما يستفاد من المادية العصرية ، أو الآلية العصرية ، في اعتقاد (جود) انها تعطينا الوقت الكافي لاستملاء محاسن القيم النفسية كالخير والحق والجمال . لأن علمنا بقوانين المادة قد أغنانا عن ملابستها كما كان يلابسها آباؤنا وأجدادنا ، فنحن ـ بحركة اصبع ـ نطلق من القوى الآلية ما كان آباؤنا وأجدادنا ينفقون العمر وهم يعملون برؤوسهم وأيديهم وأرجلهم ولا يقدرون على إطلاقه ، وادخار هذه الجهود لا فائدة له إن لم نكسب به قيما باقياً في ميادين الخير والحق والجمال ، وعلى هذا التقدير يكون العصر المادي او العصر الآلي

مقدمة لعصور أخرى يتضاءل فيها شأن العوامل المادية والآلية جيلا بعد جيل ، ان لم يصب بنو الانسان بنكسة ليست في الحسبان .

وبينا نحن نصحح هذا الفصل ورد إلينا كتاب جود الأخير « رجعة العقيدة » (The Recovery of Belief) وفي اسمه دلالة عليه . فقد خطا جود في هذا الكتاب خطوة كبيرة نحو الايمان ودان بعقيدة شبيهة بعقيدة هكسلي الصوفية ، وختمه قائلا : « إنه قد يكون داعيا قويا الى النظرة الربانية في الكون ، ولكنه بالنسبة إلى تفسيرها المسيحي يقف موقف الاشارة دون البرهان .

***

وأهم المدارس الفلسفية في غير انجلترا وألمانيا هي مدارس الوجودية الفرنسية على نهجيها من وجودية متدينة ووجودية ملحدة ، وهي اخص المدارس الفكرية بالقرن العشرين ، لأن بواعثها لم تنتشر قط في عصر سابق كما انتشرت فيه ، وبواعثها هي طغيان روح الجماعة على استقلال الأفراد ، وتفاقم الشرور العالمية وازماتها الروحية في ضمائر المفكرين ، وسنجمل الكلام فيها على حدة .

ولم تخل القارة الأمريكية من دعوات فلسفية في مباحث ما وراء الطبيعة ، فنبغ كروتشة Croce في إيطاليا وأوشك أن يسيطر على تفكيرها الفلسفي من أوائل القرن العشرين ، ونبغ أنامونو Unamono في أسبانيا وأوشك أن يضارع كروتشه في مكانته بين الايطاليين ، لولا أن كتابة الفيلسوف الأسباني أقرب إلى الشعر والقصة وأدنى إلى الخيال منها إلى التفكير .

وكاد جوسيا رويس (Josiah Royce) أن يستوي وحده في أمريكا الشمالية على مدرسة الفلسفة التي تبحث فيا وراء الطبيعة ، بل كاد في هذه المباحث أن ينحي مذهب وليام جيمس الذي توفي قبله ببضع سنوات ، لأن وليام جيمس قد اكتفى بفلسفةالنتائج والذرائع (أو البرجمية) ولم يوغل في مباحث ما وراء الطبيعة .

وليست هذه الآراء والمذاهب مستوعبة لفلسفة ما وراء الطبيعة في تلك الأمم ، ولكنها في زبدتها مثال صالح لاتجاه العقول والنفوس الذي لا تنحرف الأفكار العامة عنه بعيداً ، وان تمثلت على تفاوت بينها في عقائد الأفراد ، كما يتفاوت الأفراد عادة في مسائل الفهم والشعور .

وزبدة الفلسفة التي بسطها كروتشة في تصنيفاته الكثيرة هي نفي المادية وتغليب الفكرة الخالقة على عوامل الكون والحياة ، فليس في الكون حقيقة أبدية غير العقل الالهي ، وخلود النفس عنده معناه أنها جزء من حقيقة الكون في أعماقه ، تتراءى في صور المادة ثم تخلفها صور أتم منها وأكمل وأعلى إلى غير انتهاء .

وزبدة فلسفة انامونو أنه كان في بيان ديانته « يميل بقلبه وشعوره إلى المسيحية دون أن يأخذ بقضايا الاعتقاد في هذه النحلة او تلك » . . . . وهذه مسألة قلبية ، وأعني بأنها قلبية أنها لم تثبت عندي على النحو الذي اثبت فيه ان اثنين واثنين تساوي اربعة » .

وفي أقوال ابطاله ومحاورات قصصه زبدة اخرى أدل على لباب عقيدته من ذلك البيان ، فليس الله ما تحتويه بفكرة أو أمثولة ، ولكنه ما تطلبه بشوق وجهاد ، وليس حساب الله للانسان على ما كان بل على ما ينبغي أن يكون ثم قصر دونه بغفلته واسفافه وإيثاره الحلوى الصبيانية على غذاء النضج والنماء ، ومن قال إنه إنسان وقنع بأن يظل إنساناً في أهوائه ونزواته فنهايته أن ينحدر عن منزلة الانسان إلى حضيض الحيوانية ، وإنما تتم له فضائل الإنسانية حين لا يقنع بها ويتسامى إلى ما فوقها ، ولا يكف عن السعي لأنه يسعى في طريق الأبد ، وليس للمسعى في طريق الأبد من قرار .

وليس في روسيا اليوم فلسفة مستقلة عن الفلسفة الماركسية كما تطبقها الدولة ، ولكن الفيلسوف الروسي المستقل (لوسيف) (Lossev) قد أعلن آراءه فيما وراء الطبيعة بعيداً من موضوع المباحث الاقتصادية والسياسية ، واعتبر أن الوجود ثلاثة أطوار : طور فوق الفكر وفوق الوجود المدرك ، وطور كائن لا يتصوره العقل إلا مع مقابل معدوم ، وهو يرادف ما يسمى بالكليات في الفلسفة العامة ، كاسم الشجر والحجر والنجم والانسان وغيرها من الأجناس . . والطور الثالث هو الصيرورة التي لا تزال في جانب منها وجوداً وفي الجانب الآخر عدماً ، ومهمة الفلسفة ومهمة العلم تختلفان حيال هذه الأطوار الثلاثة . فالعلم يتولى تحقيق الموجود الفرد الماثل للعيان والحس والتجربة ، والفلسفة تتولى النظر في الوجود المطلق والوجود الذي تبرزه الصيرورة ، ولا يزال وسطاً بين الكائن والمعدوم .

ولولا أن هذا المذهب أقرب إلى النفي لكان كلامه عن الوجود فوق الفكر

شبيهاً بكلام أفلوطين عن « الأحد » الذي يعلو به حتى عن صورة الوجود على الإطلاق ، ولكن لوسيف في كتابه عن الكون القديم والعلم الحديث (The Ancient Cosmos and Modern Science) يكاد ينفي كل وجود فوق الفكر ويقول وهو يسميه بالأحد « إن هذا الأحد ليس مطابقاً لنفسه ولا لغيره ، وليس كذلك مخالفاً لنفسه ولا لغيره ، وأنه بهذه المثابة لا يوجد ، وفوق الوجود[1]

***

ومن الحالات التي تلوح للنظرة الأولى كأنها إحدى المفارقات ان العالم الجديد أميل إلى المحافظة الدينية من العالم القديم ، بيد أنها في الواقع حالة طبيعية منطقية لا محل فيها للمفارقة . إذ كان المجتمع الأمريكي الأول قد قام على عقائد المهاجرين المتطسين الذين لاذوا بالعالم الجديد فراراً بعقائدهم من اضطهاد خصومهم ومعارضيهم ، وإذ كانت ثورة التمرد على الدين بين أمم القارة الأوربية قد نجمت من مقدمات طويلة في تاريخها لم يحدث لها نظير في تاريخ القارة الأمريكية ، فلا جرم يغلب الميل إلى الاعتقاد على مذاهب الفلسفة التي يتمخض عنها مجتمع العالم الجديد ، ويقال عنه ان مذاهبه هي الجناح الأيمن في صفوف الدين ، ويصدق هذا بصفة خاصة على مذهب رويس الذي ألمعنا إليه .

فالفضيلة العليا في مذهب رويس هي توسيع الحياة الانسانية حتى تخرج من أفقها الضيق المحدود إلى أفق « اللانهاية » الالهية ، وعلامة الالتقاء بين الأفق الانساني المحدود والأفق الالهي السرمدي هو الخلق الذي تجاوز المنافع الفانية ، فما الانسان في حياته الخاصة إلا شذرة من الحياة الأبدية المطلقة ، تظل مغلقة إذا غفلت عن مصدرها وتثوب إلى ذلك المصدر كلما تنبهت إلى مبادئها وغاياتها ، وليست الحياة الانسانية الخاصة مفهومة على حدة ما لم تنزل في منزلتها من الحياة الأبدية المطلقة ، فهي كالنغمة الموسيقية التي لا معنى لها مع انفرادها ، والتي تترجم عن الأبد كله عند تنسيقها مع سائر النغمات .

وفي مذهب رويس ان العالم إرادة وفكرة كما في مذهب شوبنهور المعروف ، ولكن الارادة والفكرة فيه تتعاونان ولا تتناقضان وتمام التعاون بينهما أن يخرجا من المحدود إلى غير المحدود .

وقد حل رويس مشكلة الشر باعتبارها آية من آيات الكمال الالهي تثبت

---

(١) History of Russian Philosophy by Lossky.

الكمال ولا تنفيه ، فانما الكمال أن يعارض النقص معارضة فعالة لا أن يكون قوامه سلبياً لخلو الكون من النقائص والشرور ، فآية الكمال أن الله يخلق الخير ويخلق له ادواته التي يقاوم بها نقيضه ، ولو قام الخير مفرداً بغير نقيض لما تم له الكمال.وتبدو ملامح الفلسفة الألمانية واضحة في مذهب رويس ولا سيما مذهبي هيجل وشوبنهور ، ولكنه يغربل المذهبين ويستصفي منهما عناصر الايمان والتوفيق بين العقيدة الفلسفية وعقائد الديانات .

ولابد عند الكلام على الفلسفة في أمريكا من الالماع إلى مذهب الواقعية الجديدة (Neo-Realism) الذي يشيع فيها هذه الأيام وهو مذهب يدل على اتجاه جديد « للواقعية » نفسها يبين لنا الفارق بين الواقعيين من مفكري القرن العشرين والواقعيين من مفكري القرن الماضي ، وهو فارق مهم في اتجاه الفكر الحديث حيال المسائل الغيبية على العموم ، فان الواقعيين الجدد لا يعتبرون التصديق بالواقع منافياً للتصديق بالغيب المجهول ، بل يجعلون المعرفة معرفتين : إحداهما علمية وهي التي تنعزل عن شعور العارف وأمله ، والأخرى عملية ذاتية ومنها المعرفة الدينية الغيبية التي تناط بها الأمال في حياة أفضل من الحياة الحاضرة سواء في هذا العالم أو في عالم آخر ، ولا مانع عند الواقعيين الجدد أن تكون هذه المعرفة مقترنة بالحقيقة وان لم تثبتها التجارب العلمية في حيزها المحدود ، ويرجع في استقصاء آراء هؤلاء المفكرين إلى مجموعة هورنلي[1] أستاذ الفلسفة السابق بجامعة هارفارد والى كتاب الفيلسوف بيري[2] عن الاتجاهات الفلسفية المعاصرة .

***

وبعد فان الفلسفة تذهب في كل مذهب ، وتتسع للتصور كل متسع ، إذا تتبعناها إلى أطرافها لم نحصرها في أقسام محدودة ، فاذا تتبعناها إلى مركزها أو محورها فهناك يتأتى تقسيمها إلى أقسامها المجملة ، ومن النظر إلى مراكز الفلسفة في القرن العشرين يخلص لنا أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) طائفة نفضت يديها من مباحث « ما وراء الطبيعة » لأنها من المجهولات التي لا تعرف ولا تقبل المعرفة بالوسائل العلمية أو العقلية ، وينتمي أصحاب

---

(١) Hornlé في كتاب دراسات في الفلسفة . Studies in Philosophy

(٢) Perry في كتاب Present Philosophical Tendencies

المنطق الوضعي إلى هذه الطائفة ، كما ينتمي إليها الشكوكيون ، أي اللاأدريون .

(٢) وطائفة جزمت بإنكار ما وراء الطبيعة ولا سند لها من نظريات العلم في القرن العشرين ، ولا سيما النظريات التي خرجت بالمادة من صورتها في العلم القديم إلى الصورة التي جعلتها في عداد المعقولات الرياضية .

(٣) وطائفة تؤمن أو تتجه إلى الايمان ، ولا تجد من العلوم الحديثة تلك المقاومة التي كانت راصدة لها قبل القرن الأخير .

ومجمل القول في موقف الفلسفة كلها في هذا القرن أن الفلسفة المادية تتراجع من الهجوم إلى الدفاع بسلاح غير فعال .

الفلاسفة الوجوديون

بدأت الفلسفة الوجودية (Existentialism) في القرن التاسع عشر واستفاضت في القرن العشرين ، ولا تزال أشهر المدارس الفلسفية في هذه السنوات لأنها تشتمل على مذهب من مذاهب السلوك ، ويغلب على مذهبها الشائع في السلوك أنه يدعو إلى الاباحة واطراح العرف والخلق وعقائد الأديان .

لكن « الوجودية » مدرسة واسعة النطاق ينتمي إليها المؤمنون والملحدون ، وبين فلاسفتها أناس متدينون متصوفون لعلهم أكثر عدداً من الوجوديين المنكرين ، إذ ليست « الوجودية » في ذاتها دعوة مخالفة للدين ولا للعقائد الخلقية ، وليس بين مذاهبها من وحدة مشتركة غير إنصاف « الشخصية الانسانية » أمام الجماعة في عصر شاعت فيه قيمة الكثرة والزحام ، وقلت فيه قيمة المزايا والصفات . وما عدا ذلك من التفصيلات فانما يقع فيه الخلاف تبعاً لموضوع النزاع بين الحرية الشخصية وطغيان الجماعات .

فالوجودي المتدين قد يؤمن بالله أشد الايمان ولكنه لا يؤمن بالمراسم والشعائر ولا يذعن لسلطان الكنيسة ورجال الدين .

والوجودي الاباحي قد يكون من أقوم الناس خلقاً وأطهرهم سيرة ولا تتراءى منه الاباحة إلا حين يتمرد على المحظورات التي لا حجة لها غير مجاراة العادة والاستسلام للتقاليد والموروثات .

والوجودي الذي يتهالك على الشهوات ويختار لنفسه ما يهواه يتعلل بحق الفرد أو بحق الشخصية الانسانية في حياتها الخاصة ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل

ذلك الحق قانوناً ملزماً لجميع الشخصيات ، وإنما يدين به في سلوكه ولا يجهل المصير الذي قد يعرضه له ذلك السلوك ، حيث يصطدم بالجماعة أو يصطدم بغيره من آحاد الناس .

وقد تسمى الوجوديون بهذا الاسم لأنهم يعتبرون وجود الانسان مقدماً على ماهيته ، أو يعتبرون أن وجوده لذاته أهم من كونه واحداً من نوع متعدد الأحاد ، فلا حقيقة للنوع الانساني كله إلا بوجود هذا الانسان وذاك الانسان ، ولا يصح لهذا أن يكون وجود النوع معطلا لاستقلال الشخصية الانسانية وهي الأصل في الوجود .

فليس من الضروري إذن أن يخرج الانسان على العقائد الدينية لأنه من الوجوديين ، وقد تكون الوجودية الدينية - كما تقدم - أعم من الوجودية المنكرة أو الاباحية ، ومن تدين من الوجوديين فهو لا يقنع بما دون الوصول إلى معتقده ببحثه ودأبه ونفاذه إلى ما وراء « النسخ المكررة » من عقائد المقلدين ، ومنهم من يسمي عقائد المقلدين بالعقائد « المرجوعة » تشبيهاً لها بالثياب التي يلبسها غير واحد بغير قياس ، وفيها ما فيها من البقايا والأدناس .

***

هذه الوجودية المتدينة متعددة بطبيعتها على أوسع ما يكون التعدد تحت عنوان واحد . لأنها من اجتهاد كل باحث بينه وبين ضميره ، وهي أشبه ما تكون بالنحل الصوفية التي يهتدي فيها كل مجتهد بهديه . وقلما تتكرر على نحو واحد إلا في أعم المبادىء والغايات ، وسنحاول في الخلاصات التالية أن نختار منها المذاهب التي يمثل كل منها وجهة متفقة بطبيعة التفكير والمزاج .

***

من هذه المدارس مدرسة بردييف (Berdyaef) الروسي الذي ازدوجت ثورته على الشيوعية وعلى الديانة « الرسمية » واعتقد ان خلاص الانسان عمل من أعمال الانسان ، فلا يخلصه أحد إن لم تكن في طويته عدة الخلاص ، وقد ترددت له كلمات كأنها من كلمات الحلاج في الحلول ، لولا انه لا يؤمن بالحلول ، وإنما يقول إن وجود الانسان في العالم لازم كوجود الله ، وإن الحب يمحو ما بين الخالق والمخلوق من الموانع والحجب ، فالله يطلب الانسان

والانسان يطلب الله ، وباطل كل « حكم مطلق » في السماء كما هو باطل في الأرض بين المخلوق والمخلوق ، وإنه لولا أن خلق الانسان يضيف شيئاً جديداً إلى حقيقة الحياة لما خلقه الله

وعلى الانسان أن يعلو بنفسه من الفردية إلى الشخصية ، لأن الفردية عدد والشخصية قيمة ، وفي سبيل القيمة قد ينبذ الفرد حياته ولا خسارة عليه .

كذلك ينبغي للجماعة أن ترتفع من كونها جمهرة إلى كونها رابطة روحية (Com-munity) . فان الجمهرة مجموعة أفراد وأما الرابطة فهي مجموعة « شخصيات » يضيف بعضها إلى بعض في قيم الحياة .

ولا بد للعملين من حرية ، ولكن حرية الوسيلة غير حرية الغاية ، فاذا طلبنا حرية الوسيلة فانما نطلبها لنختار بين طريقين ، وإذا طلبنا حرية الغاية فانما هي حرية الضمير التي تخلص بها من قيود طباعه السفلى فلا يعوقه منها عائق عن الحق والخير ، وينعي برديف على المصلحين الدينيين في عصر النهضة أنهم جعلوا إرادة الانسان كأنها مطية يركبها الله أو يركبها الشيطان ، فانما إرادة الانسان هي التي تختار طريقها ومطيتها أو تعجز عن المسير فلا تخطو خطوة تستحق عناء المسير .

ولم تكن فلسفة برديف فلسفة اطلاع ودراسة وحسب ، بل كانت خبرته بالحياة أعظم أثراً في نفسه من مطالعاته ودروسه ، فاختبر أزمات الأمم الأوربية في جميع اقطارها ، وشهد القارة الأوربية من مشرقها إلى مغربها وهي في أحرج أزماتها .

شهد أزمة القيصرية في روسيا ثم شهد أزمة الشيوعية فيها ، ثم انتقل إلى برلين فضاق ذرعاً بالنازية وهجر البلاد الألمانية إلى فرنسا حيث أقام بباريس وظل مقيما بها إلى أن دخلها الألمان ، فاعتقلوه برهة ثم اطلقوه فشهد في العاصمة كل نوع من أنواع الحكم وخالط كل مدرسة من مدارس الفكر إلى أن مات بها (سنة ١٩٤٨) .

ولم تزده هذه الأزمات المطبقة إلا إيماناً بالحرية الشخصية واعتصاماً بالضمير الروحاني في وجه العالم الخارجي بجميع أهواله واوقاره ، وساء ظنه بثقافة الغرب وحضارته في وقت واحد ، لأن الثقافة تنزع إلى نقد كل شيء وتستقبل الحياة بروح مجزأة مبعثرة ثم تستغرق النفوس بالشواغل الدنيوية التي تنحصر في

السطوة والمال . أما الحضارة فهي مجاز من الثقافة والتأمل والنقد الى الحياة العملية الواقعية التي تختتم بانتحال العقيدة المادية الاقتصادية (Economic Materialism) كما حدث في ظل الحكم الأوروبي الحديث على تعدد عناوينه وأسمائه ، ولا تستقيم حياة الانسان - على مذهب برديف - إلا بالاشتراكية الشخصية : أي بالقضاء على الاستغلال وسلطان المال مع الابقاء على حرية الفكر والضمير ، وهذه هي الحرية التي تسمح لكل معتقد بالاطمئنان إلى خلاص روحه حسب اجتهاده وعلى هداية فكره وبصيرته ، فيدين كل ذي روح بالصوفية التي تقربه من الله وتتمم فيه مهمة الانسان على هذه الأرض ، وهي استحقاق الحرية والقداسة .

وفي الفصل الأخير من آخر كتاب ألفه قبيل وفاته[1] يقول : « إننا نميز في الماضي ثلاثة أنماط من الصوفية : أولها تصوف الفرد وهو يبحث عن الله ويقترب منه وهذا هو أشبه الأنماط بالصبغة الكنسية ، وثانيها هو تصوف دعاة المعرفة (Gnostics) ولا يحسن الخلط بينه وبين الزندقة التي ظهرت في العصور المسيحية الأولى ، وهذا النمط من التصوف يتجاوز حياة الفرد ويشمل الكون والحياة الالهية . وثالث الأنماط هو تصوف النبوات والتبشير بالرسالات المخلصة وهو نمط يتعلق بالقيامة وما وراء التاريخ وعنده تبتدىء النهاية . وكلها - أي الأنماط الصوفية الثلاثة - لها آمادها وحدودها .

« والعالم اليوم يدلج في الظلام نحو صوفية وروحانية جديدة ، لا محل فيها لتلفت النظرة النسكية إلى الدنيا ولا لما توحيه تلك النظرة النسكية من العزلة واجتناب الجماعات والآحاد ، ولا يبقى فيها النسك إلا كوسيلة أو رياضة على التطهر والصفاء ، وهو يتجه إلى الدنيا ولكنه لا يعتبرها نهاية الغايات . فهو مسلك من النسك أشد اتصالا بالدنيا وأكثر تحرراً منها في وقت واحد ، أو هو مسلك نحو العمق الروحاني تقوى فيه دعوة الخلاص وتتجلى فيه معرفة صادقة أقدر على السلامة من أوهاق الغايات الدنيوية التي ابتلي بها المعرفيون الأقدمون . وتتلاقى ثمة أشتات النقائض المعذبة والنحل الموزعة ، لأن الصوفية الجديدة أعمق من الديانات وينبغي أن توحدها وتؤلف بينها ، ويومئذ تنتصر الصوفية على أباطيل الدعوات الاجتماعية المتشبهة بها ، وتنتصر دولة

---

(١) كتاب دولة الروح ودولة قيصر لنقولاس برديف

Th Realm of Spirit and the Realm of Caesar by Berdyaev.

الروح على دولة قيصر » .

***

وقد أخرجت ألمانيا الحديثة فيلسوفاً يضارع برديف في دعوته « الوجودية » المتدينة ، وهو كارل جاسبر (Karl Jasper) الذي بدأ حياته الفكرية بمعالجة الطب النفساني وهدته التجربة في علاج النفس إلى مذهبه الفلسفي القائم على تصحيح الروح بالايمان .

وكلمة « المذهب » لا تطلق على فلسفة جاسبر إلا مجاراة للعرف في الكلام على آراء الفلاسفة . أما أصح الأوصاف لفلسفته فهو انها تمهيد يصل منه كل طارق إلى مذهبه الذي يختاره ، فهي أصبع نافذة تشير إلى الوجهة المستقيمة ، وعلى من فهم الاشارة أن يتجه إلى قرارة نفسه فيحقق لها كيانها الذاتي (Selfhood) الذي لا وجود لها بغيره . ومذهب الباحث على هذا الاعتبار هو ديانته الخاصة التي يستوحيها من بداهته ويظل دائباً على استيحائها طول حياته ، فهو ما عاش طالب هداية يترقى فيها من طور إلى طور ومن طبقة إلى طبقة ، ولا بد له من الوصول إلى هداه الجدير بسعيه متى توفر على هذا السعي صادق الرغبة في محاولاته صابراً على تكرار المحاولة كلما قصرت به عن الغاية ، وخليق بكل من عرف حدود العلم وعرف ذاته في قرارها أن يلهم حقيقة الايمان بالله ويبصر من حوله رموز هذا الايمان وإشاراته في كل ظاهرة وخفية من ظواهر الوجود وخفاياه .

والفرق بين معرفة العلم ومعرفة الهداية الدينية أن معرفة العلم مستقلة عن شخص العالم قد يأخذها من غيره ويحملها إلى غيره ويتساوى فيها الآخذون والمانحون ، وأما معرفة الهداية الدينية فهي جزء من حقيقة الانسان لا تنفصل عنه ولا تخلو من مقوماته الشخصية فلا تكفي فيها المعلومات والبراهين ولا تغني هذه المعلومات والبراهين عن معونة من بديهة الإنسان . إذ ان هذه البديهة جزء من الحقيقة التي يتم بها الايمان ، وليست الحقيقة كلها خارجية عالمية يتلقاها كاملة من غيره ، سواء كان غيره إنساناً حياً أو مظهراً من مظاهر الكون بما حواه .

ونقص البراهين العقلية التي يستدل بها الفلاسفة على وجود الله أن البرهان قوة ترغم العقل على التصديق ، ولا يأتي الايمان بارغام بل بطلب وشوق

واجتهاد في التحصيل ، فان لم تشعر النفس بمكان الايمان منها فلا محل للبرهان فيها . وان شعرت بهذا المكان فالبرهان متمم لشيء موجود يعاونه ويزيد عليه .

قال في كتابه مجال الفلسفة الدائم[1] عند الكلام على مقومات العقيدة الفلسفية :

« ويمكن تقرير العقيدة الفلسفية في هذه الدعائم التالية :

أن الله موجود

وأن هناك أوامر مطلقة (absolute imperative)

وأن العالم طريق عارض بين الله والوجود .

فما يعلو على وجود العالم أو يسبقه فاسمه الله . والفرق شاسع جداً بين النظر إلى الكون كأنه موجود بنفسه كوجود الله ، وبين النظر إليه كأنه موجود غير مستقل بوجوده ، وإنما تفسير قوامه وتفسير قوامي يرجعان إلى شيء خارج عنه .

« ولدينا براهين وجود الله قد أجمع المفكرون الأمناء منذ (أيام كانت) على أنها مستحيلة إن كان الغرض منها افحام العقل كما تفحمه بالبراهين التي تثبت دوران الأرض أو وجوه القمر ، ولكن براهين وجود الله لا تفقد صحتها وإن فقدت قوتها على الاقناع ، فهي مدد العقيدة من جانب الأقيسة العقلية ، وهي بصدقها وخلوصها تبده المفكر في تجاربه كأنها من أعمق الوقائع التي تمر به في حياته ، ومتى مثلت للذهن وظلت ماثلة له تيسر للمفكر تكرار التجربة مرة بعد أخرى ، ومزية الخواطر التي من هذا القبيل أنها تنشىء في الانسان طوراً بعد طور وتفتح عينيه وتزيد على ذلك أنها تصبح جزءاً منا بما توسع من شعورنا بالوجود وتعمق من معالمنا الشخصية .

« وهذه البراهين تبدأ من شيء يمكن أن يوجد ويختبر في هذا العالم ، كي نتأدى منه إلى هذه النتيجة : إن كان هذا فالله موجود . وبذلك نبرز خفايا الكون ونتيقظ لها ونتكىء عليها كأنها مرساة العبور إلى الله ، أو نحن بعبارة أخرى نعالج الأقيسة العقلية التي يكون فيها الفكر بمثابة الانتباه لكياننا ومقدمة للانتباه إلى وجود الله » .

ثم قال عن الأوامر المطلقة إنها تدرك بمعرفة القصد منها أو بالطاعة العمياء

---

(١) Perennial scope of Philosophy.

« وينبوعها في نفسي ، بما أنها مساك كياني ، وليس وجود الكائن الأبدي المطلق مسألة علم بل مسألة يقين ، فان العلم المحدود لا يمتد وراء الحدود .

ثم فسر معنى العقيدة الفلسفية التي تدلنا على أن العالم في طريق عارض بين الله والوجود ، فقال إن إدراكنا للعالم يتوقف على طرفين : أحدهما العارف والآخر المعروف ، وليس أدل من ذلك على أن العالم ليس كياناً قائماً بذاته وليس هو بالكيان كله ، وأن العلم بحقيقته ليس من المعارف التجريبية بل من المعارف التي نترقى إليها بتجاوزه واستجلاء ما فوقه أو ما يليه .

يريد أن العقل العارف نفسه لا يحتوي المعرفة كلها لأنه طرف طرفين ، وكذلك العالم الذي تدركه العقول .

ثم وازن بين دعائم الايمان ودعائم الانكار ، فلخص دعائم الانكار فيما يلي :

(أولا) لا إله . إذ لا وجود لغير العالم وقوانين الطبيعة ، والعالم هو الله .

و (ثانيا) لا أوامر مطلقة . فان الأوامر التي اتبعها تنشأ بحكم العادة والتجربة والتقليد

و (ثالثاً) ان العالم هو كل شيء وهو الحقيقة الوحيدة والصادقة وكل شيء فيه متغير نعم ولكن العالم نفسه دائم مطلق غير معلق على سواه .

ولا تبنى على هذه الدعائم معرفة ، ولا يصح التعلل بسلب المعرفة للروغان من كل جواب ، وإزاء هذه المعرفة الممتنعة أو المسلوبة تأتي العقيدة فتستولي عليّ إلى الحد الذي يتيح لي أن أعيش بها ، وترفعني إلى الحضور الالهي بقوتها

ولا يقوم الايمان في فلسفة جاسبر على إله منعزل عن الخلق ، فان الاله بغير خلق فكرة مجردة يختفي فيها كل شيء ، ولا يقوم على إله نعبده لنلجأ إليه بصلواتنا ، فاننا بهذا نعبد أنفسنا ونجعلها محوراً لوجود الله وسائر الموجودات ، ولا يقوم الايمان على ادعاء اليقين بمقاصد الله ومشيئته في خلقه ، فان شرور التعصب كافة قد نجمت من هذا الادعاء ، وإنما يقوم الايمان على استخلاص « الذات » من الشوائب التي تحجبها ثم باتجاهها صافية إلى الله بغير حجاب ، وفي هذا الاتصال الذي لا نهاية له حقيقة كل إيمان .

***

وفي فرنســا تذيع الوجـودية ـ عقيدة وسلـوكاً من طرفي الايمـان والانـكار ـ قصاراها من الذيوع .

إلا أن الوجودية المؤمنة تنفرد في فرنسا بظاهرة خاصة لا تشاهد في غيرهـا ، وهي التحول من الالحاد إلى التدين بمذهب الكنيسة أو بالتوفيق بين هذا المذهب وبين التعبيرات الفلسفية التي يستعان فيها بالرمز والتمثيل .

وعلى هذا المثال تحول الفلاسفة الوجوديون المتدينون جاك ماريتان(Marit ـ ain ـ) وجبرييل مارسل (Marcel) ولويس لافيل (Lavelle) وغيرهم ممن لم يبلغوا مبلغهم من المكانة والصيت .

وقد ألحد ماريتان ثم تتلمذ للفيلسوف برجسون فانتقل من الالحاد إلى الايمان بالقوة الخالقة. ، ثم شك في القوة الخالقة التي لا تني تتغير لأنها ناقصة بذاتها محتاجة إلى قوة دائمة تحيط بهذه الغير ولا تتغير معها ، ثم أعلن انتماءه إلى الكنيسة مع إيمانه بأن إرادة الله تظهر من استقراء حوادث التاريخ كما تظهر من فهم وحيه وتنزيله على ضوء الرمز والتمثيل .

ويلجأ مارسل إلى العقيدة على أنها تكملة المجهود العقلي وليست بديلا منه ولا نظيراً يناظره ويتغلب عليه ، فاذا اجتهد العقل غاية اجتهاده بقي العمل الذي تتـولاه العقيدة وتخف إليه كما يخف المنجـد إلى صديق قصر به المطــاف دون النهاية ، وآفة الآفات التي تساور النفس اليائسة في زماننا أنها تعامل الانسان معاملة موضوع يفهم ويستفاد منه (Object) ولا تعامله كأنه ذات (Su ـ bject ـ) تعاون ذاته وتمدها وتوسع معها نطاق المحسوسات والمعلومات .

والأستاذ لافيل يقسم الوجود الى درجات على حسـب ما فيه من العـدم . فالوجود المحض الذي لا يقاربه العدم (Nothingness) هو الله ، ووسيلتنا إلى العلم به وإدراكه هي نفس تبرأ من شوائب العدم وتمتلىء بالكيان الصادق ، والفرق بين الوجود المحض والوجود الذي يقاربه العدم أن الوجود الأول فعل محض والوجود الثاني فعل وقابلية . أو قدرة حاصلة وقدرة موجودة بالقوة دون الفعل ، وليس المقصود بالفعل ما تفعله الأيدي والأعضاء وحسـب ، بل من الفعل عند لافيل أن يتم الوعي والشعور ، ومن كان وجوده وجوداً صادقاً كان أوفى وعياً وأكمل إدراكاً لما يدخـل في وعيه ، فهـو أقـرب الموجـودات إلى الله

وأبعدها من العدم .

فالوجود يتراوح بين العدم والله ، ووجود المادة التي لا تعي هو أقرب درجات الوجود إلى العدم ، ووجود الوعي الواسع المحيط بما حوله هو أقربها إلى الله . وعلى الانسان أن يصبح وجوداً محضاً في وعيه خالصاً غاية الخلوص من أوهاق الجثمان ، فهو إذن على اتصال بالحضرة الالهية ، وهو إذن فعل لا يشتمل على قوة معطلة من قوى الموت والفناء .

* * *

وفي سويسرة مدرسة وجودية تشبه المدرسة الفرنسية في بعض ملامحها وتخالفها في ملامح أخرى .

فمن وجوه الشبه بين الوجودية السويسرية والوجودية الفرنسية أن فلاسفة سويسرة الوجوديين يدينون بمذهب الكنيسة ، ومن وجوه الاختلاف بين المدرستين أن هؤلاء الفلاسفة لم يبدأوا بالالحاد ومعظمهم نشأوا على خدمة الدين على مذهب الكنيسة الانجيلية .

وأشهر هؤلاء الفلاسفة كارل بارث (Barth) واميل برونر (Brunner) ورينولد نيبهر (Niebuhr) وهو جرماني الأصل امريكي النشأة .

أما كارل بارث فلولا أنه ولد في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٦) اجاز أن يقال إنه من مواليد القرون الوسطى ، لأنه يرد كل شيء في الدين إلى النصوص ويحسب الدين كله قائماً على « كلمة الله » كما جاءت في تلك النصوص لا على اعتقاد الانسان أو تفكيره ، فليس المهم هو ما يعتقده الانسان في الله بل المهم هو ما يعتقده الله في الانسان ، وهذا الاعتقاد الالهي هو الذي يترجمه الواعظ والمبشر مستلهماً فيه هداية الله ، لينقذ الانسان بالعون الالهي من وصمة وجوده ووصمة الخطيئة .

أما اميل برونر فهو أقرب إلى القرن العشرين من صاحبه ، وتقوم بشارته على طبيعة الانسان وأنها إلهية في بعض خصائصها فهي لا تتلقى الوحي الالهي كأنه رسالة أجنبية ، وأن علامة النفحة الالهية في الانسان هي الحب ، فاذا عرف بعضهم الانسان بأنه حيوان ناطق وعرفه بعضهم بأنه مدني بالطبع وعرفه غيرهم

بأنه حيوان يستخدم الآلة فتعريفه الأتم كما ينبغي أن يكون لا كما هو كائن على الدوام أنه حيوان محبة يستطيع أن يعيش بالمحبة مع الله .

أما نيبهر فهو يريد أن يعرف الانسان بما يعبده لا بما يأكله كما يعرفه الماديون ولا بما يقبضه من الأجر كما يعرفه الماركسيون ، وما دام الانسان العصري يخلط بين معنى العقل (Reason) ومعنى الروح (Spirit) ويحسبها ملكة واحدة في النفس البشرية فهو في ضلال عن حقيقته ، وقد يلتفت قليلا إلى الفارق بين التقدم العلمي والتدهور الروحاني في العصر الحاضر ليفهم أن العقل والروح لا يترادفان في المعنى والعمل ، وسيظل الناس في حرمان من السلام ما داموا في طلب السطوة معرضين عن طلب المحبة ، وإنما تأتي المحبة من طريق الروح لا من طريق العقل والمادة .

وهؤلاء الوجوديون الذين ينتمون إلى هذه المدرسة ـ وإن لم يكونوا كلهم من سويسرة ـ أدنى إلى مدارس اللاهوت منهم إلى مدارس الفلسفة . ولكنهم يحرصون على « التبشير الفردي » ويعلن بعضهم أن كل فرد من المتدينين مفتقر إلى بشارة خاصة لهداية ضميره ، ولعل هذا هو الفارق بينهم وبين اللاهوتيين الرسميين . ولعل الأمان في سويسرة حرمهم نعمة القلق وما يفتحه من أبواب الضمير .

ومن تحصيل الحاصل ان يقال ان الفلسفة الوجودية عامة في هذا العصر لا تنحصر في أمة ولا تخلو منها أمة ، لأن ثورة الضمير الفردي على طغيان الجماعة ظاهرة عامة بين جميع الأمم الأوروبية ، وكل ما هنالك من الاختلاف بين أمة وأمة في هذه الظاهرة هو مقدار حاجتها إلى المناداة بمبدأ الحرية الفردية ، ففي انجلترا مثلا توجد الفلسفة الوجودية بغير اسمها وعنوانها ، لأن مبدأ الحرية الفردية مفروغ منه من حيث المبدأ والفكرة ، ولأنهم ـ في انجلترا ـ قلما يتجمعون باسم مدرسة فكرية ، وقلما تعرف المذاهب الفلسفية عندهم بغير أسماء أصحابها كمذهب هيوم ومذهب بركلي ومذهب داروين ، وإن حدث أحياناً في المذاهب المشتركة بين فلاسفة انجلترا وفلاسفة القارة ان تعرف بعنوان جامع كمذهب النفعيين ومذهب التطور ومذهب المنطق الوضعي في العصر الحاضر .

ولكن السمة التي تمتاز بها الوجودية المتدينة هي الايمان المستقل الذي يتحرر به ضمير الفرد من سلطان الشعائر المرسومة ، ويغلب ان تقترن به سمة أخرى تلحظ في كل نزعة وجودية ، وهي عمل المحنة النفسية في صهر الضمير واستخلاصه للايمان ، وبهذه الخصلة في الوجودية أصبح القرن العشرون موسما للوجودية المتدينة بين مذاهب المتدينين على التعميم ، لأنه العصر الذي امتحن الضمير المستقل أشد امتحان وأقساه ، فحيثما وجد ضمير صامد لمحنة الألم ومحنة الطغيان والتقليد فهو من زمرة الوجوديين وان لم يصاحبه هذا العنوان .

العقيدة الأخلاقية

تنوعت بحوث العلوم في القرن العشرين ، وتعددت مراجع البحث في كل علم منها ، وأولها - بل أخصها علم الأخلاق - فان العلوم المختصة به في جملته أو في بعض فروعه لا تقل عن ستة علوم ، بعد أن كان الكلام في الأخلاق كلها قائماً على نصيحة من هنا وحكمة من هناك ، أو على عبرة في قصة من القصص تحسب من حنكة السن وخبرة الأحداث .

فمن العلوم المختصة ببحث الأخلاق علم الحياة أو البيولوجية ، لأنه يدرس الناسلات (Genes) وعملها في وراثة الغرائز والأخلاق ، ويرتبط بركن من أهم أركان الخلائق الانسانية : وهو ركن المسؤولية كما يرتبط بتحديد الفوارق بين الاستعداد للخلق وبين الخلق نفسه . فيكون الولد وارثاً لأبيه حقاً ثم يخالفه في أعماله من جراء تلك الوراثة . لأنه ورث الاستعداد لبعض الأعمال ولم يرث العمل نفسه ، وقد يظهر الاستعداد للشجاعة في الحرب كما يظهر في حملة أدبية لمكافحة الحروب على الرغم من غلبة الآراء واندفاع الجمهرة من الناس في هذا الاتجاه .

ومن العلوم المختصة ببحث الأخلاق علم وصف الانسان ، أو الأنثروبولوجي (Anthropology) لأنه يدرس العرف والعادة في جميع الأمم ويتتبع ضروب العرف والعادة إلى مناشئها الأولى في القبائل الهمجية ، ويقارن بينها وبين أسبابها كما يقارن بين العوامل الإقليمية والاجتماعية وآثارها في التشابه أو التباعد بين قواعد الأخلاق .

ومن تلك العلوم علم النفس والطبيعة النفسية ، ومن علمائه من يرى انه وقف على أساس الأخلاق كلها ومن يرد الأخلاق إلى الوعي الباطن ويرد الوعي الباطن إلى منازعات الغريزة الجنسية والسيطرة الأبوية ، ومنهم من يردها إلى روح الجماعة وطبيعة حب البقاء في النوع كله ، ويفسر كل فضيلة في الفرد بما لها من الأثر في بقاء النوع وتغليب مصالح الجماعات الباقية على مطامع الآحاد .

ومن تلك العلوم علم الحيوان أو الزولوجية ، لأنه يبحث الصفات العليا في الانسان وما يقابلها من الصفات الفطرية في أنواع الأحياء ، ويستخلص من المقابلة بينها شواهد الوحدة أو التباين في نشأة الأخلاق المكتسبة والأخلاق العريقة في الطباع .

ومن تلك العلوم علم السلالات البشرية أو الاثنولوجية (Ethnology) لأنه يرقب أصول الأخلاق في النوع الانساني بجميع سلالاته وأجناسه ، ثم يميز بين الأجناس بمزاياها التي اختص بها كل جنس منها ، ويضع المقاييس للحسن والقبيح من الآداب والعادات في كل سلالة بشرية ، ويحاول أن يردها إلى مقياس واحد ، او يعلل اختلاف المقاييس بالعلل المحلية والتاريخية .

ومن تلك العلوم كل علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد مجتمعات أو متفرقات ، ومن أصحاب هذه البحوث من يقرر أن أخلاق الفرد والجماعة كافة تنعكس من أحوال الاقتصاد ووسائل الانتاج ، ومنهم من يفرق بين مقاييس السياسة ومقاييس الأخلاق ، ويجيز بمقياس منها ما لا يجوز بمقياس آخر .

وهذه العلوم غير العلم المستقل بدراسة الأخلاق وهو الأثولوجية (Etho-logy) وعنده تلتقي هذه العلوم والبحوث جميعاً وتنتظم في ميدان واحد ، ثم تتقبل في كل يوم مدداً من سائر العلوم ، و إن بعدت الشقة بين موضوعاتها وهذا الموضوع .

ونضرب المثل لهذه الأمداد الغريبة بمسألة حرية الارادة وقوانين المادة التي سبقت الاشارة إليها ، فان علم الطبيعة لم يكن من العلوم التي تقرر الآراء في أصول الأخلاق قبل الكلام في الذرة والقوانين الحتمية على أجزاء المادة في جميع حركاتها ، فلما كشف علماء الطبيعة عن مواطن الخلل في تجارب هذه القوانين تفتحت الأبواب للكلام عن حرية الارادة ونصيب الانسان منها ، إذ كانت حركات المادة تتسع على هذا الاعتبار - في نظر بعض الباحثين على الأقل - لشيء من التصرف بسند إلى العقل والضمير .

وقد تكلم الكيميون عن قوانين الألفة بين العناصر ورجا بعضهم أن تطبق يوماً على عوامل الألفة النفسية ، ولكنه رجاء مرهون بالمستقبل لم يظهر منه بعد مذهب واضح في بحوث الأخلاق الا أن هذا لم يمنع أن يكون بين الكيميين من يضع للأخلاق قاعدة واحدة تسري على القوى النفسية كما تسري على القوى المادية ، وفي طليعة هؤلاء ولهلم أوستوالد (Wilhelm Ostwald) صاحب القاعدة التي يعارض بها قاعدة « كانت » التي اشتهرت باسم الأمر المطلق (Categorical Imperative) ومؤداها أن يتوخى الانسان في عمله أن يصلح قانوناً عاماً يستقيم عليه أمر الناس أجمعين .

أما القاعدة التي وضعها اوستوالد مقابلا بها قاعدة كانت فهي ان يتجنب الانسان دائماً تبديد الطاقة ، فشعاره في الأخلاق الفاضلة : « لا تبدد الطاقة » (Do not waste energy) وهو شعار جامع لأسباب الفضائل كما يرى الكيمي الكبير ، وإذا ظهر لأول وهلة ان الانسان يبدد طاقته في الرياضة مثلا فهو في الواقع يجمع الطاقة بهذا التبديد الظاهر ، وهكذا يحدث عندما ينفق طاقته في الاشفاق والحزن على مصائب الناس ، فان هذا الانفاق سبيل الادخار أو سبيل الحماية والعزاء .

وغني عن القول ان هذه العلوم قد شعبت دراسات الأخلاق غاية التشعيب ، إلا أنها لم تخرج بها عن محورها ، أو على الأصح عن محوريها اللذين تدور عليهما ، منذ القدم وهما أصول الأخلاق ومقاييس الأخلاق .

فما هي الأصول التي يرجع إليها في تعليل الأخلاق الانسانية ؟ وما هي المقاييس التي نستند إليها حين نفضل خلقاً على خلق وحين نثني على بعضها ونقدح في البعض الآخر ؟ وإذا اختلفت مذاهب الناس في التفضيل فهل هناك مقياس محيط بجميع المقاييس يرجع إليه بين المختلفين ؟

هذان هما المحوران اللذان ينتهي إليهما مدار البحث في هذه العلوم جميعا ، ولم ينته الباحثون فيهما إلى مقطع الرأي الأخير .

فالطبيعيون الذين يعللون كل شيء بما في الطبيعة يرجحون القول بأن الأخلاق جميعاً إنما هي حيطة فطرية لوقاية النوع الانساني ، وأن الفرد ينسى نفسه بحكم الغريزة النوعية أو الاجتماعية حين يتخلق بالخلق الذي لا مصلحة له فيه ، وقد يكون فيه تفويت بعض المصالح عليه ، وتنقسم الأخلاق عند اصحاب هذا التعليل اقساما كثيرة على حسب الغاية منها ، فما ينفع الناس

جميعاً في جميع الأزمان افضل مما ينفعهم في زمن واحد ، وأفضل مما ينفع قبيلا من الناس في الزمن الطويل ويعود بالضرر على غير ذلك القبيل .

والمقياس العام الذي يختاره جمهرة النشوئيين في العصر الحاضر هو مقياس الدكتور وادنجتون (Waddington) المحاضر في علم الحيوان بجامعة كمبردج . وقد بدا له من بحوثه في علم الحيوان (Zoology) وبحوثه في علم الحياة أن الحي يتطور وأن الأطوار المتقدمة هي « التصفية » التي بلغتها عوامل البقاء والتقدم ، فمن نتائج التطور ينبغي أن نستخرج الهداية إلى أقوم الطرق وأفضل الأخلاق ، وكل ما تحقق به الخير الأعظم على هدى هذه السنة فهو المقياس الأخير الذي ترجع إليه جميع المقاييس .

وقد أقنع هذا المقياس الجمهرة الغالبة من النشوئيين ولم يقنعهم جميعاً ولعله لم يقنع أحداً من معارضيه وهم كثيرون بين فلاسفة ما بعد الطبيعة على التخصيص .

ومن هؤلاء الفلاسفة من يرفض القول بالتطور أصلا لأن الكون قديم بجميع عناصره ومواده فلا محل فيه لشيء جديد ، ولا يعقل أن تكون الحياة قد وجدت فيه بعد انعدامها إلا على اعتبار واحد : وهو الايمان بأنها من صنع إله يحدثها في الكون ويرتب لها موعدها من الزمان .

ومنهم من ينكر المقياس الذي اختاره وادنجتون وأصحابه النشوئيون ، لأن قياس الشيء بنفسه لا ينتهي إلى طائل ، وقياس التطور بالتطور لا يدل على شيء ، ومن قال ان التطور خير بدليل ما وصل إليه التطور فكأنما يقول ان هذا الجسم مثلا خمسة أضعاف خمسه وعشرة اضعاف عشره ، فلا نتيجة لأمثال هذا القياس .

وقد ناقش هذا المقياس فلاسفة لا ينكرون مذهب النشوء والتطور ولكنهم ينكرون الاعتماد عليه وحده في تفسير القيم الإنسانية ومن هؤلاء الأستاذ جود رئيس شعبة الفلسفة وعلم النفس بكلية بيركبك (Birkbeck) فرد عليه الدكتور وادنجتون رداً لم يخل من المغالطة حيث قال : إننا نقيس أبعاد الكون بجزء من الكون فلا بدع في قياس الأخلاق المتطورة بمقياس من التطور ، ووجه المغالطة في هذا الرد أن المقياس الذي نقيس به أجزاء الكون بمقياس محدود متفق عليه ، ولكن المقياس الأخلاقي هنا غير محدود في زمن من الأزمان .

وقد جمعت مناقشات وادنجتون ومعارضيه في كتاب عنوانه العلم والأخلاق (Science and Ethics) اشترك فيه نحو عشرين باحثاً بين عالم وفيلسوف ولاهوتي وأديب ، ولم يزد عدد المقرين لآراء وادنجتون في هذه المجموعة على اثنين ، احدهما جوليان هكسلي زميل وادنجتون في دراسات علم الحيوان وعلم الحياة .

والغريب في اتجاه هكسلي ووادنجتون أنهما عالمان من علماء الحيوان ولكنهما يبنيان آراءهما على مدرسة التحليل النفساني ويدخلان هذه المدرسة بزاد غزير من دراسة الغرائز في الحيوان ومن المقابلة بين الطفولة الحيوانية والطفولة الانسانية في دور الاعتماد على الأبوين . ويقول هكسلي أن الوازع الأكبر في الديانات وقوانين الأخلاق إنما هو الأم مكبرة متعالية نامية في مخيلة الطفل مع نموه في الحياة العقلية والاجتماعية ، ولا يستبعد قول القائلين إن الأخلاق الاجتماعية مستمدة في نشأتها الأولى من روح القبيل أو ما يسمونه بالنفس القبيلية (Trib-al Self) ولكنه يستند إلى دراساته للغرائز فيخطئهم في اعتبار الغرائز عادات موروثة وفي القول بأن الضمير غريزة من الغرائز ، ويقول إن مذهبهم يرجع بكل شيء إلى القبيل ولا يدع محلا للفضيلة الفردية ، وقد جمع هكسلي مساجلاته في هذه المباحث وضمها إلى ردوده على جده توماس هكسلي الكبير ونشرها بعنوان التطور والأخلاق بين سنتي ١٨٩٣ و ١٩٤٣
(Evolution and Ethics 1893-1943)

وليس جوليان هكسلي بالعالم الوحيد الذي ينكر اعتبار الضمير غريزة من الغرائز الحيوانية ، ولكنه في العصر الحاضر أشهر المنكرين لذلك استناداً إلى تجارب علم الحيوان وعلم الحياة ، وهو في كليهما من الثقات المعدودين . أما الباحثون الفلسفيون والأدبيون الذين يرفضون اعتبار الضمير من الغرائز الموروثة فهم الكثرة الراجحة في العصر الحاضر ، وحجتهم الغالبة هي أن الانسان يصاب في ضميره فترجع به النكسة إلى غرائزه الأولى ، وأن المفاضلة بين إنسان ذي ضمير وإنسان خلو من الضمير هي مفاضلة في الأوج لا في القرار ، أي أنها لا ترجع بنا إلى الأغوار السحيقة في الماضي بل تتقدم بنا أحياناً إلى المستقبل البعيد ، فيكون الرجل صاحب الضمير سابقاً لزمانه بمرحلة واسعة ، ومن شاء من فلاسفة العصر أن يستند إلى العلم في تعليل ضمير الانسان زعم أن كبار المصلحين والقادة الدينيين أشبه بالفلتات التي تفسر التحول الفجائي (Mutation) في عالم النبات ، فقد يتغير النبات قليلا

ثم تظهر فيه فجأة فلتات غير منظورة (Sports) تترقى به طفرة ولا يقاس عليها في جميع الأحوال ، وكذلك المصلحون والقادة الدينيون الذين ترتفع ضمائرهم إلى الذروة العليا بين اقوامهم وأبناء عصورهم ، فانهم طفرة في سبيل التقدم وليسوا بالرجعة إلى الغرائز المتروكة منذ زمن سحيق ، وكثيراً ما يكون التقدم هنا ناشئاً عن ترك أثر قديم واكتساب مزية جديدة ، فهو ارتفاع في الأوج وليس بالغوص في القرار .

***

ومن نظرة سريعة يتبين لنا أن اشتراك العلوم الكثيرة في دراسة الأخلاق كان لها أثران متعارضان : أحدهما إلى التعسير والآخر إلى التيسير .

تفتحت الأبواب وتشعبت المسالك فازدادت مصاعب السير فيها وتقاطعت مداخلها ومخارجها فتعسر الوصول إلى غاياتها .

لكن هذا التشعب قد كان له أثر ميسر يعين الباحث على التمييز والتبسيط شعبة شعبة من مراحل الطريق . فقد تشعبت المتشابهات فظهرت الفروق التي بينها وتيسرت التفرقة بين أشتات من المسائل كانت ملتبسة متشابكة إلى زمن قريب .

أصبح الباحث الأخلاقي يميز بين الوان مختلفة من الواجبات والمحرمات ومن الاوامر والنواهي ، واتضحت أمامه إلى اليوم مناهج ثلاثة يستطيع أن يلمس حدودها في مواقعها البارزة ومراميها القريبة على الأقل ، إن لم يلمسها في كل موقع وفي كل مرمى .

فلا التباس اليوم بين وازع الأخلاق ووازع القانون ووازع العقيدة الدينية ، وليس اتفاقها في الاباحة والتحريم أحياناً بالذي يمنع الباحث أن يعرف لها صيغتها ويميز طبيعتها ، فلا يخلط بين أوامر القانون وأوامر الأخلاق وأوامر الدين .

والغالب على الأوامر القانونية أنها إرادية تكتفي بتحقيق السلامة ، ولا تذهب وراء الأسلم الألزم إلى شوط بعيد .

والغالب على الأوامر الأخلاقية أنها لدنية تعمل فيها الارادة شيئاً ولكنها لا تعمل كل شيء ، بل يتولى الشعور أهم البواعث في اعمال الأخلاق ، ويشاهد

فيها كثيراً نزوع إلى ما وراء السلامة واللزوم ، وتفضيل للأجمل الأمثل من الأمور . فصاحب الوازع الأخلاقي لا يقنع بفروض القانون ولا يزال متطلعاً إلى درجة أعلى من درجات القانعين باجتناب العقاب والتزام أدنى الحدود .

أما الغالب على الأوامر الدينية أو على آداب العقيدة فهو الشمول الذي يحيط بالإرادة والشعور والظاهر والباطن ، ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه ، ولا يقنع بالسلامة والجمال إلا أن تكون معهما الثقة التي لا تتزعزع في صميم الحياة ، بل في صميم الوجود .

ومن السهل أن يقال إن حاسة القانون تتولد في الانسان لأنه عضو في مجتمع ، وإن حاسة الأخلاق تتولد فيه لأنه فرد من أفراد النوع الانساني كله ، ولكن ليس من السهل أن يقال إن الانسان يهتم بمصيره في الكون لأنه عضو في المجتمع او فرد من أفراد النوع .

فنحن قد نفسر احترام القانون بانتماء الانسان إلى مجتمع ، وقد نفسر احترامه للأخلاق الحسنة بانتمائه إلى الانسانية ، ولكننا لا نفسر التدين بهذا ولا بذاك . وإنما يتدين الانسان لأنه يهتم بمصيره ومعنى وجوده ويطلب له قراراً أوسع جداً من علاقاته الانسانية أو علاقاته بالمجتمع ، ويجب أن يطلب عقيدة تحتويه ولا يكتفي بعقيدة يحتويها ويريدها كما يشاء .

ولهذا وجدت العقائد التي لا تبالي بقاء النوع الانساني كله ، والتي يقطع المعتقدون بها حبل النسل طواعية واختياراً ليخلصوا بأرواحهم إلى مصدر الوجود وقبلة كل موجود .

ولهذا هان على الأمم أن تخوض أهوال الحروب وأن يحكم بعضها على بعض بالفناء في سبيل العقيدة ، لأن سلامة النوع الانساني كله لا معنى لها عند المعتقد إن لم يكن للوجود معنى أكبر من حياة الانسان وجميع بني الانسان .

ولم يحدث أن حاسة الأخلاق حفزت الأمم إلى الجهاد كما تحفزها الحاسة الدينية ، فلا تناقض ولا غرابة في تعليل نشوء الأخلاق بغريزة حب البقاء في نوع الانسان ، ولكن التناقض كبير في تعليل التدين بهذه العلة ، ولا سيما التدين كما ارتقى إليه الانسان بعد عصور الهمجية والجهالة الأولى .

طالب العقيدة يطلب معنى الوجود كله أو معنى الكون كله ، ولا يفسر له هذا المعنى انه متصل بأمة أو متصل بالأمم جمعاء .

ومحصل البحوث المتشعبة هو هذه التفرقة الواضحة بين حاسة القانون وحاسة الأخلاق وحاسة التدين ، وما من باحث جاد في بحثه يستطيع أن يفهم أن تتولد في الانسان حاسة قانونية لأنه جزء من وطن أو تتولد فيه حاسة اخلاقية لأنه جزء من نوع ثم لا تتولد فيه حاسة أقوى من هذه وتلك لأنه جزء من أصل الوجود كله لا تنقطع له صلة به كيف كان . وما من باحث جاد في بحثه يستطيع أن يفهم أن الانسان يوجد في الكون ويدركه ثم تكون غاية إدراكه له أنه لا يطمئن إليه ولا يخرج منه بمعنى غير العبث والضياع .

ومن التفرقة الواضحة بين بواعث القانون وبواعث الأخلاق وبواعث الدين نعلم أن طبيعة القانون وطبيعة الأخلاق لا تغنيان عن طبيعة الاعتقاد ، ولعل « العلوم الطبيعية » كما يسميها أبناء العصر صدقت أسماءها بظاهرة هامة في القرن العشرين ، وهي « أن العقيدة طبيعية » في الانسان ، وأن خلوه من

بعد مليون سنة

في مليون السنة المقبلة ـ هو عنوان كتاب (The Next Million years) ألفه السير شارل داروين العالم الطبيعي المشهور في العصر الحاضر .

وهو ـ بالبداهة ـ غير شارل داروين صاحِب مذهب التطـور ، فهـو حفيده وواحد من أسرة كبيرة كاد أفرادها جميعاً أن يشتهروا بالعلم والثقافة ويبلغوا في دراساتهم الخاصة مبلغ الامامة والرئاسة ، ومنذ أيام جدهم الأكبر أراسموس داروين الذي نشأ في اوائل القرن الثامن عشر لم تخل الأسرة من عالـم نابـه يتخصص في علم من العلوم الطبيعية أو الرياضية ، ويطرد هذا في أبناء العمومة من أسرة جالتون (Galton) كما يطرد في أسرة داروين .

وهذه ملاحظة نقدمها في التمهيد لكتاب « المليون سنة » لأنها ترتبط ببعض مقترحاته لا لمجرد التعريف بصاحب الكتاب ، وأهم هذه المقترحات أن يعمد المصلحون إلى الوسائل البيولوجية لترقية السلالة البشرية ، فلا نظن أن المؤلف يقترح هذا المقترح إلا وقد قام لديه دليل الحس من أسرته نفسها على امكان هذه الترقية البيولوجية وتطبيقها في الجماعات الكبيرة والآماد الطويلة .

يقرر داروين العصري أن الانسان سيحتفظ بالعقيدة الدينية في المليون السنة المقبلة قياساً على المعهود من تاريخه القديم والحديث ، وهو يتكلم عن العقيدة (Creed) كأنها صفحة من الصفحات في تاريخ الديانة تستغرق نحو مائتي سنة ، وتبقى الديانة العظمى مع تجدد العقائد فيها إلى أجلها المحتوم ، لا يقدح في هذا التعميم أن العقائد عرضة للمخالفة في كل زمن ، فتلك طبيعة

في بعض الناس أن يخرجوا من الصف ولا يطيقوا الصبر على نظام القطيع .

قال : « ولمحة أخرى من ملامح العقيدة يبدو أنها عامة في جميع العقائد ، فقد يوجد في كل عقيدة نحو تسعة أعشار القوم يدينون بها بغير تصرف كأنها قانون من قوانين الطبيعة ، وهم الذين يطلق عليهم اسم قطيع الضأن ! ولكن يوجد معهم قلة يطلق عليهم اسم المعز مولعون بالخلاف ويعارضون كل شيء يجمع عليه من حولهم .

« والمعز هؤلاء قلما يكونون من زمرة المحبوبين المقبولين ، ولكنهم في الغالب أعلى من المتوسط في الذكاء ، وربما كان إلحاح هؤلاء المعز هو الذي يستنزف عصارة الحيوية من العقائد بعدوى المجاورة ، وقد توجد في الحق نسبة بين عدد المخالفين وبين عمر عقيدة الضأن في الجماعة .

« وطبيعة البشر الثابتة تؤكد لنا أنهم سيظلون في تاريخهم المقبل منقادين لحماسة العقيدة على شكل من الأشكال ، وان الانسان سيضطهد غيره وسيبتلى بالاضطهاد من غيره مرة بعد مرة في سبيل خاطرة من الخواطر لا يلبث بعضها أن يصبح قليل الخطر أو غير مفهوم ولا معقول في جيل آخر .

« إلا أن العقائد لها خاصة أخرى أقوم وأجدر بالالتفات إليها ، وذاك أنها تكفل الدوام للخطط الاجتماعية زمناً أطول من الزمن الذي تتكفل به أية فكرة عقلية ، وفي التاريخ حالات عديدة تصدى فيها نخبة من الساسة المستنيرين لوضع سياسة يتوخون بها المصلحة العامة ويقفون حياتهم على إنجازها ، وما هو إلا أن ينقضي جيلهم حتى يعقبهم ساسة آخرون ينقضونها إيثاراً لطريقة غيرها من طرق المصلحة الانسانية ، فلا يطول أجل الخطة القائمة على العقل أكثر من جيل واحد . وهو أمد قصير جداً لا يكفي للتغلب على عقبات المصادفة ، فلو أن خطة من الخطط تسنى لها أن تمتزج بحماسة الايمان فأصبحت من العقائد المصدقة لقوي الأمل في بقائها نحو عشرة أجيال متعاقبة وهي برهة كافية للتغلب على طوارىء المصادفات ، وبهذه المثابة تشارك العقيدة خلية التناسل في خاصتها التي تحفظ أثرها في البنية الانسانية .

« فاذا كان تاريخ المستقبل لا ينطوي على تطور الي لبعض الوقائع التي لا سلطان عليها ولا يمكن تبديلها ـ وهو فرض لا يقره إلا القليل منا ـ ففي وسع من تتقرر عنده فكرة يناط بها التقدم الثابت لبني نوعه ان يقفو طريقاً من طرق ثلاثة : أولها وأضعفها برنامج سياسي مفهوم لا يلبث أن يموت معه ويذهب بغير

أثر ، وثانيها أن يبث في النفوس عقيدة ايمانية يرجى أن تدوم أجيالا وان تحدث معها تغييراً حقاً في اثناء بقائها ، وثالثها أن يعمل مباشرة على تغيير الطبيعة البشرية بوسائل الوراثة البيولوجية . وهي وسيلة اذا استطيعت أحدثت أثراً فعالاً ، ولكنها على فرض الاحاطة بكل اسرار الخلايا الناسلة ـ ونحن نجهلها ـ لا يتأتى حمل الناس على انفاذها ولو فترة قصيرة ، ولما كان الأمر يحتاج الى اجيال متطاولة كان الأرجح أن هذه الوسـ ـاة تعمل حتما قبل ظهور نتيجة من نتائجها النافعة .

« لهذا كانت العقائد على جانب عظيم من الأهمية بالنظر الى المستقبل ، لأن العقيدة تبعث الأمل فعلا في دوامها بعد صاحبها وفي سيطرة الانسان على مصيره بفضلها » .

* * *

وتطرق المؤلف من موضوع العقيدة إلى موضوع الفصائل الانسانة ، فاقترح استخدام الوسائل البيولوجية في تكوين فصائل من النوع الانساني كل فصيلة منها نافعة في مقصد من مقاصد النوع كله ، وكلها تنتقى وتختار لاستئصال بقايا الوحشية من خلائق الإنسان

وبعد كلام عن السعادة وعن موارد الطبيعة وكفايتها ، جمع اطراف البحث في خاتمة خلص منها إلى قوله :

« ومن الميسور عند النظر إلى المستقبل البعيد أن نشرع في اعمال غير التي تعودناها حتى الآن ، فان الأعمال التي يراد بها تحسين النوع قصرت إلى اليوم على تحسين أحواله دون طبيعته ، ولا تلبث الأحوال ان تتبدل حتى ينقضي كل شيء . والأمل الوحيد معقود بأن نستخدم معارفنا البيولوجية بحيث لا يضيع كل شيء كلما تبدلت الأحوال ، وهذه قواعد الوراثة حرية أن تقودنا إلى مرساة تثبت لنا كل كسب نبلغه في المزايا الانسانية » .

ولا ندري لماذا لم يعالج المؤلف إمكان استخدام الوسائل البيولوجية في تثبيت الاستعداد للعقيدة خاصة ، ما دام على هذه الثقة بفضل العقيدة في إطالة أمد الاصلاح واستبقاء نخوته في نفوس طلابه .

فمهما يكن من صفة العقيدة الاجتماعية فالواضح من علاماتها وأطوارها أنها قوة حيوية يتفاوت نصيب الأفراد منها على حسب المزاج والخلق والوراثة ، وان

كل مؤمن ففي طبيعته موضع للثقة يركن فيه إلى خاصة حيوية أقرب ما تكون إلى الخواص الموروثة ، وإن استفادت من التعليم والبيئة .

إن في هذه النفوس الآدمية طبائع مفطورة على الثقة والاقدام وطبائع مفطورة على التردد والاحجام ، ولا نكاد نرقب معرضاً من معارض الحياة اليومية ـ فضلا عن الحياة في معارضها الخالدة ـ إلا رأينا أمامنا علامات ماثلة لهاتين الطبيعتين .

فهذا رجل يدخل إلى محفل عام كأنه يدخل إلى بيته ويتحرك فيه حيث يشاء ، ويحسب أنه مهما يعمل فيه فهو عمل جائز له غير مراقب فيه ، وهذا رجل يدخل إلى المحفل نفسه كأنه مهدد بالطرد منه مترقب للنقد في كل خطوة من خطواته .

والكون كله شبيه بهذا المحفل إذا نظرنا إلى القادمين إليه بهذه النظرة . فمنهم من يواجهه بالثقة في ظواهره وخفاياه ، ومنهم من يواجهه بالتوجس والحذر كأنه طارىء عليه غير مستوف جواز القدوم إليه ! ومنهم من يثق بخفاياه دون ظواهره أو بظواهر دون خفاياه ، وإن جاءت العقائد بعد ذلك فانما تجيء لتترجم عن هذه الحالات وتضع صاحبها في موضعه من الكون كله ؛ موضعه من الكون كله أو من أرض بعينها أو زمن بعينه . ومن يسر هذه الطبائع فانما يسر أغوار الاستعداد للعقيدة ، وهو الاستعداد الذي يثبت في النفوس بالتخير والانتقاء ثم بالانتقال مع الخلائق الموروقة جيلا بعد جيل .

والمقصود بالوراثة هنا هو الاستعداد للعقيدة لا العقيدة في احكامها وفرائضها ، ولا نرى بين الطبائع الموروثة ما هو أثبت في علاماته وأطواره من طبيعة الاستعداد للعقيدة ، أو طبيعة الثقة التي تداخل النفس أمام هذا الوجود بجميع ظواهره وخفاياه .

على أن العلم الذي يمتد بالأمل مليون سنة لحقيق الا يضل سبيله إلى العقيدة التي تصحبه إلى ذلك الأمد البعيد !

تعقيب

بهذه الكلمة تنتهي هذه الرسالة عن « عقائد المفكرين في القرن العشرين » وقد توخينا فيها أن نجعلها « نموذجية » تمثل العقائد من وجهات النظر على اختلافها .

ويرى من الفصول المتقدمة أن علوم القرن العشرين لا تبطل العقيدة الدينية ، وأن للعلماء فيه موقفاً من العقيدة غير موقفهم في القرن السابق ، فليس لعالم من علمائه أن يجزم بالانكار والتعطيل مستنداً إلى حقائق العلم ونظرياته ، وقد وجد منهم كثيرون يستخرجون من علومهم أسباباً شتى للشك في الانكار والتعطيل .

وقد انقسم علماؤه المعتقدون إلى فئات ثلاث : فئة منهم تؤمن بما فوق المادة أو الطبيعة ، وفئة أخرى تلحق المادة نفسها بالمعاني المادية ، وفئة ثالثة تؤمن بالقيم الانسانية لأنها تعتبر العقيدة الدينية ترجمة لنوازع النوع الانساني التي يقتضيها تكوينه طبقاً للسلامة والبقاء .

وملاحظتنا نحن على عقائد القيم الإنسانية أنها تقف بصاحبها دون الغاية الوافية من العقيدة ، لأنها تتركه في الكون كله بغير سند يطمئن إليه ، ولا تجاوز به حدود نوعه ، وهو ـ أي النوع الانساني ـ ضائع كله في الكون ما لم يكن لوجوده معنى أصيل مرتبط بالوجود الشامل لجميع الموجودات .

وعقائد القيم الانسانية تقف دون الغاية حتى في المشاهدات المحسوسة التي لا خلاف عليها .

فكل علاقة بين الانسان وبين « محيطه » ماثلة في غريزة من غرائزه أو نزعة من نزعاته .

فروح الجماعة تربطه بالمجتمع أو الوطن .

وغرائز الجنس تقود روابطه الحيوية بنوعه .

واداب الأخلاق تقود روابطه أو معاملاته الانسانية .

وليس بالمفهوم أن تتأصل فيه هذه العلاقات ولا تتأصل فيه علاقاته بالكون كله في صورة من الصور .

إن علاقة الانسان بالكون أعرق وأوثق وأعمق من كل علاقة باقليمه أو بعشيرته أو بنوعه ، وليس بالمفهوم أن تترجم نوازعه عن علاقات العشيرة والاقليم والنوع ثم تخلو من ترجمة لعلاقته بالوجود كله ، فان لم تكن العقيدة الدينية هي ترجمة العلاقة الكونية فأين توجد هذه الترجمة ؟ ولماذا تتأصل في الانسان نوازع العلاقات بكل محيط ولا تتأصل فيه نوازع هذه العلاقة ؟

لهذا نرى أن عقائد القيم الانسانية تقف بالانسان دون الغاية سواء نظرنا إلى طبيعة العقيدة وما تتطلبه من القوة والشمول ، أو نظرنا إلى أطوار الانسان في علاقاته بما حوله .

نعم إن القيم الانسانية تؤسس في خلائق الانسان الايمان بالواجب ، وإن قيامه بواجبه يبعث فيه الثقة والطمأنينة والعزاء، وإنه متى عرف القيم الانسانية عرف الأحسن والأكمل وأعراض عن القبح والنقيصة . ومتى اهتدى إلى الواجب بين ما هو حسن وما هو قبيح صمد له وتبين طريقه في ظلمات المجهول .

ولكنه ولا ريب لا يكتفي بهذا الواجب لو علم بما هو أكثر منه وأكبر ، وإنه لا يستغني معه عن سند له وسند للنوع الانساني كله ، ولا يجد هذا السند في شيء كما يجده في عقيدة تشمل الكون وما فيه بل تشمل الكون وما وراءه وتحيط بالزمن بغير ابتداء ولا انتهاء ، وتلك عقيدة لا تملكها القيم الانسانية ولا تدعيها ، وإذا ملكتها فانما تملكها بالرمز والاشارة وترفعها باختيارها فوق القيم الانسانية جمعاء .

وهنا تعرض ا ا مشكلة الشر كرة أخرى ، وهي المشكلة التي قلنا إنها لا تخص

القرن العشرين ولا يزال لها شبح قائم في كل زمان ، ويكفي أنها في الأديان نفسها مجسمة في مثال الشيطان .

فما الذي يمنع المفكرين في هذا العصر أن يسلموا ضمائرهم إلى عقيدة دينية فيما فوق الطبيعة ؟

إن السؤال هنا ينصرف إلى الشاكين والمترددين ولا ينصرف إلى مفكري العصر الذين امنوا بما فوق الطبيعة إيمان المعرفة أو إيمان التسليم .

والشاكون المترددون يقولون إننا عاجزون عن التوفيق بين كمال الله وقدرته وبين الكون الذي تعتريه النقائص وتعيش فيه الشرور .

نقول : وهل هم قادرون على التوفيق بين كمال الله وقدرته وبين الكون الكامل والمخلوقات الكاملة والحالة السرمدية التي لا يوجد فيها ما يشكوه أحد أو ما يخالف مشيئته أحد ؟

هل الكون الذي يبعث فيهم العقيدة هو الكون الذي يرضى فيه كل مخلوق في كل حالة وفي كل حين ؟

إن تصور هذا الكون أصعب جداً من تصور الكون كما نعهده ونزاوله ، وما لم يكن في مذهبهم أن العقيدة مستحيلة أصلا فالعقيدة في الكون الذي نحن فيه اقرب من العقيدة في كون يفرضونه وهماً ولا يستطيعون أن يفرضوه متبينين متثبتين .

والذي يحيك في نفوسنا بازاء هذا الموقف أن المسألة مسألة زمن وتجربة ، وأن الزمن فاصل غداً في أمر الاعتقاد ونبذ الاعتقاد ، فاذا مضت الأيام بعد الأيام وثبت من التجربة بعد التجربة أن الخلو من العقيدة فقر في الشعور بالحياة والقدرة على العمل وشذوذ عن سواء الخلق فالعقيدة يومئذ فارضة لنفسها مفروضة في العقول لا محالة ، أو يعجز الانسان عن استلهام عقيدته فتلك آية الفناء وإفلاس الحياة والأحياء .

وقد رأينا في الفصل السابق عالماً من جلة علماء العصر يمد بصر العلم مليون سنة ولا يتخيل الانسان متروكاً لنفسه عاملا على صلاحه مائتي سنة ولاء من هذا الدهر الطويل ما لم يكن له اعتقاد وما لم تكن لاعتقاده نخوة وحماسة .

ونخال أن مائتي سنة كافية للفصل فى أزمة العقيدة الحاضرة ، بل نخال أن

القرن الحادي والعشرين قمين أن يتقدم بالضمير الانساني خطوة أوسع من خطوته بين القرن التاسع العشر والقرن العشرين . وإن علم النفس سيلاقي علم الذرة في الشقة الوسطى التي لا تزال حتى اليوم فاصلة بين المادية والروحانية ، ومن يعش ير عياناً ما نراه باعتقاد وتقدير .

ونختم الرسالة كما بدأناها مذكرين من يعوزه التذكير في هذا المقام :

إننا لم نكتبها لنبسط القول في معتقدات الغرب جميعاً فهذا شرح يطول ولا تستوعبه المكتبات بله الصفحات ، وإنما أردنا بهذه الرسالة بيان العقيدة كما تفرض نفسها على المفكر المجتهد في القرن العشرين خاصة ، فلا محل فيهما لشرح العقائد التي توارثها الأبناء عن الآباء ولا للكلام على الذين رفضوا كل اعتقاد ولا سند لهم من علوم القرن العشرين ، وحسبنا من محصول القول في هذا المقصد أن نصف قرن لم ينقض على المفكرين دون أن يطرقوا من أبواب العقيدة كل باب أدركوه بالبصيرة والتفكير .

كلمة على الغلاف

نعم هي كلمة على الغلاف ، ولكنها ليست بالغريبة عن موضوع الرسالة ولا عن الموضوع كله : وهو موضوع العقيدة وذوي الرأي فيها .

فمن المسائل التي يتفق عليها الأكثرون ، إن لم نقل إنها محل الاجماع ، أن المشكلة الكبرى في العصر الحاضر إنما هي مشكلة العقيدة ، وان أزمة الضمير الانساني في عصرنا هي الأزمة الشاملة التي تنتهي إليها جميع الأزمات ، ولولاها لهانت كل أزمة وجدانية تعترض حياة الانسان ، فرداً كان أو جماعة .

وما من أحد يستغرب الكتابة عن أزمة العصر كله ، فالغريب حقاً أن يسكت عن هذا الموضوع ولا يستوفي الكلام فيه من جميع نواحيه ، فاذا كان في الناس من يستغربه ويستنكر الكتابة فيه فالأمر واضح . . . إن هذا المستنكر واحد من اثنين : إما مسخر للعاملين في زماننا هذا على هدم جميع العقائد وتقويض كل دعامة قائمة من دعائم المجتمع الإنساني في كل بيئة ، وإما عاجز مستسلم للكسل والحسد ، يداري عجزه بالتطاول على كل عمل مفلح ، كائناً ما كان .

ولكنهم مع هذا يتركون السبب الواضح ويلغطون بالتهم والظنون ، وأول هذه التهم والظنون وآخرها أن الكاتبين في مسائل العقائد إنما يطرقون هذا الموضوع طلباً للربح وابتغاء الرواج عند الدهماء . . .

فيما يعنيني أنا يكفي أن أرد على هذا اللغط المسف بكلمتين : أولهما أنني أعاقد

الناشرين على طبع كتبي ، ولمن يشاء أن يطلع على عقود الاتفاق بيني وبين الناشرين ، فلا فرق فيها بين كتاب في الأدب وكتاب في المعتقدات . لا امتياز لعبقرية المسيح مثلا على دراسة في ابن الرومي أو في ابن رشد أو في باكون أو في أى غرض من الأغراض التي لا تدور على المعتقدات .

والكلمة الثانية أنني لو كتبت للربح لما طرقت هذه الموضوعات التي تكلفني الجهد والنفقة . فان نظرة واحدة إلى كتاب عبقرية المسيح مثلا ، أو إلى هذه الرسالة ، تدل العارفين على مراجعها ، وأنها لا يمكن أن تكتب قبل الرجوع الى مئات المصنفات ، نشتريها فتكلفنا ثمناً ثقيلا ، ونطالعها فتكلفنا جهدا مضنياً ، ونوازن بينها فترهقنا وتلجئنا إلى الاطلاع على مئات الصفحات قبل أن نخرج منها بصفحة واحدة . فما أغنانا عن كل هذا ؟

ما أغنانا عن إنفاق المال والصبر على المطالعة والمراجعة إن كان غاية ما نبغيه الكسب والرواج ؟

لقد كان أيسر من هذا جداً أن نضع القلم على الورق بغير مطالعة ولا مراجعة فنخط به قصة من قصص الشهوات التي تروج وتحسب عند الأغرار من فتوح الابداع والتجديد ، فان لم تكن تأليفاً فلتكن ترجمة ، ولتكن من قبيل الصور العارية التي تملأ المكتبات مخطوطة ومرسومة ، ولا تعب في ترجمتها ولا كلفة ولا صعوبة في البحث عنها ، ولا في توخية الناشرين عليها في مظانها ، كما نفعل في التوصية على غيرها ، من كتب الدراسة والتفكير .

كان ذلك أجدى علينا لو أردنا الربح والراحة ، وكان ذلك غنما لنا عند هذا « الواغش » البشري الذي لا يتورع عن خسة الافتراء بغير بينة ولا حياء .

لكن الرجل الذي قضى حياته يحارب الأضداد ولا يبالي خسارة تصيبه من هذه الحرب التي لا هوادة فيها ـ آمَن ما يكون شرفاً من تطاول المتطاولين وبهتان المفترين .

ولا والله ما في هذه المفتريات ما يوجب الرد عليه لو كان قصارى الأمر أن ندفع عنا ما يفترون .

ولكننا نميط الأذى عن الموضوع نفسه ، لكيلا يخطر على بال أحد أنه موضوع

تجارة وتمليق أهواء ، أو ابتغاء المرضاة من الدهماء ، وما من أحد يفهم ما يقول يزعم أن صاحب كتاب « الله » أو الفلسفة القرآنية او عبقرية المسيح ، أو هذه الرسالة في عقائد المفكرين ، يبتغي الدهماء بحرف واحد مما يكتب ، وليس شيء منه بالذي تصبر عليه طاقة الدهماء .

وفي هذا الكفاية ! . . وموعدنا كتب أخرى ، بعد كتب أخرى ، عن العقائد والمعتقدين إن شاء الله !

الفهرست

ابو الانبياء

حياة المسيح

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الفصل السادس

عقائد المنكرين